وزارة الثقافة
المجمع التونسي للعلوم والآداب و الفنون



طه حسين
في مرآة العصر

شهادات و دراسات بأقلام

ميشال تورنييه
مؤنس طه حسين
ريني إيتيامبل
أندره جيد
غاستون فييت
ليلى لوقا
ندى توميش
لوي ڤارديه
محمد حسن الزيات
أنور لوقا
رئيف جورج خوري
كريستيان لاموريت
جاك بيرك
ريمون فرنسيس

اختارها وترجمها من الفرنسية
وقدم لها وعلق عليها

مُنجِي الشَّمْلِي
عمر مُقداد الجمِني



"بيت الحكمة" - قرطاج

MINISTERE DE LA CULTURE

ACADEMIE TUNISIENNE DES SCIENCES,
DES LETTRES ET DES ARTS
"Beït al-Hikma"

Taha Hussein

dans le miroir de son temps

Moënis Taha Hussein
René Etiemble
André Gide
Anouar Louca
Louis Gardet
Mohamed Hassan Ezzayat
Christiane Lamourette
Michel Tournier
Gaston Wiet
Leïla Louca
Nada Tomiche
Jacques Berque
Ra'if Georges Khoury
Raymond Françis

Témoignages et études traduits
du français à l'arabe
avec une introduction
et des notes explicatives
par

MONGI CHEMLI
Professeur émérte à l'Université de Tunis

OMAR MOKDAD al -JEMNI
Maître-Assistant à l'Université de Tunis

طـه حسين
في مرآة العصر

طه حسين
في مرآة العصر

شهادات ودراسات بأقلام

مؤنس طه حسين — ميشال تورنييه — ريني إيتيامبل
غاستون فييت — أندره جيد — ليلى لوقا
أنور لوقا — لوي ڤارديه
جاك بيرك — ندى توميش — رئيف جورج خوري
كريستيان لامُوريت — محمد حسن الزيات — ريمون فرانسيس

اختارها وترجمها من الفرنسيّة
وقدّم لها وعلّق عليها

مُنجِي الشَّمْلِي
أستاذ متميّز بجامعة تونس

عُمَر مُقداد الجِمني
أستاذ مساعد بجامعة تونس

المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون
«بيت الحكمة»

طه حسين في مرآة العصر / مُنجِي الشَّمْلِي وعُمَر مُقداد الجمنِي ـ تونس :
المجمع التونسي للعلوم والآداب والـفنون «بيـت الـحـكـمـة» 2001
(تونس: مـطبعة ديوان قيس الأراضي ورسم الخرائط) 420 ص، 24 سم ـ
(أدب) مسفّر.

ر.د.م.ك : 5 ـ 70 ـ 929 ـ 9973

سحب من هذا الكتاب 2000 نسخة في طبعته الأولى

إلى الذين يعملون

ويسعدهم أن يعمل النّاس

المترجمان

مُنجِي الشَّملي - عُمَر مقداد الجِمنِي



طه حسين
(1973 ـ 1889)

«كنت - ولا أزال - شديد الإيمان بأنّ الأدب الحيّ لا يستطيع العزلة، وإنّما هو مضطرّ إلى أن يتّصل بالآداب الحيّة الأخرى، وسبيلُه إلى ذلك: الترجمةُ والتعريفُ بالأدباء من الأجانب».

طه حسين

ثبت للرموز والمختصرات العربيّة المستعملة

هـ	: هجريّة / للهجرة
م	: ميلاديّة / للميلاد
ق.م.	: قبل الميلاد
ع	: عدد
ج	: جزء
مج	: مجلّد
ط	: طبعة
مط	: مطبعة
د.ت	: دون تاريخ
د.م	: دون مكان
ص	: صفحة
م. ن.	: المصدر نفسه
ص.ن.	: الصفحة نفسها
م.ن.، ص.ن.	: المصدر نفسه، الصفحة نفسها
م.س	: المرجع السابق
(...)	: حذف
[ ]	: زيادة على الأصل ليستقيم التركيب أو ليتّضح المعنى

ـ كل هامش مسبوق برقم عربي هو نصّ من وضع صاحب البحث

ـ كل هامش مسبوق بنجمة (*) أو أكثر هو من وضع المترجمين.

ـ أحيانا قد يَلحق الهامشَ المسبوقَ برقم هامشٌ آخرُ مسبوقٌ بنجمة، وعندها يقع الفصل بين الهامشين بعبارة «انتهى» مباشرة بعد اكتمال الهامش الأوّل، وذلك تمييزا لما هو من وضع صاحب البحث ممّا هو من وضع المترجمين.

ثبت للرموز والمختصرات الأجنبيّة المستعملة

Ed(s)	:	*édité, édition, éditeur (s)*
Rééd.	:	*réédité, réédition*
fasc..	:	*fascicule*
pub.	:	*publié, publication*
s.d.	:	*sans date*
s.l.	:	*sans lieu*
s.e.	:	*sans éditeur*
t.	:	*tome*
vol.	:	*volume*
trad.	:	*traduction, traduit, traducteur (s)*
rév.	:	*révisé*
aug.	:	*augmenté*
dir.	:	*sous la direction de*
cf.	:	*confer*
alii	:	*autres*
p.	:	*page*
col.	:	*collection*
imp.	:	*imprimerie*
Lib.	:	*librairie*



مقدمة

طه حسين من المحاكمة إلى عمادة الفكر

مؤتمر علمي أُسِّس على البحث والفكر، عقده «المجلس الأعلى للثقافة» في مصر، من 25 إلى 28 أكتوبر 1998، رُتبت أعماله في ندوات شهدتها «قاعة المؤتمرات بمكتبة القاهرة الكبرى» حيث التقى العلماء الباحثون ليتحاوروا ويتشاوروا ويستظهروا النّصوص والأدلّة في الموضوع الذي اجتمعوا له : «طه حسين وتأصيل الثقافة العربيّة الحديثة».

كان اليوم الأخير من هذا المؤتمر يوم ذكرى مرور خمس وعشرين سنة على وفاة «عميد الفكر العربي». فذكرتُ سنة 1926 : إنها بداية مِحنة الأستاذ الكبرى، يوم نشر كتابه الذي اقتطعه من نفسه اقتطاعا، وعنوانه «في الشعر الجاهلي». قامت الضّجّة العاصفة، فقال ناس كثير، وقال ناس قليل، ولكنّ الفئة القليلة ظهرت على الفئة الكثيرة، و«حُفظت الأوراق إداريا» بقرار من النيابة العامّة. لكنّ الرجل، وإن خرج «منتصرا»، فقد ترك ذلك الاعتداء على فكره نُدُوبًا في النفس وكُلُوما في الوِجدان...

ليس من همّي أن أصف قيمة ذلك المؤتمر الباهر، وليس من همّي أن أقف، هنا والآن، عند «ملف القضية القديمة»، ولكن

حسبي أن أنظر طه حسين إيّاه متأملا، فإذا هو في طريق غريب ذي طرفين متباينين مختلفين : طريق بدايته سنة 1926 ونهايته سنة 1998 ؛ وما بين الطّرفين حياة فيها كثير من الشقاء وقليل من السعادة. «إنّنا لا نحيا لنكون سعداء» كلمات قالها طه حسين لزوجه سوزان في عام 1934؛ فذهلت عندما سمعت قوله يومئذ، ولم تدرك ما كان يعني بكلماته تلك إلاّ سنة 1975، أي «بعد مضي ثمانية وخمسين عاما على اليوم الذي وحّدا فيه حياتهما، وبعد مُضي ما يقرب من العامين على رحيله عنها». قالت : «لكنّي أدرك الآن ما كنت تعني، وأعرف أنّه عندما يكون شأن المرء شأن طه حسين، فإنه لا يعيش ليكون سعيدا وإنما يعيش لأداء ما طُلب منه. . . كنت تعرف أنه لا وجود لهذه السعادة على الأرض، وأنك أساسا، بما تمتاز به من زهد النفوس العظيمة، لم تكن تبحث عنها. . . .». (انظر كتاب «معك»، 6 ـ 7).

كان في بداية الطريق، سنة 1926، مذمُوما مدحُورا ومُطاردا مقهورا؛ ونُلفيه في نهاية الطريق، سنة 1998، موفورا محبورا، بايعه قادة الفكر العربي بيعة إجماع أميرا للفكر زعيما؛ إنه داعية «تأصيل الثقافة العربية الحديثة». أجلسوه على عرش دولة الثقافة والحَداثة في مؤتمر الوفاء، وجعلوا أيديهم في يده، اعترافا له بأنّ التجديد الذي دعا إليه لم يكن «بدعة ضلال» وإنما هو «بدعة هُدى». . . كانت تلك المبايعة في القاهرة. وقد لا نُبعد إن قلنا إنّ الجامعة التونسية قد أخذت على نفسها بيعةَ إجماع لطه حسين، فإذا هو، بإجماع علمي تونسي «عميد الفكر العربي». . . بذلك تشهد الدروس

التي ارتفعت بها أصوات الأساتذة والبحوث التي أنجزت عنه. . . وذكرنا أهـمّها في هذا الكتاب الذي شهد مـيـلادَه ونشأتَه وظهورَه مكتبُنا في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة تونس؛ هو «**طه حسين في مرآة العصر**».

لم أزل أنظر في ما يكتبه الباحثون عن «صـاحـب الأيـام» سـواء باللغة العربية أو باللغات الأجنبية، وخاصّة منها اللغة الفرنسية. . . وما هي إلاّ أن اعتزمت، مع زميلـي عُمَر مُقداد الجِمـنِي، انتخاب بحوث أنشأها باللغة الفرنسـيـة كُتّاب مفـكّرون، ننقلها إلى اللغـة العربية. واشترطنا أن تكون هذه النصوص المنتخـبـاتُ الفرنسيات من تأليف كُتاب لهم دراية بشأن طه حسين، سيرة وفكرا، نـضـالا ثقافيا ومعارك أدبيّة، فلسفة حضارية ومنهجا تاريخيا، وفوق ذلـك كلّه دعوة إلى مستقبل تربوي حداثي يدعمه «عدل اجتماعي» نـابـع من «حرية سياسية». . . ليس المشروع الذي اعتزمنا تحقيـقـه أمـرا ميسورا؛ وبدايته، كما نرى، شروط قد يضطرب فيها الفكر. ورَأَيْنا ألاّ ننتخب نـصّا إلاّ لكاتب ثبت لدينا أنه صـاحـب جـدّ في الفكـر والكتابة، ولا يتّخذ من «البحث» زينة ومُغالطة. ذلك أنّ الاشتغال بشأن طه حسين يفرض أن يكون المؤلف قائما بالمفهوم «اللطيف» لتمـرّد «صاحب الأيام» ولتردده أحيانا، وبمعـنـى الـتـحـدّي عنده والمصابرة. إنه رجل عاش على باب الخطر في كلّ حين؛ إنّ حياته «رحلة عاصفة». «إنّ معظم كتبه خرجت من قلب المعركة». هكذا قال : والمعركة التي يعني هي خصومة سياسية تارة، وطورا خصومة فكرية، أو هي هذه وتلك معا. . . فلم يسلم من أنـواع الأذَى. . .

حتى وجد نفسه، هو وأهله، عرضة لركلات المهانة أو لشظف العيش الأنكد، أو في انتظار القبض عليه وسجنه. إنّ إدراك المفهوم «اللطيف» للتمرّد والتردّد والخصومة لا نبلغه على حقيقته في كتاب بعينه، بل هو لا يستبين إلاّ للقارىء المفكر الذي أخذ نفسه بقراءة الآثار كلها، وخاصة منها تلك الكتب التي قد نذهب في شأنها إلى أنها كتبٌ خفيفة مريحة... وعلى سبيل التمثّل لا الحصر أذكر «من بعيد» و«رحلة الربيع والصيف» و«خواطر»... لقد أدرك جاك بيرك (J. Berque) هذا الأمر واستنطق هذه النصوص الخفيفة المريحة، فإذا هي في نظره، منجم لا يفنى لفهم المجتمع المصري... العربي. أقول هذا الكلام ونفسي تذهب شَعاعا، وأنا أسائل: هل فعل علماء الاجتماع العرب شيئا في الصدد؟...

هذا الكتاب إذن نصوص منتخبات كتبت باللغة الفرنسية، أردنا لها أن تنخرط في سلك المحاور الفكرية التي جعلناها في شبكة متلازمة المعاني... وأن تظهر للقارىء في لبوسٍ عربيّ، إنّها مغامرة!

***

الترجمة ليست «خيانة» ولا المترجم «خائن». إني أرفض هذه التهمة، وإن رأيت أنّه يطيب لهذا القائل أو ذاك أن يردّدها مستمتعا... الترجمة هي نقل نصّ من لغة إلى أخرى... وهذا النقل يفرض أن يكون المترجم متقنًا للّغة المصدر ومتقنا للّغة المنقول إليها. هذا هو الشرط الذي إذا لم يتوفر فلا ترجمة! إلاّ إذا قبلنا أن تكون الترجمة أمرا هيّنًا... ونصل، بعد ذلك، إلى المفهوم اللساني

فالفلسفي فالحضاري للترجمة. والمهمّ أن النصّ المترجم يتجه إلى «مُتلقٍ جديد» بـ«تلفظ جديد» وينصهر في «سياق حضاري» جديد. . .
ليس من قصدنا هنا أن نسهب في نظرية الترجمة، لأنها قضيّة تتراقص فيها المعاني على الشفاه، ويطير فيها النّاس إلى المؤتمرات هنا وهناك؛ أمّا فيما عدا ذلك، فجلّ النّصوص المترجمة عندهم تُورث الخيبة في النفس والحزن الحزين. . . أمّا إذا اقتنعنا بأن «المعجم العربي» ضعيف ضئيل قاحلٌ، عَدَا «لسان العرب» إن رغبنا في شيء من السّلوان، فالمترجم العربي مغامر في مهامِهِ اللغة ومسالك الفكر، يعدم في طريقه المعالم المنيرة والصُّوى الدّالة. معجمنا العربيّ ليس مُعجما تاريخيا، لا يواكب تغيّر اللغة السليم في مراحل تطوّرها. أما والحال على ما نرى فلا بد للمترجم العربي من أن يكون ذا دِراية بالنصوص العربية، بدءاً من التراث الجيّد حتى الكتابة الحديثة الجيّدة. . . يحسن التصرّف في الألفاظ والمعاني والتراكيب، ويبتدع تلفّظا أصيلا جديدا حديثا. . . لقد كانت لنا عِشرة طويلة مع «المعجم الفرنسي» و«المعجم العربي». . . فكم كانت الأولى عِشرة طيبة ثرّية، وكم كانت الثانية عِشرة انزعاج لا ينتهي!

هكذا أقبلنا على ترجمة نصوصنا المنتخبات، وأقمنا بينها وبيننا «رباطا» شرعيا بالعمل الدّؤوب والمراس الصّعب، بالمسح الليّن حِينا وبالتعنية والتّذليل حينا آخر، حتى كأنّها انقادت للغة العربية فلبِست لبوسَها وانقادت لمنطقها. . . ولا شكّ في أن الحكَم الذي تُرضَى حكومته هو القارىء المثقف الحصيف، الدّري لأسرار اللغة

الفرنسية والعربية، أو القارىء العربي بإطلاق، العارف لخصائص لغتنا ومبادىء «شجاعتها». . . هو النّاقد الحقّ!

* * *

لم ننتخب هذه «النصوص البحوث» اعتباطا، انتخبناها لأننا رأينا فيها ثروة فكرية متصلة بكاتبنا «الأمير الزعيم». ثم إنها منشورة في دوريات قد يعسُر الظفر بها أو هي في كتب نادرة، أو في كتب باهظة الثمن. . . هكذا رأينا أن نضعها بين أيدي القراء العرب في لغة عربية. إلاّ أنه لا بدّ من الإشارة إلى أن مضمون هذه النصوص يُلزم المؤلف ولا يلزم المترجمين، تماما كأيّ نص يؤلّفه كاتب وينشره بين الناس. . .

ترجمنا هذه النصوص من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية وجعلنا لها هوامش. الهامش الذي من عندنا هو الكلام المسبوق بنجيْمة(*) فأكثر. أما الهامش المسبوق برقم عربي فهو من وضع المؤلّف. والهوامش ذات النجيمات هي الكثرة الكثيرة، بها عرّفنا النص المترجم وبكاتبه وصلته بطه حسين، وبها ناقشنا أحيانا آراء الكاتب ومواقفه (انظر مثلا الهوامش المتعلقة بأندريه جيد وموقفه من القرآن والإسلام وردّ طه حسين عليه. . .).

إنّ الجهاز النقدي الذي انخرطت في سلكه الهوامش هو من جوهر هذا الكتاب؛ أمّا القارىء الذي تضيع عنه هذه الهوامش فنصف الكتاب عنه ضائع. . . إذ جاءت هذه «النُجَيمَات» كذلك لتصحيح معلومة، أو تحيين تاريخ أو توضيح رأي، أو استكمال معنى.

هذه النصوص المنتخبات تعين على استكمال علم عن طه حسين، أو تفيد، منهجيّا، في فهم آثار طه حسين، أو تثير قضية لا بدّ للمثقف العربي من أن يقف منها موقفا بالتحليل والمناقشة، وبالردّ والدّحض، أو بالقبول والإفادة. . .

وقد استظهر أصحاب هذه النصوص بشواهد من آثار طه حسين، وذلك دون أن يضبطوا حتما مكانها من هذا المؤلَّف أو ذاك؛ فرأينا أن نطلبها في مظانها وأن نثبتها بنص طه حسين، وهذا عمل عسير عسير، جعلنا نقرأ مؤلّفا كاملا، أحيانا، لنظفر بما كنا إيّاه نطلب!

إنّ العمل المرهق هو العمل الممتع حقّا. . . وكم وجدنا أنا وزميلي عُمَر مُقداد الجِمني، من المتاع الفكري ونحن نفرح بالاهتداء إلى صيغة عربية موافقة، أو ونحن نظفر بمعنى خفي من معاني النصّ الفرنسي. «أيام»، هي أعوام بحساب الناس، قضيناها في مكتبي بالجامعة لا نعرف فيها إلا العمل والجدّ، يتخللهما في بعض الأحيان، شيء من الخيبة والإحباط، ثم يعقب كل ذلك «متعة النصّ» عندما يستوي عربيّا أصيلا حديثا في آن. لقد وجدت في العمل المشترك متاعا فكريا ونُسغا ثقافيا. فإليك يا زميلي عُمَر، ثنائي عليك وعرفاني لك، ولعلّ عملا مشتركا آخر، بإذن الله، يجمعنا. . .

* * *

كلّ مثقف عربي أصيل يعترف بأن مكان طه حسين في الفكر العربي الحديث مكانه، وبأن منزلة طه حسين في النقد العربي الحديث منزلته، وبأنّ مرتبة طه حسين في فهم تاريخ الإسلام مرتبته، وبأنّ

موقفه في المناداة بحـريّة الرأي وحريّة الفكر، والعدل الاجتماعـي والنظام الديمقراطي، موقفه؛ وفوق كل ذلك بأنّ بيان الحدانه العربية بيانه. . .

لكن لماذا صمت طه حسين عن مسائل كنّا ننتظر منه أن يخوض فيها؟ لماذا أهمل الاهتمام برؤوس من قادة الفكر سبقوه في الزمن؟ أليس رفاعَة رافع الطهطاوي مثلا من زعماء الفكر في القرن التاسع عشر؟ ألم يأخذ عنه «. . . الماء والهواء». .؟ وخير الدين التونسيّ ألم يكن هو أيضا من قادة الفكر؟ وغيرهما كثير. هذه قضية أخرى لا بدّ للمفكرين من مراسِها. . . فإن لليوم غداً، إن لليوم غداً.

منجي الشملي

القسم الأوّل

شهادة عيان
عن طه حسين إنسانا وكاتبا



كان أبي مستيئسا*

محادثة بين فيليب ڤاردنال ومؤنس طه حسين**

قلّما يتحدّث مؤنس طه حسين، النّجل الوحيد لكاتب مصر الكبير، عن نفسه أو عن آثاره الخاصة ، ولكنّه خلافا لذلك ،

---

* Interview avec Moenis Taha-Hussein réalisée par Philippe Gardénal sous le titre de : "M.-T. Hussein à *Arabies* : Mon père était désespéré", *Arabies*, n°35, 1989, pp. 90-91.

لا يوافق مؤنس طه حسين (Moënis Taha-Hussein) على هذا العنوان، ويراه من وضع محاوره فيليب ڤاردنال. والأمر بالنسبة إليه لا يعدو أنّه أشار في بعض أحاديثه إلى أن والده كانت تعتريه حالات من الإحباط، شأنه في ذلك شأن غيره من الناس - إلاّ أنّ مسيرته وآثاره تدل على أنه عرف كيف يتجاوز ذلك. (هذا فحوى رسالة بعث بها مؤنس طه حسين إلي منجي الشملي، من باريس بتاريخ 22 مارس 1999).

** مؤنس طه حسين هو نجل عميد الفكر العربي، ولد في القاهرة سنة 1921، انتسب إلى التعليم الثانوي فأحرز الباكالوريا ثم أحرز من جامعة القاهرة الإجازة في اللغة الفرنسيّة ثم انتقل إلى باريس فأعدّ في دار المعلمين العليا شهادة التبريز (Agrégation) في اللّغة والآداب الفرنسيّة. عاد إلى مصر وباشر التدريس. وفي باريس أعدّ أيضا رسالته للدّكتورا في الأدب المقارن بإشراف إيتيامبل (Etiemble) وعنوانها «حضور الاسلام في الأدب الرومنطيقي في فرنسا»، (*Présence de l'Islam dans la littérature romantique en France*) . وقد صدرت، بهذا العنوان، عن دار المعارف بالقاهرة سنة 1961 . وفي السنة الموالية أعيد نشرها في دار المعارف ببيروت بعنوان «*الرومنطيقيّة الفرنسيّة والإسلام*» . (*Le Romantisme français et l'Islam*) وله أيضا في هذا المجال كتاب «*أطياف رومنطيقيّة*» (*Silhouettes romantiques*) وقد صدرعن دارالمعارف بالقاهرة. نقل مؤنس طه حسين بالاشتراك مع أخته أمينة =

طاب له التحدّث إلى مجلّة «عربيات» (Arabies) عن حياة أبيه اليوميّة وعن مسيرته الفكريّة وعن المصير الرائع الذي كان من حظّ أبيه :

=كتاب أبيهما «أديب» إلى الفرنسيّة، مع زيادة طفيفة في العنوان من عندهما [المغامرة الغربيّة]، انظر :

Taha Hussein : *Adib ou l'Aventure occidentale,* trad. française par Amina et Moënis Taha Hussein, Le Caire : Dar al-Maaref, 1960.

وقد أعيد طبع هذه الترجمة بفرنسا منذ سنوات قليلة، وقدّم للتّرجمة فيليب كاردنال ذاته :

Taha Hussein : *Adib ou l'Aventure occidentale,* trad. française par Amina et Moënis Taha Hussein, préface de Philippe Cardinal, Paris : Ed. Clancier - Guénaud, 1988.

كما نشر مؤنس طه حسين ثلاثة دواوين شعريّة بالفرنسيّة وأخرج مسرحية، وساهم في الحركة الثقافيّة في مصر بالكتابة والمحاضرة. ثم عيّن موظّفا في اليونسكو بباريس. ولمؤنس طه حسين شهادة أخرى قيّمة جدّا عن أبيه طه حسين وعن مسكن الأسرة «رامتان» بالقاهرة، باللسان العربي، راجعها في كتاب : *نهر العميد الفيّاض*، بأقلام مجموعة من المثقفين المصريين / كتاب تذكاري بمناسبة افتتاح متحف طه حسين، ومركز «رامتان» الثقافي، القاهرة : مطابع لوتس بالفجّالة، 1996/ مؤنس طه حسين : «أيّتها الآثار الجامدة : هل يمكن إذن أن يكون لك روح؟»، ص 201 ـ 206 أمّا فيليب ڤاردنال فصحافيّ وكاتب فرنسيّ، تخرّج في معهد اللغات والحضارات الشرقيّة. وله خبرة بالعالم العربي سياسيا وفكريّا. من أعماله : كتاب «الإسلام من خلال أسئلة» *(L'Islam en questions)* ، وترجمة إلى الفرنسيّة لكتاب يوسف إدريس «الجرس» *(La Sirène)*، وتقديم الطبعة الجديدة من ترجمة أمينة ومؤنس طه حسين لكتاب «أديب» *(Adîb)* *إلى الفرنسيّة* و الصادرة عن منشورات كلانسيه ڤينو (Clancier Guénaud) سنة 1989 ، وهذه المحادثة جزء من ملفّ أعدّه فيليب ڤاردنال عن طه حسين بمناسبة مائويّة ميلاد طه حسين (1889-1989). (وفي هذا العدد من مجلّة *Arabies :*، رسم لقب المحاور على هذا النّحو : Gardénal ولكنّه رسم على غلاف ترجمة مؤنس لكتاب *«أديب»* على نحو آخر : Cardinal، ولعلّ الرسم الثاني هو الأصحّ، ولكنا التزمنا الرسم الأوّل وفاء منّا لما جاء في المصدر الذي نقلنا عنه).

س : لقد عرف الجمهور الفرنسي طه حسين من خلال كتابيه «الأيّام» و«أديب». كيف كان ينظر إلى الجانب الروائيّ من مؤلّفاته؟

ج : كان التأليف الرّوائي بالنسبة إليه ترويحا عن النّفس، ولحظة استراحة في غمرة الإبداع. ولكنّي أعتقد أنّه أدرك بعد ذلك أنّ هذا القسم [الرّوائي] من أعماله هو الذي سيبقى، أو على الأصحّ، هو الذي سيكون أطول بقاء.

من المعلوم أن أبي كان يملي كتبه، وقد كان يرفض دائما أن يعيد قراءتها، أقصد أن تعاد قراءة التجارب [المطبعيّة] على مسمعه، وكان يعهد بذلك إلى من يرى فيه الكفاية. وفي اعتقادي أنّه لم يراجع قطّ سطرا واحدا بنفسه. فالدّفق الأوّل في كتابته كان الأخير دائما...

ولكنّ نصوصه تؤكّد - بما هي عليه من إعداد جيّد - أنّه كان قد فكّر فيها طويلا ومليّا قبل إملائها. كان يحمل الكتاب في صدره. إنّه المخاض الصّادق. وكان كلّ من في البيت يدرك ذلك، فإذا الرّجل مربدّ الوجه، ذاهل عن كلّ شيء، غائب عمّن حوله. وكانت أمّي تخاطبه قائلة: «الظاهر من أمرك يا طه أنّك الآن على أهبة إملاء كتاب جديد»*.

---

* يلاحظ هنا أن أقوال السيد مؤنس طه حسين توافق تماما ما جاء على لسان طه حسين في جوابه على استفتاء رينيه وجانين إيتياميل في موضوع «كيف تكتب؟» راجع:

=Etiemble et Jeannine Etiemble : *L'Art d'écrire*, Paris : Ed. Seghers, 1970, pp. 618-619.

س : إن استحالة تسجيل التقييدات، واستحالة الكتابة الفعلية على الورق واستحالة القراءة، تجعل مهمّته أشدّ عسرا بصفته كاتبا، وقد تضطرّه إلى الإستعانة بغيره. كيف كانت علاقاته بالآخرين ؟

ج : كان من المأمول أن يصبح أبي مجرّد قارئ للقرآن. ولكن سرعان ما أظهر ذكاء فائقا، وخصالا ممتازة. وكذا استطاع أن يفلت من مصيره. ولكنّ العبقريّة وحدها لا تكفي. لقد أعانوه. أعانه أوّلا أخوه الشيخ أحمد الذي كان رفيقه في الأزهر.

كان يقرأ له نصوصا، فيحفظها أبي عن ظهر قلب وقد استمع لها مرّة واحدة ! ثمّ أعانته في مدينة مونبلييه (Montpellier)، وبعدها في مدينة باريس (Paris)، تلك المرأة التي كانت في بداية أمرها تقرأ له، ثم صارت خطيبته فزوجه. ما كانت أمّي تحسن اللغة العربيّة. كانت تستطيع أن تقرأ له نصوصا بالفرنسيّة والأنكليزيّة والإيطاليّة والإسبانيّة واليونانيّة واللاّتينيّة... فكانت لديه بمثابة السكريتيرة لا تفارقه ساعة.

= وتوافق هذه الأقوال كذلك ما جاء في جواب طه حسين على الاستجواب الذي وجهته إليه مجلّة *"Un effort"* في عددها الصادّر في أكتوبر سنة 1934، راجعه في كتاب : *من الشاطئ الآخر : طه حسين في جديده الذي لم ينشر سابقا*، كتابات طه حسين الفرنسيّة جمعها وترجمها وعلّق عليها عبد الرشيد الصادق محمودي، باريس : نشر- إدفرا بيروت : شركة المطبوعات للتّوزيع. ط.1، 1990، فصل «أنا لا أكتب وإنّما أملي»، ص 27-29.

وقد استعان، بعد ذلك، بسكريتير مصري يقرأ له باللغة العربيّة. الحقّ أنّه استعان بأكثر من واحد، ولكنّه قليلا ما كان يرضى عنهم لأنهم غالبا ما كانوا يقعون في أخطاء لغويّة. كان أبي رجلا سمحا متواضعا، وكان إلى ذلك معجبا بنفسه ذا كبرياء. كان يزعم أنّه وحيد زمانه في إتقان اللّغة العربيّة!، لا يضاهيه في ذلك أعضاء المجمع اللغوي في القاهرة أو في دمشق! فهم ـ في نظره ـ ليسوا على تمام الإتقان للّغة العربيّة.

س : كيف كان يضبط منزلته بين أدباء عصره ؟

ج : لم يكن أصلا يضبط لنفسه منزلة مّا بين أدباء عصره. كان يعدّ نفسه نسيج وحده، ليس خيرا منهم، ولكنّه فرد لا شريك له، إنّه على حدة، تماما على حدة. لم يكن راضيا أصلا عن الروايات القليلة التي كانت ظهرت في مصر في العشرينات والثلاثينات [من القرن العشرين]. وكان يعتقد أنه هو منشيء الرواية في الأدب العربي. أمّا الكتّاب الشبّان الذين جاؤوا بعد ذلك فهو الذي أحاط جلّهم بالرعاية والتأييد.

س : كيف كان طه حسين يشيم تطوّر مصر الثقافي ؟

ج : كان يرى أنّه بالإمكان تماما الحفاظ على الطابع الخاص والذاتيّة الثقافيّة، مع الاستفادة من ثقافة بل من ثقافات أجنبيّة كثيرة

خاصة منها الثقافات الغربيّة . إنّ هذا الأمر عنده بديهيّ . وكان يعلن في بساطة قائلا : «إنّ مصر عربيّة في جوهرها ولكنّها متوسطيّة كذلك ». ولهذا السبب، كان يولي دراسة اللغات عناية فائقة، لا يقصد اللّغة الفرنسيّة فحسب، بل لغات كثيرة أخرى منها الأنكليزيّة طبعا، والإيطاليّة كذلك والإسبانيّة، وغيرها.

أقبل أبي على درس اللغة اليونانيّة واللاّتينيّة لأنّه كان يرى أنّ ذلك أساس تكوين [ثقافي] ضروريّ، أمّا من وجهة الحضارة المتوسطيّة التي كان شديد الايمان بها فإنّ تعلم اللّغات عنده كسب حاسم.

وعلى الرّغم من أنّ دعوة طه حسين إلى هذا المسلك لم تلق تأييدا مطلقا فإنّه وفّق، على كلّ حال، في إنشاء شعبة للدّراسات الكلاسيكيّة بجامعة القاهرة، تدرّس فيها اللاّتينيّة واليونانيّة.

س : كيف كانت طباعه وكيف كانت طريقته في إدراك الوجود ؟

ج : كان أبي مغرقا في التشاؤم. وإدراك ذلك سهل يسير، وحسبنا أن نذكر في هذا المقام عاهة العمى. لقد وجد العون على تخطّي هذه المحنة. ومع ذلك كانت تنتابه أطوار من القنوط وصفها في كتاب «الأيّام». لقد حدّثته نفسه بالانتحار أحيانا. وكانت تنتابه سورات يأس لا قبل لأحد بأن يكون له فيها عونا، لا ولا حتّى زوجه كانت قادرة على ذلك مع ما أوتيت من رفق وحنان.

كان ينظر إلى الأشياء دائما نظرة سلبيّة. هذا من غريب الأمور ولا سيّما ونحن نعلم أنّه رجل على غاية النشاط : لقد أنجز أشياء كثيرة في حياته. . . لقد بنى في الحقيقة جزءا من مصر الحديثة *.

---

* توافق شهادة مؤنس طه حسين عن أبيه ما جاء في كتاب السيدة سوزان طه حسين: *معك* ، في مواضع عديدة منه تحدّثت فيها عن اليأس الذي كان ينتاب طه حسين في فترات كثيرة من حياته، خصوصا في الأزمات التي مرّ بها، وما أكثرها! حتّى إنّه همّ، ذات مرّة بوضع كتاب اختار له عنوانا «*الجهد الضائع*»، وحتّى إنّه همّ فعلا بالانتحار في مرّة أخرى، انظر لسوزان طه حسين : *معك*، ترجمة بدر الدين عرودكي ومراجعة محمود أمين العالم، ط.1، القاهرة : دار المعارف (سلسلة كتب أكتوبر)، 1979، ص 100 ـ 116، ص 284، 286، 293 .

وإنّه لأمر ذو دلالة أن تتخيّر السيدة سوزان طه حسين قولة زوجها : «إنّنا لا نحيا لنكون سعداء» تصديرا لمذكّراتها، وأن تعلّق عليها مخاطبة زوجها قائلة :

«عندما قلت لي هذه الكلمات في عام 1934 أصابني الذهول، لكنّني أدرك الآن [1975] ماذا كنت تعني، وأعرف أنه عندما يكون شأن المرء شأن طه حسين، فإنّه لا يعيش ليكون سعيدا، وإنّما يعيش لأداء ما طلب منه، لقد كنّا على حافة اليأس»، م. ن. ، ص 6 .



عمّي المصريّ *

ذكريات ميشال تورنييه عن طه حسين **

كان طه حسين كلّما قدم فرنسا لايعدم أن يؤدّي عدّة زورات إلى أسرة تورنييه (Tournier) . كان شديد الاطمئنان إلي والدي الذي كان

---

* " Michel Tournier raconte : Mon Oncle d'Egypte", *Arabies*, n° 35, 1989, p. 93.

هذا الفصل ذكريات أفضى بها ميشال تورنييه (Michel Tournier) إلى قراء مجلة «عربيات» بمناسبة مائويّة طه حسين، وقد قدّم [الصحافي] فيليب ڤاردنال هذه الذكريات بقوله :

«كان ميشال تورنييه عرض في كتابه «كلمات نثرية قصيرة» *(Petites proses)* الصادر عن دار ڤاليمار (Ed. Gallimard) للمفعول السحريّ الغامض الذي تثيره في كلّ شخص كلمة «مصر»، فقال : «لا شك في أنّ هذه الجاذبيّة من خصائص الوجدان الغربي عامة، ولكنّ لي، في ذلك، أسبابا شخصيّة. إنّ لأمّي ابنة عمّ، وكلتاهما جمعتهما قرية واحدة من المقاطعة الفرنسيّة بورقون (Bourgogne) ميلادا ونشأة. وقد تزوجت ابنة العم هذه، [واسمها سوزان بريسو [Suzanne Bresseau] شابا مصريّا ضريرا كان مثلها يزاول في الوقت ذاته تعلّمه في الحيّ اللاّتيني، وهو الذي سيصبح فيما بعد الكاتب الذائع الصيت طه حسين».

** ميشال تورنييه (Michel Tournier) من كتّاب الرواية المعاصرين في فرنسا ولد عام 1924 . اتجه في البداية إلى دراسة الفلسفة ثمّ تحوّل عنها إلى الكتابة الأدبيّة والروائيّة خاصة، ولجأ إلى الأساطير العظمى فأحياها في نصوص=

من جيله : توفّي والدي سنة 1966. ظلت قرينة طه حسين وأمّي، وهما ابنتا عم، على صلة وثيقة، واستمرت المراسلات بينهما إلى سنتنا هذه*. وقد أصبح خطّ سوزان في السنوات الأخيرة عسير الفهم لأنّ بصرها أخذ يضعف يوما بعد يوم. وقد حزنت أمّي، وهي الآن في سنّ السادسة والتسعين، حزنا شديدا لوفاتها** .

كان قدوم طه حسين إلينا، حين كنت صبيّا ثم مراهقا، حدثا حقيقيّا يحرّك ذاتي. كان، في نظري، الحكيم الوافد من الشرق. كان مهيب الطلعة، موحيا بالصرامة، تضفي عليه عاهته مزيدا من الغموض.

وكان إذا قدم باريس يقيم دائما في فندق لوتسيا (Lutétia) وكنت أتردّد إليه هناك. وفي إحدى زوراته أنزلوه في غرفة، من أثاثها خاصة دولاب له باب تخاله باب مكتبة فقرأت أسماء مؤلفين مرسومة على ظهور الكتب، واستكشفت أنّ أمامنا «الآثار الكاملة» لسقراط ! وما هي إلاّ أن أغرقنا في الضحك.

=فلسفيّة أدبية. من مؤلّفاته : *(Vendredi ou les Limbes du pacifique)* (1967) و*(Roi des Aulnes)* الحائزة لجائزة غونكور (1970)، وترجمة ذاتية ثقافيّة *(Le vent paraclet)* (1970).

وقد ورد ذكر أسرة تورينيه في كتاب سوزان طه حسين : **معك**، ترجمة من الفرنسيّة بقلم بدر الدين عرودكي ومراجعة محمود أمين العالم، ط. 1 ، القاهرة: دار المعارف (سلسلة كتب أكتوبر)، 1979، ص 147 ومواضع مختلفة.

* أي إلى سنة 1989.

** توفيت السيدة سوزان بريسو زوج طه حسين في القاهرة يوم 3 أوت 1989 ، عن سنّ تناهز الرابعة والتسعين .

والحقّ أنّ الحديث عن طه حسين يثير في نفسي حسرة بالغة. إنّي أتحسّر لأنّي لم أحسن الاستفادة من مساعدته حتّى أستكشف مصر وأتعلّم اللّغة العربيّة. يا لها من مهانة!

في سنة 1950 أخفقت في امتحان التبريز. كان إلى جانبي ميشيل بوتور(Michel Butor) وقد أخفق هو أيضا. وإذا بالإخفاق يلفظ كلينا إلى ظلمات خارجيّة. أمّا هو فقد ذهب إلى مصر، وكان من حظّه أن قصّ تجربته في كتاب عنوانه «*عبقريّة المكان*» *(Le Génie du lieu)* على حين أنّه لم يكن يعرف أحدا في ذلك البلد. وأمّا أنا فقد مكثت في باريس، على حين أنّ لي هناك عمّا، هو طه حسين! إنّها الفضيحة كلّ الفضيحة!

لم أذهب إلى مصر إلاّ بعد وفاة طه حسين. وتوجّهت إلى بيته قصد زيارة سوزان ـ إنّه لمنزل في غاية الروعة، ولكنّ ماحوله غدا اليوم خرابا يبابا. بالأمس، لمّآ حلّ به طه حسين مقيما، كانت البيئة ريفيّة. أمّا اليوم، فقد استحالت ضاحية منكرة.

إنّه لمن المؤسف حقّا، أنّ الكتاب الذي خصصته سوزان للحديث عن طه حسين لم ينشر حتى اليوم * . وينبغي أن يظهر هذا النصّ في

---

* لا شكّ في رأينا أنّ تورنييه يعني الكتاب الذي ألّفته سوزان بالفرنسيّة عن زوجها طه حسين وعنوانه(*Mémoires de Madame Suzanne Taha Husayn*) وكانت السيدة سوزان أصرّت على أن يصدر الكتاب مترجما إلى العربيّة قبل نشر النصّ الفرنسي. انظر سوزان طه حسين: *معك*.

وحول هذا الكتاب انظر Jean- Philippe Lachèse : “Les Souvenirs de Madame Suzanne Taha Hussein”, *M.I. D.E.O.*, 15, 1982, pp. 9-22.

وما يزال النصّ الفرنسيّ، إلي اليوم، مرقونا غير مطبوع.

صيغة مقدّمة لأحد مـؤلّفات طه حسين. ولكن الفضيحة الحقيقـيّة هي أنّ طه حسين لم يمنح جائزة نوبل (Prix Nobel).

وأعبّر عن أسف آخر متعـلّق بطه حسين، وهـو أنّي تأخرت في إصدار روايتي «العربية» الموسومة بـ «قطـرة الـذهـب» *(La Goutte d'Or)* حتّى هذه السنوات الأخيرة، وموضوعها المقابلة بين العلامة والصورة. الحقّ أقول أنّي كنت متطلّعا إلى معرفة رأيه فيها.

مع طه حسين *

بقلم إيتيامبل **

كتب جوليان غراك (Julien Gracq) *** قائلا :

---

* René Etiemble : "Notes sur Taha Hussein", *Les temps modernes,* 5e année, n°56, Juin 1950, pp. 2239 - 2248

هذا فصل كتبه رينيه إيتيامبل عن طه حسين، ونشره في المجلّة الفرنسيّة *«العصور الحديثة»*، العدد56، جوان 1950، من الصفحة 2239 إلى الصفحة 2248 بعنوان «ملاحظات عن طه حسين» . ثمّ أعاد إيتيامبل نشر هذا الفصل في كتاب جمع فيه ذكرياته عن إقامته في بلاد مختلفة من العالم، وسمّاه : «*عودة من آفاق العالم*»، صدر في باريس عن دار ڤاليمار للنشر، من الصفحة 94 إلى الصفحة 105،

René Etiemble : *Retours du monde,* Paris : Gallimard, s.d., chap : "Notes sur Taha Hussein", pp.94-105.

** رينيه إيتيامبل (René Etiemble)، من كبار النقاد والمثقّفين، ومن أبرز علماء الأدب المقارن في فرنسا. ولد إيتيامبل في فرنسا سنة 1909، وأعدّ في جامعة السوربون أطروحته لنيل دكتورا الدّولة عنوانها «*أسطورة رامبو*» *(Le Mythe de Rimbaud)* حلّل فيها «صورة» رامبو كما أدركها النقّاد تحليلا مقارنيا انتهى به إلى أنّ هذه الصّورة ـ على اختلاف أشكالها ـ صورة غريبة كلّ الغرابة عن رامبو، حظّ الوهم فيها أكثر من حظّ الحقيقة. وقد عُرِف إيتيامبل في الوسط الجامعي والثقافي بدروسه ومحاضراته وكتاباته التي خالفت الأفكار السائدة والمعتقدات السهلة التي يركن إليها النّاس، وخصوصا المثقّفون والنقاد، وقد حارب إيتيامبل في هذا المجال النزعة الأوروبيّة المركزيّة في الثقافة ودعا إلى العناية بآداب الشرق الأقصى، يابانيّة وصينيّة وغيرهما فكتب مثلا عن كُونْفشيوس (Confucius, 4e éd.1968)، ودعا إلى الاهتمام بالآداب العربيّة قديمها وحديثها فكتب عن أبي العلاء المعرّي وعن أبي الطيب المتنبّي وعن عبد الرحمن بن خلدون. فالإنتاج البشري، عنده، حيثما=

« إنّ العالم، بعــد خمسة آلاف سنة من الآن سيجــــد أنّ في عام 1949، كان تقديس منكر قد طواه النسيان إزاء كـلّ الذين كانوا يـحسنون استعمـال الهيروغليفيات . . لذا، نرى فــي مجلة «العصور

=كان وبقطع النظر عن اللون واللّسان والمعتقد، جدير بالدّرس والتدبّر بدل إصدار الأحكام المجانـيّة السهلة السريعة. هذه النزعة الكونـيّة المناضلة تظهر في كتابـاتـه النقديّة والمقارنيّة المختلفة مثل : «*في سلامة الآداب*» (Hygiène des lettres : 1952- 1967) و«*المقارنة الأدبـيّة ليست حجّة*» (Comparaison n'est pas raison - 1962)، ودراسات فــي *الأدب العام حقّا* » (Essais de littérature (vraiment) générale - 1974) و«*محاولات في الأدب العالمي*»(Quelques essais de littérature universelle - 1982) .

ويشرف إيتيامبل في دار ڤاليمار للنشر، وبالتعاون مع اليونسكو، على السلسلة الشرقيّة للآثار الإبداعيّة والتي ظهرت فيهـا «*رسالة الغفران*» و«مقدّمة ابن خلدون» وغيرهما. . . ومن كتب إيتيامبل، بالاشتراك مع جانين إيتيامبل «فـنّ الكتابة» وقد جمعا فيه شهادات المبدعين، عـلـى مـرّ التاريخ، وعلى اختلاف لغاتهم، شـعـرا ونثرا، حول طريقتهم في الكتابة، وفيه نجد فصلا بقلم طه حسين :

Etiemble et Jeannine Etiemble : *L'Art d'écrire,* Paris : Eds. Seghers, 1970, pp.618-619.

وإيتيامبل، فضلا عن هذا كلّه، مبدع كتب الرواية : «*طفل الخورس*»(L'Enfant du Chœur -1937) و«*في وصف جسد*» (Blason d'un corps -1961) الخ . . . وكتب المسرحيّة «*قلوب مضاعفة*» (Cœurs doubles - 1948) ، وهو أيضا مترجم نقل إلى الفرنسيّة آثار بورجيس الأرجنتيني (J.-LBorges) ولورنس الشاعر والروائي الأنجليزي . (D.-H Lawrence)

صلة طه حسين بإيتيامبل عميقة متينة، بدأت ـ فيما يظهر ـ مع مطلع الـعـقـد الرابع من القرن العشرين حين دعا طه حسين، وكان يومئذ مستشارا لوزارة المعارف ومديرا لجامعة الاسكندريّة المنشأة حديثا، طائفة من الأساتذة الأجانب، إلى جانب عدد من المصريين، للتّدريس فيها. دعا طه حسين إيتيامبل، سنة 1943 منتدبا إيّاه ليتولّى إدارة أوّل قسم للّغتين الفرنسيّة واللاّتينيّة بكليّة الآداب بجامعة الاسكندريّة، كان إيتيامبل وقتئذ أستاذا في جامعة شيكاغو الأمـريـكـيّة، وكان بول هـازار(Paul Hazard)، مؤرّخ الأدب وعالم الأدب المقارن الفرنسي هو الذي أشار عـلـى طـه حسين بإيتيامبل. أقبل إيتيامبل إلى مصر واضطلع بمهـمّته. وتوطّدت العلاقة بينـه وبين طه حسين على مرّ الأيّام، وغدا زميلا صديقا يحظى بمكانة أثيرة، ويحضر=

الحديثة» ، إلى جانب المشاهير الذين يطيب لهم أن يغرقوا في الميتافيزيقا، منتسبا جديدا ، اتعظ بما درس فسعى إلى تثبيت

=ميعاد الأحد في بيت العميد، وسواء كان في مصر أو كان خارجها فإنّه ـ حسب عبارة سوزان طه حسين «لم يكف عن التّعبير عن تعلّقه والتعبير عن حماسته».

وجد طه حسين في إيتيامبل مفكّرا ذكيّا ثاقب الذّهن «لم يكن يتفوّه بكلمة لم تكن لمعة من الذكاء»، ووجد إيتيامبل في طه حسين «مجدّدا للّغة العربيّة في القرن العشرين» و«مفكّرا حرّا» و«رمزا من رموز الشجاعة الفكريّة». وقد ظلّ إيتيامبل «دوما مع طه حسين ولا يزال على الدّوام مخلصا إخلاصا فعّالا للرجل الذي عرفه وفهمه». وقد ظلّ يذكره منوّها معظّما.

يذكر إيتيامبل أنّ طه حسين هو الذي قرّب إليه الثقافة العربيّة، بفضل ما كتب أو ما حدّثه به. وعن طريق طه حسين تعرّف هذا المقارنيّ البارع رموز الفكر العربي : ابن خلدون وريادته لعلم الاجتماع، والمعرّي وفلسفته، والمتنبّي وشعره الخ. . . وطه حسين هو الذي دافع عن إيتيامبل لدى القصر حين همّ القصر بطرد إيتيامبل من مصر بتهمة التحرّر الجنسي الذي وصفت به روايته *«طفل الخورس»* *(L'Enfant du chœur)*.

وفي الإسكندريّة، وإلى جانب التدريس وإدارة قسم اللغتين الفرنسيّة واللاّتينيّة، رأس إيتيامبل هيئة تحرير مجلة مصريّة أدبيّة فرنسيّة اللّسان تدعى *«قيم»* *(Valeurs)*، وقد صدرت في الإسكندريّة عام 1945، وظهر منها ثمانية أعداد ثمّ توقّفت عن الصّدور. كانت هذه المجلّة على اتّصال وثيق بمجلّة *«الكاتب المصري»* التي كان يرأس تحريرها طه حسين، كانتا تصدران في الفترة ذاتها. وقد بدأتا في الصّدور في العام ذاته (1945)، وتوقفتا عن الصّدور في فترة متقاربة (1947 بالنسبة إلى الأولى، 1948 بالنسبة إلى الثانية)، واحدة في الاسكندريّة والأخرى في القاهرة. كانت مجلّة ، *«قيم»* تنشر لكبار الكتّاب الفرنسيّين وأيضا للمصريّين من ذوي اللّسان الفرنسي ، وقد كتب فيها طه حسين ذاته وتوفيق الحكيم وحسين فوزي وآخرون، وكانت *«الكاتب المصري»* تنشر للكتّاب المصريّين وتنشر أيضا لكبار الكتّاب الفرنسيين مقالات وبحوثا يتولّى ترجمتها في الإبّان كوكبة من المترجمين العاملين في دار *«الكاتب المصري»* بإشراف طه حسين ذاته. وكان إيتيامبل يعين طه حسين على استقطاب الأسماء الفرنسيّة الكبرى. أكانت مجلة *«قيم»* الوجه الآخر لمجلّة *«الكاتب المصري»* ؟ أكان ثمّة تنسيق مّا بين المجلّتين ؟ الثابت أنّهما اشتركتا في=

موقعه في النقد الأدبي محتجّا، على الأقلّ، بأنّه يعرف اللغة الصينيّة»[1]

=الهدف ذاته، هذا الهدف الذي صوّرته سوزان طه حسين متحدّثة عن «*الكاتب المصري*» فقالت : «أن يقيم أكثر ما يمكن من الصلات بين الثقافة الغربيّة ومصر والعالم العربي».

راجع ما كتبته السيدة سوزان طه حسين عن إيتيامبل في مذكّراتها :

ـ سوزان طه حسين : *معك* ، ترجمة بدر الدين عرودكي ومراجعة محمود أمين العالم، ط. 1، القاهرة : دار المعارف (سلسلة كتب أكتوبر)، 1979 ، ص 127 ، 143 ـ 144 ، 257 .

وراجع ما كتبه إيتيامبل عن طه حسين في مواضع شتّى من الكتب والمقالات الآتية :

- Etiemble : *Comparaison n'est pas raison,* Paris : Gallimard, 1963, passim.
- Etiemble et Jeannine Etiemble : *L'Art d'écrire,* Paris : Eds. Seghers, 1970, pp.618-619.
- Etiemble : *Essais de littérature (vraiment) générale,* Paris : Gallimard, 1974, passim.
- Etiemble : *Quelques essais de littérature universelle,* Paris : Gallimard, 1982, chap : "La Vita Sexualis de Morgi Ogai", pp.70-78.
- Abû-l- Alâ al-Ma'arrî : *L'Epître du pardon,* traduction, introduction et notes explicatives par Vincent-Mansour Monteil, Paris : Gallimard (Collection Unesco d'œuvres représentatives), 1984, préface d'Etiemble, pp.7-19.
- Etiemble : "Ceux qui savent lire mettent à sa juste place Taha Hussein", *La quinzaine littéraire,* n°525,1eFévrier 1989, pp.9-10.
- Taha Hussein : *La Traversée intérieure,* (Troisième partie du Livre des Jours), trad. de l'arabe par Guy Rocheblave, Paris : Gallimard, 1992, préface d'Etiemble, pp.9-14.

*** جوليان غراك (Julien Gracq) كاتب فرنسي من مواليد سنة 1910 . وضع عدّة روايات شعريّة منها «*في قصر أرغول*» *(Au Château d'Argol)* و«*الحريّة المطلقة*» *(Liberté grande -1946)* ومسرحيات منها «*الملك الصياد*» *(Le Roi pêcheur - 1948)*.

1) ـ Julien Gracq : *La Littérature à l'estomac* Paris : José Corti, 1950.

(جوليان غراك : *أدب معدة*) وقد نسي السيد غراك أن يدقّق أنّ هذاالمنتسب الجديد، فضلا عن أنّه لا أهليّة له دون شك، ليس له أيّ نبوغ. وقد كتب غراك في شأنه هنا : «إذا لم يكن لنا ما نقوله، فكيف لنا أن نقول ذلك في بساطة ؟»

وإذا كنت فهمت عن السيد غراك فهما حسنا، فإنّه يجدر بمن يريد أن يقول قولا صحيحا عن تشوانغ تسو (Tchouang - Tseu) * أن يكون جاهلا باللغة الصينيّة . وهذا يؤهّلني لأكتب عن طه حسين فأنا لم أتعلّم قطّ العربيّة الفصيحة.

هل يعذرني القارئ، على الرّغم من علوّ مرتبة السيد جوليان غراك، ومع تمام إدراكي لقصوري، إن أنا اكتفيت هنا بملاحظات قليلة. إنّي لا ألقي بنفسي في هذه المغامرة إلاّ اعترافا منّي بفضل رجل كشفت لي مؤلّفاته وكلماته الطيبات عن مجال أجهله، ولسبب أذكره أيضا : إنّ كلّ كويتب، روسيا كان أو أمريكيا من الولايات المتّحدة، تنشط له جلّ الصحافة في العالم، على كلّ حال، وتنقل إلينا أخباره، وتجعل منه عَلَما. أمّا الرجل الذي بايعه النّاس، على الدّوام، حتّى الأعداء منهم، عميدا للغة والفكر عند العرب، والذي سلطانه على العقول الناهضة يسري في غير عسر من بغداد إلى المغرب، فهل أدرك نقادنا حقيقة منزلته وهم الذين لا يذكرونه إلاّ في الهوامش ؟

عيّن طه حسين منذ أشهر قليلة وزير المعارف (لا وزير التعليم العمومي). كان إلى حدّ ليلة التعيين من المغضوب عليهم من قبل السلطات الرّسميّة. ولكنه كان من قبل، بغير تعيين رسميّ، وزيرا للمعارف، كذا كان ولن يزال . إنّ ذاك الطفل المنحدر من أسرة هي

* تشوانغ تسو (Tchouang-Tseu) فيلسوف صينيّ عاش في القرن الرابع قبل الميلاد، من أكبر كتاب عصره، كان مخاصما لكونفوشيوس .

إلى الفقر أقرب منها إلى الغنى، والذي أتمّ حفظ القرآن عن ظهر قلب في السنّ التي كنّا فيها نحن نتغوّط على سراويلنا، انهمك منذ تلك السنّ في تمثّل ثقافات أخرى غير الثقافة الإسلاميّة : يونانيّة ولاتينيّة وفرنسيّة وغيرها. إنّه لأمر محيّر. ولمّا كان طه حسين حريصا كلّ الحرص على إعلاء شأن اللغة العربيّة في مصر فإنّه تبيّن في كتابه *«مستقبل الثقافة في مصر»* أنّه من المهمّ أن نُرجع إلى «قاعدة مشتركة الدراسةَ النصيّةَ *للثقافتين* العربيّة واليونانيّة اللاتينيّة» (وهو رأي دقّقه لويس ماسينيون (Louis Massignon) في كتاب *«رسائل إنسانيّة»* *(Lettres d'humanité)* ثمّ في *«مجلة القاهرة»*)[1] .

كان طه حسين يرنو إلى استعادة مجد الإسكندريّة، فأقدم، ومدافع النازيّة مصوّبة نحو العلمين * ، على إنشاء الجامعة التي تحمل اليوم إسم الملك فاروق ** ، وكان مع ذلك مقتنعا بأنّه ينبغي تعليم اللغة الإيطاليّة وحتى اللغة الألمانيّة في المدارس المصريّة.

كان طه حسين أوّل رئيس جامعة لي عرفته وأنا أستاذ أدرّس في التعليم العالي. كانوا يقولون عنه إنّه مستبدّ، لأن من كان ذا نفوذ وتأثير بصفة طبيعيّة يرى الناس فيه اليوم رجلا مستبدّاً . وسرعان ما أتيحت لي الفرصة لأقدّر فيه خصلة، نادرة اليوم، أقصد الشجاعة. كان حقّا شجاعا، وغضب السلطة يلاحقه يوما فيوما.

1) انظر: *Lettres d'humanité* , Paris : Belles Lettres, 1943.

وانظر : La *Revue du Caire* Janvier 1950, pp. 177-200

* موضع على ساحل البحر المتوسط غربي مدينة الاسكندريّة، وفيه التقى الجيشان البريطاني والألماني، سنة 1942 .

** هي المعروفة اليوم بجامعة الاسكندريّة

الحقّ أنّ الكاتب العربي يحيا في عالم روحي لغـويّ، يستحيـل علينا، نحن وحدنا، أن نتخيّل مخاطره. وأجدر بنا هنا أن نقرأ ما كتب بشر فارس[2].

وفي البدء تبرز صعوبات لغويّة، يقول بشر فارس :

«عسير علينا، في اللغة العربيّة، أن نحيط بـــدلالة لفظ من سجّل شعوري دقيق إلاّ إذا كان موضوع تحليل مفصّل تقدّم، هذا ـ مثـلا ـ شـأن طـائـفـة كـبـيـرة مـن ألـفـاظ الـمـعـجـم الصوفي. . .حيث تكثر المترادفات (أمّـا عن الجناس فحدّث ولا حرج). . . وهذا ما يفسّر غلبة العناية باللفظ على المعنى عند عدد مـن الكتاب أو عدم مطابقة التعبير للمقام».

ولئن كانت المعاجم العربـيّة تضمّ ثروة من أسماء الأعيان التـي تهمّ الحياة اليوميّة، فإنّ «نصيبا وافرا من تلك الألفاظ لم يعد له اليوم أي وظيفة : إنّ كلّ ما له صلة بالصحراء، أو بنمط من الحياة لم يعد له اليوم وجود، لهو أجدر أن يعدّ حشوا». ولكن، في مقابل ذلك، «سيل من الألفاظ الواردة من الغرب، بدءا بأسماء الملابس وانتهاء بألفاظ مرافق الرفاهة الحديثة التي لم يكن لها قطّ مقابلات في اللغة العربيّة : إنّ قصّاصينا وصحافينا ليعلمون من ذلك شيئا كثيرا».

أضف إلى هذا أنّ العربيّة الكلاسيكيّة تكاد تخلو من ألفاظ التقنية والطب والموسيقى مما لا غنى عنه للثقافة المعاصرة. واللغة العربية،

---

2 _ Bichr Farès : *Des difficultés d'ordre linguistique, culturel, et social que rencontre un Egyptien arabe moderne, spécialement en Egypte.* Paul Geuthner, 1936.

بسبب من بنيتها،وهي لغة سامية، لا تستطيع أن تستعير ما يطلق عليه اليوم «بألفاظ الحضارة» إلاّ بحرج وضيق. هنا إذن، لا بدّ من إنشاء جديد .

نصل، بعد اللغة إلى صعوبات الأسلوب : توفّر الآثار الأسلوبيّة، لا ريب، عند الاقتضاء، نموذجا «لأسلوب مكتنز، شخصي ومباشر» : أسلوب أبي العلاء المعرّي [مثلا]. ولكن يا لسوء الحظ، لقد اختارت نهضة الآداب العربيّة لها، في القرن التّاسع عشر، أعلاما سيكون لهم تأثير سلبيّ، أعلام «عصر المقامات والرسائل، وباختصار، عصر الكتابة المتحذلقة» فأصبحوا يرون، مع بداية القرن العشرين «تراكم المترادفات، والسعي الحثيث وراء القوالب الجاهزة، واقتناص غريب الكلام، والسجع، وحشر النصوص بأبيات الشعر والأمثال السائرة والأقوال المأثورة وآيات القرآن وأحاديث الرسول».

ليس هذا كلّ ما في الأمر، علينا أن نذكر تلك اللغة العامية اللّعينة التي يتعيّن على كلّ كاتب أن ينساها ما إن يشرع في الكتابة. في الصين، تحقّقت ثورة، تماما قبل أن يستعيدها ماوتسي تونغ (Mao Tsé Toung)، أقصد تلك الثورة التي أتاحت لهو تشي، (Hou Tché) * وللكثرة الكثيرة من الكتّاب الذين جاؤوا من بعده، التخلّي عن لغة «وان يان» (wen yen) الأدبيّة وتبنّي لغة «باي هوا» (pai houa) العاميّة، أمّا في العالم العربي يومئذ، فإنّ كتّابه

* هو تشي (Hou Tché) كاتب صيني، من مواليد مدينة شنغهاي (Changaï) ولد عام 1891 وتوفي سنة 1962 تزعّم هو تشي سنة 1914 حركة «الثورة الأدبيّة» لفرض استعمال اللغة العاميّة في الكتابة الأدبيّة.

ما يزالون يكتبون آثارهم الفنـيّة في لغة [عربيّة] مختلفة عن العاميّة المصريّة أو عامـيّة شـمال إفريقيا اختلافها عـن الـلّغة الفرنسـيّة أو الرومانيّة بالقياس إلى فـرجيل** (Virgile) والقـــديس توما الأكويني (Saint Thomas d'Aquin) ***.

وعلى الرّغم من أنّ فئة قليلة من الكتّاب الجسورين اجتهدت في إدخال لغة الشارع المصري في كتاباتها (مثلا : حسين فوزي) فإنّها نادرا ما كانت أسوة متّبعة، وذلك لسبب مهمّ : فلئن كانت حروف الكتابة تسمح لكـلّ سكّان الصين، مهما كانت لهجاتهم مختلفـة، بالتفاهم حين يقرأ بعضهم ما يكتب بعضهم الآخـر، فـإنّ مختلـف اللهجات العربيّة ليس من الممكن أن ترسم مستقبلا دون أن تعصف بالوحدة الثقافيّة والسياسيّة التي تبدو، اليوم، مطمح العالم العربي.

لنفتـرض أنّ الكاتب أطاح أو ذلّل كـلّ العقاب التي تقيمها فـي وجهه الألفاظ التي تـوفّرها له اللغة والألفاظ التي يعدمها، ثـمّ ذلّل مسألة تنسيقها واعتراضات الصفويين عليها، يصبح وقتئذ جديرا بأن يضاهي العلماء. في سنـة 1925 ، ألّف علي عبد الرازق كتابا جيّد

** فرجيل : من أعظم شعـراء اللاّتين عاش في القرن الأوّل قبل ميلاد المسيـح، صاحب كتاب «*الفلاحيات*» *(Les Géorgiques)* وملحمة «*الإنيادة*» *(L'Enéide)*.

*** القديس توما الأكويني : من الرهبان الدومينكان الإيطاليين، عاش في القـرن الثالث عشر للميلاد. صاحب مذهب يدعى «التومية» (Thomisme) يعتمد التوفيـق بين العقيدة والعقل. يصوّر كتابه «*الخلاصة اللاّهوتيّة*» *(Somme théologique)* عناصر نظريته.

التوثيق عن أصول الخلافة [1] . وفيه بيّن، بالبرهان القاطع، أنّ فكرة الخلافة، في بداية التاريخ الاسلامي، كانت أمرا غير معروف.

وفي السنة الموالية، أي في عام 1926، راح طه حسين يتأمّل أشعار الجاهليين معتمدا في ذلك منهج ديكارت فاضطهدوه. نعم! هو اليوم وزير المعارف [2] .

ما من شك في أنّ الصعوبات اللّغويّة والثقافيّة والاجتماعيّة التي يصطدم بها الكاتب المصريّ كانت كثيرة، لمّا شرع طه حسين في الكتابة سنة 1925 . ولكن أين هذه الصعوبات من آفة العمى ؟ كانوا إذا ما ذكر طه حسين بدر إلى أذهانهم أمر واحد : طه حسين كفيف العصر. وكذا كان سوندرسن (Saunderson) . ومثله كان بيير فلّلي (Pierre Villey) . والمعرّي أيضا.

قهر طه حسين الظلام، ثمّ أخذ نفسه بقهر التضليل. ولقد غلبه، وكان ذلك أشقّ عليه وأعسر.

لقد كتب سعد الدين بن شنب، وكان أوّل وزير مسلم لنا في بلاد السعوديّة محدّدا في الكلمات الآتية [3] ذلك الدّور الذي اضطلع به طه حسين، فقال :

---

1) «*الإسلام وأصول الحكم*» ، وقد ترجم إلى الفرنسيّة على صفحات «*مجلّة الدّراسات الاسلاميّة*» *(Revue des Etudes islamiques)* .

2) ثأر علي عبد الرازق لنفسه هو أيضا. وذلك قبل أن يستردّ الوفديون الحكم، فعيّن وزير الأوقاف .

3) Saadeddine Ben Cheneb, *Cahiers de l'Est,* Beyrouth, n° 2.

«وكما صنع رينـان (Ernest Renan) مع التاريخ المـقـدّس، كذلك رفض طه حسين في دراسته لأقوم معالم الأدب العربي، نقصد ذلك «الشعر الجاهلي» ذا القداسة الكبرى، كلّ النصوص التي بدت له ذات مسحة إسلاميّة. ولكن، بعد جدل طويل، صار من المسلّم به، بين الجميع، أنّ تحريفات كثيرة تسرّبت إلى النّصوص القديمة. وكذا انتعشت الثقافة العربيّة، وعادت إليها روح الشباب، وغدت أكثر نقاء بفضل ذلك المبدإ، وسواء اعتبرناه ديكارتيا أو رينانيا فسيّان، فهو، على كل حال، مبدأ فرنسـيّ في جوهره، يقول بـأنّ العقل الانساني لا ينبـغـي أن يسلّم بأمر قبل أن يتـأكّد بصحّة البرهان من سلامتـه. إنّه إذن تقويم للفكر العربي أنجزته الثقافة الفرنسيّة. ولكنّه ليس تغييرا لطبيعته، إن صحّ التّعبير.

وهكذا فإنّ طه حسين يـؤكّد، في كتاب نشره بعنـوان ذي دلالة «آراء حرّة» *، أنّ حريّة التفكير، التي ستحاربها فيما بعد المدرسة التقليديّة، وجدت في الإسلام، حين كانت مبـادئ الدين الاسلامي محافظة علـــى فطرتها الأولى، إذ من الثابت - حسب عبارته - أنّنا في ظلّ تنظيم كالاسلام، نجد في فجر تاريخه ذلك الحديث النبوي الخالد الذي يعطي صـورة عـن القلق الغيور الذي كان لحريّة الرأي، وصورة عن التضحيات التي تبذل في سبيلها، وصورة عن أثرها في الـحـيـاة، ذلـك

* طه حسين ومحمد كرد علي وعلي مصطفى مشرفة : *آراء حرّة*، القاهرة : قسم الخدمة بالجامعة الأمريكيّة 1945 .

الحديث الذي يظهر فيه المجتمع الإسلامي مستكملا، والذي يقول فيه الرسول (عليه الصلاة والسلام) [لعمه عبد المطّلب]: «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، حتّى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته».

إنّ في هذا لبرهانا على رفض الفكر لكلّ إكراه، رفض استمدّه طه حسين من سنّة النبي وسيرته. وفي هذا كلّه لدليل قاطع على أنّ تفكير طه حسين، وقد صقلته فروّضته ألوان الثقافة الفرنسيّة، لم يتغيّر في جوهره، وظل عربيّا صرفا أصيلا. إنّما كل ما في الأمر هو أنّ طه حسين عاد، بفضل النقد والفلسفة عند الغربيين، إلى المعنى الحقيقي والأصيل للفلسفة والنقد عند العرب».

وليس لنا أن نبالغ في الاستغراب من أن يكون الشيخ أبو العلاء المعرّي آثر شاعر لدى طه حسين، من بين الشعراء العرب جميعا، وقد احتفل أخيرا بألفيته: ضرير، وليس دون طه حسين تحرّرا ولا دونه جرأة، عليم بمنزلته الإنسانيّة، هذه المنزلة التي يقول في شأنها بيتين من الشعر نذكرهما تلخيصا «إنّا خلقنا لا ندري لأيّة غاية، نحيا قليلا ولا ندري متى الموت يلاقينا، كخيل برح الجوع بها تلوك في غيظ وحنق لجامها حتى تدمى منها المشافر».

هذا المعرّي المحبّب إلى نفسي عرفته بفضل طه حسين (أجل إني رغبت في أن أعرف المعرّي عندما سمعت طه حسين ينشد له

أبياتا كأنّه بها يتغنّى). ولكن لسوء حظّي مازلت لم أحقق أملي فأنا لم أطلع على نصّ *«رسالة الغفران»* إلاّ في ترجمة إنكليـزيّة رديئة والحق يقال*، ولم أطّلع على *«اللزوميات»* إلاّ في مقطعين أعدّهما سلمون(G.Salmon)**، ونذكـر هنـا بحث هنري لاوست (H.Laoust) *«حيـاة أبي العلاء وفلسفتـه»* [1]. وفيـه نجد مقاطـع شعـريّة جيّـدة متـرجمة إلى الفرنسيّة، ولكنها للأسـف مختصره جـدّا.

ولمّا كان الحديث متداولا قصد استكمال السلسلة الكلاسيـكيّة في منشورات مؤسسة بيـده (Budé)***، بإنشاء سلسلة للنّصوص الفارسيّة وأخرى للنّصوص العربيّة، فعسانا نرى قريبا ترجمة جيدة لـ *«رسالة الغفران»*****.

---

* يقصد كاتب المقال ترجمة براكنبـوري G. Brackenbury لـ *«رسالة الغفـران»* وقد ظهرت في القاهرة عام 1943.

** سلمون (G.Salmon) مستشرق فرنسي توفي عام 1907.

1) Bulletin d'Etudes Orientales, t. X، وتحديدا:

Henri Laoust : "La vie et la philosophie d'Abù l-'Alà al-Ma'arri", *Bulletin des Etudes orientales, t.X, (1943-1944), pp.119-158*

*** ڤيوم بيده (Guillaume Budé) مفكر فرنسي ولد في باريس سنـة 1467 وتوفي سنة 1540. وكان وراء نشر اللغة اليونانيّة في فرنسا وساهم في إنشاء مؤسّسة كوليج دي فراس (Collège de France).

**** كتب إيتيامبل هــذا المقال سنة 1950. وبعد ثلاثة عقود ونصـف ظهـرت تـرجمة فرنـسـيّة كاملة لـ *«رسالة الغفـران»* بعنـوان *(L'Epître du pardon)* أنجزها المستشرق فنسان منصور مونتاي (Vincent - Mansour Monteil) وقد صدّرها إيتيامبل بتقديم، انظر:
=

ثمّ نلقى المتنبّي ، بعد أبي العلاء، ينال حظّا لدى طه حسين. فقد ألّف عنه كتابا باللغة العربيّة في مجلدين ونشر عنه بحثا، أو أكثر، باللغة الفرنسية [1]. شغله الحكيم ثم المغامر، وشغله المخلص لذاته ثمّ المتنكّر لمبادئه، نعم إنّ المتنبّي متنكّر لمبادئه. ولكن شعره، عند العرب اليوم نشيد الاستقلال، يقول طه حسين :

Abû-l- 'Alâ' al-Ma'arrî : *L'Epître du pardon,* trad. introd. et notes explicatives = de Vincent-Mansour Monteil, préface d'Etiemble, Paris : Gallimard (Collection Unesco d'œuvres représentatives-série arabe), 1984.

ونقرأ في هذا التصدير أنّ طه حسين كان يستظهر أمام إيتيامبل بمقاطع طويلة من كتاب «*رسالة الغفران*» في النص العربي، وأنّ طه حسين هو الذي وجّهه إلى شراء ترجمة براكنبوري الأنجليزيّة لـ«*رسالة الغفران*» ، وأنّ إيتيامبل أُخذ بهذا الأثر أخذا. انظر تصدير إيتيامبل للترجمة الفرنسيّة المذكورة آنفا، ص 9 . كما يذكر إيتيامبل أنّ طه حسين هو الذي عرّفه بأبي العلاء فوجد فيه نابغة وعبقريّة. م.ن.، ص.ن.

1) ـ بحث ألّفه طه حسين بالفرنسيّة تحت عنوان «*المغامرة الكبرى للشاعر أبي الطيب المتنبي*» وقد نشره في مجلة «*قيم*» *Valeurs* التي كان يرأس تحريرها إيتيامبل ذاته، العدد 7 ـ 8 ، أكتوبر ـ جانفي 1947 ، ص 92 ـ 104 ، انظر :

Taha Hussein : "Al-Moutanabbi, La grande aventure d'un poète", *Valeurs* (Alexandrie), n°7-8, oct.-Janv.1947, pp.92-104.

ولهذا المقال ترجمتان إلى العربيّة، منشورتان. انظر :

ـ طه حسين «*المتنبّي مغامرة شعريّة جريئة*» ، ترجمة عبد العاطي جلال، *الثقافة* (القاهرة)، س2، ع14، نوفمبر 1974 ، ص 39 ـ 42 و43 .

ـ طه حسين «*مسيرة الشاعر الكبرى*» ، ترجمة عبد الرشيد الصادق محمودي ضمن كتابه : *من الشاطئ الآخر ـ طه حسين في جديده الذي لم ينشر سابقا ـ كتابات طه حسين الفرنسيّة*، جمع وترجمة وتعليق، ط.1 ، باريس : إدفرا ـ بيروت : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1990، ص 89 ـ 102.

« في عصر المتنبّى، كان الأجنبيّ فارسيّا أو تركيّا أو زنجيّا، أمّا اليوم، فالأجنبيّ هو القادم من الغرب (. . .) إنّ الشعوب العربيّة لتستكشف سخطها وآمالها في هذا الشعر المتّسم بهذه العزّة التي لا تعرف حدّا».

ويضيف أمرا آخر أكثر أهميّة :

«إنّ لهذا الشعر ميزة تجعل منه رصيدا أساسيّا لا بالقياس إلى الأدب العربي وحده، بل بالقياس إلى الأدب العالمي. لقد أدخل المتنبّي في شعرنا التشاؤم الفلسفي. . . أليس هو الذي تجاسر، لأوّل مرّة في تاريخ أدبنا على أن يوازي بين الإنسان وربّه حين صرخ في غمرة شبيبته الطائشة قائلا :

أيّ محلّ أرتقي	أيّ عظيم أتّقي
وكلّ ما قد خلق الله	وما لم يخلق
محتقر في همّتي	كشعرة في مفرقي»

وسواء وجدنا طه حسين ولوعا بالبحث الموسوعي أو شغوفا بالشعراء أو ظافرا في غير صبر أشواك أبيجراماته[1] ، فإنّه يظلّ دوما وفيّا لمشروعه الجوهري : تأسيس إنسانويّة لا تنكر شيئا من قيم الإسلام من ناحية (لا ننس هنا خاصّة أنّنا مدينون لكاتب عربيّ اللسان هو ابن خلدون لنصّ من النّصوص الأولى للتحليل الاجتماعي

1) طه حسين : *جنة الشوك*، ط.1، القاهرة : دار المعارف، 1945،

حول البدو واختلافهم عن الحضر،)[1]* ولكنها تفيد الشرق بكلّ ما استطاعت الحضارة الأوروبيّة أن تعرضه على العالم بعد ما استفادت أيّما استفادة من الحضارة الاسلاميّة.

* * *

لئن كانت كتابات طه حسين تجلو لنا صورة عن مصر أكثر تعقيدا من تلك التي يعرضها كتاب «*معليش*» *(Maalesh)* لجان كوكتو (Jean Cocteau) أو حتّى كتاب «*جحا الأبله*»، *(Goha le simple)* أو «*رجال نسيهم الله*» *(Hommes oubliés de Dieu)*، فذلك راجع إلى أنّ

---

1) أعدّ طه حسين رسالة لنيل درجة الدكتورا في جامعة السوربون الفرنسيّة بإشراف الأستاذين إميل دوركايم (E.Durkheim) عالم الاجتماع وبول كازانوفا(P.Casanova) المستشرق (انتهى).

* وقد نال الدّرجة في 1918/01/12 وقد نشر الرسالة أولابالفرنسية في طبعة أولى محدودة سنة 1917 بباريس:

Taha Hussein : *Etude analytique et critique de philosophie sociale d'IBN KHALDOUN,* thèse de Doctorat d'Université. Paris : A. Pédone Editeur, 1917 (préface : I - IV + 222 p.)

ثمّ نشرت ثانية بباريس أيضافي العام الموالي أي سنة 1918 مع تغيير في العنوان.

Taha Hussein : *La Philosophie sociale d'IBN KHALDOUN, Etude analytique et critique.* Paris : A. Pédone Editeur, 1918 (préface : I - IV + 222 p.).

وتولّى المؤرّخ عبد الله عنان تعريب هذه الرسالة بإشراف طه حسين ذاته، ونشرهاعام 1925 :

طه حسين : *فلسفة ابن خلدون الاجتماعية*، القاهرة : مط. الاعتماد، 1925.

ويذكر إيتيامبل في مواضع كثيرة من كتبه فضل طه حسين عليه في تعريف ابن خلدون إليه وذلك بعد أن اطلع على رسالة «*فلسفة ابن خلدون الاجتماعية*»

طه حسين استطاع أن يجمع بين تجربة كاتب شرقيّ وتقنية في الكتابة اقتبسها من تجربته الأوروبية». [1]

إنّ أحبّ روايات طه حسين إلى نفسه كتابه «أديب». وكثيرا ما تحدّثنا في هذه المسألة، ولكنّه لم يقنعني يوما بوجهة نظره. وإنّي على مثل اليقين بأنّ ترجمة لهذه الرواية ستصدر قريبا عندنا *. (كنت قد نشرت منذ وقت غير بعيد بعض فصول منه على صفحات مجلة «قيم» **)، ولا يضيرني شيئا أن أكون مخطئا.

---

1) Raymond Françis : *Taha Hussein romancier*, Le Caire : Editions al Ma'aref, 1945.

وانظر مقدّمة ريمون فرنسيس للتّرجمة التي وضعها لكتاب «*دعاء الكروان*» لطه حسين.

Taha Hussein : *L'Appel du Karaouan,* trad. de Raymond Françis, Paris : Denoël, 1949.

* نشر إيتيامبل هذا الفصل عام 1950. وبعد عشر سنوات أي سنة 1960 ظهرت فعلا في القاهرة ترجمة كتاب «أديب» بقلم نجلي العميد أمينة ومؤنس طه حسين بعنوان «*أديب أو المغامرة المغربيّة*»*(Adib ou l'Aventure occidentale)* والملاحظ أنّ العبارة الثانيّة في العنوان هي من وضع المترجمين وليست من الأصل. انظر :

Taha Hussein : *Adib ou l'aventure occidentale,* traduction française par Amina et Moënis Taha Hussein, Le Caire : Dar al-Ma'aref, 1960.

وقد أعيد نشر هذه الترجمة أخيرا، مع مقدّمة بقلم فيليب كاردنال :

Taha Hussein : *Adib ou l'aventure occidentale,* traduction française par Amina et Moënis Taha Hussein, préface de Philippe Cardinal, Paris : Ed. Clancier - guénaud, 1988.

** مجلة «*قيم*» *(Valeurs)* : هي مجلة باللغة الفرنسيّة صدرت في الاسكندريّة بداية من عام 1945. وظهر منها 8 أعداد فحسب. وقد رأس تحريرها إيتيامبل. وقد استكتب إيتيامبل لهذه المجلة كبار الكتاب من فرنسا ومصر. كانت هذه المجلة ومجلة «*الكاتب المصري*» التي كان يديرها طه حسين تصدران في الوقت ذاته وكان بينهما اتصال وثيق.

دارت بيني وبين ريمون فرنسيس محادثات جعلتني أعتقد أنّ كتاب *«شجرة البؤس»*[2] هو الجزء الأوّل من حلقة روائيّة : لوحة منتظرة للمجتمع المصري. إنّ المشروع، هنالك، ليس أمرا مألوفا. لننظر ماذا نرى : فمنذ القرن الثاني للهجرة، أصبحت العربيّة لغة رسميّة للشعوب التي دخلت في الاسلام، وحدة لغويّة ليس بإمكانها أن تخفي الانشقاق إلى قسمين : هما إذن «طبقتان منفصلتان ستتعايشان الواحدة بجوار الأخرى في خصام متّصل، خفيّ حينا، ظاهر حينا آخر، وكم سالت دماء من أجله. نجد في جانب البلاط: الحاشية ونبلاء السيف والقلم والتجار الأثرياء،ونجد في جانب آخر، الرعيّة المشتملة على الفلاحين والحرفيين، وبينهما تضطرب طائفة وسط قليلة العدد، غير قانعة بما قسم لها وذات طموح» . ومنذ ذلك الوقت نجد للثقافة مظهرين اثنين، من جهة : ثقافة الكتب المسلّية التي تنسي الفارغين قلقهم، وثقافة القصص من جهة أخرى، وهي توفّر للطبقات الصغيرة بعض الحب وبعض الأمل، (كما نجد ذلك في أغنيتنا) أو «ساعة من النسيان» كما تعبّر عن ذلك السلسلة الموجّهة إلى البنات المستخدمات في المتاجر.

أخذ الأدب الرسمي من القرن الثاني للهجرة إلى القرن الخامس، إذن، يركن إلى التصنّع في الكتابة : المقامات التي تعجب أهل البلاط وعامة الناس بأسلوبها المزخرف وبمغامرات أبطالها المعقدة. ولكنّها لم تزعج أصحاب السلطان أبدا. وما إن بدت أمارات تدلّ على أن القصص الفلسفيّة على أهبة الازدهار في القرن الخامس

2) طه حسين : *شجرة البؤس* ، القاهرة : دار المعارف، 1944 .

للهجرة حتّى آل الأمر بالآداب العربيّة الكلاسيكيّة إلى الانهيار . ومن يومها وحتى القرن التاسع عشر، ظلت الطبقة الثريّة تعيش على الماضي ولا تبدع شيئا. أمّا الطبقة الأخرى التي يطربها قصّاص الساحات بحكاياتهم فسرعان ما ارتاحت إلى القصص الفارسيّة، ولا تلبث حكايات *«ألف ليلة وليلة»* أن تشيع بين القوم، «وإذا الحكاية في *«ألف ليلة وليلة»* تعرض أمام أعين الفقراء قصر هارون الرشيد ووزرائه، وفيها أيضا القصةالتي تصف غلظة الأغنياء، والقصة التي تصوّر تضامن المساكين. إنّ من يقرأ كتاب *«ألف ليلة وليلة»* لا بدّأن يتراءى له هذا الجمهور المشوق إلى العدل القاصر عن الوصول إليه، وقد أرهقه البؤس لا يملك أن يفلت منه».

وقد يكون من الغباوة ألاّ نرى في هذه الحكايات والأساطير إلاّ المطالب الصادرة عن الطبقة المظلومة، وليس أقلّ غباوة أيضا أن ننكر أنّ أحقاد هؤلاء البسطاء وآلامهم قد وجدت في هذه القصص والأساطير متنفّسا.

ثمّ كانت الحملة الفرنسيّة على مصر، وكان ظهور المطبعة، وكان التأثير الأوروبي. من هنا نشأ بالتدريج من المويلحي إلى توفيق الحكيم ومحمود تيمور مدرسة من الروائيين اجتهدوا في أن ينشؤوا مشاهد من الحياة الراهنة[1] ، مقتفين أثر الكاتبين الفرنسيين موباسان (Guy de Maupassant) وزولا (Emile Zola).

1) ظهر جزء كبير من *«يوميات نائب في الأرياف»* للكاتب توفيق الحكيم على صفحات مجلة *«العصور الحديثة»* *(Les temps modernes)* مترجما إلى الفرنسيّة بقلم غاستون فييت(Gaston Wiet)

ولمّا كان وادي النيل يعدم حتّى السنوات الماضية طبقة عماليّة صناعيّة، وجدنا أن الحياة الفلاحيّة في منطقتي الدلتا والصعيد الأعلى كانت مصدرا ثريّا يستلهمه الكتّاب.

إن أنا لخصت، مستفيدا مما كتبه الباحث ريمون فرنسيس (Raymond Françis) عن رواية طه حسين «*شجرة البؤس*» (وهي إلى الآن غير مترجمة إلى الفرنسيّة)*. فالقصّة هي الآتية : نشأت بين علي بن سلاّم وعبد الرحمان علاقات صداقة. وقد اقترح شيخ الطريقة التي يختلف إليها الصديقان (واقتراح شيخ الطريقة يعدّ في الواقع بمثابة أمر) على عليّ بن سلاّم هذا الرجل الطيّب أن يزوّج ابنه خالد من نفيسة بنت عبد الرحمان، وكانت نفسيه قبيحة الصورة دميمة الشكل، إلى حدّ أن أمّ خالد قدّرت، على ورعها وتقواها، أنّ ابنها لا يستحقّ هذا الشنار. فماذا يا ترى لوثارت أمّ خالد واعترضت؟ سيكون الطلاق عندئذ. ومن يومها أذعنت أمّ خالد لتدبير الشيخ. ولكنّها تقول لعلي، في ما يشبه هاتفا يتنبّأ : «إنّك إن أتممت هذا الزواج لم تزد على أن تغرس في دارك شجرة البؤس»**. وسرعان ما تبيّن أن العجوز أمّ خالد كانت على حقّ أيّ حق ! فقد ماتت

---

* نشر إيتيامبل هذا الفصل عام 1950. وبعد عقد ونصف من السنوات ظهرت في القاهرة، عن دار المعارف، ترجمة فرنسيّة لرواية «*شجرة البؤس*» بقلم غاستون فييت(Gaston Wiet)

Taha Hussein : *L'Arbre de la misère,* trad. de Gaston Wiet, Le Caire : Dar al - Maaref, 1964.

** طه حسين : *شجرة البؤس*، المجلد الثالث عشر من المجموعة الكاملة، ط.2، بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1983، ص 271.

حسرة وكمدا [على ما أصاب ابنها] وكأنها بذلك تضرب المثل على البؤس [الذي سيحلّ بالأسـرة].

فلمّا ترمّل علي بن سلاّم آثر أن يحيا حياة الرجل الأعزب. ولم تكن هذه إرادة الشيخ. فتـزوّج علي لإرضائه، ثلاثا وما زال علـى هذه الحال حتى أدركه الموت. والمصائب الموعودة تتوالي وتستمرّ حتّى بعد وفاة الشيخ ذاته. فقد كان للشيخ ولد ظلّ صاحب نفوذ.

وينتهي الكتاب بمشهد نسوة مجتمعات لم تكن فيهـن إلاّ أيم أو مطلقة.

إنّ معرفتنا، في فرنسا، لطرق الصوفـيّة معرفة محدودة، ولكننا نشيم تأثير هذه الفرق في حياة المسلمين، وتـسـلّط هؤلاء الشيوخ الكثر الذين يستذلّون سكان القرى. وحين يتحدث طه حسين عـن أخطار هذه الفرق، فـإنّه يواصل، بسبل مغايرة، رسالته باعتـبـاره مفسّرا مفكّرا وإنسانويّا صارما.

لا أثر للشيوخ المتسلّطين في كتاب *«دعاء الكروان»*، وقد ظهر أخيرا مترجما الى الفرنسيّة * : قصّة بسيطة وفظيعة في آن، يعاني منها (ويموت بسببهـا كـلّ سنة) صبايا كثيرات يحصين بالمـئـات، أقصد قصّة البنت التي أغووها، وجاء عمّها البليد الذهن ليعود بها

* نشر إيتيامبل مقاله هـذاعـام 1950 ، وصدرت الترجمة الفرنسـيّة لكتـاب *«دعاء الكروان»* بقلم ريمون فرنسيس عام 1949 .

Taha Hussein : *L'Appel du Karaouan,* trad. de Raymond Françis, Paris : Denoël, 1949.

[إلى قريتها] ويطعنها في طريق العودة طعنا باسم الذود عن الشرف. إنّ الكتاب يصوّر ناسا بسطاء، في كثير من المحبّة، ومشاهد رائعة يحسن أن تكون فلما، أقصد فلما عن مصر يعادل فلم *«القرية المكسيكيّة»* الذي قام بتصويره شتاينباك (Steinbeck)* عن بلاد المكسيك (Anahuac)** .

إنّ تغريد الكروان أضفى على هذه القصّة التي كادت تكتنفها القتامة رقّة وشعرا حتى كأنّ فيها مشابه من قصص أرلاند(Arland)*** ودوتل (Dhotel)****.

** شتاينبك (Steinbeck) روائي أمريكي (1902 ـ 1968) بدأ حياته صحافيّا ثمّ اشتهر مؤلفا روائيّا ـ وأغلب رواياته اجتماعيّة أو ذات نزعة طبيعيّة. من أعماله: *«مراعي السماء»* *(Les pâturages du ciel -1932)* و*«فئران ورجال»* *(Des Souris et des Hommes 1937 -)*، نال جائزة نوبل للآداب عام 1962. والفلم المشار إليه هو(Forgotten village).

*** أناهواك (Anahuac) أحد الأسماء القديمة للمكسيك قبل الغزو الاسباني، واليوم يطلق اللفظ على الهضاب البركانية المحيطة بمدينة مكسيكو Mexico عاصمة المكسيك (Mexique).

*** أرلاند Arland كاتب فرنسي ولد سنة 1899 تأثّر بالدادائية والسريالية، وشارك في تحرير *«المجلة الجديدة الفرنسيّة»* *(NRF)* وتسييرها، كتب قصصا قصيرة منها *«أجمل أيام حياتنا»* *(Les plus beaux de nos jours - 1937)* وهي تصوّر خاصة تعقّد الذات الانسانيّة. كما كتب أرلاند الدراسة النقديّة.

**** حذف الكاتب اسم دوتل (Dhotel) من المقال حين أعاد نشره في كتاب: *«عودة من آفاق العالم»* *(Retours du monde)*.

إنّي لأستملح قصّة «دعاء الكروان»* ، ولكنّي أستملح كتاب «الأيّام» كذلك. إنّه أوّل ترجمة ذاتيّة في العالم العربي حسب قاستون فييت (G.Wiet) الذي ترجم الجزء الثاني منه **. إنّ طه حسين لا يدّعي أنّه كان في هذا الجنس الأدبي مجدّدا : فهو من يرى أن

* حول «دعاء الكروان» وخصائص الأسلوب فيه راجع :

ـ عبد الله صولة : *خصائص أسلوب طه حسين من خلال «دعاء الكروان»*، رسالته لنيل شهادة الكفاءة في البحث (= ماجستير) بإشراف الأستاذ عبد السلام المسدّي، تونس : كليّة الآداب، 1980 قسم الرسائل (بحث مرقون رقمة بالمكتبة 2585).

ـ آمال فريد : «عندما تلتقي ثقافتان : طه حسين وموررياك»، *مجلّة المعهد المصري للدّراسات الإسلاميّة* (مدريد)، مج 24، 1987 ـ 1990 ، ص 121 ـ 139 .

** Taha Hussein : *Le Livre des Jours* (Deuxième partie), trad. de l'arabe par Gaston Wiet, Le Caire : Eds. de la Revue du Caire, 1940.

وكان جان لوسيرف ترجم الجزء الأوّل من كتاب «الأيّام» .

Taha Hussein : *Le Livre des Jours-Souvenirs d'enfance d'un Egyptien,* trad. de l'arabe par Jean Lecerf, Paris : Eds. Excelsior, 1934.

ومن بعدهما ترجم أنور لوقا الجزء الثالث من كتاب «الأيّام» باقتراح من مؤنس طه حسين وراجع الترجمة شارل فيال (Ch. Vial) وكتبت المقدّمة ليلى لوقا. ولكنّ هذه الترجمة لم تظهر على حين ظهرت ترجمة أخرى للجزء الثالث بقلم المستعرب في روشبلاف Guy Rocheblave، كتب مقدمتها ايتيامبل، انظر :

Taha Hussein : *La traversée intérieure* , trad. de l'arabe par Guy Rocheblave, préface d'Etiemble, Paris : Gallimard (Collection Unesco d'œuvres représentatives - Série arabe), 1992.

«رحلة ابن خلـدون» التي وضعها صاحبها في القرن الرابـع عـشـر للميلاد أوّل ترجمة ذاتية مؤلّفة في اللّغة العربية*.

تبرز لنا في كتاب «الأيّام» صورة قرى وادي النيل. كتّاب القرية ثمّ وباء الكوليرا ثم المدينة القاهريّة الممتدّة ثم جامع الأزهر : ذاك هو النسيج الأساسي الذي يصوّر طبيعة هذا الفتى الضرير : خجل هو، يجهش بالبكاء كمدا حين يكره على تلاوة القـــرآن**. ولكنه

---

* يقصد كاتب المقال كتاب عبد الرحمن بن خلدون «*التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا*» راجع تحليلا لهذه الرحلة في كتاب مصطفى نبيل : *سير ذاتية عربية*، القاهرة : دار الهلال، 1992 .

وما قاله إيتيامبـل مـن أنّ طه حسين كان يرى أن رحلة ابن خلـدون هـي أوّل ترجمة ذاتيّة مؤلّفة في اللغة العربيّة، ورد في رسالة طه حسين عن ابن خلدون ، قال طه حسين :

“Il est fort possible, d’ailleurs, qu’il n’ait écrit son autobiographie que poussé par le désir de parler de lui, de se mettre en évidence. Ibn Khaldoun, est en effet, le premier écrivain arabe qui ait consacré tout un livre à l’histoire de sa vie”.
Taha Hussein : *Philosophie sociale d’Ibn Khaldoun*, p.21

** إشارة إلى حادثة أليمة في حياة طه حسين خلاصتها أن أسرته تهيأت للانتقال من مغاغة إلى كوم أمبو. وقد امتطت الأسرة القطار فلـمّا وصلت إلى مكانها الجديـد نزلت من القطار ونسيت الصبيّ الضرير في العربة فيؤخذ الصبي إلى مكتب «صاحب التلغراف» ريثما يأتي من يأخذه. وهناك يطلب إليه جمع من موظفي المحـطـة أن يغنّي، فيأبى فيطلبون إليه أن يصوّت بالقرآن ويلحّون عليه في ذلك عندها «اضطرّ الفتى إلى أن يقرأ القرآن خجلا وجلا مستحييـا ضـيّقا بالحياة لاعنا لـلأيّام، وإذا صوته يحتبس في حلقه ، وإذا الدّموع تنهمر على خدّيه. . .». طه حسين، الأيّام، ج2 ص 373 .

عنيد في طلب العلم، لا ينفكّ حريصا على أن يغيّر ما بنفسه، فإذا هو يبلغ، قليلا قليلا، درجة من الحكمة ينتفي معها أصلا كلّ معنى لكلمة «التفاؤل» أو لكلمة «التشاؤم»، فكيف لا نعجب بطه حسين كلّ الاعجاب وقد بلغ مرتبة وزير المعارف، وهو الذي كان سيّ الحظ من كلّ وجه : الفقر والعمى وكتّاب القرية والأزهر القابع في جموده.

لقد كنت أقرأ الجزء الأوّل من كتاب *«الأيّام»* مترجما إلى الانجليزيّة بعنوان *«طفولة صبي مصري»* *(An Egyptian childhood)* * (وهو في نظري أروع الجزأين) فعجبت «بشجاعة» اللغة الأنجليزيّة على احتواء ألوان من الروعة والجمال كثيرة . وكم كان يطيب لي لو استطعت أن أقول مثل هذا عن ترجمة جان لوسيرف (Jean Lecerf) [لكتاب *«الأيّام»*]. لو فعلت لكذبت. فمن منّا لا يدرك في الكتاب، هنا وهناك، المعاني اللطيفة والرقّة الليّنة حتّى في مقام السخريّة.

جسور غير حذور إذا وجب إعمال الفكر (ليس طه حسين من يرتطم في الخندق العميق الذي يفصل بين البيئات الفقيرة والطبقات الغنيّة). إنّه ينتقي كلماته شديد العناية برصانة اللفظ. ليس فظا غليظا

---

* Taha Husayn : *An Egyptian childhood*, vol.1, by E.-H. Paxton, London, 1932.

أمّا الجزء الثاني من كتاب *«الأيّام»* فقد صدرت ترجمته الأنقليزيّة عام 1948 بقلم وايمنت :

Taha Husayn : *The Stream of Days*, vol. 2, by H.Wayment, London, 1948.

ولا متحذلقا متكلّفا لحسن الحظ. نحن هنا على تمام البعد من التهالك على الترادف والتضمين والتكرار الموقّع، تلك الخصائص الأسلوبيّة التي حتّى زمن طه حسين كانت غالبا ما تقوم عليها البلاغة.

إنّ طه حسين في الحضارة الاسلاميّة بمثابة رينان (Renan) *، إن جاز القول، ولكنه أيضا بمثابة ماليرب (Malherbe) ** أو فوجلا*** (Vaugelas)، ورأس الكتاب الكلاسيكيين في النهضة العربيّة. وليس لي أن أفيض في القول دون أن أقع في مغبّة الحماقة (مع اعتذاري إلى السيد جوليان غراك) إلاّ إذا تابعت [كما فعل طه حسين] دروس الأزهر مدّة عشر سنين.

---

* حاول عُمَر مُقداد الجمني النظر في بعض وجوه هذه العلاقة بين طه حسين وإرنست رينان. انظر: عُمَر مُقداد الجمني: *«طه حسين وإرنست رينان»* ضمن: *قضايا الأدب المقارن في الوطن العربي* (أعمال المؤتمر الدّولي)، القاهرة: نشر الجمعيّة المصريّة للأدب المقارن، 1998، ص 243 ـ 259، وانظر ترجمة فرنسيّة موسّعة لهذا البحث بقلم صاحبه:

Omar Mokdad al-Jemni : "Tâhâ Hussein et Ernest Renan", *Revue des Etudes renaniennes* (Paris), n°102, Décembre 1996, pp.38-54.

** ماليرب (François de Malherbe) شاعر فرنسي من مواليد سنة 1555 ومتوفى سنة 1628 من آباء الشعر الكلاسيكي الفرنسي.

*** فوجلا (Vaugelas) لغوي ونحوي فرنسي عاش في القرن السابع عشر للميلاد.

ثمّ أتذكّر فأقول : يوم كان طه حسين يرأس تحرير مجلة *«الكاتب المصري»*[1] كنت أقدّم إليها كلّ شهر تقريبا مقالا يترجمه إلى العربيّة، بحسب الظروف المواتية، هذا الأديب أو ذاك من أسرة المجلّة. وذات يوم استوقفني حسين فوزي الكاتب المعروف وعميد كلية العلوم بجامعة الملك فاروق الأوّل وقال : «قرأت مقالك الأخير [في مجلة *«الكاتب المصري»*]، وكم أحببت لغته الرائعة هذه المرّة. فمن ذا الذي استطاع أن يترجم نصّك يا ترى ؟ إنّه في روعة أسلوبه يضاهي أسلوب طه حسين»*. ويوم الأحد الموالي التقيت برئيس

---

1) كانت مجلة *«الكاتب المصري»* تفسح للكتاب الفرنسيين مكانا رحبا، وقد ظهر على صفحاتها من سنة 1946 إلى سنة 1948 مقالات بأقلام مارسيل أرلاند (M. Arland) وكايوا (Caillois) وكاليه (Calet) وكامو (Camus) وريمون ڤيرن(R.Guérin) وجان بول سارتر (J.-P.Sartre).

* راجع حول أسلوب طه حسين عامة، وفي كتاب *«الأيّام»* خاصة :

ـ محمد الهادي الطرابلسي : «جوامع الأسلوب في أدب طه حسين» ضمن كتاب : *مائويّة طه حسين* ـ وقائع الندوة التي عقدها مجمع تونس للعلوم والآداب والفنون / بيت الحكمة بقرطاج يومي 27 و 28 جانفي 1990، تونس ـ قرطاج : منشورات بيت الحكمة، 1993، ص 135 ـ 167.

ـ عبد الله صولة : «مدخل إلى دراسة أسلوب طه حسين»، *المرجع السابق*، ص 169 ـ 205.

ـ عبد الله صولة : *خصائص أسلوب طه حسين من خلال «دعاء الكروان»*، رسالة لنيل شهادة الكفاءة في البحث (= ماجستير) بإشراف الأستاذ عبد السلام المسدّي، بتونس : كليّة الآداب، 1980، قسم الرّسائل، (بحث مرقون رقمه بالمكتبة T.2585).

التحرير ورغبت لديه في معرفة اسم المترجم المجهول الذي نـقـل إلى العربيّة مقال «الكاتب الجديد الكبير» فقال : «كان المترجمون العاملون في المجلة مثقلين بالعمل، فقـرّرت أن أنهض أنا بترجمة مقالك ».

إنّ أسلوب طه حسين لا يمـكن أن يخطئه أحد. إنّه منذ خمسة وعشرين عامــا أروع أسلوب وما يزال كذلك فردا يتيما*. ألا يحزّ

= علي العش : *تحليل سيمائي للجزء الأوّل من كتاب : «الأيّام»* ، لطه حسين، رسالة لنيل شهادة الكفاءة في البحث بإشراف الأستاذ عبد السلام المسدّي، بتونس : كليّة الآداب، 1977 ، قسم الرسائل (بحث مرقون رقمه بالمكتبة T.1707).

- مصطفى حســن : *دراسة الجملة البسيطة من خلال كتـاب «الأيّام»* لطه حسيـن، رسالـــة بإشراف الأستاذ عبد القادر المهيري، تونس : كليّة الآداب، 1974، قسم الرّسائل (بحث مرقون رقمه بالمكتبة T. 1610).

- فؤاد القرقوري : «في كتاب الأيّام وفي جنس الخطاب لطه حسين»، ضمن كتاب : قراءة النص بين النظرية والتطبيق/ وقائع الملتقى القومي المنظم بصفاقس8 و9 أفريل 1988، تونس : منشورات المعهد القومي لعلوم التربية 1990، ص 295 - 218.

* كتب غاستون فييت في نفس المعنى قائلا : «إنّ طه حسين - بعد الجاحظ - هو الكاتب الوحيد الذي يعرف بأسلوبه» (Le seul écrivain depuis Jahiz qu'on reconnaisse à la manière de sa phrase) (ذكره إيتيامبل، نقلا عن فييـت ، فـي كـتـابـه : *فن الكتابة*، ص 618).

في النفس أن يكون أمر النثر في الأدب العربي الحديث على هذه الحال ؟ **

** نودّ أن نشير، في ختام هذا النص «مع طه حسين»، وفي ختام هذا القسم الأوّل: «شهادة عيان عن طه حسين إنسانا وكاتبا»، إلى شهادة أخرى، هي شهادة تونسية، نقصد شهادة البروفسور منجي الشملي، وكان لقي طه حسين في بيته «رامتان» بالقاهرة سنة 1967، ومن وحي هذا اللّقاء الفصل الذي كتبه بعنوان: «طه حسين: 1889 ـ 1973» ونشره غداة وفاة العميد، في *حوليات الجامعة التونسيّة* (تونس) العدد 10 ـ 1973، وقد استهلّه بقوله:

«رجل طيب المعاشرة، حفيّ بزائريه في مجلسه، عذب الحديث لطيف النبرات، مكفوف البصر ولكنّه «واضح الجبين، لا تظهر على وجهه هذه الظلمة التي تغشى عادة وجوه المكفوفين»، لا يتردّد في مشيته إذا مشى ولا تختلف خطاه، مستقيم الجلسة إذا جلس لا يتكئ ولا يحتبي، يلقاك مبتسما إذا دخلت عليه كأنّه يراك، ويحسن الإصغاء إذا تحدّثت إليه كأنّه يتعلّم، ثمّ يجادلك بالرأي الواضح والعلم الغزير إذا لم يكن من الجدال بدّ، رفيقا كأنّه عنيف، هادئا كأنّه ثائر: هو طه حسين. . .»

راجع هذا الفصل في كتاب منجي الشملي: *الفكر والأدب في ضوء التنظير والنقد*، ط. 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985، ص 94 ـ 99 .



القسم الثاني

«أيّام» طه حسين بدءا وعودا



«الأيّام» أوّل تأليف عربي حديث في الجنس الترجذاتي *

بقلم غاستون فييت **

نحن ، هنا، مع الجــزء الثاني من كتاب طه حسيــن «الأيّام» ، وكان طه حسين قــد قصّ علينا، في جزء أوّل، ترجَمَهُ إلى الفرنسيّة

---

* Taha Hussein :*Le Livre des jours,* 1 ère et 2 ème parties,trad. de l'arabe par Jean Lecerf et Gaston Wiet, 1 ère éd. Paris : Gallimard, 1947, Préface de la 2ème partie par Gaston Wiet, pp.117-120.

هذا الفصل، في أصل وضعه، مقدّمة بقلم ڤاستون فييت للترجمة الفرنسيّة التي أنجزها للجزء الثاني من كتاب «الأيّام» ونشرها سنة 1940 لدى مؤسّسة مجلة القاهرة بمصر :
Taha Hussein : *Le Livre des Jours* (Deuxième partie), traduit de l'arabe par Gaston Wiet, Le Caire : Eds de la Revue du Caire, 1940 (Préface de G.Wiet)

وكان الجـزء الأوّل من كتـاب «الأيّام» صدر مترجما إلى الفرنـسيّة بقلـم جـان لوسيرف (Jean Lecerf) سنة 1934 عن مطبعة الأكسلسيور بباريس (بدون مقدّمة) :
Taha Hussein : *Le Livre des Jours - Souvenirs d'enfance d'un Egyptien,* traduit de l'arabe par Jean Lecerf, Paris : Eds. Excelsior, 1934).

ثمّ صدرت ترجمة الجزء الثاني مضمومة إلى ترجمة الجزء الأوّل في سفر واحد قدّم له أندريه جيد(André Gide) بنصّ (ترجم ضمن هذا المجموع)، وصدرت هذه الطبعة في باريس سنة 1947 عن دار ڤاليمار للنشر.

مقدّمة فييت موسومة في الأصل بعبـارة (Préface). أمّا عنوان الفصل العربـي هنا: « «الأيّام» : أوّل تأليف عربي حديث في الجنس الترجذاتي» فجملة تخيّرناها، من نصّ الكاتب، عنوانا.

** ڤاستون فييت (Gaston Wiet) مستشرق فرنسي ولد في باريس عام 1887 وتوفّي عام 1971 . درس أوّلا في مدرسة اللغات الشرقيّة بباريس، حيــث تعلّم العربيّة=

جان لوسيرف (Jean Lecerf) وظهر سنة 1934، [الأحداث التي جدّت] في السنينّ الأولى من حياة صبيّ لمّا يبلغ سنّ الثالثة عشرة. إنّها

= والتركيّة والفارسيّة، وفيها تخرّج سنة 1900 . ثم انتقل إلى مصر، وفيها التحق بالمعهد الفرنسي للآثار الشرقيّة (I.F.A.O.) سنة 1909 . تتلمذ فييت في فرنسا ثمّ في مصر ثمّ في سوريا على كبار المستشرقين في مطلع القرن. وفي سنة 1911 عيّن فييت مدرّسا للغتين التركيّة والعربيّة في كلية الآداب بجامعة ليون، وفي السنة الموالية، 1912 ، كلّف بتدريس الأدب العربي في الجامعة الأهليّة بالقاهرة وتحوّل بعدها إلى سوريا ليشتغل ضابطا ومترجما في الجيش الفرنسي.

عني فييت عموما بالآثار الاسلاميّة والمصريّة خاصّة، وبعلم النقوش العربيّة بحثا وتدريسا. وقد شغل في القاهرة لمدّة سنوات طويلة منصب مدير مصلحة الآثار العربيّة (1926 ـ 1952) ومدير متحف الفنّ العربي. من مؤلّفاته الغزيرة: *(Matériaux pour un corpus Inscriptonium)* «*موادّ لمدوّنة النقوش العربيّة*» و*(La Grandeur de L'Islam de Mahomet à François I)* «*عظمة الإسلام من النبي محمد إلى فرانسوا الأوّل*»، ووضع بالاشتراك مع جان سوفاجيه) *Répertoire Chronologique d'Epigraphie arabe)* «*الفهرس التّاريخي لعلم النقوش العربيّة*» وبالاشتراك مع لوي هوتكور *(Les Mosquées du Caire)* «*مساجد القاهرة*» كما وضع كتاب «*مصر العربيّة: من الفتح العربي إلى الفتح العثماني*» ونشر «*الخطط والآثار*» للمقريزي في خمسة أجزاء، كما نقل إلى الفرنسيّة «*كتاب البلدان*» لليعقوبي.

أمّا في حقل الأدب فقد ساهم فييت في تأسيس *(La Revue du Caire)* أي «*مجلّة القاهرة*» *(1938)* وتولّى إدارتها، وهي مجلة ناطقة باللسان الفرنسي، كانت تصدر مرّة كلّ شهر عن الفرع المصري للرّابطة الدّوليّة للكتّاب الناطقين بالفرنسيّة، وقد ظهر منها العدد الأوّل في أفريل 1938 وتوقّفت عن الظهور سنة 1953، وشاركت فيها أقلام مصريّة وأجنبيّة، وعلى صفحاتها نشرت دراسات وبحوث مهمّة راقية المستوى، وكان ڤاستون فييت من أبرز كتابها، وفي الأدب أيضا نشر فييت كتابه *(Introduction à la littérature arabe)* «*مدخل إلى الأدب العربي*»، ونقل إلى الفرنسيّة كتاب توفيق الحكيم «*يوميات نائب في الأرياف*» وقصّة «*بنت الشيطان*» لمحمود تيمور.

كان ڤاستون فييت ـ فيما تذكر سوزان طه حسين ـ من أصدقاء الأسرة، وكان يتردّد على بيت طه حسين، وعند فييت كان ينزل جيد (A.Gide) حين يزور مصر، وهو الذي قدّم جيد إلى طه حسين. وقد ترجم فييت الجزء الثاني من كتاب «*الأيّام*» المشار إليه في هذا الفصل، كما ترجم له كتاب «*شجرة البؤس*» :

Taha Hussein : *L'arbre de la misère,* trad. de Gaston Wiet, Le Caire : Dar Al-Maaref, 1964.

قصّة بريئة على امتدادها، مؤثّرة على امتدادها، فيها يروي استكشافه للعالم الخارجيّ. ولكنّ الصبيّ، هنا، يفقد البصر، بعيد ولادتـه، إثر إصابته برمد لم يحسنوا علاجه، فيتأثّر القارئ لذلك تأثّرا.

نصل الآن إلى فترة المراهقة، فقد غادر الصـبـيّ قريته، وإذا به يقيم في القاهرة لينتسب إلى الأزهر طالب علم. هانحن ندخل معه مبيتا لطلاّب فقراء، وكدت أقول لطلاب جياع. هم طلاّب يعيشون في بؤس يملؤه المرح، غير شاكين ولا متبرّمين، يعيشون مجتمعين مشتركين في كـلّ شيء، ولم تكن أطاييب الطعام عندهم تتـجـاوز الفول المـدمّس يأكلونه اليوم والأسبوع والشهر والسنة، فـي غـيـر هوادة، وكؤوسا من الشاي، وألوانا من الحلوى.

كان الطلاّب يشتركون في مزاولة الدّروس، وكان الخوف الأكبر لديهم أن يبتلوا بالإخفاق. وأمّا مشائخ الأزهر فكانوا عرضة لشيء من الازدراء، أو على الأصـحّ، لشيء من الأذى، باستثناء الشيـخ الإمام المصلح محمد عبده، أمّا الطلاب فمتشابهون، حيثما كانوا، ينقدون شيوخهم حتّى يأتي يوم يسخر فيه منهم الجيل اللاحق.

إنّ كتاب *«الأيّام»* لم يفصح عن كـلّ شيء : فهو ليس يوميـات الصبيّ. ولكنّه قصّة تأليفيّة حيّة تروي الأحداث الأكثر تداولا، وتصف الأشخاص المألوفـيـن، ثـمّ هو أخيرا، عرض صريـح، إلـى حـدّ الاعتراف، للأعمال والأفكار.. يا له من نور ساطع قذف بـه فـي صدره ! لقد سار الـرسّام [هنا] على النهج الذي كان سار عليه فـي الجزء الأوّل [من كتاب *«الأيّام»*] : إنّه يرسم بلمسات لطيفة، وجسّات

الريشة لا تكاد تمسّ قماشة الرّسم. ومع ذلك فإنّ جوهر الأشياء قائم أمامنا لا يغيب عنّا، وعلينا نحن أن نمدّ الخطوط أو أن نبرزها.

وعلى خلفيّة قاتمة، ليس للرّتابة فيها نصيب إذ نلفي روحا تخفيها الأحداث الأكثر ابتذالا، تضفي نبرات أليمة مليئة بالسخط أو الحزن وقعا مهيبا ذا مدى رحب صارم.

إنّ المأساة التي تعتمل في دخيلة الصبيّ لمؤلمة ممضّة: فهو يدرك ضعفه الداخلي، فيهوّل من شأنه، بإرادة عجيبة قوامها الصمت، هذا الشكل المضخّم للعزلة: والحقّ أنّه ما من أحد عبّر تعبيرا أوضح منه، عن أهوال الوحدة، وحدة الليل خاصة، حين يتعطّل الذهن إلاّ ليرصد صوت الظلمة *.

هكذا تمتدّ طريقة مرسومة تجمع شهودا فيما بينهم انتقتهم الذاكرة حسب الصدفة. هنالك ينكشف لنا فنان بديع هو ذاته الذي يدعونا بنفسه، في غير حرج، وفي غير ادّعاء، وفي غير تزييف، إلى أن ننظر في آرائه وأن نقوّم طريقة حياته.

لماذا، عندما أقرأ هذا النصّ العربيّ، ينتابني دوما إحساس بأنّي أسبح تحت سماء ليست سوداء بالمرّة؟ لقد أدركت حقّا المعنى العميق الكامن في الحكمة البودليرية: «إن الروائح والألوان والأصوات لتتجاوب».

---

* يشير الكاتب هنا إلى الصفحات الرائعة التي كتبها طه حسين حول عذاب الوحدة. انظر: *الأيّام*، مج 1، المجموعة الكاملة، ط.1، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1982، ج1، ص 189 ـ 200 (من الفصل الخامس).

أمّا اليوم، فإن طه حسين لم يبق ذلك الصبيّ الذي يقوده رفيق [له] يقوم بشأنه ليجنبه عقبة قائمة في الطريق. إنّه قائدنا، لأنّنا، في صحبته، نستكشف ونرى هذه الغرفة أو ذاك البناء، أو تلك الطريق الضيّقة الملتوية من ربع الأزهر. إنّا لممتلؤون سعادة، ونحن في الرحلة على أثره، في شوق إلى مزيد الانتفاع يغدقه علينا بغير حساب.

إنّ الأزهر هو صلة الوصل بين اللّوحات الجزئيّة. ولكم كنت أودّ أن أقول إنّه الشخصيّة الرئيسيّة لأنّه يترك فينا انطباعا متوهّجا. وفي الأزهر نُصيب حظا من التقوى التي أثّرت في الفتى تأثيرا، وفي الأزهر نختلف إلى دروس، فائدتها العاجلة موضع شكّ، ولكنّها خلّفت أثرا راسخا خصبا بفضل [ما احتوته] من دراية مستكملة للغة وعلوم الدين.

ولكن يتبيّن لي، في الختام، أني لم أكد أتحدّث عن الكاتب، أو لكأنّي لا أتحدّث عنه. ألا يكون من الصلف الذي لا يغتفر أن نعرّف القارئ، في مصر، والقارئ الأوروبي كذلك، بطه حسين؟ إنّ الأمر الذي علينا ألاّ نغفل عنه، خارج [مصر]، هو الصيت الذي ناله هذا الكاتب الكبير عن جدارة في عالم الأدب، فقد أحرز طه حسين ثقافة عالميّة تحكي، في الآن ذاته، ملامح المثقف في القرن السابع عشر بأوروبا، وملامح العالم في العصر الوسيط العربي، فكان بذلك كاتبا مبدعا. وما كان ذلك الثراء الثقافي أن يحدّ من إبداعه إنّما دفعه إلى الطّرافة دفعا. فالشكل والمضمون في كتابته لهما طابع مخصوص به. ولا أحد من بين قرّاء العربيّة يعارضني

بشأن لغة طه حسين. فروعة تشابيهه البارعة، وقـوّة ألفاظه، وهما صادرتان عن العبقريّة الشعريّة دوما ، وعن اللغة، ما كان لهمـا أن تخفيا الصراحة عنده. كان كلّ هذا، في الزمن الماضي، زينة وبذخا لا يقصد منهما التعمية والتغرير، ولكن من ذا الذي يجرؤ، بعد طه حسين، حتّى يستعيد تلك الفخامة البديعة لأسلوب السلف ؟

نقرأ هذا القول المستحدث الصافي الأليف، فإذا الروعة فيه قائمة لم يصبها وهن، ولا انفعال أيضا.

لقد استكشفتُ هذه الرقة الجديدة وأعجبت بها، واجتهدت في أن أتأثّر بها. فإذا لم يظفر القارئ الفرنسي بهذه الخصال، وظنّ بي أنّي أنظم مدحا أملته المودّة الصادقة التي تصلني بالكاتب، فمعنى ذلك أنّ المترجم، على الرغم من حماسته، لم يوفّق.

ليس طه حسين مجدّدا في الشكل فحسب، فلنا في آدابنا الـغربيّة قصص عن المراهقة منها *«ذكريات الطفولة والشباب»* *(Souvenirs d'enfance et de jeunesse)* *، و*«بيير الصغير»* *(Le Petit Pierre)*** ،

---

* من تأليف الكاتب الفرنسي والمفكّر المؤرّخ إرنست رينان (Ernest Renan) المولود سنة 1823 والمتوفّى سنة 1892 . وقد نشر رينان كتابه هذا عام 1883 ، وفيه حلّل الأسباب والظروف التي قادته إلى أن يفقد الإيمان.

** من تآليف الكاتب والناقد الفرنسي أناتول فرانس (Anatole France) المولود سنة 1844 والمتوفى عام 1924 محرز لجائزة نوبل عام 1921. ولأناتول فرانس ثلاثية استعرض فيها ذكريات الطفولة، هي على التوالي: *«كتاب صديقي»* *(Le Livre de mon ami -1885)* و*«بيير الصغير»* *(Le Petit Pierre -1918)* و*«زهرة العمر»* *(La Vie en fleur - 1922)*.

و«*الشعر والحقيقة*» *(Poésie et Vérité)* *، وفي قالب روائي كتاب «*دافيد كوبرفيليد*» *(David Copperfield)* ** . أمّا في اللّغة العربيّة، فإنّ كتاب «*الأيّام*» يعدّ، في اعتقادنا، أوّل تأليف في هذا الجنس الأدبيّ، وليس هو أقلّ قيمة ممّا ألّفه السابقون، وإن بعد بهم الزمان، بل إنّه لا يعدم حتّى ذلك الحزن الذي نلفيه لدى جول رونار (Jules Renard) ***، وإن كان أقلّ لذعا وأشدّ حنوّا.

قاستون فييت

---

* من تآليف الكاتب والشاعر الألماني غوته (Johann Wolfgang Von Goethe) المولود سنة 1749 والمتوفّى سنة 1832 . والكتاب المذكور هو ترجمة ذاتيّة لغوته ظهرت سنة 1833 .

** من تأليف الروائي الأنكليزي شارل ديكنز (Charles Dickens) المولود سنة 1812 والمتوفّى سنة 1870 . والكتاب المذكور، وقد ظهر سنة 1849، قصّة صبي يتيم مضطهد يبلغ السعادة في آخر المطاف.

*** جول رونار (Jules Renard) كاتب فرنسي شهير ولد سنة 1864 وتوفّي سنة 1910 . والكتاب المقصود هو كتاب «*ذو الشعر الأشقر*» *(Poil de Carotte -1894)* وهو قصّة عن مرحلة الطفولة، وفيه استحدث جول رونار نموذج الطفل العُركة أي الذي يحتمل الأذى (L'Enfant souffre-douleur) .



الصبيّ الضرير هبة الله لمصر*

بقلم أندريه جيد **

غربة فكريّة مذهلة هي الحال التي تعتريني، أوّل وهلة، وأنا أقرأ كتاب «الأيّام». وإليها ينضاف أمرآخرغريب وهو أنّ هذا

* André Gide : "Ma rencontre avec l'écrivain arabeTaha Hussein", *Le Littéraire*, 12/4/1947.

هذا الفصل ألّفه الكاتب الفرنسي الكبير أندريه جيد في شهر فيفري سنة 1947 إثر لقاءات جمعته بطه حسين، ونشره أوّل مرّة في صحيفة «الأدبي»(*Le Littéraire*) ستسمّى فيما بعد «*الفياغرو الأدبي*»(Le *Figaro Littéraire*) - في 12 أفريل 1947، بعنوان : «لقائي للكاتب العربي طه حسين». أمّا عنوان الفصل العربي هنا : «الصبيّ الضرير هبة الله لمصر» فجملة تخيّرناها من نصّ الكاتب عنوانا. وهذا الفصل ذاته هو الذي صدّر به أندريه جيد ترجمة كتاب «*الأيّام*» إلى اللّغة الفرنسيّة في طبعة عام 1947، التي جمعت بين ترجمة الجزء الأوّل من كتاب «الأيّام» بقلم جان لوسيرف (Jean Lecerf) الصّادرة أوّل مرّة بالقاهرة سنة 1934، وترجمة الجزء الثاني منه بقلم قاستون فييت (Gaston Wiet)، الصادرة أوّل مرّة بباريس سنة 1940 انظر :

Taha Hussein : *Le Livre des Jours*, Ie et IIe parties, trad. de l'arabe par Jean Lecerf et Gaston Wiet, 1 ère éd., Paris : Gallimard, 1947. Préface d'André Gide, pp.I -VI.

** أندريه جيد(André Gide) : من أدباء فرنسا المشاهير في القرن العشرين. ولد بباريس سنة 1869، وتوفي بها عام 1951. تميّز أدب جيد، منذ بداياته، بروح=

الأثر من تأليف رجل كفيف. والمؤلّف، من بداية القصّة إلى نهايتها، لا يدعنا ننسى ذلك .

=التمرّد ورفض المحافظة والجـرأة فـي التّفكير والـصدق فـي التّعبير ممّا جعله في وضـع صـدام مع الـنّاس والمؤسّسات والمذهبيّات. كان جيد، في فترة من حياته، مـن دعـاة الالتزام في الأدب وربط السياسيّ والاجتماعيّ بالأدبيّ، مهيّئا بذلك السبيل إلـى جان بول سارتـر (Jean Paul Sartre)، وانخرط في الحزب الشيوعي، وكانت له مواقف سياسـيّة من قضايا عصره الساخنة في إفريقيا وآسيا وأوروبا الشرقيّة. ولكن التجربـة أكّدت له أن لا إمكان للتّوفيق بين الإبـداع والالتزام، وانسلخ من الحزب الشيوعي، وابتعد من السياسة وآثر أن يفرغ للأدب إبداعا ونقدا، وأسّس *المجلّة الجديدة الفرنسيّة (Nouvelle Revue Française)* ووقفها وجماعته على خدمة الأدب الخالص.

لم يلق أدب جيد شهرة واسعة في بداية حياته، ولكن مع اقترابه الـخـمسـين أخذت أعماله تذيع ذيوعا بعيدا، ويمكن القول إنّ أشهر أعماله هي تلك التي نشرها بعد بلوغه سنّ الخمسين، فعرف المجد آخر أيّامه، وأحرز عدّة جوائز، في فرنسا وخارجهـا، وعـام 1947 أحـرز جائزة نـوبل للآداب. تـحـمـل أغلـب مؤلّفات جيد طابـع الترجمـة الذّاتيّة، وإن لـم تكن دوما ترجمـة ذاتية. ومـن أبرزها ترجمته الذاتيّة «*لو أنّ البـذرة لا تمـوت*» *(Si le grain ne meurt* - 1924) وراوية «*المزيّفـون*» *(Les Faux - monnayeurs* - 1926)، وقصّتا «*أوديب*» *(Oedipe* -1931) و «*ثيسيوس*» *(Thesée* - 1946) وفيهما استلهم الأساطير اليونانـيّة الشهيرة، ومنها «*يوميّات أندريه جيد* : 1889-1939» *(Journal* 1889-1939).

أندريه جيد صديق حميم لطه حسين، وقد كانت بين الرجلين علاقة وثيـقـة : إعجاب متبادل، ولقاءات شخـصـيّة، ومراسلات، وضروب أخرى من الـتـعـاون الفكري. بدأت هذه العلاقة منذ مطلع الثلاثينات حين استكشف طه حسين بالمطالعة أعمال جيد، وراح يقرأ له كل ما يقع بين يديه. في نهاية عام 1939 ، بعيد اندلاع الحرب العالميّة الثانيّة، زار جيد مصر، ولكـنّ ظروفا شخصيّة ألمّت بجيد حالت دون التقائه بطه حسين. وفي هذا العام بالذّات ظهرت في باريـس «*يوميّات أندريه جيد*» فكتب عنها طه حسين على الفور فصلا مهمّا مطوّلا ظهر فيه إعجابه الشديد=

=بجيد ونشره في *مجلة الثقافة* بتاريخ 1939/11/28 مصدّرا إيّاه بقوله «قرأت له كثيرا وقرأت عنه كثيرا وشغلت بأحاديثه كما شغل بها كثير من النّاس»، ثمّ ضمّه إلى كتابه : *فصول في الأدب والنقد*، مج 15 من المجموعة الكاملة لطه حسين، ط.2، القاهرة : دار الكتاب اللبناني، 1983 ، ص 451 ـ 574 . وفي أثناء ذلك وبعده عمل طه حسين على التعريف بجيد وآثاره لدى قرّاء العربيّة. فكان وراء ترجمة حسن صادق لرواية جيد الذائعة الصّيت (*La Symphonie pastorale* - 1919) بعنوان «السمفونيّة الريفيّة » الصادرة عن لجنة التأليف والنشر سنة 1936 . وكذلك كان الدّافع إلى ترجمة نزيه الحكيم لرواية جيد (La Porte étroite ـ 1909) بعنوان *«الباب الضيّق»* الصادرة عن دار الكاتب المصري سنة 1946، وقد عرّف طه حسين بالكاتب والكتاب والترجمة لدى قراء العربيّة في مجلة *الكاتب المصري*، عدد 5، فبراير 1946 ، ص 171-172 . وكان طه حسين الدّافع أيضا إلى ترجمة عدد من أعمال جيد بعد انتهاء الحرب العالميّة الثانية، منها(*Isabelle* -1911) *«إيزابيلا»*، و (*L'Ecole des femmes* -1929) *«مدرسة النساء»*، و (*Robert* -1930) *«روبير»*، و- (*Geneviève* - 1936) *«جينيفييف»* . في شتاء سنة 1946 (جانفي ـ فيفري) زار جيد مصر ثانية. فلقي طه حسين مرّات في بيته. لم يكن جيد يحسن اللغة العربيّة، لكنّه كان يعنى كثيرا بما كان يكتب طه حسين كما كان يكنّ له تقديرا ممتازا. فقرأ على مسمع طه حسين في بيته قصّة *«ثيسيوس» (Thésée)* قبل نشرها في اللّغة الفرنسيّة. وقد أعجب طه حسين بنصّ *«ثيسيوس»* فاستأذن جيد في ترجمة قصّة *«أوديب»* وقصّة *«ثيسيوس»* إلى العربيّة، وهما عند جيد أحبّ أعماله إليه، فكان له ذلك. وفي نهاية السنة ذاتها، 1946، نشر طه حسين ترجمة القصّتين ـ مضمومتين إلى بعضهما بعضا حسب توصية جيد ـ تحت عنوان *«أوديب ـ ثيسيوس : من أبطال الأساطير اليونانية»* عن دار الكاتب المصري، مع مقدّمة جوهريّة تحدّث فيها عن الكاتب الفرنسي وعن رحلة هاتين الأسطورتين من الأدب اليوناني القديم إلى الأدب الأوروبي المعاصر، وبإهداء مؤثّر إلى جيد قال فيه طه حسين :

«سمعتك تقرأ لنا قصتي *«أوديب»* و *«ثيسيوس»* فعرفت الحنان الخاصّ الذي تؤثرهما به. ومن أجل هذا علّمتهما العربيّة ليبلّغا إلى قرّاء الشرق رسالتك التي هي ثقة وشجاعة واستبشار. وسيشهدان كذلك بما أضمر من إعجاب بك قد أصبح منذ التقينا ودّا كريما».

وقد نشر طه حسين مقدّمة جيد لكتاب «ثيسيوس» في مجلة *الكاتب المصري* عدد 10 ، 1946 . ثمّ تعددت لقاءات جيد وطه حسين بباريس. وواصل طه التعريف=

إنّه يعرض عرضا دقيقا تجاربه الأولى حين كان صـبـيّا، حرصـا على أن «لا تظهر على وجهه هذه الظلمة التي تغشـى عـادة وجـوه

=بأعمال جيد، فنشر له ترجمة كـتـابـه (*Promothée mal enchaîné* - 1899) بعنـوان «*بروميثيوس ذو الغـلّ المهمـل*»، على صفحات هذه المـجـلّة، عدد 1 ، 1948.
وحسب السيدة سوزان طه حسين، فـإنّ أندريه جيد كان الدّافع إلى نشر الجزأين الأوّل والثاني من كتاب طه حسين «*الأيّام*» مترجمين إلى الفرنسيّة في كتاب واحد، وقام هو شخصيّا بتصحيح التجارب المطبعيّة بباريس.
في عام 1951، توفي أندريه جيد، فأصدرت *المجلّة الفرنسيّة الجديدة (NRF)* عددا ممتازا تكريما للفقيد، وشـــارك فـــي هـــذا العدد كوكبة من كبـار الـكـتـاب والمفكّرين، منهم سان جون بيرس (S.-J. Perse) وكامو (A. Camus) وكوكتو (J.Cocteau) وآخرون، ومنهم طه حسين، فكتب بالفرنسـيّة فصلا يرثي فيه صديقه جيد عنوانـه (Ce grand don de conversation et d'amitié) رثاء يعـبّر عن عمق الصلة الـفـكـريّـة والأدبيّة بين الكاتبين، وفيه يصفه بـ «الرّفيق والصديق والمعين» انظر :
Taha Hussein : "Ce grand don de conversation et d'amitié", *Nouvelle revue française*, t.XI, n° spécial, 1951.
وانظر تعريبـا أوّل لهذا الفصل بقلم إبراهيم الكيلانـي وتعريبا ثانيا بقلـم عـبـد الرشيد الصادق المحمودي :
ـ «طه حسين : يرثي صديقه أندريه جيد» ترجمة إبراهيم الكيلاني ، *المعرفة* (دمشق)، ع 153 ، تشرين الثاني ـ ديسمبر 1974 ، ص 169-173 .
ـ طه حسين : «هبة الحديث والصداقة» ترجمة عبد الرشيد الصادق المحمـودي، ضمن كتاب : *من الشاطئ الآخر ـ طه حسين في جديده الذي لم ينشر سابقـا :* كتابات طه حسين الفرنـسـيّة جمعها وترجمهـا وعـلّق عليها عبد الرشيد الـصـادق المحمودي، ط.1 ، باريس : إدفرا ـ بيروت : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1990 ، ص 45-50 . وراجع، فضلا عن الإحالات السابقة :
ـ سوزان طه حسين : *معك* ، ترجمة من الفرنسية بقلم بدر الدين عرودكي ومراجعة محمود أمين العالم، ط.1 ، القاهرة : دار المعارف (سلسلة كتب أكتوبر). 1979، ص 157-159.
Raymond Francis, "Itinéraire de Taha Hussein", *La nouvelle Revue du Caire,* vol.1, 1975, p.43-44.
(مترجم ضمن هذا المجموع).

المكفوفين»[1]. إنّ صلاته الأولى بالعالم الخارجي كادت تكون جارحة كلها، وآسفاه. فهو يرسم لنا ذلك العالم الذي لا يستطيع أن يراه، والذي لن يدركه إلاّ بما سيلحقه منه من ضروب الأذى.

كانت أسرة طه حسين أقرب إلى الفقر منها إلى الغنى، ولم يكن ما تحبوه به من عطف كافيا ليذود عن الصبيّ الصدمات الأليمة. ولمّا كان سجين عاهته، فإنّه لم يكن يملك أن يشارك أترابه في ألعابهم، ولا أن يرافق ـ فيما بعد حين نتبعه إلى القاهرة ـ أقرانه من طلاّب الجامعة في لهوهم.

ولكنّ هذه ا لعزلة التي كانت لا تني تؤذيه، وهذا الانطواء الذي اضطرّ إليه اضطرارا أنشآ فيه، على غير وعي منه، أندر الخصال التي يتحلّى بها مفكّر أخلاقيّ وناقد وشاعر، والتي ستجعل منه ألمع ممثّل للثّقافة الاسلاميّة المعاصرة. وما أسرع ما اعتمل في نفس الصبيّ توق جامح إلى التعلّم والتثقّف وإلى تجاوز البيئة البائسة التي قضي عليه بأن يعيش فيها عيشة ضنكا زمنا غير قصير.

كان الأمر المهمّ أوّلا أن يشعر الصبيّ بالرداءة المزعجة لتلك البيئة وأن يدرك معناها، على حين أن كلّ النّاس، من حوله، كانوا راضين، لم يكن سلوكهم ذاك ضربا من الاستسلام، إنّما الحكمة ـ فيما كان يقال له ـ أن يقبل الانسان المصيبة التي تصيبه، وأكثر من ذلك ألاّ يعدّ شرّا قضاء لا مردّ له قضى به اللّه. إلاّ أنّ طه حسين،

---

1) طه حسين : *الأيام*، مج. 1 من المجموعة الكاملة، ط.1، بيروت : دار الكتاب اللّبناني، 1982، ج1، ص 144-145.

وهو وجل في ظاهره، إنسان في حقيقة أمره متمرّد، وما تواضعه الظاهر سوى قناع يخفي كبرياء بليغة مشروعة. ولقد وعى مآثره وما في داخله من روح الاضطراب وميل إلى التمرّد من خلال مشادة جرت له مع أبويه، رواها [لنا] في دقته المألوفة. وإذا نحن، عبر هذه القصّة الطويلة، نلفي روحا نقديّة لاذعة غير معهودة، ولكنها تتجلّى بصفة خاصّة في القسم الثاني من الكتاب، حين يغادر الصبيّ قريته ليذهب إلى القاهرة حيث سيتابع دروس مختلف الشيوخ المشاهير. ويالهم من شيوخ! ويا له من تعليم هو تعليمهم! لقد كتب إرنست رينان (E.Renan) في كتابه *«كراسات الشباب»(Cahiers de Jeunesse)* في الصفحة السابعة والثلاثين بعد الثلاثمائة قائلا :

«لم ير أونك (Onques) أشدّ غباوة ولا أكثر تحذلقا ولا أزعج سماجة من هؤلاء الأساتذة في معهد هنري الرابع».

وأضاف، بعد أن استعرض طائفة من هؤلاء الأدعياء البائسين، أو هؤلاء المشاغبين، كما كان يطلق عليهم في مقاطعة بريطانيا (Bretagne)، أشباه العلماء هؤلاء الذين «يجسرون على أن يكونوا أدعياء أكثر فأكثر»، أضاف قائلا :

«... إنّي لمقتنع دوما أكثر فأكثر (لاحظ أن عبارة «دوما» هي غير مفيدة ولكن لا شيء أقلّ إتقانا من كتابة هذه الكراسات) أنّ ذلك التعليم لهو باطل في أساسه، وأنّ هؤلاء الرجال لجديرون بالشفقة، وأدعياء ادّعاء يبعث على سخريّة يعجز المرء عن التعبير عنها. إن هم إلاّ بلاغيون ونحويون (والتأكيد

من عند رينان). إنّ التّعليم [في هذه المؤسّسة] ما يزال في المرحلة التي كان عليها في القرون الأولى من العصر البشري، يوم كان موكولا إلى طائفة من سماسرة الكلام خليقين بالرثاء».

كنت أتذكّر هذه السطور، وأنا أقرأ كتاب *«الأيّام»* ، فإذا اللوحة التي رسمها في هذا الكتاب لمشائخ العلم البائسين الذين كان يحضر دروسهم في القاهرة مكرها ليست أقلّ قتامة من اللّوحة التي رسمها رينان والتي إيّاها ذكّرتني اللّوحة الأولى. بيد أنّ الانعتاق كان، على أغلب الظن، أيسر على الطالب الفرنسي منه على التلميذ الخاضع لعلوم القرآن حيث كلّ شيء يعمل على التّرويض والاستعباد : تقاليد السلف والسَّنَنَ الرتيب وغياب النماذج الداعيّة إلى التحرّر المشجّعة للفكر وقبول الرأي المخالف.*

* موقف أندريه جيد هنا يستحقّ وقفة خاصة ، ففيه انتقاد صريح للقرآن ولعلوم القرآن وللفكر الاسلامي عموما. ولئن كان معلوما أن جيد كان، في حياته، معاديا للأديان، ثمّ لئن كان جيد قد خرج على المسيحية، عن معرفة بها، فإننا لا نجد ما يسوّغ لجيد الموقف الذي وقفه من الإسلام على هذا النحو الذي أعرب عنه هنا، ذلك أنّ أندريه جيد لم يكن يعرف اللغة العربيّة أصلا، إنما قرأ ما قرأ من نصوص الأدب العربي، قديمه أو حديثه، مترجما. وليس في آثاره ما يدلّ على أنّه استقصى فهم الاسلام. وفي رأينا أن عدم اطلاعه الكافي هو الذي قاده إلى إطلاق هذه الأحكام التي لا تخلو من جور وحيف. وليس أدلّ على صحّة ما نقول من الجدل الذي دار بين أندريه جيد وطه حسين ذاته بمناسبة صدور كتاب جيد *(La Porte étroite)* مترجما الى العربيّة بعنوان *«الباب الضيّق»*. فقد رغب نزيه الحكيم في نقل كتاب جيد إلى اللغة العربيّة، فكتب إلى جيد يستأذنه في ذلك ويطلب إليه أن يخصّ الطبعة العربيّة بمقدّمة من عنده، ولكنّ جيد عوض أن يكتب مقدّمة، بعث إلى الحكيم رسالة بتاريخ 1945/07/5 تقوم مقام المقدّمة، =

=وفيها وصف الإسلام بأنّه دين يكتفي بتقديم الأجوبة ولا يدعو إلى استخدام العقل ويحرّض على التسليم والطمأنينة، ولذلك فإنّه لا يمانع في تعريب الكتاب ولكنّه لا يرى لذلك فائدة، فالكتاب لن يفهم ولن يقبل قبولا حسنا، كتب جيد قائلا :

«. . . يدهشني اقتراحك ترجمة كتبي إلى لغتكم. . . إلى أيّ قارئ يمكن أن تساق؟ وأيّ الرغبات يمكن أن تلبّى ؟ ذلك أنّ واحدة من الخصائص الجوهريّة في العالم المسلم، فيما بدا لي، أنّه (. . .) يحمل من الأجوبة أكثر مما يثير من أسئلة. أمخطئ أنا ؟ هذا ممكن، ولكنّي لا أحسّ قطّ كبير قلق في نفوس هؤلاء الذين كوّنهم القرآن وأدّبهم. إنّه مدرسة للطمأنينة قلّما تغري بالبحث، وهذا فيما أظنّ هو الذي يجعل تعليمه محدودا. وأخيرا فأحسب أن ليس بين كتبي كلّها أبعد عمّا يشغل نفوسكم من كتابي *«الباب الضيّق»*، فبم يستطيع هذا الضمأ الصوفيّ الذي صوّرته هنا أن يمسّ نفوسا هي قعيدة اليقين ؟

ويردّ طه حسين على أندريه جيد في رسالة مفتوحة بتاريخ 1946/07/5 جعلها نزيه الحكيم صدر الترجمة العربيّة للكتاب المذكور إلى جانب رسالة جيد، ويكتب قائلا :

«. . لم تخطئ أنت، وإنّما دفعت الى الخطإ. لقد خالطت كثيرا من المسلمين ولكنك لم تخالط الإسلام. فليس على الإسلام بأس ممّا ألقى في روعك خلطاؤك المسلمون. ولقد عرفتهم في عصر مؤلم من تاريخهم، عصر انحطاط في العلم بالدّين، وفي الشعور الديني جميعا. ولم يكن من اليسير أن يظهرك الذين لقيتهم من المسلمين على حقائق الاسلام. فلو قد تعمّقوا الدين تعمّقا دقيقا لأظهروك على ما يثير القرآن من مسائل وما يعرض لها من جواب . . .

فالإسلام لا يغري بالدعة ولا بالخمول، وإنّما يحثّ على التروية والتفكير ويدعو إلى التدبّر والاستبصار، وأيّ شيء أدلّ على ذلك من القرون الخمسة الأولى في تاريخه، وما ينبغي أن تحمل على الإسلام بل على مؤثّرات أجنبيّة تبعة ما رأيت من ميل إلى التسليم يدهشك، وحدّ في التّفكير يسوؤك، واستسلام إلى الدّعة يؤذيك.

وهناك حقيقة لم يظهرك عليها العرب ولا المستعربون، وهي هذا القلق الديني الذي أثاره الإسلام في النّفوس أثناء القرن الأوّل والثاني للهجرة،=

= هذا القلق الديني الخصب الذي منح الآداب العالميّة من شعر الحبّ العذري والطموح الى المثل العليا ما ليس له في الآداب الأخرى نظير. . . »

أندريه جيد : *الباب الضيق*، تعريب نزيه الحكيم، ط. 1، القاهرة : دار الكاتب المصري 1946 ، ص 1 ـ 10 .

وحين التقى جيد بطه حسين، في زيارته إلى مصر في فيفري 1946، راح جيد يستفسر طه عن الاسلام في عناية جادة وما لبث أن قال لـه : «أعتـرف بـأنّك قد أصبت في خطابك». وقد علّق طه حسين في الفصل الذي ساهـم به في العدد الخـاص من *المجلّـة الجديدة الفرنسيّة (NRF)* الذي خصّص لتكريم جيد بعيد وفاته، عـلّق على هذا الموضوع قائلا : «كان بيننـا في تلـك الـمرّة (يقصد طه حسين زيارة جيد إلى مصر شتاء 1946) خلاف، فقد بدا لي أنّه لـم يكن مصيبا في تفكيره، وأخبرته برأيي ذلك». (لـم نعثر على النص الفرنسي لفصل طه حسين المذكور، واعتمدنا في الشاهدين الأخيرين ترجمة عبد الرشيـد الـصـادق محمودي، راجعهما في كتاب : *من الشاطئ الآخر، طه حسين في جديده الذي لم ينشر سابقا* ، ص 47-49) . أمّا ما ذكره جيد عن غياب النماذج الداعية إلى التحرّر في تاريخ الثقافة العربيّة الإسلاميّة، ففي هذا أيضا مجانبة للصواب، وحسبه ما كتب طه حسين ذاته في كثير من مؤلّفاته عن رموز التحرر العقلي والسياسي والاجتماعي في الثقافة العربيّة الإسلاميّة. وحسبنا هنا أن نورد أنموذجا واحدا في حقل واحد، نورد بعضا من حديث طه حسين عن ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد على أنّها أنموذج أصيل لفكرة التحرّر الاجتماعي في ثقافتنا العربيّة الإسلاميّة، يقول في بداية تحليله الطويل لهذه الـثورة :

« . . . وربّما كان من الطريف أن نلاحظ أن كثيرا منّا يفكّرون في العدل الاجتماعي، ويحسّون حاجة الجماعات إليه، ولكنّهم ينظرون إلى ما وراء البحر الأبيض المتوسّط، ليلتمسوا في أوروبا مصادر هذا الشعور بالحـاجـة إلى العدل الاجتماعي، ومظاهر المطالبة به والسعي إليـه، يـنـظـرون إلـى الديمقراطيّة المعتدلة وينظرون إلى الإشتراكيّة الدّوليّة وإلى الاشتراكيّة الوطنيّة، وقد ينظرون إلى الشيوعيّة (. . .) ولكنّهم لا ينظرون أولا يكادون ينظـرون إلى فكرة المطالبة بالعدل الاجتماعي، كما وجدها المسلمون قبل أن ينتصف القرن الأوّل للهجرة، وقليل منهم بل أقلّ من القليل أولئك الذين يحاولون=

والأمر الأدهى، في خصوص طه حسين، ذلك اللّيل الرهيب الذي سجنته فيه عاهته *.

نحن نلفي في كلّ هذا ما يجعل القصّة تملك علينا أمرنا رغم ما يظهر فيها من إسهاب مملّ. إنّ هنا نفسا تختنق، إنّها تريد أن تحيا، إنّها تصارع.

ألا تكون ظلمات الجهل والحمق، من بين سائر الظلمات التي تشقيه، أشدّ وطأة عليه وأكثر خطرا وأهلك للنّفس من ظلمات العمى ؟ إنّ هذه الظلمات ذاتها لتكتنف مصر كلّها وهي أكثر سكونا

= أن يتابعوا نشأة هذه الفكرة وتطوّرها في البيئات الإسلاميّة الثائرة، وما أنتجت من ألوان الأدب، قبل أن تتأثّر بالثقافات الأجنبيّة (. . .) وما كان لها من أثر في حياتنا العقليّة المعقّدة في الفلسفة والكلام، وفي الفقه والأصول (. . .) فقد كان للمطالبة بتحقيق العدل الاجتماعي أبطال من حقّهم أن يدرسوا (. . .) إنّ لنا في المطالبة بالعدل الاجتماعي تاريخا حافلا عظيم الغناء يستحق أن نرجع إليه».

طه حسين : *ألوان*، مج 6 من المجموعة الكاملة، القاهرة : دار الكتاب اللبناني، 1981، ص 548 ـ 549 (فصل ثورتان). والأمثلة على هذه النماذج المحرّرة، في ثقافتنا، كثيرة.

* راجع حول هذا الموضوع : الفصل الشائق الذي كتبته السيدة أنجيل فانييه (Angèle Vannier) عن (Taha Hussein et les puissances de la nuit) «طه حسين وأسرار اللّيل» ، وقد كتبته خصيصا لمجلة *المعرفة* السوريّة في العدد الخاص الذي أصدرته عام 1974 في الذكرى الأولى لوفاة طه حسين وترجمه وليد فستق للمجلّة ، علما أنّها ألّفت كتابا طريفا سمّته : *(Les Otages de la nuit)* «*رهائن اللّيل* : نظرات في أبرز الكتاب المكفوفي البصر على اختلاف العصور والأمم»، انظر :

ـ أنجيل فانيه : «طه حسين وأسرار اللّيل»، *المعرفة* (دمشق)، عدد 153، تشرين الثاني (ديسمبر) 1974، ص 159-168 .

من مومياء، ومكبّلة في لفائف المعرفة الجوفاء، ومكبّلة باستظهار النّصوص البالية وبالجدل الفارغ وباجترار الماضي، وما من هزّة فكريّة جاءت لتغطّها وتبعثها من بين الأموات. إنّها لم تعد تبحث في الاسلام إلاّ عمّا يبرّر سباتها الفكري. وراحت تحصر مفهوم العلم في آيات قرآنيّة تجعل كلّ لفظ منها قيدا، وقوام الأمر عند المسلمين أن يقولوا : «هل أتقن [الصبيّ] حفظ القرآن ؟» والويل لمن يزلّ لسانه أبسط زلّة. وإذا أنا في غمرة الإعجاب! ماذا دهاني! إنّ هذا الصبيّ الضرير هو الذي سيهبه اللّه لمصر، وسيكون لها مرشدا بصيرا. أليست بدايته هذه المشقّة الشاقّة التي تكلّفها فوق طاقته لينظر في نفسه وليستفيق من بين الأموات ! ولسنا ندري ما الذي ينبغي أن نعجب به أكثر : أاعتداده بنفسه، أم فطنته، أم زهوّه المشروع أم العناية الملائكيّة التي حبته بها المرأة التي أدركت عظيم شأنه، والتي أتاحت، بحنوّها عليه وإخلاصها له، لهذا الشأن العظيم أن يفعل فعله ؟ وما كنّا لنفطن لهذه العناية لولا تلك الإشارة اللطيفة في خاتمة الجزء الأوّل من كتاب *«الأيّام»* حيث نجد الكاتب مخاطبا ابنته داعيا إيّاها إلى أن تنظر إلى «هذا الملك الذي بدّله من البؤس نعيما ومن اليأس أملا ومن الفقر غنى ومن الشقاء سعادة وصفوا»[1].

إنّ الآثار الأدبيّة التي ألّفها طه حسين، المولود سنة 1889، غزيرة، عشرون كتابا في النقد والبحث (وقد ظهر أولها سنة 1927 *) منها

1) طه حسين : *الأيام*، ج *1* ص *146* .

* يقصد مؤلّف المقال كتاب طه حسين : *«في الأدب الجاهلي»* الذي ظهر فعلا سنة 1927، أمّا كتاب *«في الشعر الجاهلي»* فقد ظهر سنة 1926 .

خمسة في المسرح الفرنسي، وستّ روايات، وثلاث مجموعات قصصيّة، وترجمات إلى العربيّة لكتب سوفوكل (Sophocle) وراسين (Racine) بفضلها نالت مسرحيّة *«أندروماك» (Andromac)* ومسرحيّة *«أليكترا» (Electre)* إعجاب الجمهور المسلم في القاهرة، وأخيرا كتاب *«الأيّام»* الذي يعنينا هنا، وقد ترجم بعد إلى ثماني لغات* ، وفيه سيعرض المؤلّف ذكريات الطور الأوّل العسير الشاق من هذه العيشة البغيضة الممضّة التي عاشها هذا الفتى المستطيع بغيره.

إنّ القصّة تتوقّف بنا، للأسف، قبل أن تبلغ نهايتها التي جعلنا الكاتب نشيمها، على الرّغم من ذلك، وأملنا أن يتابع طه حسين كتابتها **، لأنّ أهمّ ما فيها لم يرد ذكره بعد [وبذلك نعني] صلته

* كتب أندريه جيد، هذا النصّ، كما أسلفنا سنة 1947، أمّا الآن فقد تعدّدت التّرجمات. إنّ محمد دسوقي يذكر أن كتاب *«الأيّام»* ترجم الآن إلى كافة لغات العالم تقريبا (انظر محمد دسوقي: *أيّام مع طه حسين*، ط.1 بيروت: المؤسسة العربيّة للدّراسات والنشر، 1978، ص 100).

** كتب أندريه جيد هذا النص سنة 1947، وفعلا لم يكن قد ظهر من كتاب *«الأيّام»* إلى غاية هذا التّاريخ سوى الجزأين الأوّل والثاني. صدر الجزأ الأوّل بالقاهرة عن مطبعة أمين عبد الرحمان سنة 1929 بعد أن نشر مسلسلا بمجلة الهلال في تسع حلقات من ج2 ديسمبر 1926 إلى الجزء التّاسع جويلية 1927 . وصدر الجزء الثاني عن دار المعارف بالقاهرة سنة 1939.

أمّا الجزء الثالث فقد ظهر بعد كتابة جيد لنصه هذا، وهذا ما يبرّر قوله ذاك، وظهر هذا الجزء أوّلا مسلسلا بمجلّة *«آخر ساعة»*، المصريّة بداية من العدد 1066 ـ 30 مارس 1955 إلى العدد 1086 ـ 29 جوان 1955 . ثمّ جمع سهيل إدريس الفصول المسلسلة ونشرها في دار الآداب ببيروت بعنوان *«مذكرات طه حسين»* عام 1967 ، ثمّ أصدرته دار المعارف بمصر سنة 1972 بعنوان *«الأيّام»* ـ الجزء الثالث».

الأولى بالأجنبي، وتلقيه العلم [الجديد]، ومراحل الترقّي الدؤوب التي قطعها هذا الضرير لبلوغ هذا العلم * .

إنّ الذين يعرفون طه حسين، ويعلمون مدى تأثيره، والسلطة التي نالها بفضل خصاله المشهود له بها ومركزه الرفيع والاشعاع النابع من مجرّد حضوره يدركون في غير عناء المسافة الهائلة التي يبدو طيّها مستحيلا، بين وضعه المجيد اليوم والحقارة التي عاش فيها بالأمس. كيف تخطّى تلك الهوّة ؟ المهمّ اليوم أن يقصّ علينا هذه القصّة .

إنّ لقائي لطه حسين سيظلّ أهمّ ذكرى وأجملها على الإطلاق بقيت لي من رحلتي الأخيرة إلى مصر ** . يا لها من وداعة مطمئنّة في ابتسامته (كدت أقول في نظرته !)، ويا لها من عذوبة في نبرات صوته ! وياله من سحر ويالها من حكمة في كلماته ! نحن أولاء

---

* يروي الجزء الأوّل من كتاب *«الأيّام»* طفولة طه حسين في القرية إلى حدود سنة 1902 تقريبا، ويروي الجزء الثاني منه حياة طه حسين في الأزهر أي إلى حدود سنة 1909 تقريبا، أمّا الجزء الثالث، فيروي حياة طه حسين في الجامعة المصريّة الأهلية [هنا تنتهي المرحلة المصريّة الأولى في حياته] ثمّ حياته في جامعة باريس إلى حد العودة إلى مصر وتعيينه أستاذا لمادة التّاريخ في الجامعة المصريّة أي إلى غاية سنة 1922 . ويلاحظ هنا أن ما تمناه جيد على طه حسين من مواضيع يقصها تحقّق فعلا في الجزء الثالث ولكنه جزء صدر بعد وفاة جيد (مات جيد سنة 1951 ، وبدأ طه حسين نشر الجزء الثالث عام 1955).

** كانت هذه الزيارة إلى مصر في شتاء 1946 (جانفي ـ فيفري) ضمن رحلة قام بها جيد إلى إيطاليا ثمّ مصر ثمّ لبنان، على التوالي، من نهاية ديسمبر 1945 إلى منتصف أفريل 1946، وفي هذه الزيارة تمّ اللّقاء المباشر الشخصي بين جيد وطه حسين.

وإيّاه نتنزّه في جنّة المعرفة، فيأخذنا العجب إذا لا نقف له على خطإ أصلا، فكتّاب اللّغات الأجنبيّة أصبحوا مألوفين لديه، أمّا ذاكرته فلا نقضي منها العجب. ونحن ننتظر أن يخبرنا كيف استطاع أن يتعلّم الفرنسيّة ويتقنها، مدفوعا إلى ذلك، على أغلب الظنّ، بالشكران والمحبّة، وأن يخبرنا أيضا بقصّة استكشافاته المتلاحقة وضروب زاده وحالات افتتانه الأولى. لقد كان، في تخيّر النّصوص التي يقرؤها يهتدي بذوق سليم وفكر نقديّ فطن، وفي يقظة دائمة. كان يعنى بكلّ شيء. وكان فضوله الذي تيّقظ بأخرة* ما يزال غضّا كأنّه على ضمأ للمعرفة.

إنّي لمعجب بما في نقده من سداد، ولكنّي معجب في الآن ذاته بسعة صدره متحمّسا وبعنفه معارضا. وكم، من بين كلّ ما يميّزه، يعجبني منه ضحكته، إنّها ضحكة نقيّة مرحة بريئة كضحكة الأطفال.

لقد علمت أنّ بحوثه الأولى عن شعراء الجاهليّة، أو بالأحرى في نقدهم، أثارت ضجّة **. إنّ التمرّد، في هذا العالم العربيّ، الموكول بإجلال المقدّسات الجامدة، يمثل بداية التقدّم .

---

* هذا الرأي الذي أعرب عنه جيد يتناقض مع ما عرف عن طه حسين من أنّه كان، منذ صباه، طلعة. وقد كتب صاحب *«الأيام»* قائلا : «كان [الصبيّ] من أوّل أمره طلعة لا يحفل بما يلقى من الأمر في سبيل أن يستكشف ما لا يعلم. وكان ذلك يكلّفه كثيرا من الألم والعناء»، *الأيام*، ج1، ص 22 .

** يقصد جيد الضجّة التي ثارت عند صدور كتاب طه حسين *«في الشعر الجاهلي»*

لم تشهد مصر، كما شهدت بلاد اليونان جارتها، نهضات متعاقبة وهزات مجيدة في الفنّ الغنائي من شأنها أن تجدّد اللغة العتيقة وأن تحافظ على اندفاعها المستمرّ للتعبير عن الآراء والمشاعر الجديدة.

لقد ظلّ الأدب العربي جامدا، وابتعدت منه اللغة الشعبيّة حتّى صارت معه الكتابة باللّغة الفصحى، وهي اللّغة الوحيدة والمعترف بها في التعليم، غير صالحة أكثر وأكثر للتعبير عمّا هو راهن حيّ *، فليس لي أن أستغرب ما يتناقله النّاس قائلين إنّ التجديد الذي دعا إليه طه حسين ارتكز، بادئ الأمر، في اللّغة ذاتها، إذ ما من ثورة ثقافيّة وأخلاقيّة إلاّ استلزمت أساسا واستجلبت تجديدا شكليّا وإعادة صياغة التعبير **.

إنّ المتعة في هذه الكتابة ليس بوسعنا أن نتذوّقها وا أسفاه! ومهما بلغت ترجمة كتاب «*الأيّام*» من الجودة فإنّها لا تتيح لنا أن نستكشف ما تأتي به قصّة طه حسين، في وطنه، من عناصر الجدّة فضلا عن أنّ الابتكار الجريء في العرض والأسلوب، متى أمكن لنا إدراكه، لا يحدث أيّ دهشة فينا. فنحن قد وقعنا من قبل في السآمة، إلاّ أنّ ما قد يفجؤنا، وقد أصابتنا التخمة، في الأدب على الأقلّ، من

---

* الرأي الذي عبّر عنه جيد، هنا، مهما كان الدافع إليه، يستوجب من الباحث في تاريخ الأدب العربي وتاريخ حياة اللغة العربيّة زيادة التعمّق في الموضوع بالتثبت.

** حول هذا التجديد في اللغة عند طه حسين راجع بحثا في الموضوع :

ـ محمد بازين : *آراء طه حسين اللغويّة*، رسالة لنيل شهادة الكفاءة في البحث بإشراف الأستاذ عبد القادر المهيري، تونس : كليّة الآداب، 1980، قسم الرسائل (بحث مرقون رقمه بالمكتبة T2626) .

تعاقب الخيبة والإفلاس، أنّ طه حسين إنما هو، في نهاية المطاف، مضرب مثل للتوفيق ونجاح إرادة، ونموذج انتصار دؤوب لنور العقل على الظلمات، وهو ما جعل هذا الكتاب الغريب، والذي مرّ على تأليفه بعض الزمن، كتابا فيه رفعة أيّ رفعة، ودعوة أيّ دعوة إلى تخطّي الصعاب*.

فيفري 1947

أندريه جيد

* وقفنا، بعد الفراغ من ترجمتنا لهذا الفصل، على إشارة في كتاب أحمد علبي «طه حسين رجل وفكر وعصر» مفادها أنّ مقدّمة أندريه جيد هذه، نقلها الى العربيّة، من قبل، وليد فستق سنة 1974 ونشرها في مجلة *الثقافة العربية*، س2 ، ع 13 ، تشرين الثاني/ ديسمبر 1974، ص 34-36 . ولم نظفر نحن بهذه الترجمة، إلاّ أن أحمد علبي علّق عليها قائلا : «غير أنّ هذه الترجمة تفتقر إلى الدقّة، ويشيع فيها التصرّف المخلّ بالنص الأصلي»، انظر : أحمد علبي : طه حسين رجل وفكر وعصر، بيروت : دار الآداب، 1985، ص 503 .

الخطاب الترجذاتي عند طه حسين
في الجزء الأخير من كتاب «الأيّام»*

بقلم ليلى لوقا **

ترى، هل يشكّل حقّاً هذا الجزء الثالث من ترجمة طه حسين

* Leïla Louca : "Le discours autobiographique deTâhâ Husayn selon la clôture du *Livre des Jours*", *Arabica*, tome XXXIX, Nov.1992, pp.346-357.

وقد جاء، في هامش الصفحة الأولى من الفصل، ما ترجمته :

«[هذا] تقديم للترجمة الفرنسيّة للجزء الثالث من كتاب «*الأيّام*» التي أنجزها أنور لوقا باقتراح من مؤنس طه حسين (من اليونسكو)، وراجعها شارل فيال Charles Vial (تصدر قريبا)». (انتهى). ولكن الملاحظ أنّ هذه الترجمة التي تشير إليها كاتبة المقال والتي أنجزها أنور لوقا لم تظهر بعد، ولهذا الأمر قصّة ، ليس هنا مجال عرضها، وللقارئ الكريم أن يطّلع عليها، إذا شاء، في المراسلات التي دارت بين أنور لوقا ومؤنس طه حسين، وقد صدرت أخيرا في جينيف. انظر :

Ces derniers Jours... Correspondance Anouar Louca - Moënis Taha Hussein : 1973-1991. Genève Strategic Communications Ed., 1992 (104p).

ومعلوم أن ترجمة فرنسيّة لهذا الجزء الثالث من كتاب «*الأيّام*»، ظهرت في باريس عام 1992 بقلم مستعرب فرنسي، هو في روشبلاف (Guy Rocheblave) وبتقديم إيتيامبل (Etiemble) . انظر :

Taha Hussein : *La Traversée intérieure,* traduit de l'arabe par Guy Rocheblave, préface d'Etiemble. Paris : Editions Gallimard (Collection Unesco d'Œuvres représentatives - Série arabe), 1992.

** ليلى لوقا (Leïla Louca) : هي كريمة الأستاذ أنور لوقا. مصريّة الأب سوسريّة الأمّ، ولدت ليلى لوقا بالقاهرة، ثمّ انتقلت إلى جنيف حيث تابعت دراساتها=

الذاتيّة الوجه الثالث من ثلاثية ؟ وماذا يعني التردّد الطويل الذي وقع فيه الكاتب قبل أن يعترف به كذا ؟

لنذكّر أنّ الجزءالأوّل [من كتاب *«الأيّام»*] كان ظهر، أوّل الأمر، فصولا مسلسلة، في مجلة *الهلال* الأدبيّة التي تصدر شهريّا بالقاهرة (من 1/ 12/ 1926 إلى01/ 07/ 1927) . ثمّ ظهرت هذه الفصول مجموعة في كتاب سنة 1929 . وظهر الجزءالثاني سنة 1939 .

يصوّر هذان الجزآن، الأوّل والثاني، المسيرة النفسيّة الطويلة التي قطعها نحو نور المعرفة طفل أصيب بعاهة العمى وهو يسعى إلى سنّ المراهقة. هذا الانبثاق للوعي وهذه الصحوة التدريجيّة للإرادة الصلدة، يستحضرهما الكاتب في إسهاب ودقّة، فيطبعان هذين الجزأين، في آن واحد، بطابع الوحدة القويّة وسمة الثبات الغالبة، وهما الرهانان الأساسيان اللّذان هما مدار الأمر، ويقعان، قبل كلّ شيء، في أعماق الكائن ذاته.

= الابتدائيّة والثانويّة. وحصلت من جامعة «إيكس آن بروفانس» بفرنسا على درجة الليسانس في الآداب سنة 1984 .تهتمّ بالأدب الشعبي اهتمامها بالتّراث العربي وبروائع الآداب العالميّة. تقيم في جنيف وتعمل في شركة للطّباعة، وتكرس للموسيقى والكتابة أوقات فراغها. أمّا موضوعها الأثير فهو مسألة الانسان وهويّته. ولها بحث عن تجربتها في ازدواج الثقافة نشرته بالفرنسيّة :

Parole Métisse, *Revue Mauss,* Paris ; Editions de la Découverte, 1994

نظمت دورة تدريبيّة على الكتابة التعبيريّة (Atelier d'écriture)، *كما قدّمت في ندوات القراءة العامة بجنيف أحد نصوصها المسرحيّة*.

فازت أعمالها الشعريّة والقصصيّة بعدّة جوائز في المسابقات الأدبيّة

جرت حوادث هذه المغامرة النفسيّة الفكريّة في نطاق الريف المصري حيث ولد المؤلّف عام 1889، وفي حي الأزهر، ومركزه جامع الأزهر الشهير بالقاهرة، حيث أرسل ليستكمل تعلّمه الدّيني.

إنّ هذه الفترة الشديدة الانحصار في الزمان والمكان، والتي يستغرقها الجزآن الأوّل والثاني، موسومة خاصّة بطابع الاستبطان.

أمّا الجزء الثالث من كتاب *«الأيّام»* فقد ظهرت فصوله بالقاهرة تلبية لرغبة الصحيفة الأسبوعيّة «آخر ساعة» مسلسلة في هذه المجلّة عام 1955 ، وعلى وجه التحديد من 30 مارس إلى 29 جوان. ثلاثون سنة مرّت يومئذ على ظهور الجزء الأوّل ، وكانت السنّ قد تقدّمت نسبيًّا بطه حسين، وكان للجمهور المثقّف علم بمسيرته الاستثنائيّة وبحياته المهنيّة المتقلّبة. وبلغت شهرته شأوا بعيدا خارج حدود مصر حتى أشعّ على العالم العربي كلّه. كان عدد وافر من القرّاء يتابعون هذا المسلسل الأسبوعي. ومن هنا جنح المؤلّف إلى أسلوب الكتابة الصحفيّة ، مؤثرا في الآن ذاته ما في الخبر من نزعة حكائية من إثارة وتشويق ، تشهد على ذلك عناوين الفصول التي جاءت لتغري القارئ، منها «عندما خفق القلب لأوّل مرّة»، و«يوم سقطت القنبلة على بيتي» على حين كانت الفصول في الجزأين السابقين مرقّمة لا غير.

تردّد طه حسين، على مدى اثنتي عشرة سنة، في اعتبار تلك الفصول بمثابة الجزءالثالث من كتاب الأيّام، وكان يتخلّج في صدره

مشروع تأليف كتاب آخر أشدّ إحكاما *. وكان يرى في تلك الفصول صورة مبسّطة من ذلك الكتاب، مقتضبة على كلّ حال.

ولكنّ مبادرة أحد الناشرين في بيروت ** إلى جمع تلك الفصول سنة 1967 بعنوان آخر هو «*مذكّرات طه حسين*» جعلت [العميد] يقرّر سنة 1972، أي بعد أن تقدّم في السنّ بخمس سنوات أخرى وقبل أن يتوفّى بسنة واحدة، أن يضمّ تلك الفصول، بنصّها الحرفي إلى ترجمته الذّاتيّة.

ولنلاحظ أنّ هذا العنوان الجديد ما لبث أن لفت انتباه القرّاء إلى المضمون الترجذاتي لهذا الكتاب. وعلى نقيض ذلك، فلا شيء يوحي بتلك الفردية القائمة في عنوان «*الأيّام*» الذي كان طه حسين قد اختاره للجزأين الأوّل والثاني من كتابه، وهو عنوان أكثر غناء بالمعاني الحافّة، يبسط آفاقا للمصير، وآفاق زمن كوني يتسلسل أهون التسلسل وأوثقه.

---

* لعلّ كاتبة الفصل تشير إلى إحدى أمنيتين مات عنهما طه حسين دون أن يحقّقهما، الأولى، أن يكتب الجزء الثالث من كتاب «*الفتنة الكبرى*» (بعد «*عثمان*» ـ و ـ «*علي وبنوه*»)، والثانية وهي التي تهمّنا هنا أمنيته بأن يكتب الجزء الأخير من «*الأيّام*». وقد أشارت إلى هذه الأمنية بعض المراجع انظر مثلا : جمال الدين الألّوسي : *طه حسين بين أنصاره وخصومه*، بغداد : مط. الارشاد، 1973 ، ص 75، ص353 - 354 .

** تقصد كاتبة الفصل الأديب سهيل ادريس المسؤول عن دار الآداب فهو الذي كان صاحب المبادرة.

إنّ المدّة التي يصوّرها المؤلّف هنا تمتـدّ من سنة 1908 إلى سنة 1922 . إنّها شطر من الحياة عريض ستجدّ فيه أحداث هي من أشدّ الأحداث أهمـيّة في حياة الـمـؤلّف : إخراجه جورا مـن الأزهـر، واستكشاف الجامعة المصريّة الجديدة استكشافا ملك عليه نفسـه، وتعلّمه اللّغة الفرنسـيّة، وطموحه إلى السّفر خارج مصر، وإقامتـه المتكرّرة في فرنسا للدّرس والتعلم، ولقاؤه بزوجه، وأخيرا عودته إلى وطنه . ومن هذه الأحداث أيضا اتّصاله برجالات الأدب المصريين من ناحية، وبكبار رجالات السياسة من ناحية أخرى، وكذلك نشأة حركة أدبيّة حافلة بالمعارك سيظلّ المؤلّف دائم الوفاء لها . إنّها فترة خصبة إذن، في كلّ المجالات، تتالى خلالها مجموعة من التحوّلات العميقة تظلّ جوهرا قائما في المواجهة المستمرّة للعالم الخارجي .

إنّ المؤلّف، شأنه هنا شأنه في الجـزأيـن الأوّل والثاني، يسنـد روايته [للأحداث] إلى تسلسل تاريخي، ولـكـنّ مجرى الأحـداث طرأت عليه تقلّبات : فالمـؤلّف يستحضر أحيانا حوادث تنبثق من أبعد طبقات الذاكرة، وفي أحيان أخرى لا يستطيع أن يكبت الرغبة في الكشف عن نهاية مشكلة مّا قبل أن يستعرض مختلف أطوارها، وإذا القارئ، وقد وقع في حيرة، مضطرّ إلى أن يرضى بأن تقدّم إليه التحلية قبل الطبق الأساسي .

إنّ الظّهور الفجئي لشخصيات ثانـويّة في مشاهد حكائية حـيّـة، وفي هذا بالذّات خاصيّة من خصائص الأدب العربي، يزيد من تعقّد نموّ [الأحداث] . والشواهد الشعـريّة التي ترصّع النص استكمـالا

للموقف أو تجسيدا لطيفا له ، وهذا أسلوب تقليـديّ آخر، تضفي إيقاعا على تلك اللّوحة بلمسات وعظية حينا، ساخرة حينـا آخـر، وليس للقارئ إلاّ أن يلوذ بالصبر! فعليه أن يستبين، من خلال هذه الحيل، الأدلّة على فكر ارتاح إلى أن يمنح الالتزام المبدئيّ (صرامة الترتيب الزمني) مرونة واسعة، ولكن في غير إفراط.

ولنا أن نلاحظ ، لـلّذين يستكشفون الـمـؤلّف، من خلال هـذا الجزء الثالث، كثرة الصيغ الأسلوبـيّة التي بها يعبّر عن عجـزه إزاء واقع خارجي لا يقدر، بسبب عاهته، أن يتغلّب عليه. فإذا الأشياء، والأحاسيس خاصّة، هي التي تصبح عوامل في القضية التي امتحن بها، هو الذي كان طوال القسم الأوّل من حياته، يغرق في التشـبّه بالمعرّي الشاعر الضرير الذي عاش في القرن الحادي عشر [للميلاد]، ويجعل من عبارته «أنا مستطيع بغيري» * شعارا لنفسه.[1]

* قال أبو العلاء في آخر رسالة الغفران «وأنا مستطيع بغيري فإذاغاب الكاتب فلا إملاء».
في هذا السياق خطّت السيدة سوزان طه حسين، صفحة مؤثّرة في كتابها «*معك*» قارنت فيها بين طه حسين وأبي العلاء، ومما قالته :
« ليس لديّ من التبجّح كي أكتب عن أبي العلاء المعرّي غير أنّـه كثيرا ما قيـل، ونُردّد ذلك، إنّ طه حسين كان أبا علاء آخـر. إنسـانـان غارقان في الليل نفسه، إنسانان يرفضان أيضا قدرا ظالما، إنسانان يملكـان وضوحا خارقا وموهبة في التعبير استثنائية، وكبرياء شامخة، وجرأة فكـر، كلاهما يعرفان نفسيهما ويريدان أن يكونا حرّين، (كذا في النص !) وكلاهما كان يحاكم العالم دون أيّ وهم. نعم !...».
سوزان طه حسين، معك، ترجمة بدر الدين عرودكـي، مراجعة محمود أمين العالم، ط.1، القاهرة: دار المعارف (سلسلة كتب أكتوبر)، 1979، ص 293.

1) - Nicole Le Querler : " Quand voir c'est pouvoir voir", in *Langue française,* n° 84, dec.1989,pp.70-82.

نسوق هذه الملاحظات، في هذا المقام، على سبيل الإشارة.
لامراء في أنّ طه حسين من أشهر الكتاب المصريين لدى الجمهور الغربي. وللقارئ الذي يرغب في مزيد الاطّلاع على عناصر حياته وعلى آثاره الأدبيّة والتربويّة، أن يرجع إلى المقدّمة الجوهريّة التي مهّد بها جاك بيرك (Jacques Berque) للنصوص المنتخبات الموسومة بـ «*ما وراء النيل*» *(Au delà du Nil)* [1].

أمّا نحن، فإننا نروم أن ننظر في مجموعة من المسائل المتعلّقة بالخطاب ذاته. قد تبدو هذه المسائل على بساطة محيّرة، ولكنّها على أغلب الظنّ، عميقة الغور. إذ ما المقصد، في نهاية المطاف، من هذا الخطاب ؟ وما الوظيفة التي يؤدّيها ؟ وفي أيّ لحظة ينشأ ؟ وكيف ينتظم ؟

هل الترجمة الذاتيّة قدره ؟

لسائل أن يسأل ما هي الدوافع التي تدعو شخصا إلى الوقوف، زمن الكتابة، أمام مرآة قبل أن يسلمها إلى آخرين لينظروا فيها، وأن يسأل كذلك عن العلّة التي تنشأ منها الرغبة، بالنسبة إلى كاتب ذاع صيته في الأمصار، في أن يضيف إلى قصّة حياته جزءا جديدا.

= وراجع أيضا :

- Fedwa Malti-Douglas : *Blindess and autobiography, Al-Ayyàm of Tàhà Husayn,* Princeton University Press, 1984, notamment sa bibliographie, pp.185-191.

1) *Taha Hussein, Au delà du Nil".* Textes choisis et présentés par Jacques Berque et traduits de l'arabe par Michel Hayek, Anouar Louca, André Miquel et Jacques Berque. Paris, Gallimard, 1977.

نعلم أن طه حسين سليل عالم مناوىء، بطبيعته، للترجمة الذاتيّة: هو المجتمع التقليدي في الريف المصري في فجرالقرن العشرين. هذا الريف لم يزل يشكّل عالما منغلقا على ذاته، تضرب جذوره في الحركة الدّوريّة للفصول والمحاصيل، للولادات والوفيات، موسوما بسلّم مراتب اجتماعيّة عريق، تغلب عليه طقوس إسلام جماعي.

ضمن هذا النسيج من الحياة الجماعيّة القائمة على الإكراه أصلا، تصبح الكلمة صنو القدرة : هي كلام الشيخ الذي ينشر تعليم الدّين من ناحية، وهي، في سياق آخر، إنشاد شاعر [القرية] وهو يتغنّى بسير الأبطال الشعبيين فيتنفّس الفتى الصّعداء.

إنّ طه حسين، وقد نشأ في هذا السياق، يحقّق استكشاف الكون الترجذاتي، حيث يحقّق الفرد كيانه في كلّ ما يسم تفرّده، وينحت، في مجرى الزمن ذاته، مشروع وجوده. فإذا هو يكسر الأغلال التي أقامتها قوى الظلام حتى يستبصر العالم في أشد ما يثيره من دهشة : اتّساعا في الفضاء عن طريق دراسة الجغرافيا والحضارات الأجنبيّة، وإيغالا في الزمن عن طريق معرفة اللّغات الكلاسيكيّة والتاريخ القديم. وإذا هو يمتلك الكلمة الساحرة سليلة العهود الغابرة، ولكن يقيّدها بالكتابة. يفعل ذلك بصفته الشخصيّة، علاوة على كونه يفعل ذلك ليتحدّث عن نفسه، وستظلّ الكتابة، طوال حياته، الأداة المثلى لتأسيس فكره وتحقيق تألّقه.

والكاتب يشعر بحاجته إلى أن يعيد رسم تلك المسيرة من عالم إلى آخر، وإلى أن يقطع من جديد مراحلها بواسطة القصّ. فيقيم،

بذلك، ترابطا بين البداية والنهاية، وإذ يستضيء كلّ منهما بالآخر، فإنّهما يكتسبان دلالتهما كاملة.

وبتدوين الكاتب هذه الحلقات المؤدية إلى سفور تاريخه يتيح لنفسه فرصة تثبيت وجوده في العصر، بصفة أعمق.

بهذا المعنى، ليس طه حسين، من حيث هو كاتب ترجذاتي، بدعا من الرجال : فكثيرة هي اليوميّات الترجذاتيّة التي تروي القطيعة بين الطفولة التي تسدّد ضريبة الارتقاء إلى إطار اجتماعي جديد من ناحية، وعالم الريف من ناحية أخرى. والحقّ أنّ الترجمة الذاتيّة تتّخذ لنفسها مكانا حيث يتصدّع استقرار التقاليد أو القيم من بعض وجوهه، وكذا الانفصام مزدوج لدى طه حسين، أو بوجه أدقّ، يقع على مستويين اثنين متمايزين. فعلى المستوى الاجتماعي، يتحرّر الكاتب، كما قدأسلفنا، من القيود التي فرضتها عليه بيئته الأولى، ويحقّق ترقّيا باهرا. أمّا على المستوى الخلقي فإنّ عاهته تميّزه من الآخرين، فقد كان منذ صباه الأوّل يحفظه أن يرى نفسه مختلفا عن غيره من النّاس، غريبا فيهم. وإذا جاز القول فإنّ الخطاب الترجذاتي لم ينشأ إلاّ ليسدّ الفراغ ما بين القاعدة والانحراف، أي التصدّع، وذلك بالشرح والتعليل. وبالرّجوع إلى هذه الآليّة، ندرك علّة أن يكون السجلّ الترجذاتي، في الآن ذاته، سجلاّ لأشكال الانحراف (بالمعنى الواسع لكلمة أشكال).

ولمّا كان ذلك كذلك، فإنّ الاستئثار بالكلمة يقضي، على كلّ حال، أن يحظى المتكلّم، في بادئ الأمر، ببعض صفات القدرة،

وبتعبير آخر، ببعض وسائل النجاح التي من شأنها أن تجعل مراس الكلمة أمرا ممكنا. فما كان لطه حسين أبدا أن يحقّق إمكانات [وجوده] الكامنة فيه لو لم يكن منتميا، في الآن ذاته، إلى فئتين هما من أقوى فئات مجتمعه : جنس الذكور من ناحية، ودين الأغلبيّة من ناحية أخرى (بقطع النظر عن المصادمات التي جرت لاحقا بينه وبين ممثّلي هذه العقيدة). وحسبنا أن ينكبّ المرء على الاحصائيات لنقرّ بديهة وهي أنّ الترجمة الذاتيّة لا تعني مطلقا عناصر الأقليّة في مجتمع مّا، إلاّ في حالات استثنائيّة كما لو كانت عرضية.

أكانت الترجمة الذاتيّة قدر طه حسين ؟ لعلّه من المبالغة أن نؤكّد ذلك، بيد أنّه بدا لنا أمرا ذا دلالة أن نستكشف البذور التي تغذّي، لدى فرد مّا، نسغ المشروع الترجذاتي.

ميلاد البطل

مهما بدا الأمر غريبا، منذ البداية، فإنّ كتابة ترجمة ذاتيّة، في جلّ الأحيان، يُفترَض أن صاحبها قد حاز قبل ذلك شهرة مّا. فذلك [فعلا] شرط ضروري حتى يثير النصّ اهتمام القرّاء. والقضيّة لا تتمثّل في أن يعرّف الكاتب بنفسه بقدر ما تتمثّل في أن يقدّم الكاتب مزيدا من التعريف بنفسه، أو التعريف بها على نحو مغاير؛ بمعنى آخر، إنّ القضيّة هي أن يبرّر دواعي هذه الترجمة الذاتيّة. فانطلاقا من أحداث هي، من قبل، ملك الناس جميعا، سيشغل الكاتب نفسه خاصّة باستخراج منطق مّا، بل وإعلان دوافعه الشخصيّة

الحميميّة. فالكاتب لن يسعى إلى أن يفسّر الأحداث في حدّ ذاتها، ولكن عليه أن يفسّر كيف، وعند الاقتضاء، لماذا جدّت. فنحن موْكولون، إذن، بعمليّة برهنة.

إنّ الكاتب يعيد هاهنا رسم المسار الذي قطعه من شبيبته إلى كهولته، مرحلة مرحلة. ولكنّ اللاّفت للانتباه من خلال هذا التطوّر، أنّ هذه المراحل متشابهة البنية. فالشخصيّة الرئيسيّة تجد نفسها، منذ البداية، في وضع مجحف، فقد كان [صاحبنا] من النّاحية الخلقيّة ضريرا، وماليّا كان وضعه هشّا، ولم يكن بوسع عائلته ذات الامكانات المتواضعة، أن تعينه فعلا، وثقافيّا فقد ترعرع في بيئة منغلقة سجينة أفكارها المسبقة، أمّا لغويّا، فلم يكن يحسن غير العربيّة، لغته الأصليّة.

هذا الوضع الدّوني، وكلّ أشكال الخزي التي انجرّت عنه فآذت إحساس الكاتب وكبرياءه، ستكون موضوعا لحديثه.

ثمّة لحظة أساسيّة تأتي بعد ما تقدّم : تلك هي لحظة تحدّي الذات. لقد عزم على أن يتخطّى الصعاب ويتغلّب بذلك على ضعفه.

لقد أسهب الكاتب في وصف الصّعاب، وهي تختلف عن بعضها بعضا باختلاف المرحلة التي سيجتازها. ولكنّ خصائصها تظلّ ثابتة: هي صعاب هائلة، بل هي منيعة لا تقهر، إذ ليس له على بعض مكوّناتها سلطان (شأن الحرب الكونيّة التي اندلعت عام 1914 وقد كادت تفسد عليه سفره إلى فرنسا، أو أيضا، النوايا الطيّبة التي

أظهرها المسؤولون عن الجامعة حين طلب إليهم تمكين مرافقه من منحة خاصّة).

وتأتي بعد ذلك ، بكامل التفصيل، قصّة الصراع ضد الصّعاب التي خاضها الكاتب بفضل ما أوتي من تفان في العمل، وثبات في الرأي إلى حدّ العناد، وصبر على احتمال الحرمان وأوقات العزلة المظلمة. لقد صوّر الكاتب في دقّة دقيقة، حالته النفسيّة الدّاخليّة طوال هذا الصّراع وجملة المشاعر التي كانت تعتمل داخله من الفرح العارم إلى اليأس القاتم، وأغلبها كان من قبيل المكابدة والإحباط والكآبة والغيظ.

وأخيرا يجيء يوم المحنة (مثلا تقدّمه إلى الامتحان المرهوب) فيخرج الكاتب منها مظفّرا. و[لكنّه] لا يتحدّث عن رضاه إلاّ لماما لأنّ جوهر خطابه غير هذا. وقد بدأ يعدّ أسلحته استعدادا للمعركة المقبلة. إنّ كلّ فتوحاته الكبرى : نيله الدّكتورا من الجامعة الأهليّة، وسفره إلى فرنسا، وزواجه، وحصوله على الليسانس ودبلوم الدراسات العليا والدّكتورا في السربون، دارت على نفس النسق.

وإذن لقد نهض الكاتب حقّا بمهمّة البطل. إنّه واجه صعوبات لم يفلح غيره، من قبل، في مغالبتها، وأفلح هو في تذليلها، الواحدة تلو الأخرى، بفضل ما أوتي من مواهب وخصال الذكاء والمضاء والجرأة. إنّ قدره، باعتباره بطلا، هو أن يمتحن ويفوز، في طائفة من الاختبارات التي عدّلت، على مختلف المستويات، وضعه الشخصيّ، وقادته، شيئا فشيئا، إلى النضج. وإذا الفارس المظفّر،

ينال، في وطنه، أوّلا، ثمّ في ممالك بعيدة، ألقاب العرفان، وإذا هو يحظى برضى الأميرة الأجنبيّة، التي لا تلبث أن تنجب له طفلا، وإذا هو يعود إلى أرض الوطن متوّجا بالمجد، يعود، رجلا مستكمل الجوانب لينهض بأعباء الرّسالة التي سيقف نفسه عليها.

نحن نبلغ هنا إحدى القواعد الأولى للخطاب الترجذاتي، نقصد مشكليّة النجاح والمسالك الموصلة إليه. والكاتب يبرّر الخصال الضروريّة لنمط النجاح الذي يقترحه علينا: الكدّ، من وجه أوّل، وما ينشأ عنه من صبر وإصرار وشجاعة، والحسّ النقدي، من وجه ثان، وهو الذي يتيح تحرّر الفكر، والتأمّل، والشكّ باعتباره إجراء علميّا، والتّرقي بالتّدريج. وهذا كلّه يؤلّف نظاما حقيقيّا من القيم يبرز أمامنا. إنّ طه حسين لينتمي حقّا إلى «عصر التّنوير»، ولقد أدخل منه إلى مصر الفكر والمنهج.

فنحن إزاء جنس من القصص نموذجيّ، فيه يعرض السارد تجاربه الناجحة المتعاقبة. ولكن لقائل أن يقول: «وإخفاقه الذريع في الأزهر؟» حسنا! اعلم أنّ طه حسين جعل من هذا الإخفاق زهرة حريته الفكريّة. فوصف الأزهر، هذه المؤسّسة المتصلّبة حيث أخفق، بسخرية لاذعة وأنكره بإرادة البحث النيّرة. وعلى هذا النحو، أمكن للمنظومة أن تشتغل دون تعثّر، وأمكن للبطل أن يخرج موفورا. أمّا الشخص النموذج فقد ارتقى مرتبة بقدر ما كان البطل المحايد منطلقا من وضع مادي بائس (الفقر، وتواضع المحتد، وغياب

التربية أو السند) : فليس له من معين سوى خصاله الذاتيّة[3]. هنا نلمس الأسطورة التي لابست شخص طه حسين بفضل المذهبيّة الفكريّة التي جسّدها بحماسة قويّة في مخيال قرّائه : إنّها مذهبيّة الفردانيّة الجامحة التي تأتي على كلّ شيء، لا تذر حدّا ولا قيدا، مهما كانت طبيعته. كان فعل هذه المذهبيّة أكثر عمقا كذلك بقدر ما «لم يكن نجاح البطل مبتذلا، بل أفلت من الإخفاق، والكارثة، ونجا حيث خاب آخرون غيره»[4]

نظام العالم

بيد أنّ مسيرة طه حسين تتجاوز تحقيق مرامه الفرديّ، ذلك أنّ عالمه المحدود في البدء، منحصرا في العائلة والدّرس، أخذ يتّسع شيئا فشيئا لعناصر ثقافيّة جديدة، ولمشكليّات معاصرة .

كان لسنوات الحرب في فرنسا (حيث أقام من نوفمبر 1914 إلى سبتمبر 1915 ومن ديسمبر 1915 إلى أكتوبر 1919) أثر عميق في

(3 - Philippe Lejeune, “Autobiographie et histoire sociale au XIXe siècle”, *in Individualisme et autobiographie en Occident*, Direction Claudette Delhez - Sarlet et Maurizio Catani, Editions de l’Université de Bruxelles, Centre International de Cerisy - La Salle, 1983, p.220

ونحن مدينون بصفة خاصّة لأبحاث فيليب لوجون حول الجنس الترجذاتي التي غذّت [فينا] هذه التأمّلات.

4) م. ن. ، ص. ن.

حياته[5]. لقد اعترته حيرة، وراح يعمل الفكر في أمر الاضطراب الخطير الذي تشهده أوروبا موطن حكمة الديمقراطيّة والامبريالية المهينة، في الآن ذاته. وكانت مصر، وهي في غمرة اضطرابات سياسيّة اجتماعيّة عنيفة، في مواجهة مباشرة لأوروبا. إنّ الفصل الأخير* يذكر كفاح وطنه لنيل الاستقلال، والصراع الداخليّ الذي كان يمزّقه. فلمّا رجع طه حسين إلى بلده سنة 1919 كان الوقت قد حان ليقابل حقائق العلم التي اكتسبها مدّة التحصيل بالتجربة العمليّة لعالم مذهل. ولمّا كانت شخصيته قد اكتملت أخذ يفكّر في إدماج بلده ضمن نظام اجتماعي معقّد دائم التحوّل. على هذا النحو، أقام حوارا حول دور المثقفين المستنيرين ومنزلتهم في المجتمع، وخصوصا عندما يكون في أزمة.

ولكن، لا شيء أقلّ براءة من التصدّي لهذه المسائل في سنة 1955، فمقاليد السلطة بيد الجيش، منذ ثلاث سنوات. لقد حظي طه حسين بالاحترام، من قبل رجال النظام الجدد، بل هم غمروه بأمارات الشّرف. ولكنّه مع ذلك، وجد نفسه مبعدا بموجب إرادة الضباط تعنيت المثقفين.

---

5) انظر:
Anouar Louca : "Taha Hussein et l'Occident" *in cultures*, II,2, Les Presses de l'Unesco et la Baconnière, 1975, pp.118-142 .
[وقد ترجمناه إلى العربيّة في هذا المجموع]

* تقصد الكاتبة الفصل العشرين من الجزء الثالث من كتاب «*الأيّام*» وعنوانه : «إيمان بالثورة»

إنّ لجوءه إلى القول الترجذاتي ليشكّل حجّة حضور، وأداة بها يرفع صوته عاليا قويّا قائلا «أنا حيّ موجود»، ويحتفظ بجمهوره الذي تجتهد السلطة في صرفه عنه. كان ذلك القول مناسبة أيضا لنقد النظام القائم، تلميحا لا تصريحا. وحين يستحضر الكاتب حرب 1914-1918، وفساد الساسة الذين يتبجّحون بأنّهم وهبوا للشعب استقلاله، سرعان ما ندرك أنّه علينا أن نشيم بين الأسطر، بعد فكّ رموز التاريخ، دلالة بلاغ معاصر. وبرهان ذلك شعار الاستقلاليّة المدوّي الذي يختم هذا الجزء الأخير من ترجمته الذّاتيّة *.

إنّ الهدف التّربويّ للكتاب ظاهر جليّ: يبرز فيه طه حسين رجلا صافي الذهن، لبيبا، حنّكته العقود الطويلة التي أنفقها في المخالطة الهوجاء لقادة السياسة. إنّ تجربته تؤهّله لأن ينصب نفسه مرشدا وأن يمحضهم النصح بفكره الحصيف. إنّ الماضي كان، دوما، بالنسبة إليه، منهجا متميّزا لإدراك الحاضر إدراكا ساطعا. وبالمزاوجة المستمرّة بين تاريخه الشخصي والتاريخ المعاصر يعرض على القرّاء مادّة ومراجع تتيح لهم التأمّل في مراس السلطة وفي المهمّة التي تجب على كلّ فرد. إنّ الرجل الذي هيّأ، في حماسة، مشروعا للنهوض الثقافي في مصر ـ وهو مشروع نجح طه حسين في تحقيقه جزئيّا حين كان وزيرا للمعارف سنة 1950 ـ هو الذي يواصل ـ حتّى في رواية ذكرياته ـ القيام برسالته التربويّة.

---

* تقصد كاتبة الفصل استشهاد طه حسين، بشعر لأبي نواس في الأسطر الأخيرة من الجزء الثالث قائلا: «وكان شعاره [أي الفتى] دائما، الشعار الذي كان ينادي به من يخاصمه كما كان ينادي به من يغريه، قول أبي نواس:

وما أنا بالمشغوف ضربة لازب ولا كلّ سلطان عليّ أمير!

المرآة السحريـــة

لئن رفع طه حسين صوته بالتحيّة الفائقة لشباب سنة 1919، «أبناء الشعب»، هؤلاء الذين لم يهابوا التضحية بالنّفس في سبيل الوطن، ولئن صاغ نقدا لاذعا عن المطامع الماكرة لرجال السياسـة، فـلأنّه كان يروم الفوز بتقدير شباب سنـة 1955 وبتأييدهم، هؤلاء الشبـان الذين كانوا، من جهتهم، ينكرون عليه بعض الانتهـازيّة والتسامح المفرط إزاء الملكيّة. كان طه حسين حريصا على أن يعارض هـذه الصورة التي لا تخلو من إزعاج والتي كان الجمهور يواجهه بها فإذا به يبرز، عن رويّة، الخصومات التي خاضها، والضجيج الذي كثيرا ما أثاره بسبب «لسانه السّليط»، واستقلاله الفكري المقترن بسرعـة الغضب. هكذا استرجع الـمـؤلّف، عناصر من حياته، كانـت قـد أصبحت بعد ملكا لعموم النّاس، وأبرزها إبرازا ليجلو صورته الذاتيّة، وبذلك يعلّل رأي الكثيرين فيه. هكذا تغدو الترجمة الـذاتـيّة لعبـة مرايا ذات صفائح مكبّرة حينا مقلّصة حينا آخر، وهي إلى ذلك ، ردّ اعتبار للشخص الذي نرتضيه صورة لنا، ومحاولة بناء لأنا متعـدّدة الأوجه بناء منطقيّا، فيها يعرض المؤلّف بالحجّة والدليل ما يقدّمه من تعليل. فلا مفرّ لنا من أن نستحضر تلك الرّسوم المرصّعة على الدّوام بهالة من النبل، والتي اعتاد أرباب العائلات البـورجـوازيـة ووجهاء القوم أو آخرون من ذوي السلطان استنجازها، حتّى تظهر عليهم مخايل الكرامة في نظر الأجيال المقبلة. كانوا يستنجزون هذه الرّسوم على نحو يجسّد القيم الأخلاقيّة، التي يرومون توريثها، في صيغة وصيّة بالرّسم. أمّا المؤلّف، وهو يصوّر المنحدر الأخير من

حياته بواسطة القصّ، فإنّه يصدر عن القصد ذاته، والفارق أنّ الأمر يتعلّق هنا بصورة قلميّة ذاتية.

إنّ هذه الصورة القلميّة الذّاتيّة ستذيع ذيوعا بواسطة النشر أوّلا، ثمّ بالوسائل السمعيّة البصريّة (فقد أخرجتها أخيرا التلفزة المصريّة في شكل مسلسل). لقد استعادت الدّولة هذا النّموذج، وتوسّعت في إذاعته ليبلغ الطبقة الأمـيّة من الشعب، حتّى أقصى قرى وادي النيل. أيّ مدى لتأثير هذا [الكتاب] ؟ لنا مؤشرات من بينها تلك الحملة المناوئة للكاتب والتي تحرّك الآن بعض الأوساط المصريّة المثقفة. لقد ظلّ طه حسين من بين الأبطال الذين يحتاج إليهم المجتمع، ليرى فيهم صورته تارة، وطورا ليمحقهم بحسب المقتضيات اللاّنهائيّة لنحت هويته.

الفتى : هو أم أنا ؟

كيف يواجه المرء كلّ المخاطر التي يحتويها خطاب عن الذات، عندما تكون قيمته الذاتيّة موضوع قضيّة، وعندما يتعلّق الأمر بتبرير اختيارات الوجود، وحين يقف المرء وحيدا أمام الجمهور مجتهدا في أن يبلّغ صورة متناسقة من هويّته ؟ بأيّ خطّة في الكتابة يعرض المؤلّف لهذا المشروع المحفوف بالمخاطر ؟ ما هي الوسائل التي يتوخّاها ليحمي نفسه ؟ وإلى أيّ حدّ يجازف في الكشف عن أسراره؟

لقد اخترنا، لتوضيح هذه المسائل، وجهات نظر ثلاثا : حضور الزوجة وغيابها، والالتجاء إلى ضمير الغائب المفرد، وطرق استعمال الأزمنة.

إنّ الشخصيّة المركزيّة الثانية في هذا الـنصّ السرديّ، وهي زوجة الراوي، ستظلّ، باستمرار، محجوبة عـنّا. إنّ الأهميّة البالغة التي يكتسبها ـ بالنسبة إلى الكاتب ـ لقاؤه لها، ومؤازرتها له، والآفـاق الجديدة التي فتحتها أمامه، كـلّها أشياء باح بها الكاتب في تـأثّر. ولكنّ الحياء التقليديّ جعل تحت طيّ الكتمان كلّ ما يتّصل بمحتدها، وأسرتها، وحياتها السالفة، ومطامحها الخاصّة، واسمها أيضا.

لقد ابتدع طه حسين شخصية، هي شخصيّة الفتى، الذي سيتحدّث عنه دوما بصيغة ضمير الغائب المفرد، أي أنه يظـلّ يتحدّث عنـه، طوال النصّ السردي، كما لو كان يتحدّث عن شخص آخر. فكان الطابع غير المباشر للخطاب هو المقدّم. أمّا الراوي الحقيقي فله أن يبقى في الظل. على هذا النّحو حقّق الكاتب محاولة مباعدة، بغية حماية نفسه، على أغلب الظنّ، وتكتّما منه. ولكن علينا ألاّ ننسى أنّ طه حسين مؤرّخ، مؤرّخ حتى في النظرة التي يحاول أن يلقيهـا إلى نفسه، ولمّا كان حريصا على الصدق، طالبا للموضوعيّة، عدّ [تلك] الشخصيّة التي تمثّله وعاملها، على أنّها كائن تاريخيّ متمتّع بنصيب من الاستقلاليّة، وكأنّه متجرّد عنه. وبذلك تصبح، عندئذ، وظيفة استعمال ضمير الغائب المفرد إبراز هذا الفارق في الرّؤية بين الراوي، وقد تقدّم اليوم في السنّ، وحياة الفتى بالأمس دون اليوم. وبهذا الأسلوب خوّل لنفسه أن يقدّم لنا رأيه وأن يشرح أفعال هـذا الفتى، فيبرز، من جديد، راويـا مـؤرّخا يقوّم وجود شخص آخـر ويقدّره تقديرا. وإذا به يضطرّ القارئ إلى القيام بعمليّة فكّ الرّمز، حتّى ينزع القناع عن الـ «هو» ويماثل بين الفتى والراوي. وعندها،

فنحن نمارس هذه اللّعبة بإتقان ـ لأنّ هذا الأمر ليس غير لعبة ـ خاصة أنّ قانونها مذكور في بداية كلّ فصل. والحقّ أنّ «الأنا» لا يعود إلى الظهور، في إصرار، إلاّ في عناوين الفصول، مجدّدا بذلك، في غير انقطاع، ميثاق القراءة.

هذا الظهور المتكرّر «للأنا» يوافق أيضا ما يقتضيه نشر الكتاب مسلسلا، في صحيفة أسبوعيّة، من عنصر الإثارة و «المباشرة» التي يزعمون، على أنّه لا أحد ينخدع فيما يتّصل بهويّة ذلك الفتى، بل نحن أبعد ما نكون من ذلك، خصوصا أنّ الراوي يقوم بإعادة تركيب للعالم الباطني للشخصيّة، إعادة بلغت من التفصيل منتهاه، ومن الدقّة غايتها، ومن الامتلاء بالأحاسيس والتناقضات والتوتّرات مداه. لقد تعذّر على الكاتب أن يحقّق في الملفوظ المباعدة التي أراد أن يلتزمها في التلفظ، فأصبح من المستحيل عليه أن يقنعنا بأنّه يتحدّث حقيقة عن غيره.

هذا الإخفاق في الظفر بمباعدة شاملة (أليست هذه المباعدة، دائما وعند كلّ النّاس، مجرّد سراب ؟) يظهر، من زاوية أخرى، واضحا عند فحص استعمال الأزمنة في هذا النصّ. إنّ أوفر جزء من هذا النصّ محرّر في ظلّ الزمن التاريخي، أي الزمن الماضي، مستجيبا، في ذلك، إلى الدّواعي ذاتها التي سلف ملاحظتها من تجرّد وصدق. غير أننا نشهد، في عدد من الفقرات، عودة إلى استعمال الزمن المضارع، وهو يناقض مناقضة مدهشة ما تقدّم من استعمال وما سيليه. ونلاحظ أنّ هذا الرجوع إلى المضارع ـ وقد

راعاه المترجم * ما أمكن له ذلك ـ يحصل لرواية الأحداث التـي ـ وإن هي انتمت إلى الماضي فعلا ـ فإنّها تمثّل ـ على أغلب الظن ـ أدقّ الفترات في حياة الكاتب، ومنعرجاتـهـا الـجـوهـريّة (إحرازه الشهادات، زواجه، وما إلى ذلك . . .). إنّ تلك التجارب لها من شدّة القوة لدى الراوي ما يجعلها تـبـدو كـأنّها راهنة حـتـى الآن، وكأنّها لم تفقد جدّتها. إنّ الزمن المضارع ـ دون أن يكون استعماله من قبل الكاتب اختيارا مقصودا ـ يصبح عندئذ الموجّه للانفعالات التي لا تزال غضة يقظة، ولتأثيرها الدائم. سيستعيد الكاتب الاحساس بهذه الانفعالات، عبر الذاكرة، ليرويها بكـلّ ما تزخر به من قيمـة شعوريّة، وذلك بتحويلها إلى زمن الخطاب. وباعتماد نظام زمنـي للأحداث مزدوج يبرز نظام زمنـيّ جديد أكثر حميمـيّة، وذاتيّ في جوهره. وبذلك يتكسّر التأثير الناتج عن المباعدة الحاصلة باعتماد الماضي. فالملفوظ يتجسّد في الحاضر، ومن يومها ينفتح عـلـى المستقبل. أمّا الراوي فيقرب مـنّا درجة. هذه التحوّلات المتكرّرة في سجلاّت الأزمنة اللغويّة بقدر ما تكسر رتابة نص قصصيّ طويل، تشكّل بالخصوص، في نظرنا، صدعا موحيـا، لـه حـظّ من الثراء وافر، في خطّة المباعدة التي نهض بها الراوي حيث نجد المـؤرّخ يتنحّى جانبا ليترك الإنسان يظهر للعيان.

كثيرة هي الآفاق النظريّة التي كان بوسعنا أن نعيد من خلالها بناء هذا النصّ : إمّا، خاصّة، بفتح هذا البحث لمجال الأدب العربـيّ

* تشير كاتبة الفصل إلى الترجمة الفرنسـيّة التي أعدّها أنور لوقا للجزء الثالث من كتاب «الأيّام»، وهي كما ذكرنا ترجمة لم تظهر حتّى اليوم.

المعاصر، وإمّا بإدراجه ضمن سلسلة النّصوص العربيّة التقليديّة حول الذات. ولكنّ غايتنا هيّ إيحائيّة أكثر منها استيعابيّة، إذ تهدف، خصوصا، عن طريق تحسّس علّة وجود هذا النصّ، إلى إبراز مسالك تأويل مختلفة *. أن يتحدّث الإنسان عن الذات أو عن الغير يعادل، حسب رأينا، تشييد قصر من ورق. فنحن جميعا، نودّ أن نعبر الجسر، وأن نجتاز العتبة، وأن نضبط مدى العبقريّة التي بها أقيمت هذه المنجزات الهشّة، ثمّ أن نرجع إلى الأثر ذاته وقد ازددنا نضجا بفضل عبرة المنشىء.

---

* القضايا التي تناولتها كاتبة البحث على غاية من الأهميّة. ويجد القارئ في المراجع الآتية وجهات نظر مختلفة من هذه القضايا ومن غيرها فيما يتعلّق بمشكليّة الترجمة الذاتيّة في كتاب *«الأيّام»* بأجزائه الثلاثة :

- حسام الخطيب : « «أيّام» طه حسين وفنّ السيرة الذاتية»، *المعرفة* (دمشق)، ع 153، 1974 ، ص 61 ـ 80 .
- عبد السلام المسدّي : *النقد والحداثة*، ط.1، بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر، 1983/ فصل «الأدب العربي ومقولة الأجناس الأدبيّة : نموذج السيرة الذاتيّة في كتاب «الأيّام» »، ص 102 ـ 134 .
- محمد القاضي : «الظاهر والباطن في كتاب *«الأيّام»* : بحث في التبئير». ضمن كتاب : *مائويّة طه حسين* ـ وقائع ندوة مجمع تونس للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة) المنعقدة يومي 27 و28 جانفي1990 بمناسبة مرور مائة سنة على ولادة طه حسين، تونس ـ قرطاج، 1993، ص 207 ـ 232 .
- فؤاد القرقوري : «مشكلية الجنس الأدبي كما تتجلّى من كتاب «الأيّام»»، ضمن كتاب : *قراءة النص بين النظريّة والتطبيق*، تونس : منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، 1990، ص 205 ـ 219 .
- عبد الله صولة : «كتاب *«الأيّام»* خطابا حجاجيًا»، ضمن كتاب : *صناعة المعنى وتأويل النصّ*، أعمال ندوة قسم اللغة العربيّة من 24 إلى 27 أفريل 1991، تونس ـ منوبة : منشورات كليّة الآداب بمنّوبة ، 1992 ، ص 299 ـ 320 .
- شكري المبخوت : *سيرة الغائب ـ سيرة الآتي*، ط.1، تونس : دار الجنوب للنشر : 1992.

القسم الثالث

تلاقي الشرق والغرب
في إدراك طه حسين



طه حسين والغرب *

بقلم أنور لوقا **

الطفولة : 1889 - 1902

لا شيء كان يهيّئ طه حسين (1889 ـ 1973) لمعرفةالغرب. فولادته في الصّعيد الأوسط من مصر العليا بعيدا من مراكزالعمران في عزبة فلاحيّة تقع خارج بلدة مغاغة، ونشأته في كنف عائلة

* Anouar Louca : "Taha Hussein et l'Occident", *Cultures* (Unesco) Volume 11, n°2,1975,pp.118-142.

كتب أنور لوقا هذا النصّ أصلا بالفرنسيّة، ونشرته اليونسكو في مجلتها *ثقافات (Cultures)* ، في العدد المشار إليه، ونشرته مترجما الى اللّغة الأنكليزيّة المجلة ذاتها في طبعتها الأنكليزيّة. وكان المؤلّف يأمل أن يرى نصّه هذا ينقل إلى اللغة العربيّة ليبلغ القارئ العربي، فلمّا أعلمه المترجمان بأنهما نقلا نصّه فعلا إلى العربيّة كتب إليهما معبّرا عن ابتهاجه لذلك. (من رسالة بعث بها أنور لوقا إلى منجي الشملي بتاريخ 1995/09/01).

** أنور لوقا (Anouar Louca) مفكر وباحث مصري معاصر، ولد بالصعيد المصري سنة 1927 . درس بقسم اللغة الفرنسية بجامعة القاهرة ومنها أحرز الليسانس . ثمّ التحق بجامعة السوربون بباريس بتوصية من أستاذه طه حسين لمّا كان وزيرا للمعارف . وهنالك أعدّ رسالة دكتورا الدّولة بإشراف عالم الأدب المقارن=

متوسّطة ماديّا تعدّ ثلاثة عشر طفلا، ثمّ فقدانه بصره وهو في السّادسة من العمر عقب إصابته برمد لم يحسنوا علاجه، وهو أمر أشدّ وطأة من الفاقة وأقسى، كلّ هذا كان سيدفع الفتى إلي حياة خاملة وعزلة دائمة.

=الفرنسي جان ماريه كاريه (Jean-Marie Carré) موضوعها : *الرحالة والكتاب المصريون في فرنسا في القرن التّاسع عشر*، وناقشها عام 1957 .

(*Voyageurs et Ecrivains égyptiens en France au XIX siècle* .Paris : Didier, 1970)

ولأنور لوقا عناية خاصة بفكر عصر النّهضة العربي وبمسائل الأدب المقارن. وقد باشر التّدريس في الجامعات المصريّة ثم في الجامعات الغربيّة. وهو الآن أستاذ متميّز في جامعة ليون الثانية مع الإقامة في جينيف.

عني أنور لوقا بصفة خاصّة بالمفكر المصري رفاعة رافع الطهطاوي، ونشر له محققا : *تخليص الابريز في تلخيص باريز* بالاشتراك مع محمد علام وأحمد أحمد بدوي، القاهرة : وزارة الثقافة ـ الحلبي، 1958، 319 ص . ونقل إلى الفرنسية كتاب الطهطاوي هذا بعنوان :

(*L'Or de Paris - Relation de voyage.* Paris : Sindbad,1988, 362 p.)

وكتب عن الطهطاوي عدّة مقالات وأبحاث باللّغتين العربيّة والفرنسيّة ونشر عنه كتابا أوّل : *ربع قرن مع رفاعة الطهطاوي*، القاهرة : دار المعارف (سلسلة إقرأ عدد 510)، 1985، 247 ص، وكتابا ثانيا : *عودة رفاعة الطهطاوي : مراحل استفاقة الفكر في ضوء الأدب المقارن* ـ تقديم منجي الشملي، سوسة ـ تونس : دار المعارف للطباعة والنشر، 1997، 261 ص. كما عني بنقل عيون الأدب الغربي الى العربية فترجم بعض آثار راسين (Racine) وكلوديل (Claudel) ويونسكو (Ionesco) ولابروبير (La Bruyère) ودوديه(Daudet) وفاليري (Valéry).

وأنور لوقا من تلامذة طه حسين وصحبه. وقد كتب عنه عدّة مقالات وخصّه بفصلين اثنين في كتابه: «*ربع قرن مع رفاعة الطهطاوي*». ونقل إلى الفرنسية ـ بإشراف طه حسين ذاته ـ الجزء الأوّل من كتاب العميد : «*الفتنة الكبرى*» (*La Grande épreuve*. Paris : J.Vrin, 1974, 158p.). ومن أعمال أنور لوقا غير المنشورة ترجمة فرنسيّة للجزء الثالث من كتاب «الأيّام»، أنجزها باقتراح من=

لكنّ طه حسين أوتي من قوّة الإرادة ما ردّ به القضاء. واليوم، لا يخفى على أحد مسيرة حياته المهنيّة المدهشة : طالبا في الأزهر، ودكتورا من السّوربون، وأستاذا في كليّة الآداب بالقاهرة ثمّ عميدا لها، ومؤسّسا لجامعة الإسكندريّة فرئيسا لها وأخيرا وزيرا للمعارف.

كان أندريه جيد (André Gide) معجبا بطه حسين على أنّه «مضرب مثل للنّجاح ونموذج انتصار دؤوب لنور العقل على الظلمات» * .
إنّ مدى تأثيره الثقافي لينسحب اليوم على امتداد العالم العربي حيث غدا اسم طه حسين مرادفا للنّهضة.

لقد دخل «عميد الأدب العربي» التّاريخ وهو لم يزل بعد على قيد الحياة. فمن تآليفه ما نقل إلى لغات غربيّةوشرقيّة ولا سيّما

مؤنس طه حسين وراجعها شارل فيال (Charles Vial) وكتبت مقدّمتها ليلى لوقا (Leila Louca).

وقد كانت لأنور لوقا مراسلات مع السيد مؤنس طه حسين جمعها ونشرها في كتاب بعنوان : «في الأيّام الأخيرة» (*Ces derniers jours* : Correspondance Anouar Louca - Moënis Taha Hussein : 1973-1991,Genève: Ed. Strategic Communications, 1992, 104 p).

ويصدر له قريبا كتاب : *(L'Autre Egypte de Bonaparte à Taha Hussein)* أي *«الوجه الآخر لمصر من بونابرت إلى طه حسين»* راجع حول شخصيّة أنور لوقا حوارا بالفرنسيّة مهمّا صدر في مجلة «مارس» (معهد العالم العربي - باريس)، ع10 - 11، 1999 ، ص 5 - 33 :
" Itinéraires de Mallawî à Paris", entretien avec Anouar Louca, propos recueillis par Hassan Arfaoui, *M.A.R.S* (Institut du Monde Arabe - Paris), n°10-11, 1999, pp.5-33.

* Taha Hussein : *Le Livre des jours*, trad.de l'arabe par Jean Lecerf et Gaston Wiet, 3e éd., Paris : Gallimard, 1957, voir : Préface d'André Gide, p.VI.

ترجمته الذّاتيّة «الأيّام». إنّ فصولا كثيرة ومصنّفات من بينها أطروحات أعدّت في جامعات أوروبا وأمريكا تناولته بالدّرس روائيّا وناقدا ومؤرّخا وفنّانا ومناضلا.

إنّ أمرا حاسما هو قوام آثاره : الالتقاء بالغرب، وسآخذ نفسي هنا باستعادة صورة هذا اللّقاء من حيث هو قدر إنسان وقدر مجتمع في آن.

في البدء كان النور، وسرعان ما انطفأ، وبات ذكرى من عهد الطفولة وحنينا إليها. ترى هل ينطمس إلى الأبد آخر مشهد علق بذاكرته من العالم المرئيّ : مزرعة قصب السّكّر المنبسطة إلى غير نهاية، والممتدّة على الضّفاف المعشوشبة للقناة التي تحاذي القرية... ؟ سيصبح للعالم في وعي هذا الصبيّ الكفيف أبعاد أخرى يدركها من خلال الأصوات التي يستكشفها أو يستأنس بها.

كان الصبيّ يلتقط أصداء المدينة العظمى، القاهرة، في أحاديث إخوته الكبار حين يعودون إلى البيت لقضاء الإجازة المدرسيّة. وكان معجبا بأخيه أحمد الطّالب في جامع الأزهر.

ولمّا انسدّت على طه أقرب المسالك لنيل المعرفة، في الوقت الذي تيقّظ فيه فضوله، صوّب آماله كلّها نحو الأزهر. كان يطمح إلى أن يصبح أحد مشايخه الذين يملكون زمام العلم والدّين معا. وليس لمن كان في مثل وضعه أن يصبو إلى أكثر من ذلك . وما من شيء، رغم عاهته، كان يحول دون انتسابه إلى جامعة الأزهر حيث كانت الدّروس تعتمد الكلمة والذّاكرة كما كان الشأن في العصور الوسطى.

كان عليه قبل ذلك أن يحفظ القرآن عن ظهر قلب. وقد دفعه أبوه الى ذلك، وهو من أتباع الطرق الصوفيّة الشعبية المنتشرة في الرّيف. أمّا الصّبيّ فقد كان الأزهر البعيد، فضلا عمّا يكتنفه من روح التقوى الشائعة في أرجائه، يمثّل عنده قيمة مطلقة، هي النّور الذي يصبو إليه والمنارة المنقذة من الظلام.

في سنّ التّاسعة أتمّ طه حسين حفظ القرآن كاملا. ولئن هو لم يفهم محتواه فقد أحرز منه الشكل على الأقلّ. فكان يهتزّ من أثر ترتيل الآيات القرآنيّة وكانت تتردّد في رأسه حكمة لا يدرك كنهها. وإذا بتعابير منها تلاحقه وتنبجس له في وحدته فتوحي إليه بشتّى الفكر. وفي السنّ التي يقبل فيها الصبيان على ألعابهم هو ذا حافظ للكتاب الكريم. وهذا عالمه الصغير يمتدّ على نحو عجيب إلى الخليقة كلّها، فيشمل، فضلا عن القرية وعن أمل الرحيل إلى القاهرة، جميع النّاس الأخيار منهم والأشرار ممّن يخاطبهم القرآن. فالخليقة كلّها مرجعها إلى الله. ولنلاحظ في نشأة وعيه هذا التفتّح المبكّر لاستشفاف المعاني الكونيّة. إنّه لن يكون عقيما إذ منه سيتشكل إطار النظريّة عامّة فيها تنتظم تلقائيّا العناصر التي سيتصوّرها مفكّر الغد.

إنّ نصّ القرآن لم يبق معنى مجرّدا، ففي القرية كانت المعاني العلويّة تمتزج بالحياة اليوميّة. كان والد طه، وهو موظّف صغير يتقاضى أجرا زهيدا في معمل السكّر التّابع للدّائرة السّنيّة الخديويّة، لا ينكر أصلا استعمال الآلة التي استجلبت مع الغزو الغربي كما لا ينكر أن تخضع الحكومة المصريّة ماليّا للمحتلّ البريطاني. وكان

يسعى إلى تخطّي الضّائقات الاقتصاديّة بالدّعاء والاستخارة، لكلّ طلبة من الطّلبات عدد محدّد من الآيات يستخدم هذا الصبيّ الضّرير في قراءتها، ويا للبركة! أليست البراءة والعاهة ضمانا لاستجابة العناية الإلهيّة؟ وكان الصبيّ يمتثل فيكرّر في خلوته السّورة المناسبة أربعا أو سبعا أو إحدى وأربعين مرة بحسب الطّلب. فينال قطعة من السّكّر أو الحلوى أو خمسة ملّيمات أو قطعة من فئة عشرة ملّيمات جزاء وفاقا.

ينظر الصبيّ فإذا هو وسيط ممتاز في نظام من العلاقات أقامه الكهول في ما بينهم وبين قوى الأرض، وفي ما بينهم وبين قوى السّماء، وجعلوا فيه للأدعية والاستجابة لها ثمنا. إلى هذا الحدّ لم تكن سلطة الأب قد مسّها ضرّ، ولكنّ شخصيّة الصبيّ، وقد كان ربّ الأسرة يطلعه على أعبائه الجسام، ما فتئت تتأكّد في صمت وتنمو. ترى هل كان الصبيّ يدرك ما في صنيعه ذاك من مفارقة وهو الذي لم يكن قادرا على التحكّم في أي حركاته؟ وكذا ابتدأت تجربة طه حسين المبكّرة مع قضايا المجتمع التي كان المتديّنون يحوّلونها إلى قضايا غيبيّة.

الأزهر : 1902 ـ 1914

يصوّر الجزء الثاني من كتاب *«الأيّام»* بالكلمات الآتية دخول المؤلّف الأزهر سنة اثنتين وتسعمائة وألف (1902) :

«النسيم الذي يترقرق في صحن الأزهر حين تصلّى الفجر يتلقى وجهه بالتحية فيملأ قلبه أمنا وأملا (. . .) وإذا نفسه تتفتّح من جميع أنحائها وقلبه يتشوّق من جميع أقطاره ليتلقى (. . .) العلم» * .

التحق طه حسين بحلقة اجتمع طلابها حول شيخ قد أسند ظهره إلى أحد الأعمدة. فما ضيّع كلمة من هذا الدّرس الأوّل، ولكنّه لم يفهم منه شيئا. كان الدرس في موضوع «أصول الفقه». وزاد بذلك إجلاله لرجال العلم عمقا.

وبقرب عمود آخر حضر الفتى درسا في «الحديث النبوي»، هو، على أغلب الظن، أيسر من درس «أصول الفقه». ولكنّ تعاقب أسماء الأعلام التي تعرّف برواة حديث [نبويّ] ممّا يرغمه على انتظار المتن في شوق وحرقة، حتّى إذا ما نطق الشيخ به أخيرا أصغى إليه الفتى متلّهفا. لكنّ إغراق الشيخ في الشرح يضيّع عليه فهم المعنى. فكأنّ بينه وبين جوهر المتن حجابا.

كان هذا الرّيفي الخيّر الطموح لا ينكر من أمره شيئا، في بداية عهده بالدّرس، غير جهله. فجدّ واجتهد حتّى أتى في سنوات أربع على برامج النحو والبلاغة وأصول الفقه والتوحيد والمنطق. ولكنّ طموحه الحادّ إلى معرفة نيّرة منعشة ظلّ غير مشبع. فهو كلّما أعمل عقله انتهى إلى خواء. إنّ ثقافة الأزهر بأكملها، وقد تمثّلها

---

* انظر طه حسين : *الأيّام*، مج1 من المجموعة الكاملة ، ط.2، بيروت : دار الكتاب اللّبناني، 1982، ج 2 ص 169

أحسن تمثّل، كانت مجلبة للخيبة ذاتها. وغدا المشايخ، على مرّ الأيّام، مصدر تبرّم له، وهم يلوكون في غير تفكير عبارات جوفاء.

وقد سعى الفتى إلى مجادلة أساتذته، ولكنّ تقديسهم للسلف تحدّى الرشاد وأفضى إلى الأباطيل. فإذا هو يهجر جلّ دروسهم، ينقطع في دار الكتب إلى دراسة شاعر لا يتضمنه البرنامج، هو المعرّي، أحد عباقرة القرن الحادي عشر[للميلاد]، وكان، كصاحبنا، قد أصيب بفقد ناظريه.

كان طه حسين يتشبّه بالمعرّي... هذا القادم من ريف الشام، والذي ارتحل، كما كان يصبو، إلى العاصمة المجيدة للخلافة ليلقى شيوخ العلم في الدّولة العباسيّة. ثم رجع إلى موطنه محزونا لما رأى من جمود فكري ونفاق في المجتمع البغدادي. ومن أعماق محبسيه ـ لأنّه قرّر كذلك أن يلزم بيته* - طفق يتأمّل في منزلة الإنسان، ويستصفي من فكره السوداوي خطابا صارما يتحدّى به سطحية معاصريه ببراعةالفنان القاهر المقتدر الذي ألزم نفسه ما لا يلزم من مقتضيات الجمال الفنّي .

قد يعلّل المؤرّخ عجز هذا الشاعر عن التكيّف [مع بيئته] بما كان يقاسي من ألوان حرمان ومأساة داخليّة. ولكنّ فجيعته تفاقمت بتأثير التحوّلات السياسيّة التي شهدها عصره : فقد ظهر الفاطميّون

---

* يشير الكاتب إلى قول الشاعر :

أراني في الثلاثة من سجوني ... فلا تسأل عن الخبر النبيث

لفقد ناظريّ ولزوم بيتي ... وكون النفس في الجسد الخبيث

يومئذ على العبّاسيين مدفوعين بعقيدة جديدة. وكشفت معارك الغزو، وسقوط العروش المهيبة، ونقض العهود والأحلاف، والاختلافات المذهبيّة ـ بما فيه الكفاية لكلّ ملاحظ فطن ـ زيف السلطة، كما كشفت هشاشة الايمان ونسبية الآراء التي يستبسل الناس في الذّود عنها.

إنّ رباطة الجأش التي وسمت أبا العلاء السّاخط على البشريّة لا تكاد تخفي فلسفته الارتيابيّة. وإنّ مصدر ما يحسّه قراء أبي العلاء الغربيّون من تعاطف خاصّ معه لهو هذه الصّبغة «العقلانيّة» التي تنضح بها آثاره. لقد كتب قاستون فييت (Gaston Wiet) : قائلا

«إنّ الآراء التي يطرحها أبو العلاء ويدافع عنها بضراوة تجعل منه، على أغلب الظنّ، أقرب شعراء العرب إلينا. فهو شبيه جدّا بالمفكّرين العقلانيّين في الآداب الغربيّة. ولئن لم يكن أبو العلاء أخرج من حظيرة الإسلام فإنّ الفضل في ذلك يرجع، على الأرجح، إلى عبقريته الشعريّة لا إلى معتقداته الدّينيّة»[1].

ولمّا كان طه حسين معتدّا بما ينعاه المعرّي على معاصريه، وله مثل انقطاعه إلى نفسه في ليله الدّاجي، فإنّه انقلب ينتقد تدريس شيوخه انتقادا قاسيا. ولم يعد يستنكف أن يردّ عليهم ساخرا. وقد جلب إليه ما في مظهره من حلّقوريبة غضب طائفة من هؤلاء الشيوخ وحقد طائفة أخرى.

---

1) ـ Gaston Wiet : *Introduction à la littérature arabe* (Collection Unesco d'Introduction aux littératures Orientales), Paris : Maisonneuve et Larose, 1966, p. 192.

والحقّ أن أزمة ضمير كانت تنخر، في صمت، تلك الجامعة العتيقة. وكانت قد هبّ عليها حينئذ تيّار إصلاحي، واتّصلت فيها الإضطرابات. وانقسم النّاس فريقين : أحدهما ينتصر لشيخ الأزهر محمد عبده (1848-1905) أبرز تلاميذ الثّائر جمال الدّين [الأفغاني] (1839-1897)[2]، والفريق الآخر يخاصمه.

لقد كان محمد عبده شاهدا على الانحطاط الفكري والأخلاقي الذي ساهم في جعل الشرق الإسلامي فريسة ميسورة للاستعمار الأوروبي في القرن التّاسع عشر. وكان، وهو ابن فلاّح، أقلّ اندفاعا نحو معاقل السياسة من أستاذه المتحمّس، فآثر أن يبدأ بتثقيف الشعب تثقيفا عميقا. قاوم التّرّهات الدّينيّة وجمود المذاهب الفقهيّة، وسعى في تفسيره للقرآن إلى التّوفيق بين العقل والدّين. وكان عبده لا ينفك، في كلّ مكان، يحضّ النّاس على الرّجوع إلى الدّين في صفائه الأصلي.

لقد أمكن للأستاذ الإمام، رغم المعارضة التي لقيها، أن يؤسّس داخل الأزهر ذاته مجلس إدارة يضمّ أعضاء غير أزهريين، وأن يعيد تنظيم برامج [الدّراسة] قصد إلغاء تدريس الشّروح، وإدراج مواد حديثة يكون بعضها إلزاميّا كالرّياضيات، وبعضها الآخر اختياريّا مثل تاريخ الإسلام والجغرافيا. ولكنّ الحزب المحافظ لم يستسلم، وظلّ الخلاف يغذّي الوشايات والمؤامرات[3].

2) Cf.H. Pakdman : *Djamal-ed-Din Assad Abadi dit Afghani* (Paris: Maisonneuve et Larose, 1969) N.R. Keddie: *Jamal ad-Din "Al-Afghani", a political biography* (Berkeley : University of California Press, 1973).

3) - Sur M.Abduh et l'Occident, voir A.Louca : *Voyageurs et écrivains égyptiens en France au XIX e siècle* (Didier, 1970) pp.133-152.

ولئن لم يكن طه حسين قد بلغ وقتئذ السنّ التي تتيح له أن يحضر دروس الشيخ محمد عبده، ولعلّه حضر له درسين اثنين ألقاهما قبل أن يتوفّى (وذلك سنة 1905)، فإنّه ألمّ برسالة الأستاذ الإمام وبمواقفه التّاريخيّة من خلال ماكان يتناقله الطّلاّب الذين كانوا يفوقونه سنّا، ومنهم أخوه. ولـمّا كان طه حسين قد اصطدم هو أيضا بجمود أساتذته الشّيوخ فإنّه رام أن يحيي الجدل [الفكري]، وأن ينقله أمام الرّأي العام على صفحات «الجريدة»، وقد كان معجبا بها وبوطنيّتها الصّادقة وفكرها المستقلّ الدّاعي إلى الحداثة. وكان أحمد لطفي السيّد (1872-1963) رئيس تحريرها يردّ الفتى الأزهري إلى شيء من القصد[4]. ولكن هذا الأزهري لن ينال رضا أساتذته الذين أطلق فيهم لسانه، فقد بيّتوا النيّة على أن يطردوه من الأزهر، إلى غير رجعة.

كان طه حسين شديد الضيق بالأزهر، وكان الجمود والقهر المحيطان به يأخذانه من كلّ أقطاره إذ بنبأ يعلن أن جامعة أهليّة* علمانيّة من نمط عصري ستنشأ بالقاهرة في ديسمبر من سنة 1908، إنّها الغمرة تنجلي! وما أسرع ما انتسب طه حسين إلى هذه الجامعة!

كانت الدّروس التي تلقى مساء، في هذه الجامعة، تعالج موضوعات ملكت عليه أمره بجدّتها، وهي : التّاريخ، حضارة

---

4) Voir G.Delanoue, "Ahmed Lutfi Al-Sayyid", *Revue des études islamiques* XXXI (1963) pp.89-103

* والمقصود هنا جامعة حرّة أو خاصّة حسب اختلاف المصطلح المستعمل هنا أو هناك.

مصر القديمة، علم اللّغة، الفلسفة والنقد الأدبيّ. وقد عهد بها إلى صفوة من الأساتذة المصريّين والمستشرقين .

كان طه حسين، وهو ينصت إلى دروس يلقيها حفني ناصف واسماعيل رأفت وأحمد كمال وكذلك بالعربيّة يلقيها نالينو (Carlo Nallino) وليتمان (Enno Littmann) وجويدي (Ignazio Guidi) وسانتلاّنا (David Santillana) وماسينيون (Louis Massignon)، في عيد للفكر لا ينقطع. إنّ مناهجهم قد ملكت عليه عقله، وتراءت له آفاق الفكر الإنساني الذي كانت تهفو إليه نفسه. فلا شيء هنا يعوق فضوله أو يحدّ من رغبته في المعرفة.

لقد ضاعف الجهد متحمّسا، وشرع في تعلّم الفرنسيّة على الرّغم من واجباته في الأزهر وسوء سكنه القائم غير بعيد منه. وكان، فضلاعن ذلك، يعدّ لدى الجامعة الجديدة رسالة في موضوع أثير لديه : هو المعرّي الشاعر* . وكانت مناقشة هذه الرّسالة، في الخامس من شهر ماي ** من سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف (1914) أمام حشد من الأنصار تملؤهم الحماسة، حدثا تاريخيّا : إنّها أوّل رسالة دكتورا في العالم العربي قاطبة .

---

* العنوان الأصلي للرسالة كما جاء في الوثيقة المسلمة لطه حسين ليس «*ذكرى أبي العلاء*» وإنّما «*تاريخ أبي العلاء المعرّي*».

** ورد في النصّ الفرنسي تاريخ الخامس عشر (15) من ماي، والصواب هو أنّ المناقشة كانت تمّت في الخامس (05) من شهر ماي. انظر : طه حسين : *الأيّام*، ج3، ص 494-495 .

باريس : 1914 ـ 1919

إنّه تاريخ لا ينسى في حياة هذا الطالب المتفوّق إذ تلقّى مبدئيّا وعدا بمنحة للدّراسة في جامعة باريس، وكان قد وطّن نفسه على تحقيق هذا الأمل، فإذا السعي ذاته في طلب النّور يدفعه إلى تجاوز القرية، وتجاوز القاهرة، وما زال يدفعه إلى توسعة رقعة عالمه. ومواصلة دراسته الآن في أحد مواطن الثقافة الغربيّة أصبحت عنده أمرا أشد إلحاحا من الرغبة ومن الحاجة، إنّها علّة وجوده.

ولكنّ مجلس الجامعة رفض إسناد المنحة إلى المترشّح بسبب عاهته، فآنبرى الفتى محتجّا مخاصما، تملؤه الثقة أو يحفزه الجنون، حتّى ألان قناة الرّجال واستجابت له المؤسّسات. ويروي الجزء الثالث من كتاب *«الأيّام»* كيف تصرّ الإرادة على طلب النّور فتنتصر.

وكانت تهون عليه التّضحيات المفروضة عليه في سبيل ذلك، فقد أخذ على نفسه أن يقاسمه منحته الماليّة الضئيلة مرافقه الذي لا غنى له عنه. ولسوء الحظ اندلعت الحرب في شهر جويليّة سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف (1914) فألغى سفره الذي كان مقرّرا لليوم الثّاني من شهر أغسطس، ثمّ يتاح له السفر، بحرا، في شهر نوفمبر، على الرّغم من الأخطار المحدقة.

وقضى سنة في مدينة مونبلييه (Montpellier).

كانت معرفته باللّغة الفرنسيّة لا تكاد تتيح له فهم دروس التّاريخ وفقه اللّغة والأدب، ومع ذلك كان في كلّ درس يحسّ أنّه يستكشف

شيئا جديدا. وقد كان مضطرّا، وهو يعدّ [درجة] الإجازة، إلى استكمال معرفته باللّغة الفرنسيّة وإلى تعلّم اللّغة اللاّتينيّة أيضا. فأقبل مكرها على طريقة براي (Braille) ولكنّ ذاكرته السّمعيّة، وقد بلغت من القوّة حدّا مذهلا، ظلّت ضامنا، لتقدّمه [المعرفي].

ولمّا بلغ طه حسين باريس في شهر ديسمبر سنة 1915 هنالك اضطرّ إلى أن يعيد دراسته على نحو سليم، فيتقدّم لاجتياز امتحان الباكالوريا الفرنسيّة*. ولقد استغرقت برامج التّعليم الثانويّ الموسوعيّة كلّ جهوده فشغلته عن الثقافة الإسلاميّة. وهذه الثقافة ستستعيد، مخلّصة من كلّ شائبة، مكانها الذي هي به جديرة في ميدان من المعارف العامّة واسع الحدود.

كان الطّالب الأزهري تعوّد بالأمس الرجوع إلى مختلف العصور السالفة. فإذا هو أثناء استيعابه مضامين الكتب المدرسيّة الجديدة، يدرك القيمة الكبرى التي يوليها أهل الغرب لليونانيــة واللاّتينيّة، فعزم على القيام بدراسة معمّقة لهذا التّراث الأوروبي. وإذا بمعالم بنيته العقليّة ذاتها تتغيّر تبعا لذلك، فتقوم على تناظر طرفين اثنين: ثقافة عربيّة موسوعيّة تقابلها، من يومها، تلك الثقافة الكلاسيكيّة المكتسبة. وسيصبح السلوك المنهجي لهذا الباحث المصري المزدوج

* الواقع أنّ طه حسين أشار إلى أنّه سيجتاز امتحان الشهادة الثّانويّة. ولعلّه يقصد بها الباكالوريا، وقد قال في ذلك: «واستطاع في وقت قصير أن يحصّل من هذا كلّه ما يحصّله التلميذ الذي كان يتقدّم إلى الشّهادة الثانويّة مطمئنا إلى أنّ الممتحنين لن يردّوه عن هذه الشهادة خزيان آسفا» (طه حسين: *الأيّام*، ج 3، ص 571) ولكنّنا لا نعلم أنّ طه حسين شارك في هذا الامتحان وأحرز شهادة الباكالوريا.

الثقافة تحسّسا لعناصر المقارنة. وبخطى ثابتة اتّجهت نزعته الإنسانويّة نحو مؤشّرات اللّقاء، وصوب أبعاد عالميّة. وقد فتح له آفاق هذه المعاني، ومنذ سنّ مبكّرة، النصّ الأوّل في حياته، القرآن.

ما انفكّت الحياة في الحيّ اللاّتيني طوال سنيّ الحرب حافلة بالنّشاط. كان النّاس يشتركون في مناقشات تثير أهواء وآراء خطيرة. وكان النّاس، رجالا ونساء، يعبّرون في حريّة تامّة عن أفكارهم معلّقين على الصّحف وهي تقرع الخواطر بغير ما تتوقعه من أخبار البطولة والفواجع. فإذا هم يعيدون النظر في السّياسة والأخلاق، وإذا هم يهدمون العالم ليعيدوا بناءه. لاحظ طه حسين أنّ الجميع يتشاطرون الهموم ذاتها سواء في ذلك حارسة المبنى أو أساتذة جامعة السّربون، إنّها هموم الغرب المضطرب وقد أقبل على مراجعة مختلف قيمه.

لا شكّ في أنّ لقاء هذا الفتى بالغرب ـ خاصة أنّه (أي الغرب) كان يعاني أزمة طاحنة ـ كان امتحانا رهيبا لتوازن هذا الفتى القادم من الرّيف المصريّ والناشئ في بيئة تقليديّة صرف . إنّه الاضطراب بل هو الهلاك يتربّص بكلّ شرقيّ هجر بلاده ليقيم في باريس إبّان الحرب العالميّة الأولى. ولقد وطّن طه حسين هذا الموضوع في رواية عنوانها : «أديب أو المغامرة الغربيّة»[5]، تروي تجربة واقعيّة لأحد رفاق صباه ، لقيه في باريس ثمّ فقده هناك. إنّها حالة مفجعة

5) - Taha Hussein : *Adib ou l'Aventure occidentale*, traduction française par Amina et Moënis Taha Hussein (Le Caire : Dar Al-Maaref, 1960)

من حالات المثاقفة. إنّ هذه الرّواية وثيقة، تفيد عالم الإجتماع وطبيب الأمراض العقليّة كما تفيد المؤرّخ * .

وصف الكاتب بطل هذه الرّواية بأنّه «أديب» نابي الصّورة، ومع ذلك له رهافة حسّ الفنّان. وقد أدركته علّة الكتابة والاتّصال. إنّه يجسّم الدّور الثريّ الجديد كلّ الجدة، في المجتمع المصري، دور الأديب الذي لا يشغل نفسه حتى الأمس القريب إلاّ باللّعب بالألفاظ دون أي علاقة بالحياة.

هو رجل عصاميّ، موظّف صغير في وزارة الأشغال العموميّة حريص على طلب الثقافة، يختلف إلى الدّروس المسائيّة في الجامعة، ويقضي سواد ليله في مكتبته الخاصّة. وكانت أحاديثه المذهلة المليئة بذكريات من التّراث تفتنك وتخرجك عن طورك. وفي ذات الوقت كانت حضارةالغرب تجذبه إليها فلا يملك لها دفعا.

---

* ـ الملاحظ أنّ النصّ العربي ظهر أوّل مرّة سنة 1935 وعنوانه «*أديب*». أمّا عبارة «أو المغامرة الغربيّة» فزيادة من لدن المترجمين نجلي المؤلّف مؤنس وأمينة طه حسين. وقد أعيد أخيرا نشر الترجمة الفرنسيّة في باريس بتقديم فيليب كاردنال، انظر :

Taha Hussein : *Adib ou l'Aventure occidentale*, traduction française par Amina et Moënis Taha Hussein, Paris : Ed. Clancier - Guénaud, 1988, (Préface de Philippe Cardinal)

ونذكّر أيضا أنّ للأستاذ أنور لوقا فصلا مهمّا عن كتاب «*أديب*» بعنوان «الواقع أنجب الرّواية» وقد نشره في كتابه : *ربع قرن مع رفاعة الطهطاوي*، القاهرة : دار المعارف 1985 ، ص 220 ـ 246 .

أفلح أديب في انتزاع منحة من الجامعة للدّراسة في أوروبا. ولكنّ قوانين الجامعة لم تكن تخوّل الانضمام إلى الإرسالية إلا للأعازب، على حين كان هذا الرّجل الذي أحاطت به المتناقضات من كلّ أقطاره متزوّجا. فإذا هو يطلّق زوجته فيفجأ صاحبه ويجزعه. أتكون «حميدة» هذه الرّيفيّة الأمينة الطيّبة رمزا لمصر ؟ إنّ اضطراب البطل انتهى به إلى التمزّق. فمنذ حلوله بمرسيليا وتعلّقه بخادمة الفندق فرناند (Fernande) إلى يوم أن أعادته ألين (Aline) الباريسيّة إلى وطنه سنة (1916) * نشهد استفحال الجنون وقد تخلّلته فترات صفاء ذهني ونجاح باهر في السّوربون.

وتثير الصفحات الأخيرة من هذه الرّواية ـ وهي مقتطفات من رسائل ـ أسى ممضّا لقد أبى البطل أن يفارق باريس مع الذين كانوا يخشون الغارات الجويّة، وفاء منه لمدينة النّور. [وخيّل إليه] أنّ الطّائرات الألمانيّة ترسل إليه بالتحيّة، وأنّ ألين تسعى به لدى الحلفاء لينتقموا منه، فرام الرّجوع إلى مصر والخروج من مغامرته واسترجاع زوجته...

أمّا طه حسين، وهو الذي كانت آفته تقيه كلّ شرّ إن جاز القول، والذي كان متأصّلا في الثقافة الإسلاميّة، فقد كان من حسن طالعه

* ـ لا يمكن أن تكون عودة أديب إلى مصر تمت سنة 1916 ، والأرجح عندنا أنّها كانت خلال سنة 1918 ، وربّما بداية سنة 1919 ، يدلّ على ذلك إشارات وردت في «أديب» وفي «*الأيّام*» ، ليس هنا مجال عرضها. راجع لمزيد التفصيل :
عمر مقداد الجمني : «قضايا فنيّة في كتاب أديب لطه حسين»، *حوليات الجامعة التونسية* (تونس)، عدد 33، 1993، ص 103 ـ 155 .

أن لقي ملكا يحميه. إنّ مرافقته التي كانت تقرأ له بالفرنسيّة في مدينة مونبلييه، هذه الفتاة التي كان صوتها يضفي على شعر راسين (Racine) جمالا على جمال، هي التي ستصبح بمشيئة القدر رفيقته في السّوربون فخطيبته فزوجه. وداعا أيها المعرّي المتشائم ! إنّها قصّة «خلق جديد» يرويها طه حسين في الجزء الثالث من كتاب «الأيّام» شاهدا بالفضل ومعترفا بالدّين لتلك التي «بدّلته من البؤس نعيما ومن اليأس أملا ومن الفقر غنى ومن الشقاء سعادة وصفوا».

ويواصل الزوجان دراستهما بعد أن تمّ قرانهما في ظلّ الثقافة والعلم، ولو رأينا هذين الطالبين في أوّل عهدهما بالخطبة يخرجان إلى غاب بولون (Boulogne) وقد اصطحبا كتابا من تأليف أوغست كومت (Auguste Comte) ، وهو موضوع لامتحان وشيك ، لما خامرنا شكّ في أنّ الثقافة الغربيّة أصبحت عند طه حسين ملتقى عقيدة حميمة. إنّ معرفته لمختلف مظاهر الحياة الأوروبيّة ستكون معرفة شريك فيها.

كان أوغست كومت مؤلّفا أثيرا لدى البروفسور دور كايم (Emile Durkheim)، هذا الذي جعل من علم الاجتماع المادّة العلميّة الأكثر متانة في جامعة السّوربون منذ فجر القرن العشرين. وكان الطلاّب يعجبون بصرامة منهجه، وكانوا كذلك يستبقون إلى دروسه لأنّها كانت تعنيهم على نحو مّا. كان دوركايم يقصد، على حدّ تعبيره، «تطبيق العقلانيّة العلميّة على السّلوك البشري تطبيقا يبيّن أنّه ممّا يخضع لعلاقات السّبب بالمسبّب»[6]. وذاك عين ما كان يطمح

6) *Régles de la Méthode sociologique*, Préface.

إليه كومت : إنشاء علم وضعيّ لدراسة «الوقائع الاجتماعيّة». ولذلك كان دوركايم يدعو إلى معالجة هذه الوقائع من حيث هي «أشياء» تخضع إلى الملاحظة والسّبر الموضوعي. ولمّا كانت الوقائع الاجتماعيّة ذات نسق روحيّ اشترط دوركايم، أن يكون الملاحظ متحلّيا بحيدة لا خلل فيها. على عالم الاجتماع إذن رصد هذه الوقائع من خارج بمعزل عن الأحكام السّبقيّة التي تكبّلنا حين نمارسها.

كانت هذه النظريّة تشدّ أزر طه حسين، وهو مقيم خارج وطنه ومدفوع ـ اليوم أكثر من الأمس ـ إلى أن يبدي حكما فيه. وقد منحه علم الاجتماع الشرعيّة العلميّة، وأعانه البعاد على درس ظواهر [اجتماعيّة] مصريّة، ثمّ مرّت سنوات قلائل فإذا هو يسم بعنوان : «من بعيد» كتابا له يتضمّن مقالات نقديّة.

لقد أدرك طه حسين أكثر من ذي قبل موقعه من الأزهر، وذلك منذ فهم عند أوجست كومت من خلال «قانون الأوضاع الثلاثة»، معنى تطوّر الإنسان كائنا اجتماعيّا ودينيّا. فالنّوع البشري ـ بالنسبة إلى أوروبا على الأقل ـ مرّ من الطّور اللاّهوتي إلى الطّور الميتافيزيقي ثمّ إلى هذا الطّور الوضعي الذي يصوّره، دون منازع، مشروع دوركايم ذاته. وهو مشروع يتحرّى الواقع، ومن هنا فهو مضادّ تماما لعلم مشائخ الأزهر القائم على المغالطة التّاريخيّة.

لقد كان دوركايم يردّد : «نحن على مثل اليقين بأنّ بحوثنا غير جديرة بأن ننفق في سبيلها ساعة من جهد إذا لم يكن لها سوى فائدة

نظريّة»[7]. إنّه يرى أنّ أزمة العالم المعاصر نشأت، على وجه التحديد، من غياب أخلاق تناسب العصر أي مؤسّسة لا على التقاليد الدينيّة بل على الرّوح العلميّ.

ومعلوم أنّ مشكلة العلاقة بين العلم والدّين تعكس الصّراع الّذي كان قائما بين الكنيسة والـدّولة والذي كان يسود الجوّ الفكري فـي فرنسا منذ نهاية القرن التّاسع عشر، وكأنّ المدرسة الابتدائيّة العلمانية جاءت حلاّ لهذا الجدل الذي ما كان له أن يـدع الـطّالب الأزهري القديم خليّا غير شجيّ، وقد أقبل على الجامعة الحديثة جسورا غير حذور.

ألهم علم الاجتماع طه حسين مشروعا شخصيّا عرضه على إميل دوركايم، وهو أن يؤلّف رسالة عن فلسفة ابن خلدون الإجتماعـيّة في صيغة دراسة تحليليّة نقـديّة يطبّق فيها معايير هذا العلم الجديد على أثر من عيون التّراث العربي. أشرف دوركايم على هذا البحث مع المستشرق بول كازانوفـا (Paul Casanova) الذي كان طه حسيـن يتابع دروسه في الكوليج دي فرانس (Collège de France).

هل نعزو اختيار المـتـرشّح لهذا المـؤلّف الذي عاش في القـرن الرّابع عشر الميـلاديّ، وظلّ فترة طويلة مهمل الذكر لدى العـرب أنفسهم، موضوعا لرسالته إلى بعض ذكريات المرحلة المصريّة من حياته؟ لا شكّ في أنّه كان قد سمع الطلاب الأزهريين الّذين كانوا يكبرونه سـنّا يذكرون الأثر الذي تركته دروس مـحـمّد عبده حـول

---

7) ـ *Division du travail social,* Préface

«مقدّمة» ابن خلدون في نفوس شباب سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف (1879) قبيل الثّورة الوطنيّة. هكذا نجد صورة لهذا الحدث في كتاب *«تاريخ الأستاذ الإمام»* :

«بدأ دروسه في دار العلوم بقراءة مقدّمة ابن خلدون بأنّها مقدّمة للتّاريخ، وإنّما كان غرضه بثّ أفكاره السيّاسيّة والاجتماعيّة في أذهان التّلاميذ، فكان يطبّق ما فيها من الكلام على نهوض الدّول وسقوطها وشؤون العمران وأصوله على أمّته، ويبيّن أسباب ضعفها والوسائل التي تذهب به وتعيد إليها ما فقدت من عزّها ومجدها» [8].

مهما يكن الحافز لدى هذا المترشّح فإنّ رائد علم الاجتماع الذي يريد أن يعنى بدراسته كان مبرّزا في التّاريخ. وهذا ما يدعم موقفه إداريّا بصفته طالبا منتفعا بمنحة من قبل جامعته التي أوفدته ليتخصّص في علم التّاريخ دون سواه. رمية واحدة تصيب غرضين اثنين. ولم يكن علم التّاريخ في جامعة السوربون منفصلا عن علم الاجتماع. وكان طه حسين يلاحظ، في جميع دروس التّاريخ التي حضرها، حرصا متّصلا على تفسير الوقائع تفسيرا عقلانيّا ذا منزع علمي. وكان كل مؤرّخ من الذين اختلف إلى دروسهم غلوتز (Gustave Glotz) وبلوك (Gustave Bloch) وديل (Charles Diehl) وسينيوبوس (Charles Seignobos) يسعى إلى أن يعرّف بحقبة من

---

8) محمد رشيد رضا : *تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده*، القاهرة : مط. المنار، 1926، ج1، ص 136.

حقب الماضي الإنساني فحصا من مختلف وجوهها. كانوا يستنطقون الوثائق، وكثيرا ما كانت وثائق خطّية، بغية استكشاف «كيفيّة» التطور و«لـمّيته».

أمّا إذا تعلّق الأمر بالـتّاريخ اليوناني مثلا، فـإنّ غوستاف غلوتـز يستـمـدّ من النقوش الباقية فـي مـديـنـة ديـلـوس (Délos) ومديـنـة أثينا (Athènes) معلومات جديدة حول الأسعار وحول تجارة الخشب والرصاص وأوراق البردي مبيّنا بذلك ما مهر به علم النّقوش التّاريخ السّرديّ، والتّاريخ الاجتماعي بالمعنى الواسع لهذه الكلمة. وكان يطيب لغلوتز متابعة تطوّر المدينة اليونانيّة بمختلف مؤسّساتها السياسيّة منذ العصور الهوميريّة حتّى غزو الرّومان لبلاد الإغريق.

إنّما الثقافة الغربيّة، كما استكشفها طه حسين، وقف على المنهج العلميّ، وجاءت هذه الحقيقة تأكيدا باهرا لما كان يستشعره الطّالب الأزهريّ الساخط، فانبرى ـ انطلاقا من وعيه للطّبيعة العقلانيّة للعلم ـ ينتقد مفهوم العلم عند المسلمين، وذلك بصدد جملة مـزعـجـة صادفها عند ابن خلدون، [يقول] :

«وردت عبارة في المقدّمة يسمّي فيها ابن خلـدون التّاريخ «علما». ولكنّ كلمة «علم» التي نترجمها عادة بكلمة (Science) لا تؤدّي دائما معنى الكلمة الفرنسية. فهي المقابل الحقيقـيّ للكلمة اللاتيـنـيّـة (Scientia) وهي بـذلك تعني «المعرفـة» (Savoir ou connaissance)، وبها يسمّي العرب كلّ مـا يمكن

حفظه بالدّرس، فالآداب علم، وسنّة النّبيّ علم، والقصّة المجرّدة علم، وإن لم يكن لها صفة علميّة»[9]

إنّ التّاريخ الوحيد الجدير بأن يسمّى «علما» في تقدير طه حسين هو الذي أرساه «النقد الوضعي» الغربيّ الذي تبنّاه [صاحبنا] في غير ما تحفّظ. وهو في ذلك يرجع إلى الكتاب المحكم الّذي وضعه لانغلوا (Charles Langlois) وسينيوبوس (Charles Seignobos) بعنوان *«مدخل إلى الدّراسات التّاريخيّة»(Introduction aux études historiques)* وكان يجلّ بوجه خاصّ أستاذه في مادّة التّاريخ الحديث بالسّوربون شارل سينيوبوس لأنّه كان يلحّ في العناية بمشكلات المنهج .

لقد رسم سينيوبوس في «المدخل» وفي كتابه الذي عنوانه *«المنهج التّاريخي» مطبّقا على العلوم الاجتماعيّة» (La Méthode historique appliquée aux sciences sociales)* المسار الفنّي للمؤرّخ يتصدى لطلب «الحقيقة العلميّة». وقد تبنّى طه حسين هذه القواعد الأساسيّة التي سلّمنا اليوم بمساهمتها في تطوّر فنّ كتابة التّاريخ الفرنسيّ.

إنّ الوثيقة ـ وهي كلّ أثر باق من الأحداث الماضية ـ يجب في البدء أن تخضع للتحليل : نقد خارجيّ [أوّلا] بالتحقيق الجغرافي

---

9) طه حسين : *فلسفة ابن خلدون الإجتماعيّة*، مج 8 من المجموعة الكاملة، ط.2، بيروت : دار الكتاب اللّبناني، 1975 ص 38 (والملاحظ أن كاتب المقال اعتمد هنا النّص الأصلي الفرنسي لأطروحة طه حسين عن ابن خلدون. ونحن اعتمدنا، في تعريب الشّاهد، ترجمة المؤرّخ محمد عبد الله عنان لهذه الأطروحة، وهي ترجمة متداولة وأنجزها عنان بإشراف طه حسين نفسه).

واللّغوي وذلك لضبط المنشأ والتّسلسل التّاريخي للأحداث وعلاقات الوثيقة بالواقع، ثمّ نقد داخليّ ينصبّ على التأويل والأمانة والدقّة. وهكذا تصبح الوثيقة موضوع عملـيّة تأليفيّة، تجمّع الوقائع طبقـا لعدد من الشّروط تضمن صحّة البرهان البنائي النّهائي.

إنّ شارل سينيوبوس، بما كان له من «حذر منهجيّ» اتخذه الباحثون مبدأ مطلقا، ينتمي كزميليه دوركايم ولانسون (Gustave Lanson) إلى فرنسا التحرّريّة الدّيمقراطيّة التقدّمية. لقد كان إبّان الحملات المضادّة للإكليروس يجمع، في صراحته الشديدة، عمله الثقافـيّ بمعتقداته السّياسيّة قائلا :

«إنّ علم الإنسان* هو الأداة العمليّة للنّضال ضـدّ الجنوح إلى الامتيازات وضـدّ الاستبداد السّياســــيّ والدّيـني. إنّه يعوّد المرء على استعمال المنهج العقلاني حـتّى [في مجال] الوجدان. وبذلك فإنّ هذا العلـــم ينتشل الحقيقة العلميّة من قداسة التّقاليد ويجعـل الفكر في مأمن من السّلطات الدّينيّة القديمة»[10].

وكان غوستاف لانسون، من جهته، يدعم هذا الرّأي قائلا :

«يجب أن نعوّد العقول، منذ الدّراسة في المعاهد الثانويّة والمدارس الأولى، محبّة دقّة المعرفـة الصّحيحة وعلى تفضيل الحدث الملاحظ والإحصائيّةالثّابتة على الفكرة العامّة الافتراضيّة».

* يقصد به علم التّاريخ.

10) Charles Seignobos : *Enseignement et démocratie* - Leçons professées à l'Ecole des Hautes Etudes sociales (Paris : Alcan, 1917) p.36.

أمّا وهو يفكّر في مجال اختصاصه ـ أي تدريس الأدب الفرنسي ـ فإنّه يعلن قائلا : «إنّ تعليم المناهج ينبغي أن يتبوّأ مكان تمارين البلاغة»، ثمّ يشرح في صدق هدفه : «لنحاول بدل الاحترام الخارجي للمعتقدات التي تقرّها الدّولة أن نرسّخ تطبيق الصراحة واحترامها مهما كانت النّتائج التي تؤدّي إليها هذه الصّراحة من إثبات أو إنكار»[11].

كان طه حسين الفتى بفطرته أشدّ ميلا إلى الآداب منه إلى جمع المعارف. وكان أسلوبه العربي، شاعرا أو خطيبا أو صحفيّا أوناقدا عرضا، يطرب الحلقات الأدبيّة في القاهرة، وكان يغتبط بذلك. وفي باريس لم يكن مطالبا قطّ بإعداد شهادة الأدب الفرنسي، إنّما كان يختلف إلى دروس لانسون لما يجد فيها من متاع.

غير مجد، في هذا المقام، أن نعرض صورة لانسون لقراء تلقّوا منهجه في مختلف البلدان النّاطقة بالفرنسيّة، أو تلقّوا هذا المنهج بمعاهد فرنسيّة في غير هذه البلدان، ونحن نعلم كيف كان يدرّبهم على قراءة النّصوص قراءة نقديّة ترمي إلى استكشاف الحقيقة. وأحرى بنا [هنا] أن نستحضر تجربة طه حسين.

لم يكن في الرّجوع إلى النصوص ما يدعو الناشز الأزهري إلى الدّهشة، إلا أنّ شرح نصّ مّا، يقوم به لانسون يملك عليه أمره : إحصاء تحليلي يضبط على جذاذات وتبويب لمختلف أصناف الوقائع والأفكار والأشكال والمعطيات الفرديّة والاجتماعيّة، ومقارنة هذه

---

11) ـ Ibid., pp. 200-201

الأصناف بعضها ببعـض : إنّه عمل نقـديّ يفضي إلى إعادة بنـاء تاريخي موضوعي. وإذا الطّالب المصريّ يفطن إلى قصور شيوخه القدامى. ذلـك أنّ تاريخ الأدب العربي لا يعرض سوى مجموعـة محدودة من نصوص مختارة، مشفوعة بأحكام تقليديّة جامدة قوامها البلاغة. إنّه مجـرّد استعمال للذّاكرة ليس له، في نهاية المطـاف، علاقة بواقع الحياة. فلــه أن يقيـم الـدّعوى علـى هـذا التّـاريخ الأدبي، متبنّيا قــول لانسون :

«إنّنا نشتغل على معرفة ناقصة أو مغلوطة لـلـوقـائـع. إنّنا نصدر في أخطائنا عن الكسل العـقـلـي. إنّنا نسـجّــل بغايـة الارتياح النّتائج التي انتهى إليها أسلافنا كما لو كانت نتـائـج مكتبسة. إننا غالبا لا نفحص هـذه النّتائج إلاّ فحصا منطقيّـا لا فحصا نقديّـا. إنّـا لا نسبر بواطن الكتاب بما فيه الكفايـة، ولا ننظر بحذر دقيق كاف في قيمة ما احتوى من براهين. إنّنا نقيم علاقات غير صحيحة، فيختلط الاستنتاج والاستقراء اللّذان نستنبطهما من الوقائع بالوقائع ذاتها.

إنّ قلّة قليلة من الوثائق مع قـلّة قليلة من المنهجـيّة، في تاريخ الأدب، يثمران يقينا حقيقيّا، واليقين عامّة نقيض لعموميّة المعرفة»[12]

لا ريب في أنّ دروس لانسون أتاحت لطه حسين فرصة للتّحرّر لم تتحها له سائر الدّروس. ففي ذات الوقت الذي كان فيه يستمـدّ

---

12) G.Lanson : *Essais de méthode de critique et d'histoire littéraire* (rassemblées et présentés par H.Peyre) Paris : Hachette, 1965) pp.47-51 (citation resumée).

منها حججا ليواصل فحصه، بحسّ يقظ، للدّراسات العربيّة كان يلمّ بثقافة غربيّة حديثة ويضعها في سياقها التّاريخي من المنهج. وسيحتفظ من دروس لانسون، بهذا البرنامج المتوازن الذي أزمع أن يتّخذ منه تطبيقا موافقا للأدب العربي :

«كفى بلاغة !كفى وثوقيّة! ولنمتنع عن تقديم الروائع الأدبيّة بالإعجاب، وكأنّها نماذج مطلقة، فنحن لن نتعرّفها إلا في ضوء علاقاتها بالزّمان والمكان،وسنسعى في جعل طلابنا يوغلون في [دراسة] حياة القدماء لإدراك معناها. هنالك سيجدون في أنفسهم دون شك ميلا رحبا إلى هذا الأدب وهذا الفن اللّذين كانا لدى الاغريق والرومان وسيلة للتّعبير. إنّ الدّراسة التّاريخيّة للآثار الأدبيّة ستكشف لهم المعنى العميق والايجابي [المبدإ] «النسبية» أي للجهد الضّروري المتّصل في عالم متغيّر على الدّوام.[13]»

لقد ظلّ طه حسين مقبلا، حتى نهاية دراسته في باريس، على الثقافة الإغريقيّة اللاّتينيّة، وبدل أن يتخيّر لبحوثه في التّاريخ مواضيع مستمدّة من التّراث العربي الميسور لديه أقدم على إعداد بحوث [تتّصل بالتّراث] الكلاسيكي بإشراف أستاذ صارم هو جوستاف بلوك. من ذلك بحثه وعنوانه «القضايا التي رفعت على حكّام الأقاليم كما يصورّها بلينوس الشاب في رسائله»* أو بحثه الآخر الذي نال

---

13) ـ Ibid., pp.59-60

* اعتمدنا هنا الترجمة التي استعملها طه حسين نفسه لهذا العنوان، في كتاب *«الأيّام»* : ج 3، ص 622 .

به دبلوم الدّراسات العليا (D.E.S) وعنوانه «القضايا التي أقيمت في روما على حكّام الأقاليم الذين أهانوا جلال الشعب الرّوماني وغضّوا من شرفه في عهد تيباريوس كما صوّرها المؤرخ تاسيت»* .

وفضلا عن إتقانه اللّغة اللاّتينيّة واستئناسه بكتّابها، فإنّ هذه البحوث التي يغلب عليها الطّابع القانوني جعلته يغرق في الفقه الرّوماني. ولم يكن له بدّ من أن يقارن بين مادّة الفقه الرّوماني ومادة «أصول الفقه» التي كان يتلقّاها في الأزهر والتي وصفها بقوله «علم غريب جدّا»[14]. وكذا تعلّم طه حسين كيف يحسن تفكيك الدّواليب المعقّدة لحضارة مّا.

كانت مشكليّة القديم والحديث تبرز له في صيغ ملحّة بقدر ما كانت تتكاثف الحوادث من حوله. والحقّ أن وقوفه على ثقافة جديدة في فرنسا وضعه في ملتقى الشّرق والغرب، ولكنّ إقامته في أوروبا زمن الحرب العالمية الأولى (1914-1918) جعلت تساؤله الدّاخلي حول سقوط الحضارات واستمرارها إحساسا مأساويّا في ضوء الظروف الراهنة. أحسّ بالغرب يرتعش جزعا طوال الصّراع الشامل، ثمّ رآه يهتز فرحا وأملا حين ذاع الخبر بأن الحرب وضعت أوزارها. ولقد تقوّضت أركان الصّرح في الغرب على حين شرعت الثّورة الرّوسيّة في تشييد صرح جديد شرقا. وهذا الجامعيّ المصريّ يرقب، بحسّ المؤرّخ المنتبه إلى الدّواليب الاجتماعيّة، سقوط

* ـ اعتمدنا هنا الترجمة التي استعملها طه حسين نفسه لهذا العنوان، في كتاب *«الأيّام»* ج 3 ، ص 628 .

14) طه حسين : *فلسفة ابن خلدون الإجتماعيّة*، ص 37 .

إمبراطوريات عظمى ونشأة قوى فتيّة. إنّ تأمّله في [فلسفة] ابن خلدون أفضى به إلى [إدراك] ما طرأ على العالم المعاصر من تحوّلات.

وفي غمرة هذه الاضطرابات الدّوليّة تنبثق لطه حسين صورة مصر الثائرة، فتملك عليه نفسه وهو على أهبة الفراغ من رسالة الدّكتورا. إنّ الكفاح الذي يخوضه أبناء وطنه ضدّ الاحتلال الأنجليزي يلهب حميّته ويؤجّج روح المسؤوليّة فيه ويدفعه إلى الفعل. ويلقى طه حسين سعد زغلول رئيس الوفد المصري وقد جاء يدافع عن قضيّة استقلال مصر أمام مؤتمر الصّلح المنعقد بباريس، ويلقى كذلك الصديقين أستاذيه لطفي السيّد وعبد الخالق ثروت، المنتميين إلى حركة طليعيّة واحدة. وهم جميعا يأملون أن يروا طه حسين يوظّف تجربته الغربيّة في سبيل الوطن.

إنّ إزاحة نير عهد اتصل من سنة 1882 إلى سنة 1919 يعني من منظور تاريخي، بالقياس إلى مصر، فضلا عن إنهاء الوضع الاستعماري، إقبالا على نمط من الحياة أصيل. ولكنّ كلّ تغيير هو انطلاق نحو المجهول.

ولم تكن حالة الجماهير في غليانها تخفي على طه حسين هشاشة الموقف الذي ينتظر منه أن يقفه بين عالم يحتضر وآخر يولد. وبين هذين العالمين فراغ فاصل ، وإلى طه حسين ترجع المسؤوليّة الدّقيقة لسدّ هذه الفترة الخالية، فلا بدّ من إيجاد النقلة التي تحقّق التخلّص، وضمان التّوازن لمدّ الخطى الأولى.

وفي كلّ مرّة يشير فيها دوركايم، أثناء درسه عن سان سيمون (Claude -Henri de Saint - Simon) إلى الدّور القيادي الموكول إلى المثقفين في تنظيم المجتمع، كان طه حسين يعتقد أنّه المشار إليه بذلك. ترى إلى أيّة وجهة سيقود بلاده ؟

العودة إلى مصر : 1919 .

عاد طه حسين إلى القاهرة سنة 1919 فعيّن أستاذا للتّاريخ القديم في الجامعة [الأهليّة]. واجتهد في أن يدخل محتوى ثقافيا في الفضاء السّياسي المستعاد.

بدأ تدريسه بالحديث عن بلاد اليونان، فأبرز فضل الحضارة الاغريقيّة على العالم. وأخذ نفسه بدعوة جمهور أوسع من جمهور طلاّبه إلى النهل من الينابيع، فنشر سلسلة من الفصول والكتب. شرع أوّلا في ترجمة آثار سوفوكليس (Sophocle) وأوروبيديس Euripide إلى اللغة العربيّة، لأنّ تراث العرب يخلو من فنّ المسرح، ولأنّ المحاولات التي تمّت في القرن التّاسع عشر لمحاكاة المسرح البورجوازي لم تثمر إلاّ لعبا هجينا[15]. كان عليه أن يشقّ طريقا مسدودا. وهو حين يبين عن ماهية المسرح بوضع النّصوص الأساسيّة في متناول فنّاني الأمّة إنّما يهديهم الشكل الفنّي الجماعي الأرقى الذي من شأنه أن يتيح لهم التّعبير عن العلاقات الجديدة بين الإنسان وذاته وبين الإنسان وقدره.

15) انظر دراستنا عن «مسرح يعقوب صنوع»، *المجلّة* (القاهرة)، عدد 51، مارس 1961 ، ص 51 ـ 71 .

إنّ صراع الأجيال ضدّ الظلمات من أجل انتصار العقل لصراع مأساويّ حقّا. وليس بوسع شعب مّا أن يلحق بالعصور الحديثة دون أن يجنّب نفسه هذه المواجهة المستمرّة. ولقد دعا طه حسين في كتابه *«قادة الفكر»* أبناء وطنه إلى أن يحدّدوا اتّجاهاتهم بأن عرض عليهم «تاريخ الفكر البشري وما اعترضه من ضروب التطوّر وألوان الاستحالة والرقيّ حتّى انتهى إلى حيث هو الآن»* :

لنلق نظرة على هذا الكتاب التبسيطي الذي يصوّر، من أوّل وهلة، موقف الطالب السّوربوني القديم من الغرب.

لقد أكّد طه حسين أنّ الفكر هو الذي تولّى، من [عصر] هوميروس (Homère) إلى [عصر] غوتنبرغ (Gutenberg) والثورة الصناعية، قيادة المجتمع الإنساني، فالشّعر الذي كانت له في البداية قيادة الإنسانيّة في طفولتها أسلم هذه القيادة إلى الفلسفة والنّقد والسّياسة مع سقراط (Socrate) وأفلاطون (Platon) وأرسطاطاليس (Aristote) ، ثمّ [جاء] الإسكندر الأكبر (Alexandre le Grand) فخرج لغزو الشّرق يحدوه أمل توحيد الإنسانيّة بأن يزاوج حكمة الشرق وثقافة الاغريق. ولكنّ الموت عاجله وهو في شبيبته. وكان من نصيب يوليوس قيصر (Jules César) أن ضمّ الغرب إلى الشرق. ولقد ساهمت المؤسّسات الرّومانيّة هنا وهناك في توحيد الشّعوب وحقّقت حضارة إنسانيّة متماسكة الجوانب .

---

* طه حسين : *قادة الفكر*، مج 8 من المجموعة الكاملة، ط.1 بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1982 ، ص 189 .

وما إن أخفقت الدّيمقراطيّة والفلسفة في وجه إمبراطوريات ترفع لواء الدّين مسيحيّا كان أو إسلاميّا ـ حتّى عادت الإنسانيّة إلى مبادئ الإغريق القديمة. فلمّا ابتكر الرّوح العلميّ المطبعة ووسائل المواصلات أضحت النهضة ـ هذه الخميرة الدّيمقراطيّة والعقلانيّة النّابعة من العالم القديم ـ ملكا مشاعا بين كلّ الشعوب الحديثة. وفي اختصار، إنّ هذه الفصول ترسم للقارئ العربي خطّ مسيرة طويلة وأصبح عليه أن يحدّد، من يومها، موقعه خلالها ليقدّر ما بقي له من مراحل ينبغي قطعها.

وفضلا عمّا قدّم هذا التّراث الإغريقي من فنّ أدبيّ عظيم وفلسفة، فإنّ فيه أيضا ما يلهم الذين يدبّرون شؤون الدّولة. وكان التصريح البريطاني الصّادر في الواحد والعشرين من شهر فبراير سنة 1922 أقرّ، في نهاية الأمر، أنّ مصر دولة مستقلّة ذات سيادة، فترجم طه حسين ـ في إطار تشييد الدّولة الجديدة ـ كتاب «*نظام الأثينيين*»، وبه عرض على الرأي العام في بلاده، وفي وقت مناسب، نموذجا للنّظم السّياسيّة.

ولمّا كان طه حسين أستاذا ميسرّا للنّظريّات لدى غير المختصّين متمثّلا فكر أوغست كومت، فقد نادى بدمج الحاضر الوطني ضمن مجمل التطوّر التّاريخي للحضارة. وكان لا بدّ لهذه المبادرة من أن تصطدم بأصحاب النظرة التجزيئية العقائديّة للتّاريخ. ولكنّ هذا المصلح الشّاب كان حريصا، قبل أن يخوض المعركة، على أن يستعدّ لها وأن يحشد لها العناصر الفكريّة الأساسيّة.

وحسبنا أن نتذكّر حركة التّرجمة التي انطلقت في العالم العربي منذ بداية اتّصاله بالغرب الحديث ـ أي منذ حملة بونابرت (N.Bonaparte) على مصر ـ لنقدّر أهميّة مبادرة طه حسين.

لقد أدرك محمد علي دون ريب تفوّق أوروبا، وكان يلتمس فيها الأسباب الخليقة بأن تمكّنه من أن ينتصر على السّلطان. ولمّا كان محمد علي منصرفا إلى تحقيق الفاعليّة، وإلى القوّة العسكريّة والاكتفاء الاقتصادي، فإنّه أوفد تلاميذ مصريين إلى فرنسا ليتعلّموا التّقنيات، وأوكل إلى رفاعة الطّهطاوي ومدرسة الألسن التي كان يديرها تعريب عدد من المراجع والكتب ذات الصبغة النّفعيّة. ولكنّ القرن التّاسع عشر العربي، وهو مكره على الخلط بين التقدّم والمردود النفعيّ الآنيّ، غفل عن النّفاذ إلى مبدإ الثّورة الصناعيّة.

أمّا طه حسين فيرى أنّ الترجمة لا تكون نقلا للوصفات الجاهزة، وأنّ مصنّفات الجمع واللّمّ المستعادة تفقد قيمة المرجع. وبدل استيراد آلات من اختراع أوروبا، يوصي هذا العائد منها بجلب سرّ التّقنية ذاته، وقواعد الابتكار ويعود رأسا إلى الثقافة الإغريقيّة ليلقّن [النشء] مسالك التّفكير الأوروبي.

وما إن عيّن عميدا لكليّة الآداب حتّى سارع إلى جعل تدريس اليونانيّة واللاّتينيّة في جميع الشعب [الجامعيّة] إلزاميّا، وذلك على الرغم من المعارضة الإنقليزيّة الشديدة. ومعلوم أن دور التّعليم في مصر في نظر اللّورد كرومر (Lord Cromer) مندوب بريطانيا في القاهرة إلى سنة 1907 كان ينبغي ألاّ يتجاوز تكوينا بسيطا لتخريج موظّفين طيّعين.

وكذلك سعى طه حسين، مرارا، إلى إدراج اللّغة اليونانيّة واللغة اللاّتينيّة في برامج المدارس الثانويّة. وكان يؤكّد دوما أنّ معرفة هاتين اللّغتين يعني استعادة جزء من التّراث القومي لأنّ مصر كانت طيلة قرون يونانيّة ورومانيّة.

لقد كان بحثه المستكمل عن *«مستقبل الثقافة في مصر»* موضوع تقرير ضخم ينشر سنة 1938. وكان طه حسين، قبل ذلك التّاريخ، يناضل في سبيل حريّة الفكر سواء داخل الجامعة أو على مسرح السّياسة. لقد شجب، في كتابه *«قادة الفكر»*، ظاهرة التعصّب التي ما فتئت تظهر عبر العصور : فإعدام سقراط (Socrate)، واستشهاد المسيحيين، واضطهاد ابن رشد من قبل إخوته في الدّين [حوادث] نبعت كلّها - حسبما يؤكّد طه حسين - من سوء الفهم ذاته الذي نلحظه في العصور التي تسود فيها الظلاميّةوالأزمات الاجتماعيّة. فهو يعتقد أنّ الرّوح الديني القويم ينسجم كلّ الانسجام مع روح البحث الخالص.

ولكنّ سنة 1925 تشهد اندلاع فضيحة خطيرة : ذلك أنّ هيئة كبار العلماء في مصر ردّت بعنف على كتاب خرّيج الأزهر علي عبد الرّازق وعنوانه *«الإسلام وأصول الحكم»*. فتقرّر فصله نهائيّا من «هيئة العلماء» بتهمة أنّه حاول إثبات شرعيّة إلغاء الخلافة، وكان الإلغاء قد تمّ فعلا سنة 1924 على يد مصطفى كمال.

لقد برهن علي عبد الرازق اعتمادا على القرآن وعلى تاريخ المؤسّسات الإسلاميّة أن ليس للشّريعة الإسلاميّة، بحكم طبيعتها

الرّوحيّة، أيّة صلة بالسّلطة السّياسيّة، وأن لا شيء بالتّالي يمكن أن يمنع المؤمنين من أن ينشئوا حكومة باختيارهم.

وفي خضمّ هذا الجدل الذي اندلع، اقترح طه حسين، في حماسة، الحلّ المطبّق في فرنسا، أي فصل الدّين عن الدّولة، حجته في ذلك أنّ الإسلام - وهذا برهان آخر - يخلو من الإكليروس خلافا للمسيحيّة. وفي ذات الوقت أمكن لمفهوم أساسيّ أن يتأكّد، وهو تصوّر حديث للوطن، يعرف بـ «المصريّة» الأثيرة لدى لطفي السيّد. فمنذ علّة قرون خلت، وفي ضمائر بعضهم حتّى ا ليوم، حلّ بدل [الايمان] بالوطنيّة الجغرافيّة الايمان بوحدة مجموعة إسلاميّة هي «الأمّة»، يحكمها خليفة واحد، هو خليفة النّبيّ. ونعلم مدى الفائدة التي جنتها الهيمنة العثمانيّة برفعها هذا الشّعار.

أتاح الجدل حول الخلافة فرصة مناسبة لإدخال النّقد التّاريخي في الأوساط الإسلاميّة المحافظة. فقد تابع طه حسين الحملة ذاتها ضمن مجاله الخاصّ، أي الأدب العربي، وهي مادّة يضطلع الآن بتدريسها في كرسيّ الجامعة، فدرس الشعر القديم الموسوم بـ «الجاهليّ»، ونشر سنة 1926 ما انتهى إليه من نتائج في كتاب مثير.

ومع ذلك كانت النظريّة [التي اعتمدها] طه حسين هيّنة، وهي لا تكاد تدهشنا إذ اصطنعها جوزيف بيديه (Joseph Bédier) في فحص *«أغاني البطولة» (Les Chansons de Geste)* أو مارغليوث لمعالجة التّراث العربي عينه. لقد ذهب طه حسين إلى أنّ هذا الشعر، وقد جمّعت مواده بين نهاية القرن الأوّل والقرن الثّالث للهجرة، فقد

صحّته التّاريخيّة بعد انقضاء فترة طويلة من الرّواية الشفويّة. فالنّصوص التي وصلت إلينا منتحلة وليست محرّفة أو مبتورة فحسب. وقد وضعها، بأخرة، طائفة من حذّاق علماء اللّغة المتواطئين مع النّسابين. وكان يغريهم بذلك الصّنيع شباب العرب المتكالبون على نيل امتيازات الامبراطوريّة العربية وقد كانت حكرا على القبائل الشّريفة.

كان طه حسين، وهو يأخذ نفسه بتوضيح الروابط الخفية الممتدّة عبر هذه المدوّنة الجليلة اعتمادا على إشارات معجميّة ونحويّة، وخاصّة على إشارات تاريخيّة أو أخرى متعلّقة بحياة الشّاعر، إنّما يطبّق منهج لانسون ببراعة ولكنّه وضع في الصّدارة [منهج] ديكارت (René Descartes).

أدرك طه حسين بجلاء، حين كان يتابع في السّوربون درس لوسيان ليفي برول(Lucien Lévy - Bruhl) عن ديكارت، [منزلة] المنهجية الدّيكارتيّة في الخطّة العلميّة لدى مؤرّخ الأدب وهو يدعو إلى: «الفضول النّزيه، والنّزاهة الصّارمة، والصّبر الدّؤوب، والانقياد للواقع، وعسر التصديق ـ تصديق أنفسنا وكذلك تصديق الآخرين ـ والحاجة المستمرّة إلى النقد والمراقبة والتثبّت».

وكذلك اتّخذ طه حسين من المنهجية الدّيكارتيّة عقيدة فكريّة إلاّ أنّه أقبل يخاطب جمهورا عربيّا لا عهد له بها، فأعلن في مقدّمة [كتابه] *«في الشعر الجاهلي»* قائلا:

«إنّ القاعدة الأساسيّة لهذا المنهج هي أن يتجرّد الباحث من كلّ شيء كان يعلمه من قبل وأن يستقبل موضوع بحثه

خالي الذّهن ممّا قيل فيه خلوّا تامّا»* .

وأخذ نفسه بأن يخلّص النّاس «من كلّ هذه الأغلال الكثيرة الثقيلة التي تأخذ أيدينا وأرجلنا ورؤوسنا، فتحول بيننا وبين الحركة الجسميّة الحرّة، وتحول بيننا وبين الحركة العقليّة الحرّة» ** .

إنّ الشكّ المنهجي قوام نظريّة طه حسين. وما [حديثه عن] نشأة الشعر الجاهلي في هذا المقام إلاّ مثل ضربه للتّوضيح. وهذا الارتياب الجذريّ في التّفكير هو الذي أزعج المفكّرين التّقليديّين. فإنكار السّنّة الأدبيّة قد يقود إلى خطر إنكار التّقاليد الدّينيّة المعاصرة [لها]. أجل! إنّ المؤلّف يعترف بأنّ القرآن وحده، وهو النّصّ المصون المحفوظ، كفيل بأن يعرّفنا بالمجتمع العربي في القرن السّابع للهجرة. ولكن أليس هذا الموقف مراسا لا دينيّا للنّصّ المقدّس؟

لقد ارتفع صوت أهل الأزهر بالاحتجاج، وظهرت ردود عنيفة على الكتاب، وقدّم نوّاب البرلمان استجوابا إلى الحكومة، وأنذر الشّارع باندلاع المظاهرات، وأحيل الأستاذ المتمرّد على النّيابة العموميّة. ولكن النّيابة قدّمت، في قرارها، درسا رفيعا في النّقد

---

* طه حسين: *في الأدب الجاهلي*، مج 5 من المجموعة الكاملة، بيروت: دار الكتاب اللّبناني، 1982، ص 70.

** م. ن.، ص. ن.، والملاحظ أننا وضعنا النصّ العربي ها هنا كاملا، وقد اكتفى كاتب الفصل بتلخيصه.

الأدبي، وارتفع ثمن الكتاب المصادر ارتفاعا مهولا في السّوق السّوداء. إنّه تتويج لبطل الحريّة الفكريّة*.

لقد استبدل طه حسين، في الدّراسات العربيّة، البلاغة العالية بتاريخ أدبي حقيقيّ، [وذلك] بفضل معارفه المستنيرة الدّؤوب. ولكنّ منهجيّته الدّيكارتيّة كانت ترمي إلى أبعد من ذلك. فقد جسّدت معركة الشّعر الجاهليّ نشأة وعي عقلانيّ لم يخف طه حسين اغتباطه به وهو يقدّم الطّبعة الثانية المزيدة المنقّحة من كتابه المحظور. قال:

«ولنجتهد في أن ندرس الأدب العربي غير حافلين بتمجيد العرب أو الغضّ منهم، ولا معنيين بالملاءمة بينه وبين نتائج

---

* راجع عن كتاب علي عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم» وعن كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي» وما أثاراه من ضجة فكريّة سياسيّة وما كان من أسباب هذه الضجّة ودواعيها الظاهرة والباطنة فصلا مهمّا كتبه طه حسين بالفرنسيّة عن «الاتجاهات الدينيّة في الأدب المصري المعاصر»، وقد ألّفه سنة 1946 ونشره في مجلة *«كراسات الجنوب»* التي كانت تصدر في مدينة مرسيليا (Marseille) الفرنسيّة، مساهمة منه في العدد الخاص الذي أصدرته هذه المجلّة سنة 1947 ومحوره «الإسلام والغرب»:
Taha Hussein : "Tendances religieuses de la littérature égyptienne d'aujourd'hui", *Cahier du Sud,* 1947 (n°special : L'Islam et l'Occident), pp.235-241.
وقد عرّب منجي الشملي وعمر مقداد الجمني هذا البحث ونشراه على صفحات مجلة *الحياة الثقافية*، انظر:
ـ طه حسين: «الاتّجاهات الدّينيّة في الأدب المصري المعاصر» ترجمه من الفرنسيّة إلى العربيّة منجي الشملي وعمر مقداد الجمني، *الحياة الثقافيّة* (تونس)، عدد 55، 1990، ص 4 ـ 10.

البحث العلمي، ولا وجلين حين ينتهي بنا البحث إلى ما تأباه القوميّة أو تنفر منه الأهواء السّياسيّة أو تكرهه العاطفة الدّينيّة. فإن نحن حرّرنا أنفسنا إلى هذا الحدّ فليس من شكّ في أنّنا سنصل ببحثنا العلمي إلى نتائج لم يصل إلى مثلها القدماء (. . .) فأنت ترى أنّ منهج ديكارت هذا ليس خصبا في العلم والفلسفة والأدب فحسب وإنّما هو خصب في الأخلاق والحياة الاجتماعيّة أيضا»* .

كان لا بدّ لطه حسين من أن يقف هذا الموقف النّقدي، وللتّوتّر النّاجم عنه من أن يحصل، وللسُّنَّة الثقافيّة من أن ترتجّ حتّى تضطرّ المجتمع إلى أن ينقد ذاته ويضرب صفحا عن أوهام أخر فيهتدي إلى واقعه الخاصّ به. إنّ كتاب «*مستقبل الثقافة في مصر*» لدليل على استرداد الذاتيّة .

أملى طه حسين هذا «التقرير» الذي يعدّ خمسمائة وخمسين صفحة لمّا شارفت مصر نضجها السياسي، بعد أن خبرت التّجارب الأولى من الحياة الدّستوريّة. وكانت مصر قد وقّعت في مدينة مونترو (Montreux) اتّفاقيّة سنة 1937 الّتي ألغت الامتيازات، ثمّ أصبحت عضوا في عصبة الأمم ودخلت هذا المجمع الديبلوماسي الكبير، فحددت بذلك شخصيتها .

* طه حسين : *في الأدب الجاهلي*، مج 5 من المجموعة الكاملة، ط.2 ، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1982، ص 71-72 .

إلى أيّ جهة ستنتمي مصر ؟ أمن الشرق هي أم من الغرب ؟ إنّ المؤلّف الموفد من قبل حكومة بلاده إلى مؤتمر اللّجان الوطنيّة للتّعاون الفكري وإلى مؤتمر التّعليم العالي، اللّذين انعقدا في باريس صيف سنة 1937 يعيد النظر في معنى مهمّته عقب الأشغال فيدرك أنّه مثّل بلدا حديث الخروج من العزلة، وأجدر به، قبل العودة، أن يستكنه من خلال الماضي معنى التّاريخ.

لقد لاحظ طه حسين أنّه لم يكن لمصر صلات بالشرق الأقصى تكفي لتطبع حياتها الرّوحيّة أو السّياسيّة أو الاقتصاديّة. إنّ هو إلاّ تسلّل ضئيل أيّام الفراعنة عبر البحر الأحمر، ولكنّ المصريين لم «يتجاوزوا بذلك بعض المطامع الاقتصاديّة التي كانت تثيرها في نفوسهم بعض غلاّت الهند وبلاد العرب الجنوبيّة» * ، ولم تتجاوز علاقاتهم المتّصلة في هذا الاتّجاه «هذا الشرق القريب الذي نسمّيه فلسطين والشّام والعراق، أي هذا الشّرق الذي يقع في حوض البحر الأبيض المتوسّط» ** .

وقد قاوم المصريّون القدماء الغزو الفارسي، أعانهم على ذلك ـ وهذا حدث ذو دلالة ـ متطوّعة من اليونان. أفليس من الغريب أن ننسب المصريّ إلى القارة الآسياويّة على حين أن نشأة حضارة متوسطيّة كاملة وهي حضارة أسلاف حضارة أوروبا الحديثة ـ أثينا وروما ـ ترجع في الحقيقة إلى أرض مصر ؟

* طه حسين : *مستقبل الثقافة في مصر*، مج9 من المجموعة الكاملة، ط.2، بيروت دار الكتاب اللبناني، 1982 ، ص 18 .

** م.ن. ، ص 19 .

لا فائدة في التذكير بقوّة الأواصر الثقافيّة بين اليونان ومصر منذ عهد الدّولة الايجيّة إلى أيّام ازدهار مدرسة الفلسفة في الإسكندريّة. فتاريخ الفنّ والأفكار، والاقتصاد السّياسيّ، والوضع الجغرافي، كلّ ذلك يذكّر مصر بأنّ قدرها مرتبط بالبحر المتوسّط.

وليس من شكّ في أنّ اللّغات والأديان مختلفة من ضفّة متوسّطيّة إلى أخرى. ولكنّ الإسلام ـ كما يلاحظ طه حسين ـ لم يكن دائما مرادفا للوحدة اللّغويّة ولا العرقيّة ولا العقائديّة. ولم يكن القرن الثاني الهجري قد بلغ نهايته حتى شهد التاريخ تمرّد الأمويين في الأندلس على العباسيين في بغداد. والحقّ أنّ المنافع العمليّة لم تلبث أن أصبحت قاعدة سياسيّة. وكذلك «لم يأت القرن الرّابع للهجرة حتّى قام العالم الإسلاميّ مقام الدّولة الإسلاميّة وحتّى ظهرت القوميّات» *.

إنّ مصر الطّولونيّة، وقد كانت من أسبق البلدان الإسلاميّة إلى التحرّر، لم تضيّع قطّ شخصيّتها. فقد صدّت الفرس ولم تطمئن إلى المقدونيين إلاّ حين اندمجوا فيها. وهي لئن اضطرت إلى الخضوع لحكم القياصرة حين فرضوا عليها الأحكام العرفيّة الجائرة، فإنّها ثارت مرارا ضدّ «التسلّط» العربي. وإذن فالدّين واللّغة ليسا ضمانا كافيا للوحدة السّياسيّة.

إلى أيّ حدّ غيّر الإسلام من الطّابع الثقافي في مصر؟ تماما كما أنّ المسيحيّة، وهي دين ظهر في الشرق، لم تجعل أوروبا بلدا شرقيّا. هكذا ردّ طه حسين على منتقديه.

* م.ن.، ص 26.

لقد ميّز طه حسين، استنادا إلى بول فاليري (Paul Valéry) عناصر ثلاثة للروح الأوروبي : الحضارة اليونانيّة وقوامها الفلسفة والآداب والفنون، والحضارة الرّومانيّة وهي أساس القانون والسّياسة، والدّيانة المسيحيّة مصدر الحياة الرّوحيّة. وكذا هو الشأن في جوهر «الروح المصريّ»، فقد نشأ من حضارة اليونان وحضارة الرّومان مع محافظة على طابع الرّوح الإسلاميّ. ولـمّا كان التّوحيد القرآني امتدادا للتّوحيد الّذي نادى به العهدان القديم والجديد، فإنّنا لا نجد فرقا جوهريّا يميّز الرّوح المصري عن الرّوح الأوروبيّ. ولولا الاحتلال التّركي لظلت علاقات مصر بأوروبا في زمن نهضتها مستمرّة على نحو مثمر أيضا.

ومهما يكن من أمر، فلا شيء ـ حسبما يؤكّد طه حسين لمواطنيه ـ يبرّر عقدة النّقص التي كانت تتخلّج في صدورنا أيّام الاحتلال. ألم نرفع مشعل الثقافة يوم كانت الظلمات تلفّ أوروبا في العصر الوسيط ؟ لقد أخذ عنّا الغربيّون قواعدنا في التّربية، وهده حجة أخرى تدفعنا إلى الاتّجاه نحو الغرب، فلنقاسمه ثقافته حتى يستبين وجهنا الحقيقي .

يسخر الكاتب من التّحفظ الذي تظهره في الصدد طائفة من المسلمين لاتكاد تعي انخراطها، على مستوى الحياة اليوميّة، في كثير من الأنماط الغربيّة، كما أنّها لا تعي انخراطها أيضا، وهنا تناقض أشدّ خطورة، في البنى الاجتماعيّة مثل نظام القضاء، وفي المؤسّسات السّياسيّة ودرجات التّعليم. فلقد ولّى، دون رجعة،

عصر أنصاف الحلول والتّردّد وعمليات التوفيق الزائفة. إنّ الاستيعاب السّليم لثقافة مّا يقتضي انصهار مختلف العناصر المكوّنة للشّخصيّة وفكرا متجانسا وردود فعل متناسقة تجاه مختلف المشاكل. ويضيف المؤلّف قائلا :

«ونحن حين نشرّع القوانين وننشئ المدارس وننشر العلم وننظّم الاقتصاد ونستعير النّظم الديمقراطيّة من أوروبا إنّما نسعى إلى شيء واحد هو تحقيق هذه المساواة التي هي حقّ طبيعي لأبناءالوطن الواحد جميعا» * .

على أنّ الكثرة الكثيرة من المصريّين أميّون، بينما القلّة المتعلّمة لم تكن متجانسة التّكوين، ذلك أنّها سلكت سبلا متباينة تباين سبل التّعليم المصري من تعليم رسميّ، وتعليم أجنبي في مدارس طائفيّة أوعلمانيّة، وتعليم في الأزهر أو في دار العلوم أو في الجامعة فلا مناص من إصلاح التّعليم بغية تحقيق التّضامن الاجتماعيّ والانسجام اللازم لنشأة تفكير وفعل إيجابيين. وهذا ما دفع طه حسين إلى إعداد برنامج للإ صلاح.

إنّ أقسام [الكتاب] المفصّلة التي خصّصها لكلّ صنف من أصناف المدارس، ولكلّ درجة من درجات التّعليم، ستجعل من كتاب «*مستقبل الثقافة في مصر*» ميثاقا حقيقيّا للتّربية الوطنيّة.

هكذا أراد طه حسين أن يهيّء الظروف الثقافيّة التي تجعل من مصر المعاصرة أمّة . ولقد عرف أنّه ليس لأمّة أن تصون وحدتها دون قيم متجانسة.

---

* م. ن. ، ص 52 .

أمّا دوركايم أستاذ علم الـتّربيّة في السّوربون، وقد شهد انقسـام فرنسا على نفسها نتيجة قضيّة دريفوش (Dreyfus) ، فكان يعلن أن المدرسة هي خير مخبر لتحقيق الإجماع الوطني. وإنّه لمدين بهذه العبارة لأوغست كومت الذي شهد زوال البنى الإقطاعيّة واللاّهوتيّة داخل المجتمع الصّناعي.

أمّا فيما يتعلّق بالمحتوى النّوعي للأفكار المستحدثة الكفيلة بتشكيل الوجدان الجماعيّ الجديد فنحن نعرف موقف دوركايم : فدراسته النّظريّة للوقائع الاجتماعيّة تهدف، كما أسلفنا، إلى إعادة بناء الأخلاق في فرنسا على مبادئ التّربية العلمانيّة.

ومع أنّه لا نزاع في أنّ الطالب الأزهريّ القديم قد استمالته نظريّات الدّيمقراطيّة والوضعيّة فإنّه علـى الرّغم من ذلك يولي اعتبارا للقيم العلويّة التي يخضع لها سلوك كلّ فرد في المجموعة الشرقيّة. لذلك نادى طه حسين، وهو يفحص مستقبل الثقافة في مصر، بتنـظـيـم تعليم الدّين في كـلّ المدارس بأن تلقى دروس عن مبادئ الإسلام للتّلاميذ المسلمين، وأخرى عن مبادئ المسيحيّة [للتّلاميذ] الأقباط.

إنّه مشروع جسور هذا الذي يوفق بين الدّين والحضارة المعاصرة. ولقد دأب طه حسين على اعتبار أن الإسلام : «دين الحريّة والعلم والمعرفة وأنه دين الحريّة والمعرفة كما تفهمها الأجيال على اختلافها لا كما فهمها جيل بعينه، وكما تحقّقها العصور على اختلافها لا كما حقّقها عصر بعينه. فالإسلام دين التطوّر والطموح إلى المثل العليا في الحياة الرّوحيّة والماديّة جميعا»* .

* م.ن.، ص 439 .

ولقد ذكر طه حسين، لتأييد رأيه ذاك وللبرهنة على انفتاح الإسلام على الحضارة الغربيّة، كيف تمثل المسلمون الأوائل حضارتين أجنبيتين، هما حضارة الاغريق وحضارة الفرس، وكيف ساهموا فيهما واستفادوا منهما، قال :

«وليس من شكّ في أنّهم جنوا من ذلك بعض الشرّ فساءت الأخلاق والسّير في بعض البيئات، وفسدت العقائد ودخائل النّفوس في بعضها الآخر. ولكنّ شيئا من ذلك لم يردّ المسلمين عن الأخذ بأسباب الحضارة الفارسيّة واليونانيّة لأنّهم جنوا من ذلك ثمرات حلوة لاتزال الإنسانيّة تستمتع بها. فهم قد صاغوا من هاتين الحضارتين، ومن تراثهم القديم، هذه الحضارة الإسلاميّة الرّائعة التي أزهرت أيّام بني أميّة وبني العبّاس والّتي يحرص المحافظون منّا عليها أشدّ الحرص. وهذه الحضارة الإسلاميّة لم يأت بها المسلمون من بلاد العرب، وإنّما أتوا ببعضها من هذه البلاد، وببعضها الآخر من مجوس الفرس، وببعضها الآخر من نصارى الرّوم (...) وقد أراد اللّه للنّاس أن تكون حياتهم مزاجا من الخير والشرّ (...) واحتمل المسلمون راضين أو كارهين زندقة الزّنادقة ومجون الماجنين. قاوموا ذلك في الحدود المعقولة ولكنّهم لم يرفضوا الحضارة الأجنبيّة التي أنتجت تلك الزندقة وهذا المجون.

وقد شهد المسلمون زندقة الزّنادقة وفسوق الفسّاق ومجون الماجنين، ولكنّهم شهدوا مع هذا كلّه نسك النّسّاك وزهد الزّهّاد» *.

* م. ن. ، ص 65-66.

فليس على الرّوح المصري بأس. ولقد قوّض طه حسين في صفحة مأثورة خرافة الغرب المـاديّ والشرق الرّوحانيّ، مؤكّدا أنّ أوروبا مؤمنـة أنّها أنتجت عقائد سامية قادرة على أن تغـزو الـقـلـوب* ، فقال :

«ومن الحـقّ أن الحضارة الأوروبيّة مـاديّة المظاهر. وقـد نجحت من هذه النّاحية نجاحا باهرا، فوفّقت إلى العلم الحديث ثمّ إلى الفنون التّطبيقيّة الحديثة، ثمّ إلى هذه المخترعات التي غيّرت وجه الأرض وحياة الإنسان. ولكن من أجهل الجهـل وأخطإ الخطإ أن يقال : إنّ هذه الحضارة الماديّة قد صدرت عن المـادّة الخالصة. إنّها نتيجة العـقـل، إنّها نتيجـة الـرّوح الخصب، نتيجة الرّوح الحيّ الذي يتّصل بالعقل فيغذّيه وينمّيه ويدفعه إلى التفكير ثمّ إلى الإنتاج ثمّ إلى استغلال النتائج، لا نتيجة هذا الرّوح العاكف على نفسه الفارغ لها، الفاني فيها، الذي تفسد عليه الأثرة أمره. فلا ينفع ولا ينتفع ولا يفيد ولا يستفيد **.

استعرض طه حسين ـ من بين الفلاسفة والعلماء والمختـرعـيـن الذين علّوا علامات بارزة في تاريخ الفكر الأوروبي ـ طائـفـة مـن الأسماء كانت في روح التضحية والورع قدوة لا نزاع فيها : ديكارت،

---

* يقصد كاتب المقال الفصل الثاني عشر من كتاب «*مستقبل الثقافة في مصر*» وهو بعنوان «ماهيّة الحضارة وروحيّة الشّرق وماديته»

** م. ن.، ص 76 .

وباستور، (Pasteur) والطّيّارين البواسل، وحتّى الشّعراء الذين يتبرّمون بالمجتمع الأوروبـي، إنّما يؤكّدون «أنّهم أحياء مستعـدّون للكمال حريصون على التقدّم» ويستخلص طه حسين قائلا :

« وما أعرف أنّ للشّرق القريب هذا روحا يميّزه من أوروبا ويتيح له التّفوّق عليها. ظهرت في هذا الشرق القريب فنـون وعلوم وآداب تأثّر بها اليونان والرّومان فأنتجوا حضارة أوروبا، وأعانهم على ذلك المسلمون، أي أهل هذا الشرق القريب.

وظهرت في هذا الـشّرق القريب ديانات سمـاويّـــة أخذ الأوروبيّون منها كالشّرقيين بحظوظهم. فمنهم المسيحيّ ومنهم اليهوديّ ومنهم المسلم أيضا. أفتكون هذه الدّيانات روحا في الشّرق ومادّة في الغرب ؟» *.

لكم يبدو الآن جمال الدّين [الأفغاني] بعيدا من هذه المعاني يوم كان يحرّر كتابه «الردّ على الدهريين»[16] تملؤ نفسه المرارة التي كان يشعر بها كلّ من يخضع للاستعمار. إنّ صرخاته الغاضبة ضدّ الغرب لا تني تشتدّ على صفحات «العروة الوثقى» (1884) وسيتردّد صداها في ديار الإسلام غداة عدوان شهير يتمـثّل في الاحتلال العسكـري البريطاني لمصر (1882).

---

* م.ن.، ص 78 ، وقد رأينا من الصّالح أن نثبت الشّاهد كاملا وإن كان صاحب هذا الفصل أورده مختصرا مركّزا.

16) Traduction française par A.M. Goichon (Paris, Geuthner, 1942)

ظهرت الحركة الأصوليّة الإسلاميّة نابعة من شعور بالقهر، متخذة طابع ردّ فعل سياسيّ، منادية بالرّجوع إلى مآثر السّلف ومنابع العقيدة قصد إثبات هويّة حاق بها الخطر. . وازداد رفض النّموذج الثّقافيّ الأجنبيّ بمقدار ما كان يسلّط على المسلمين من إذلال.

فلا عجب إذا كانت صورة الإسلام، كما يعرضها هنا طه حسين، تناقض كلّ التّناقض تلك الصّورة الأحاديّة للدّين، المتردّية في التّقاليد، والّتي واجه بها جمال الدّين وأتباعه الغرب.

لقد حقّق جيل طه حسين الاستقلال، ولم تعد الكرامة الوطنيّة معرّضة للدّوس كما لم يعد مبدأ المساواة مع الخصم يحول دون إمكانيّة الوفاق [معه]، وغدت الحريّة وحدها سبيلا إلى الاختيار. وللمرء إذن أن يكون في المستقبل وفيّا لذاته، وله في الآن نفسه أن يتجاوزها . إنّ كتاب طه حسين «مستقبل الثقافة في مصر» ليجسّد هذا التطوّر التّاريخي الحاصل في علاقات الشرق بالغرب. فقد أحلّ الإسلام العقلاني محلّ الإسلام الوطني* .

مهما بلغ عنف اعتراضات المحافظين، فإنّ طه حسين أدرك نسبيّتها بفضل البعد المستمرّ الذي منحته إيّاه عاهة العمى وقد أصبحت

---

* راجع حول كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» لطه حسين وتوجّهه الحداثي، نصّ المحادثة التي دارت بين محمد حسن الزيات ومنجي الشملي عن طه حسين وعن هذا الكتاب :

ـ «من مواقف عميد الفكر العربى» محادثة عن طه حسين بين محمد حسن الزيات ومنجي الشملي، *الحياة الثقافيّة* (تونس) ، ع 57، 1990، ص 49 ـ 55 .

خصيصة له. فقد استبدّ بذهن المؤرّخ روح الاتحاد الذي تميّز به البحر المتوسّط قرونا عدّة، وكذلك استبدّ بذهن الرحّالة. وهو لئن وقف عند قلعة الأكربول (Acropole)، محاسبا نفسه، فإنّه لا ينفك يحسّ قلب الحضارة خافقا في مدينة باريس ولكنّه كان، فوق ذلك، إلى الرحلة البحريّة أميل. وهو إنّما ينفذ إلى حقيقة ذاته كلّما كان على ظهر سفينة تخترق به، مرارا، عباب المتوسّط جيئة وذهوبا.

هناك، في سنة 1914، طرح عمامته وقفطانه الأزهري، وارتدى زيّا أوروبيّا. هنالك، وقد استحال مواطنا بلاحدود، ليس له في مكان وجود، سوى في كيانه الداخلي، يلتقي الماضي والحاضر، مصر وفرنسا. إنّه أفق واحد ينشأ في فكره، عالم واحد. فيصفه لقرّائه العرب، وإذا بأخبار رحلاته، هذه الاعترافات الحقيقيّة، تنقل إليهم عمق هذا الشّعور بالذّات المكتملة التي ارتقى إليها. فكأنّها مشاهدة كونيّة.

لم ينفك طه حسين، طيلة نصف قرن مضطرب من التّاريخ العالمي، وهو يخترق المتوسّط، يستجلب آراء ويبثّ أخرى، ذلك أنّ الثقافة كفّت على يد طه حسين ـ وهو أمر مهمّ ـ عن الانتشار في اتّجاه واحد.

كثيرا ما يذكر النّاس مساهمة طه حسين في توطين قيم الغرب الليبرالي في الشّرق الإسلامي، والدّفع الذي أعطاه لحركة الترجمة التي جعلت الشّعوب الناطقة بالعربيّة تستأنس بالأجناس الأدبيّة الغربيّة وبروائع الآثار في الفكر الغربي. ولكن ما أكثر ما ينسون

مجهوداته لتوطين الثقافة العربيّة الإسلاميّة في أوروبا. ولقد كان، بإنشائه، في هذا الغرض، منابر أو معاهد في مدريد(Madrid) ونيس(Nice) وأثينا (Athènes) يأخذ نفسه عمليا بتوسيع أفق العالميّة، هذا الأفق الذي طالما ظلّ محصورا، من هذه النّاحية، في الدّائرة الغربيّةتحت وطأة نرجسيّة المعرفة الكلاسيكيّة. ومهما كانت المبالغ المالية التي أرصدتها مصر الناهضة لتمويل هذا المشروع ضئيلة القيمة، فإنّ سعي طه حسين تتجلّى أبعاده واضحة في ضوء نظرة استرجاعيّة عامّة لمفهوم التبادل.

لقد اجتهد طه حسين في تصحيح خلل في الرؤية وقعت فيه أوروبا حين قضت بأن حدود نهضتها تقف حصرا عند تخوم الفكر الاغريقي والرّوماني على حين كان بيك دي لاميراندول(Pic de la Mirandole) يقترح، في غير ميز عنصري، لهذه النّهضة النموذج العربي الإسلامي، ويصدّر كتابه البليغ الذي عنوانه *«في الكرامة الإنسانيّة»* *(De dignitate hominis)* بقوله : «قرأت في كتب العرب أن لا شيء أروع من الإنسان يمكن أن يرى في الكون». هذا ما جعلنا نرى، بعد مرور أربعة قرون، جامعات أثينا (Athènes) وروما (Rome) وليون (Lyon) وأكسفورد (Oxford) وباليرمو(Palermo) تمنح هذا المفكّر الإنسانويّ الحديث الدكتورا الفخريّة.

ما فتئ طه حسين يذكر دين أساتذة السّوربون عليه، أساتذة علّموه أصول الثقافة الغربيّة. فلنذكر، في الختام، كلاما توجه به إليه أستاذ مبرّز من أساتذة السوربون هو روجي أرنالدز (Roger Arnaldez) قال :

«لقد عرّفني طه حسين أقوم مسلك به نصل إلى فهم العالم العربي الإسلامي، وهو فهم عسير، ولكنّه شائق رائق. وفي هذا المعنى أرى في طه حسين أسوة ومرشدا»[17].

أمّا جائزة الأمم المتّحدة لحقوق الإنسان، وقد أسندت إلى طه حسين ليلة وفاته في السّابع والعشرين من أكتوبر من سنة 1973 أتراها كانت تجزي فحسب الوزير الذي أقرّ مجانيّة التعليم ؟

إنّ المغامرة الشخصيّة التي خاضها هذا الطّفل الكفيف انطلاقا من قريته ثم وصولا إلى الأزهر فالسّربون لتجلو أطوار قدر جماعي.

لقد وجد طه حسين نفسه مضطرّا، طوال حياته، إلى مواجهة الجدل الأكبر الدّائر حول إنسان القرن العشرين، جدل الحداثة والأصالة. فأزال العداء بين الشرق والغرب بأن نشط لمراس تكاملهما في إطار الحضارة العالميّة الأرحب.

---

17) *Le Monde*, 30 Oct. 1973, p. 29.

طـــه حسيـــن
في طلب عالَـمٍ مفقود *

بقلم ندى توميش **

لا شـكّ في أنّ طه حسين، هو أعظم الكتّاب العرب المحدثين، هذا الذي أعادت ذكراه إلى الأذهـان مجموعة الـنّصوص المنتخبـة من آثاره والمترجمة إلى اللــغة الفرنسـيّة بـــعنـوان *«ما وراء النيل»*

---

* Nada Tomiche : "Tâhâ Husayn : à la recherche d'un monde perdu",*Arabica,* tome XXXVIII, Fascicule1, Fev. 1981, pp. 107-110.

هــذا الفصل كتبته ندى توميش تعريفا بكتاب *«ما وراء النيل»* ونشرتـــه المجـــــلة الفرنسيّة *«أرابيكـــا»*(*Arabica*) المختصّة في الدّراسات العربيّة، في المجلد الثامن والثلاثين الصادر سنة 1981 ، ص 107 ـ 110 .

** ولدت ندى توميـــش (Nada Tomiche) فـــي القاهرة سنـــة 1923 لأسرة لبنانيّة عريقـــة، فـــــي مصر تلقت تعلّمها والتحقت بكليّة الآداب بجامعة القاهرة حيث أحرزت الليسانس في الآداب الفرنسيّة سنة 1945 ، ثمّ أحرزت من جامعة باريس في فرنسا دكتـــورا الدّولـــة سنة 1950 برسالة أساسيّة حول نابليون *«نابليون أديبا»* ورسالة تكميليّة حول *«وضع المرأة في الشرق الأوسط العربي»*.

في سنة 1956 أحرزت ندى توميش شهادة التبريز في اللغة والآداب العربيّة من جامعة باريـــس. ثـمّ دعيت إلى التدريس في المدرسة التطبيقـيّة للدّراسات العليا في باريس (1958 ـ 1968) ثمّ في جامعة باريس الثامنة ـ فنسان (1969 ـ 1972) ثمّ في جامعة باريس الثالثة ـ السوربون الجديدة (بداية من سنة 1972) حيث شغلت خطّة=

(Au-delà du Nil) وتقـديم جـاك بيرك (Jacques Berque)[1]. إنّ جمهور القرّاء، من غير العرب، لا يعرفون سوى كتب قليلة من إنتاجـه الضخم.

يضمّ هذا الكتاب مختارات كثيرة، مجموعة حسب محاور تصوّر تفكيرا نشأ في فضاء شـرقـيّ وبيئة شرقـيّة ولكنّه انخرط في نسـيـج

=أستاذ (بداية مـن 1979) فمدير لقسم الـدّراسات العربـيّة (بداية من 1985). وقد أحرزت سنة 1991 لقب أستاذ متميّز (Professeur émerite).

تدور أبحاث ندى توميش حول ثلاث قضايا كبرى : وضع المـرأة فـي مـصـر والعالم العربي والاسلامي والشرق الأوسط عموما، ومسألة اللهجات العربيّة والمصريّة خاصة ودراسة خصائصها دراسة علميّة، ثمّ الأدب العربي الحديث، والأدب الروائي على وجه الخصوص.

وقد كتبت ندى توميش في هذه المحاور الثلاثة عشرات البحوث العلـمـيّة الجادّة ونشرتها في المجلاّت العلميّة المختصّة وفي الموسوعات والكتب الجماعيّة.

من مؤلفات ندى توميش :

- *اللهجة العربيّة بالقاهرة* : باريس لاهاي : 1964.
- *الأدب العربي المترجم. أساطير وحقائق*، باريس : 1978.

(Nada Tomiche : *La Littérature arabe traduite.Mythes et réalités,* Paris: Geuthner - Unesco, 1978).

- *تاريخ الأدب الروائي في مصر الحديثة*، باريس : 1981.

(Nada Tomiche : *Histoire de la littérature romanesque de l'Egypte moderne,* Paris : Maisonneuve - Larose,1981)

- *الأدب العربي المعاصر*، باريس : 1993.

(Nada Tomiche : *La Littérature arabe contemporaine,* Paris : Maisonneuve -Larose, 1993).

1) Taha Hussein :*Au-delà du Nil,* textes choisis et présentés par Jacques Berque et traduit de l'Arabe par Michel Hayek, Anouar Louca, André Miquel, Jacques Berque et Alii, Gallimard (Connaissance de l'Orient ; coll. UNESCO d'œuvres représentatives) 1977.

التاريخ. ذلـك أنّ كتاب *«ما وراء النيـل»* يمـثّل [للقارئ] الغربـيّ استكشاف عالم مغاير ساحر ومحيّر. ولكنّه يمثّل أيضا [استكشاف] زمن آخر، هو «العصر الذهـبـيّ»، للامبريالية الأوروبـيّة الذي هـو بمثابة العصر الوسيط بالقياس إلى المستعمرين. إنّ صرامة التفكير والتفاؤل بالمستقبل هما بالنسبة إلى القارئ بمثابة رحيق الـشـبـاب يوفّره له عملاق الأدب العربي المتوفّى سنة 1973 وقد تجاوز الثمانين من العمر.

عاش طه حسين، حين كان صبـيّا، في «مجتمع متدهور يسـوده باشوات لا همّ لهم إلاّ ارتياد الشوارع الكبرى» حسب عبارة جـاك بيرك في مقدمة الكتاب. نشأ في بيئة ريفيّة متواضعة متديّنـــة مؤمنـة بالمعتقدات الباطلـــة. كان طفلا حلـــو الصفات فقد بصره، ولـم يكد يبلغ الثالثة مـن عمره، مـن جراء جهل ذويــه وغياب أبـسـط قواعد الصحّـة.

يضمّ هذا المجموع أوّلا نصوصا منتخبة جيّدة الانتقاء من شأنها أن تستحضر معالم البنية الاجتماعـيّة الأصيلة وسلوك الكبار الذيـن يعيشون عيشة استسلام وتقليد. وما هي إلاّ أن وقف الصبيّ في وجه الخطر الذي كانوا يمثّلونه، إذ بدرت منه أمارات الموهبة وصحـوة الفكر والشجاعة. وإذا هو يتّخذ من ذاك المفكّر العبقري الذي فقد البصر في الرابعة من عمره وعاش في القرن الحادي عشر للميلاد، نقصد أبا العلاء المعري، مثالا يحتذيه. إنّ الغـــوص فـــي الأيّام الماضية واستحضار الأمس فـي الأيّام الراهنـــة، من أبي العـلاء

إلى طـــه حسين، فعل يغمره الفرح الذي به يسمو التعبيـر، فـرح بالجزاء الذي يهبه القدر لصاحب الفضل في كفاحـه ضـد الـظـلام والتضليل. تعبير ممتلئ بنشوى الإيقــــاع والمجازات والنغمـات والأحاسيـس كانت الترجمة على تمام الوفـاء لها.

إنّ الأمس مسلك قويم لبناء غد أفضل. هذا مبدأ إنسانويـة طـه حسين. فإذا نحن فرغنا من النصوص التي تصوّر البيئة الشرقيّة ألفينا المقتطفات التي تصـوّر عودة العلاقة بالغرب، وهذه وتلك جميعـا تجعل القارئ في سياق راهن حيث تمتزج قضايا الشرق وقـضـايـا أوروبا. كان سقراط، فيما يقول طه حسين، :

«يعلّم الناس وهو يحاورهـم أنّ للإنسان ضميرا حـرّا ليس لأحد سلطان عليه، ولا ينبغي أن يكون موضوعا للمساومة، ولاسلعة تعرض للتجارة، وأنّ حريّة الضمير، وحريّة التفكير، وحريّة التعبير هي التي تجعل الانسان إنسانا»* .

ولمّا كان هذا النـصّ المنتخب غير مـؤرّخ، فإنّ للقـارئ أن يسأل في أيّ عهد سياسي أمكن لطه حسين أن يكتب هذه الكلمات الصالحـــة لكلّ عصر ومجتمع والتي كم وددنا لو استطعنا أن نرجعها إلى فترتها التّاريخيّة التي قيلت فيها. ولعلّنا هنا، نقف على خلل في ضبط التواريخ. لقد تضمّن الكتاب فعلا «إشارات ببليوغرافيّة» تذكر

---

* طه حسين : *رحلة الربيع والصيف*، المجلد الرابع عشر من المجموعة الكاملة، ط.2، بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1983، ص 139 ـ 140 .

الطبعات التي أخذت منها هذه المنتخبات * ، ولكــنّ هذه الإشارات لا تثبت تاريخ الطبعة الأولى [للأثر] الــذي أخـــــذ منه هـــــذا المقتطف، وهـــو أمر مزعج في كتاب مختارات قائم على الأغراض شأن هذا الكتاب حيث يستعرض فكر الكاتب استعراضا متقطّعا في نصوص غير مؤرّخـــــة ** . إنّ صفحة واحدة تُثبَت فيها تواريـخ الطبعات الأولى كفيلة بأن تجيب عن كل الأسئلة المتعـلّقة بمسألـة النسق التاريخي التطوّري لتآليف الكاتب .

إنّ مواقف هذا الفتى المصريّ من الغرب تغمرها الحماسة . وهو كلف أشدّ الكلف بالثقافة الأوروبيّة، وبقلعة الأكروبول *** وبمدينة

---

* «*إشارات ببليوغرافيّة*» *(Repères bibliographiques)*، ص 275 ـ 277 من الكتاب وقد تضمّنت أربعا وخمسين إشارة بحسب عـدد الـنّصوص المنتخبة وهي أربـعـة وخمسون نصّا، وتذكر كـلّ إشارة، عنوان النصّ المنتخب والأثر الذي منه أخـذ النصّ، وتاريخ الطبعة ومكانها ورقم الصفحة (أو أرقام الصفحات) المنتخبـة مـن الأثر، واسم المترجم الذي تولّى نقل النصّ المنتخب من العربيّة إلى الفرنسيّة.

** تضمّن كتـاب «*ما وراء النيل*» مقدمـــة بقلم جـــاك بيرك ثـــم اثنـي عـشـر غرضا أو محـورا غرضيـا : 1 ـ في أعمال الليـل (Nocturne) ص 43 ـ 62 ، حلقة التـقـلـيـد (Le Cercle de la tradition) ص 63 ـ 77 ، *لقاء الـغـرب (Retrouvailles d'Occident)* ص 78 ـ 98 ، الخ. . .). ويتـضـمّن كل غرض أو محـور غـرضـي مجموعة من النصوص المختارة المعنونة (بين أربعة وخمسة).

*** الأكروبول (Acropole)، والمقصود هنا أكروبول مدينة أثينا في بلاد يونان القديمة. والأكروبول قلعة محصّنة تبنى عند اليونان فوق التلال والمرتفعات. وأكروبول أثينا هو أشهر هذه القلاع. ويقع علـى مرتفع يعلو المدينة بنحـو 160 مترا، وفيه قصـور الملوك والهيـاكل الـديـنـيّة. وقد أوحى هذا الموقع إلى الكاتب المفكـر إرنـسـت رينان (E. Renan) بصفحة شهيرة «صلاة في رحاب الأكروبول»

باريس وبنظام الجمهورية الثالثة. وإذا بالمثقّفين في بلاد الشرق، يقتفون أثر المثقّفين في بلاد الغرب اقتداء في ذلك بطه حسين. وهو مولع بالديمقراطيّة أيّما ولع. وفي أيّام العطلة، نراه يستجيب دون أن يشعر إلى أسطورة «الكاتب في أوقات الفراغ» التي تحدّث عنها رولان بارت (R. Barthes) * . في مستهلّ أحد فصول كتابه «ميثولوجيات» *(Mythologies)* قائلا : «كان جيد (A.Gide) يطالع آثار بوسويه (Bossuet) ** ، وهو ينحدر إلى نهر الكونغو». أمّا طه حسين فكان يطالع آثار المعري أو الكاتب الفرنسي جيد في قرية فرنسيّة نائية. وقد خلق بفضل هذا التعلّق الناشئ بالغرب «خلقا جديدا» ، موقف غربي النزعة. وبذلك يجد قارئ هذه النصوص المترجمة إلى الفرنسيّة صورة من ذاته في هذا الرجل الشرقي، هذا الرجل الذي زاده قيمة تمجيد الكاتب إيّاه. أضف إلى ذلك أنّ قاعدة اختيار النصوص [في هذا المجموع] تبرز نزعة «المركزيّة

---

* رولان بارت (Roland Barthes)، من كبار النقّاد الفرنسيين في القرن العشرين (1915 ـ 1980). اعتمد في نقده مناهج مختلفة فوظف السميولوجيا والتحليل النفسي والنقد الاجتماعي والألسنيّة الهيكليّة الخ. . . من أبرز أعماله «*الدّرجة الصفر في الكتابة*» *(Le Degré zéro de l'écriture -1953)*، و«ميشليه» *(Michelet - 1954)*، و«راسين» *(Racine - 1963)* و «ميثولوجيات» *(Mythologies - 1957)* و«نظام الموضة» *(Système de la mode - 1967)*.

** بوسويه (Jacques Bénigne Bosssuet) : رجل دين وكاتب فرنسي عاش في القرن السّابع عشر(1627 ـ 1704) له خطب دينيّة وتآبين وكتابات لاهوتية وفلسفيّة وتاريخيّة كثيرة شهيرة منها : «*خطاب عن التّاريخ العالمي*» *(Discours sur l'histoire universelle - 1681)*.

الأوروبيّة» (Européocentrisme) وذلك بإغفال الصفحات التي تتضمّن إعجاب طه حسين بالغرب وفرنسا إعجابا يخالطه شيء من التحفّظ.

إنّ طه حسين لا يخشى أن يفضح المظاهرالخادعة . وهو، قبل كلّ شيء، كاتب أصيل فخور بروعة اللغة العربيةالفصحى، منشغل البال بالنحو والصرف، ولكنّه جاء في فترة أخذت اللغة العربيّة فيها تتفكّك بحسب مقتضيات جديدة. لقد ظلّ يكافح حتّى النهاية ذودا عن سلامةالتعبير العربي، مجاهدا في غير كلال ضد التهاون. وكان يعتب على الجيل الجديد من الكتّاب، في غير مداراة، ضعفهم في اللغة ضعفا يجعل «كلامهم لا يصورّ ما في قلوبهم ولا يعرب عن ذات نفوسهم (. . .) ننصح لهم ملحّين في النّصح أن يحسنوا العلم بالكلام قبل أن يتكلّموا، وبالكتابة قبل أن يكتبوا، وبالأدب قبل أن يخوضوا فيه » *. إلاّ أنّ لغة طه حسين، وهي لغة موقّعة بديعة، تبدو اليوم للمتأدّبين الشبّان كأنّها عتيقة لصيقة بالذات. وطفقوا يبحثون عن العنف في تعبير جديد من شأنه أن يعبّر لا عن السعادة والنجاح، إنّما عن عبثية الكون والقلق الشخصي. إنّها القطيعة مع الانسانويّة التقليديّة التي بدت كما لو كانت إنسانويّة بورجوازيّة غداة الحرب العالميّة الثانية. هكذا كان طه حسين رجلا يربط بين عصرين . ذلك أنّه يوم حصلت تغيّرات عميقة في أنماط التفكير شقّ على «الجيل الصاعد» ، إدراك حقيقة الثورة التي قام بها طه حسين لأنّه خيّل إليهم أنهم تجاوزوها. وهاجس التجديد الذي ما

* طه حسين : من *أدبنا المعاصر*، المجلد الثاني عشر من المجموعة الكاملة، ط.2، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1983، ص 247 (فصل التجديد في الشعر).

يزال الى عهد قريب جليّا عند طه حسين ماثلا بقوّة لديه صار يُنظَر إليه على أنّه ضرب من الكلاسيكيّة الجديدة حتّى إنّ اتهام طه حسين بالنخبويّة لم يكن أمرا باطلا. وهكذا كانت فكرة أثيرة لديه هي أنّ رجل النخبة يعيش بالضرورة وحيدا. إنّها وحدة وليدة الإرادة، وحدة شعريّة تورث الكائن نبلا.

ومع ذلك، وعلى الرّغم من هذه العزلة، ظلّ طه حسين رجلا من الشعب توّاقا إلى أنوار المعرفة، مشمئزّا من الطائفة المتزمّتة من رجال الدين، ناقما على الطبقة البورجوازيّة التي أثرت على حساب طبقة الفلاّحين الأشقياء.

كانت مؤلّفات طه حسين الأولى تعبّر عن تجربة فرديّة وعن النشوة بالعلم المكتسب، وعن الابتهاج بالرّقيّ، وعن الإيمان بالتقدّم. أمّا مؤلّفاته التي ظهرت بعدها فكانت تعنى بشؤون الحياة عناية أقلّ أنانية. وكذلك أصبحت التجربة تجربة جماعيّة وتاريخيّة. إنّها تجربة الأمّة الاسلاميّة، تجربةالمعذبين، كذا ميلاد الملحمة الانسانيّة. إنّ المشكلات الفرديّة التي كان الكاتب يطرحها بالأمس القريب وكان يجد لها حلاّ في ثقته المطلقة بالتأثير الحاسم للعقل والارادة، تطرح من جديد ولكن على مستوى المجتمع هذه المرّة. وكما تغيّرت المشكلات كذلك تغيّرت الحلول. وتماثلت هذه الحلول شيئا فشيئا بالاعتقاد في إسلام «العصور الأولى». ونحن، في هذا المعنى نلفى تفكير طه حسين يسلك مسيرة مخصوصة، ولكنّها مسيرة يطمسها، داخل هذه المنتخبات ، حذف الحدود الزمنيّة. إنّ المنهجيّة

الديكارتيّــة التي اعتمدها المؤلّف في بداياته فسحت المجال تدريجا لاعتقاد راسخ في أنّ الإسلام كفيل وحده بأن يوفّر الحلول لمشكلات المسلمين ويضمن المساواة لهم جميعا مع احترام كلّ المعتقدات. وما هي إلاّ أن دأبوا على اعتبار هذا الداعي إلى نهضة الآداب العربيّة ومصر الحديثة أحد المعارضين. كان عقلانيّا وملحدا أيّام كان شيوخ الأزهر في أوج قوّتهم، ثمّ استكشف جوهر الاسلام والإيمان على عهد الجمهـوريّة معاكسا يومئذ تـيّار الطليعة الماركسـيّة الملتزمـة ـ ذلك أنّه لا ينفك رافضا لكـلّ رأي سائد حتّى تلك الآراء المتعلّقـة بالحداثة، وفيّا لإنسانويته، أي وفيّا لمبدإ التعدّد الضروري لمصادر الإلهام ما تفجّر من التراث أو من الحداثة، من الشرق أو من الغرب.

ونجده يحاكي، في سـخـريّة ووضوح رؤية، أحكام أصحـاب الامتيازات والتحاليل المعادية للثقافة قائلا :

«وليس أحبّ إلى مصر من أن يكون أهلها أحرارا، وليس أحبّ إلى مصر من أن يكون أهلها علماء، ولكنّ الحريّة والعلم من هذه الأشياء الخطرة التي لا ينبغي أن تعطى لـلـنّاس بغير حساب، وإنّما يجب أن تقـطّر لهم تقطيرا وتقدّر لهم تقديـرا ويقتّر عليهم فيها تقتيرا» * .

ثمّ نجده يدين، في براءة مصطنعة، الحجج التي بها تنسب إلى الثقافة والحريّة مسؤوليّة الخيبات السياسيّة.

---

* طه حسيـن : *مرآة الضمير الحديث (نفوس للبيـع)*، المجلد الحادي عشـر مـن المجموعة الكاملة، ط. 2، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1983، ص 106 .

والحق أنّ طه حسين كان ممتلئا حزنا بسبب الجمود الذي يكتنف مصر من كلّ أقطارها. هو كما يقول حزين :

«على هذا البلد الذي كنا نراه أهلا للحريّة والأمن، والذي أفنينا شبابنا وكهولتنا وجهودنا وقوانا لنظفر له ببعض حقّه من الحريّة والأمن. ثم ها نحن أولاء ننظر إليه فنجده خائفا يترقّب، يخشى أن يعمل فيغضب سادته، ويخشى أن يقول فيحفظ قادته، ويخشى أن يسكت فيسوء به ظنّ المسيطرين على أمره» * .

إنّ العلاج الذي يعرضه لإنقاذ هذا «التاريخ البائس» ولإنقاذ «مصر المريضة»، هو «الاسلام الحقيقي» أو «الإسلام الحق» ، هذا الإيمان. وقد أنفق حياته يعيد، في غير ملل، بناء المستقبل.

نشأ طه حسين في عهد كانت البورجوازية الفتيّة في مصر تسيطر بالتدريج على دواليب الاقتصاد والسياسة، وكانت فيه الآمال فسيحة وميسورة التحقيق أحيانا. ولذلك كان إلى آخر حياته دائم الثقة بالإنسان. لقد نهض طوال حياته بالمهمّة التي أخذ نفسه بها وهي «أن يرجع الى الأمل قوّته، وأن يتيح للإرادة حريتها، وأن يلتحق بالذين يحرصون على النّهوض» إنها عبرة في الشجاعة ستظلّ راهنة لا تبلى.

---

* طه حسين : *المعذبون في الأرض*، المجلد الثاني عشر من المجموعة الكاملة، ط.2، بيروت : دار الكتاب اللبناني 1983 ، ص 892 .

وليس أحسن من هذا الكتاب يترجم عن هذه العبرة، وذلك لما تضمّنه من منتخبات تعرض على القارئ موجز الخيبات التي يشهدها مجتمع في زوال وعالم يتلاشى ثمّ يبعث حيّا خلال ثلاثة أرباع قرن. إنّ هذا الكتاب المجموع يعيد رسم مسيرة فكريّة نهض بها كاتب مستبصر عرّف بتاريخ بلده بل ساهم في صنعه دون أن يكفّ يوما عن إدانة الشبهات، ولا عن إدانة «الأخطاء» التي تضمنتها مذهبيته الخاصة، حازما في ذلك حزما ثقافيّا نادرا.

إن كتاب «*ما وراء النيل*»، في إيجازه الموحي، يعيد رسم نضارة معركة متقدّة من أجل حرية التعبير، واحترام الحريات. إنّها رسالة يمكن أن تعدّ غدا ضمن الأدب العالمي.



القسم الرابع

القرآن والإسلام
في مرآة طه حسين



طه حسين مؤرّخاً لسياسة عثمان في «الفتنة الكبرى»*

بقلم لوي ڤارديــه **

يشـرّف سـلسلة «الـدّراسات الإسـلامـيّة»

* Taha Hussein : *La Grande épreuve, : Uthmân,* trad. de l'arabe, sous la direction de l'auteur, par Anouar Louca, révisée par Jacques Jomier, Paris : Librairie philosophique J.Vrin, 1974. Préface de Louis Gardet, pp.I-V.
وقد جاء هذا الفصل، في الأصل، تحت عنوان (Préface)، أما عبارة طه «حسين مؤرّخا لسياسة عثمان في «الفتنة الكبرى»» فجملة من عندنا لـخّصنا بها، موضـوع الفصل.

** ولد لوي ڤارديـه (Louis Gardet) عـام 1904 ، وتوفي عـام 1986 . اختصّ منذ مطلع حياته العلميّة في الفلسفة وتعـمّق التيولوجيا المسيحيّة ثم اتجه نحو دراسة الأديان وتاريخ الأفكار والتصوّف الاسلامي. باشر ڤارديه تدريس الفلسفة المقارنة والفكر الاسلامي خاصة في المعهد الـدّولي للفلسفة بتولـوز(Toulouse) كما باشـر التدريس لفترات مختلفة في جامعات الرباط والجزائر والقاهرة، وهـو مـن كـتّاب *«الموسوعة الإسلامـيّة» (Encyclopédie de l'Islam)*. كمـا أنّه من منـشّطي الحوار الإسلامي المسيحي، ومن دعاته.

لڤارديه دراسات كثيـرة، لـعـلّ من أهـمّهـا *(La Cité musulmane) «الـدّولة الإسـلاميّة»*، و*(L'Islam, religion et communauté)* ، *«الإسـلام : عقيدة وأمّة »*، و*(Les Hommes de l'Islam) «رجـالات الاسلام»*، و*(Regards chrétiens sur l'Islam)* =

(Etudes Musulmanes) *** أن تنشر اليـــوم كتاب «*الفتنة الكبـرى*» لطه حسين، في ترجمة فرنسيّة. وأنا أودّ أن أحاول في هذا المقام أن أعرض الدلالة العميقة لهذا الكتاب، كدت أقول هذه التأمـلات في فجر الإسلام.

حين نشر النصّ العربي من هذا الكتاب أدرك قرّاء العربيّة في يسر العبرة التي يستفيدها منه الناس في عصرنا. ذلك أنّ الأمر لا يتعلّق بنظرة إلى مـاض قـد ولّى، إنّما هو انبعاث مـاض مـا انـفـكّ دائم الحضور، ما انفـكّ غضّا في القلوب والضمائر. ومن هنا بالـذّات فإنّ هذا الماضي شأنه شأن الحقائق الاجتماعيّة والاقتصاديّة الراهنة، يكيّف مستقبل الشعب العربي. ولـعـلّه أمر جوهري، بالنسبة إلـى التّاريخ المعاصر القريب، أن يتاح للجمهور الغربيّ بدوره استكشاف دلالة هذا الحضورالمخترق للزمن في الفكر الإسلامي.

لا أستعيد، إلاّ على سبيل التذكّر، قدر طه حسين الفذّ، هذا المفكّر الانسانوي بكـلّ ما يحمله هذا اللّفظ من معان ثـريّة : ناقدا

=«*نظرات مسيحيّة في الإسـلام*». وقد ألّف بالاشتراك مع الأب قنواتي كتـــاب (*Introduction à la théologie musulmane*) «*مدخل إلى التيولـوجيـا الاسـلامـيـة*»، وبالاشتراك مع محمـد أركـون ألّـف(*L'Islam : Hier et Demain*) «*الاسلام : اليـوم وغدا*» ، وبالاشتراك مع الشيخ بوعمران(*Panorama de la pensée islamique*) «*مشهد الفكر الاسلامي*».

*** (Etudes musulmanes) . هو عنوان السلسلة التي أنشأتها مكتبة ج. فران(J.Vrin) الفلسفية، وأشرف عليها: لوي ڤارديه وإيتيان جلسون (Etienne Gilson). وفي إطار هذه السلسلة نشرت الترجمة الفرنسيّة لكتاب طه حسين «*الفتنة الكبرى*»

ومبدعا أدبيّا ومـؤرّخا وكاتب مقالات بارعا . لقد غدا، هذاالـذي كان ضريرا منذ صباه، «مرشدا لأمّة» حسب تعبير أنور لوقا[1].

إنّ طه حسين أحد الكتّاب المعاصرين الأوسع شهرة لدى القراء في البلاد العربيّة، وإنّ أبناء القاهرة ليعرفون حقّ المعرفة «الدكتور طه» وإنّهم ليحبّونه. وفي فرنسا، منذ أن نشرت الترجمة الفرنسـيّة لكتابه «الأيّام» سنة 1947 مصدّرة بالتقديم المتوهّج الـــذي خصّها بـه أندريه جيد (André Gide) [2]* مـا فتـئت شهرة طـــه حسين تزكو يوما بعد يوم .

لم يكن طه حسين معروفا لدى المتخصّصين في الدّراسات العربيّة الإسلاميّة فحسب، ولكـنّه كان، بالنسبة إلـى أيّ شخص مشغـول بالثقافة العالمـيّة، بمثابة الضمير الحـقّ لمصر الحديثة التي تنحتهـا الصراعات والمحن.

ولد طه حسين في الرابع عشر من شهر نوفمبر سـنـة 1889 ، وتوفيّ في الثامن والعشرين من شهر أكتـوبـر سـنـة 1973 ، فشهـد النهضة في مطلع القرن [العشرين] وشهد ثورة سنة 1952 ومخلّفاتها. كان طه حسين قد انتسب إلى جامعة الأزهر طالبا، وفيها أحرز لقب

1) مقال نشر في صحيفة جينيف» بتاريخ 10 نوفمبر 1973 : «طه حسين من طفل ضرير إلى مرشد أمة » :Anouar Loucas "Taha Hussein : Un enfant aveugle devenu le guide d'une nation", *Journal de Genève, 10 Novembre 1973*

2) عن دار نشر غاليمار(Ed.Gallimard) بباريس . (انتهى).

* وقد ترجمناه ضمن هذا المجموع، انظر القسم الثاني منه.

«علاّمة» (وهو أعلى الدّرجات)* ، ثمّ انتسب إلى جامعة السوربون، وفيها نال درجة الدّكتورا.

إنّ أحكام طه حسين، ومقالاته النقديّة، وتحليلاته، تنبع كلّها من المعرفة بثقافتين اثنتين : واحدة عربيّة إسلاميّة وأخرى غربيّة، تشهد بذلك كتبه شأن «قادة الفكر» و«مستقبل الثقافة في مصر». وأداة التعبير عنده ، إذا نحن استثنينا أطروحته للدكتورا التي أنجزها في جامعة السوربون *«فلسفة ابن خلدون الاجتماعيّة»* *(Philosophie Sociale d'Ibn Khaldoun)*، هي العربيّة. وهي عنده لغة موسيقيّة ثابتة وفّقت في الجمع، في الآن ذاته، بين سحر البلاغة القديمة وتمام الدقّة الحديثة المميّزة للتّفكير الصارم. أمّا الروايات والقصص التي تركها لنا فهي أشبه ما تكون بالملحمة المؤثّرة التي تصوّر لقاء الشرق والغرب، وتصوّر، فضلا عن هذا، آلام الشعب العربي وآماله [3].

ولئن كانت بحوث طه حسين في الأدب العربي الجاهلي أثارت عليه اعتراضا كثيرا، في الأزهر ذاته، فإنّ حياته المهنيّة الرسميّة في

* الصواب أنّ طه حسين سعى إلى هذه الدّرجة، درجة «العالميّة»، ولكنّه لم ينلها، فقد أسقط في الامتحان، ولذلك قصّة شهيرة، راجعها في ترجمته الذاتيّة : ـ طه حسين : *الأيّام*، مج 1 من المجموعة الكاملة، ط.2، بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1982، ج 3، الفصل الثاني : «كيف سقطت في امتحان العالميّة» ص 394 ـ 406 .

3) لنذكّر هنا بالمجموعة القصصيّة الرائعة : *«المعذّبون في الأرض»* وقد ترجمت الكتب الآتي ذكرها الى الفرنسيّة ونشرت في القاهرة بين سنتي 1960 و 1963 : *«أديب أو المغامرة الغربيّة»* (ترجمة أمينة ومؤنس طه حسين)، «شجرة البؤس» ، (ترجمة غاستون فييت)، *«دعاء الكروان»* (ترجمة ريمون فرنسيس).

مصر كانت حياة جامعيّ كبير الشأن: كلمته مسموعة ومشورته مرغوب فيها وأسوته حسنة. وحسبنا أن نذكر [من حياة طه حسين] مراحلها الكبرى: فقد رجع إلى مصر سنة 1919 متزوّجا بفرنسيّة هي تلك التي ستكون له عونا، في كل آن وحين. ثمّ باشر أوّلا تدريس تاريخ اليونان، ثمّ عيّن أستاذا للأدب العربي في جامعة القاهرة، فعميدا لكليّة الآداب فمستشارا ثقافيّا لدى وزارة المعارف، وأسّس جامعة الاسكندريّة، وكان أوّل مدير لها. وإذا هو في سنة 1950 وزير للمعارف. وبحرص منه أرسيت الدّعائم الأولى لديمقراطيّة تعليم حقيقيّة ولمجانيّته الشّاملة، وهما معتمدان اليوم في مصر، ثمّ أسندت إليه أخيرا، وبالإجماع، رئاسة «مجمع اللغة العربيّة» الموقّر.

لقد قدّم طه حسين خدمة جليلة في سبيل إشعاع اللغة والثقافة العربيّة في الغرب، فأسّس معهد الدّراسات الإسلاميّة بمدريد (Madrid) وكرسيّ الأدب العربي في جامعة أثينا (Athènes). وأحرز الدكتورا الفخريّة من جامعات عدّة: أكسفورد (Oxford) وروما(Rome) وكولونيا (Cologne) ومونبلييه (Montpellier). وليلة وفاته أسندت إليه الأمم المتحدة جائزة حقوق الإنسان.

كتاب *«الفتنة الكبرى»*، الذي نقدّمه اليوم للقارئ الفرنسي ليمثّل الوجه الأوفى من مشهد تاريخيّ طالما كان موضوع تأمّل: هو مشهد سنوات الإسلام الأولى حين تحدّدت داخل أمّة النبيّ اختيارات كان لها أثر في تحديد مستقبلها. إنّ قارئا غير متخصّص في الاسلاميّات قد يضلّ طريقه في فهم [هذه الحقبة] بسبب كثرة التفاصيل

المتعلّقة بأحداث تبدو، لأوّل وهلة، هيّنة. ولكنّي أودّ أن ألحّ في النقطة الآتيّة : إنّما سيعرض علينا ليس تاريخا من التواريخ، وليس هو تاريخا بشريّا خالصا يصوّر الخصومات وضروب النفوذ. إنّه تاريخ الخلفاء أو الأيمّة الأربعة الأوائل الملقّبين بـ «الرّاشدين» : أبي بكر وعمر وعثمان وعلي. إنّه «زمن المدينة» الذي هو بمثابة العصر الذهبيّ للإسلام، وهو تاريخ حيّ غضّ على الدّوام في ذاكرة الأمّة. إني أستحضر الآن ذكرى شاعر جزائري شعبيّ يسمّى راهو (Raho) كان، زمن الأمير عبد القادر، يمجّد في أهازيجه «تلك الفصيلة من النسور» يقصد صحّابة الرّسول.

إنّ المسلم المخلص لعقيدته يرى في هذا الطور، طور فترة المدينة، تاريخا مقدّسا ما يزال ينبض بحضور الرسول وتعاليمه. منذ ذلك العهد إن أدنى حديث يسجّل وتتناقله الأخبار يكون له وقع لا مثيل له. وعلى هذا النحو كان يتحقّق تاريخ مقدّس للإسلام كأنه مواز لـ «تاريخ العالم» (Histoire universelle) الذي تصوّره كتبنا المدرسيّة في الغرب. وبذلك ألا يكون ذلك التاريخ الأوّل هو الذي يضيء لنا هذا الحدث أو ذاك من التّاريخ الثاني ؟ وقد أقول، مخاطبا القارئ المسيحي، إنّه من الممكن هنا، وضمن علم نفس مقارن للأديان، أن نجري ضربا من القياس مع تلك القصّة التي تصوّر البدايات الأولى لكنيسة المسيح، وبذلك نعني «أعمال الحواريين» (Actes des Apôtres).

إلاّ أنهّ، بعد انقضاء الخلافة الرشيدة على عهدي أبي بكر وعمر (من السنة العاشرة للهجرة إلى السنة الثامنة والعشرين للهجرة)،

وفي عهد عثمان الخليفة الثالث، ظهرت «الفتنة» في أجلى مظاهرها، هذه الفتنة التي حملت بذرة انقسام الأمّة إلى فرق كما ستظهر واضحة في معركة صفين (سنة 37 للهجرة). إنّ اللّفظ العربي الذي ترجم به لفظ (épreuve) هو «فتنة»[4]، ومعناه المضبوط هو «الامتحان» الذي يقصد منه التمييز بين أمرين، في مثل قول الجرجاني «يقال فتنت الذهب بالنّار إذا أحرقته بها لتعلم أنّه خالص أو مشوب»،[5]. فالفتنة بالتالي، قد تكون أمرا قضى به الله أو سلّطه الله على المؤمن ليبلوه. وإذن فالفتنة امتحان وإغواء وحيرة أيضا، هي بلاء قد ينتهي إلى إراقة الدماء لأنّ «الفتنة» التي تمزّق الضمائر والقلوب هي مصدر الاقتتال بين الأشقّاء. على هذا النحو، قد تتّخذ [الفتنة] صورة عقاب إلهي، وتصبح كارثة تنال الإسلام في قواه الحيّة التي يواجه بها أعداءه. وهكذا فإنّ من يشعل نار الفتنة يعدّ مجرما «والفتنة أشدّ من القتل» كما جاء في القرآن الكريم (سورة البقرة، الآية 191). وفي هذا شيء ممّا قال القدّيس متّى (saint Matthieu) في إنجيله: «ويل للعالم من العثرات، فلا بدّ أن تأتي العثرات، ولكن ويل لذلك

---

4) انظر فصل: *«فتنة»* من تحريرنا، في دائرة المعارف الإسلاميّة، الطبعة الثانية:
Encyclopédie de l'Islam, Nouvelle édition, Leyde : E.J. Brill - Paris : G.-P Maisonneuve et Larose, 1977 t.II (C-G), Louis Gardet : *"Fitna"*, pp. 952-953.

5) الجرجاني: التعريفات، ط. فلوجل، ليبزيغ، 1845 ص 171 (انتهى).
استعملنا نحن طبعة مجهولة، المط. الوهيبية، 1283 هـ، ص 110 .

* اعتمدنا الطبعة العربيّة للعهد الجديد مترجمة من اليونانيّة، طبعة المنظمة العالميّة لتوزيع الكتاب المقدّس، د.م.، د.ت.، ص 32 .

الانسان الذي به تأتي العـثرة» (الاصحاح الثامن عشر، الآية 7)* .
وهذا عين ما دعا إليه القرآن الكريم في قوله تعالى : «ربّنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا» (سورة الممتحنة، الآية 5)*.

إنّ الفتنة الكبرى، في الإسلام، هي المعارك التي اقتتل فيـهـا الصحابة الراشدون وأدّت إلى مقتل عثمان ثالث الخلفاء. ولقد قتل عمر أيضا، ولكن قتلته يد غير مسلم.

لقد شهدت السنوات الأخيرة من خلافة عثمان اشتداد المعارضة عليه، وجنوحها إلى العنف شيئا فشيئا. ولقد تـنـبّأ الرسول ـ فيما يقول المحدّثون ـ بكـلّ ذلك، وقد جاء في الحديث النبوي : «إنّ بين يدي هذه الساعة فتنا كـأنّها قطع الليل المظلم، يصبح الرجـل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدّنيا»[6]* .

فمن الصّحابة من جدّ ، باسم الاسلام، في نصرة عثمان الخليفة الشرعي، ومنهم من كان، باسم الإسلام، من بين الثائرين الـذيـن

---

* قد يكون من المفيد النظر في بحث جان كلود فاديه بالفرنسيّة بعنوان : «ملاحظات حول الجذر (ف/ ت/ ن) في القرآن وفي أقدم المصادر الاسلاميّة» المنشور بالفرنسيّة في *مجلة الدراسات الإسلاميّة*، ع1 س 1969، ص 81 ـ 101، انظر :

Jean-Claude Vadet : "Quelques remarques sur la racine FTN dans le Coran et dans la plus ancienne littérature musulmane",*Revue des Etudes islamiques,* 1,1969, pp.81-101.

6) ذكره ابن بطه في *«الإبانة على أصول السنة»*

La Profession de foi, d'Ibn Batta, éd. et trad. de Henri Laoust, Institut Français de Damas, 1958, p.10-19.

* اعتمدنا نحن سنن أبي داوود، كتاب الفتن.

حاصروا بيته في المدينة طوال أربعين يوما، وقليل منهم من اعتزل الخصومة باسم الاسلام .

لقد أدانت غالبيّة الشيعة والخوارج، وهما الحزبان القويـان فـي الإسلام، سياسة عثمان وشخصيته أيضا. أمّا في نظر أهل السنّة ، وهم الأكثر عددا، فإنّ عثمان يظلّ، في المقام الأوّل ثالث الخلفاء «الراشدين»، ويرون أن مقتله «محنة» ما تزال راهنة.

وقد أقبل طه حسين، المؤمن والمؤرّخ معا، على تحليل الأحداث تحليلا. إنّ الكثرة الكثيرة من الرّوايات التقليـديّة توجّهها منذ البدء الخصومات السياسيّة الدينيّة. أمّا الجديد في هذا الكتاب الذي نعرّف به ، فهو إرادة الموضـوعـيّة الهادئة مع الاحترام الكامل لـلـرجـال وللدّوافع التي تحرّكهم.

إنّ طه حسين، مـؤرّخا، يحسن استعمال الوثائق المـضـمّنة في كتب السنن وكتب الطبقات الأولى معالجا إيّاها بالنقد، وبإرجاعها إلى مواضعها عند الاقتضاء. وإن هو أعرض، قصدا، عـن إثـقـال نصّه بتقنيّة الإحالات فذلك لأنّ الإفادة الحاصلة من المصادر مضمّنة في تفكيره التأمّلي بصفته مؤمنا. أجل لا يفعل ذلك حسب موقـف تمجيديّ، وإنّما في ضوء تحليل نافذ للقيم الملتزم بها : وهي قيم العقيدة والأخلاق والسياسة.

كيف ولماذا انتهى الأمر بهذه «الفصيلة من النسور» من الصحابة إلى الخصومات الدمويّة التي أظلّتها الفتنة ؟ كيف غدا عثمان الورع الذي نوّهت به أحاديث نبويّة كثيرة شيخا لا يستقرّ على رأي، ولا

يقوى على أمر، يحكم بالهوى، حريصا كل الحرص على منـافـع ذويه وقرابته حسبمـا صـوّر لنا في السنتين الأولى والثانـيـة (وربّما السنوات الستّ) من خلافته ؟

لقد حاول طه حسين، في إخلاص وإنصاف، الإجابة عن هـذا السؤال الخطير بالقياس إلى الأمة الإسلاميّة، وكذا أتيح له أن يجهر بأنّ الإسلام لا يعترض على استخدام العقل في أمور العقيدة، بـل على عكس ذلك، يدعو إليـه، وبـأنّ روح الإسلام، في جوهـره، ليس قدريّة مطلقة بالمـرّة، ولكنّه، على العكس، يفرض إحساسـا عادلا بالمسؤوليـات، وأنّ المؤمن، هنـا، إنّما يرجع إلى المـؤرخ المزاول للبحث المتحلّي بالمسؤوليّة.

لقد رسم لنا طه حسين، اعتمادا على كتب السنن والـطـبـقـات الأولى، صورا متميّزة للخليفة عمر (ص 12 وما بعدها)* وللصحابي أبي ذر الغفاري ص (105 ـ 107) الذي يعدّ اليوم «رائد» الاشتراكيّة العربيّة، وخاصة للخليفة عثمان ذاته قبل أن يولّى الخلافة وبعدها.

رسم طه حسين شخصـيّة الخليفة الثالث رسما دقيق التضاريـس وافر الاحترام مبرزا ما فيه من خصال الورع والرحمة، وما فيه من ضعف وما ارتكب من أخطاء في الحكم.

أمّا علي بن أبي طالب، رابع الخلفاء وابـن عـمّ النبيّ وصهره، وهو الذي يخصّه الشيعة بوفاء خالص، فإنّه لا يبدو خصما لعثمان

* أرقام الصفحات هنا وفي الأسطر الموالية تحيل على الصفحات الـفـرنـسيّة المترجمة من كتاب الفتنة الكبرى المشار إليها في الهامش الأوّل للمقال.

بقدر ما يبدو مدافعا عنه محزونا، على الرّغم من أنّ ابني علي، الحسن والحسين، انضمّا إلى الفئة القليلة المناصرة لعثمان في بيته المحاصر.

كان النسيج الخلفي، في كلّ ذلك، العوامل الاقتصاديّة والاجتماعيّة للعصر، والغزوات التي كانت تعدّ، وما كانت تغذّيه من خصومات. هكذا فقدت الفتنة الكبرى طابع المأساة الغامضة، بل صارت شهادة على محدوديّة قدرات الرجال وضعفهم. وعلى كلّ، فإنّ الفتنة بالقياس إلى المؤمن، لم تعد خزيا، وعليه ينبغي ألاّ يثق بالنّاس، حتّى الأفاضل منهم، وإنّما ثقته تكون بالله وحده.

وإذن فإنّ «الفتنة الكبرى»، في نظر طه حسين المؤرّخ، لا تملك أن تنال من العقيدة الإسلاميّة، ولكنّها تظلّ، حتّى يومنا هذا، درسا صارما موجّها إلى الشعوب وإلى قادتهم، وفي هذا الصدد، تبدو الفصول الأولى من الكتاب بليغة الدلالة، فهي فصول ترسم الخطوط الكبرى للظروف التي نشأت فيها دولة المدينة، وبذلك كأنها، وهذا ما يميّزها في نظرنا، مختصر لفلسفة المؤلّف السياسية. ونجد [في النصّ] كثرة كثيرة من الإحالات والإشارات مقترحة على فلسفات الغرب السياسيّة. [وليس غرضه] من هذا، التنبيه إلى نموذج مّا يحتذى في غير رويّة، بقدر ما هو الكشف عن عدد من الأخطاء الواجب اجتنابها.

هكذا يتجلّى [في الكتاب] المثل الأعلى من العدل الاجتماعي وفقا للتوجيهات القرآنيّة، تدعمه دعوة ثابتة إلى المراس الشرعي للحريّات المدنيّة.

حلّل المؤلّف تحليلا حصيفا الدّور الموكول إلى الدساتير المكتوبة. أمّا ما ينبغي أن يُسنَد، فليس الانتصار الدنيوي الذي تحقّقه دولة مّا أو امبراطورية، إنّما هو الجهد الذي يبذله الجميع في سبيل الخير الجماعي وفي سبيل السعادة التي يرتضيها كلّ إنسان لنفسه.

ولعلّنا نلفي هنا بلاغا من البلاغات المتوهّجة لا يكتفي طه حسين بتوجيهه إلى العالم العربي والإسلامي، بل يوجّهه إلى كلّ إنسان في زمننا: ليست السياسة أي إدارة شؤون الدّول، خلافا لما تذهب إليه اتجاهات غربيّة حديثة، صناعة أو تقنية، إنّما هي قائمة في سياق فلسفة أخلاقيّة محكمة تستضيء بضوئها. وعلى هذا النحو، دون سواه، تستطيع السياسة أن تنهض بالدّور الموكول إليها في تحديد مصير الشعوب.

لــوي ڤارديــه

أفريل 1974

الإسلام كما يراه طه حسين *

بقلم جاك بيرك **

«كان يتكلّم بصوت هادئ غليظ بعض الشيء، عميق أشدّ العمق كأنّه يأتي من أقصى ضميره، فكانت الكلمات التي

* Jacques Berque : "LIslam vu par Taha Hussein ", *Bulletin des Etudes Orientales* (B.E.O. / Institut Français des Etudes arabes de Damas), tome XXIX, 1977 (Mélanges offerts à Henri Laoust - volume premier), pp.65-72.

هذا فصل نشره جاك بيرك في *نشرة الدراسات الشرقيّة* الصادرة عن المعهد الفرنسي للدراسات العربيّة بدمشق، المجلد 29، سنة 1977 (عدد خاص مهدى إلى المستشرق هنري لاوست، المجلد الأوّل)، ص 65-72.

وقد أعاد جاك بيرك نشر هذا الفصل، بعنوان آخر : «إسلام طه حسين»، في كتابه : *الإسلام في زمن العالم*، باريس: منشورات سندباد، 1984، ص 168 ـ 180، انظر : (Jacques Berque : *L'Islam au temps du monde,* Paris : Sindbad, 1984, pp.168-180)

** جاك بيرك (Jacques Berque) من كبار المستشرقين الفرنسيين ولد بفرندة في الجزائر سنة 1910، وتوفي يوم 27 جوان 1995 بفرنسا. وبموته انطوت صفحة هامّة في تاريخ الاستشراق. قضى بيرك في الجزائر طفولته وفترة من شبابه الأوّل ثمّ تحوّل إلى فرنسا حيث تلقى تعلّمه، ثم ذهب إلى المغرب الأقصى حيث أنجز أطروحته عن «*البنى الاجتماعيّة في الأطلس الأعلى*» (*Structures sociales du Haut Atlas*). وفي عام 1956 استقرّ بيرك بباريس حيث باشر تدريس مادّة «التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر». =

يحملها هذا الصوت الرزين العميق إلى آذانهم لا تكاد تبلغ

= اهتمّ بيرك في كتاباته الأولى بالمغرب الأقصى ثمّ عني تدريجيّا بالمسائل الاجتماعيّة والسياسيّة المتعلّقة بشمال افريقيا والعالم العربي والإسلام عموما . وكتابات بيرك الأدبيّة موسومة كذلك بالنظرة الاجتماعيّة. ويعدّ بيرك في عصرنا من أبرز الدعاة إلى حوار الحضارات وله تلامذة وأتباع في أقطار العالم العربي الاسلامي قاطبة. ولبيرك مواقف مشرّفة من القضايا العربيّة الأساسيّة كقضيّة الجزائر والقضيّة الفلسطينيّة. ومؤلفات بيرك كثيرة منها : *«عربيات» (Arabies)*، *« الإسلام والإشتراكيّة» (Islam et Socialisme)*، *«الإسلام في زمن العالم» (L'Islam au temps du monde)*، *«الشرق الثاني» (L'Orient second)*، *«مصر : الامبرياليّة والثورة» (L'Egypte, Impérialisme et Révolution)*، *«ببليوغرافيا الثقافة العربيّة المعاصرة» (Bibliographie de la Culture arabe contemporaine)*، *«العرب من أمس إلى غد» (Les Arabes d'hier à demain)*. كما أنّه أنجز ترجمة القرآن الكريم إلى الفرنسيّة . كانت لجاك بيرك علاقة وطيدة بطه حسين. فقد كانا صديقين تجمع بينهما رابطة فكريّة. وقد كتبت السيدة سوزان طه حسين في مذكراتها *«معك»* أن بيرك كان يتردد كثيرا على مصر، ووصفت زياراته إلى بيت العميد قائلة :

«كانت زيارة جاك بيرك للبيت لحظة سعيدة عند طه حسين بما تحفل به هذه الزيارة من محادثة ذكيّة وعميقة في جوّ من الودّ الحار. يقول بيرك : «ثمّة بيني وبينه شيء غير عادي» وإنّي لأعتقد ذلك، فكلما حدّثني عن طه استثار مشاعري، آنذاك أجد في الصوت المعتدل تعبيرا عن شعور حقّ وصلب شريف. إنّه واحد من الذين يجدون طه في حقيقته إنسانا جديرا بالحبّ. وليس بوسع أحد أن يمنحني ما هو أثمن من ذلك».

سوزان طه حسين : *معك. ص 257* .

وقد درّس جاك بيرك فكر طه حسين في الكوليج دي فرانس، وحاضر عنه في مناسبات مختلفة، وكتب عنه فصولا وصفحات جيّدة منها هذا الفصل الذي ننقله هنا إلى العربيّة. وطه حسين هو الذي رشّح جاك بيرك لعضويّة المجمع اللغوي بالقاهرة. والظاهر أن كلاّ من طه حسين وجاك بيرك كان يرى في الآخر مكمّلا للرّسالة التي ينهض بها وهي إقامة الحوار بين الشرق والغرب. لقد كان بيرك يقول=

آذان القوم حتّى تنفذ منها مسرعة إلى قلوبهم وتستقرّ فيها وتملؤه عجبا وإعجابا» *.

إنّ الصّوت الذي قصد طه حسين أن يصفه على هذا النحو لم يكن قطعا، صوته، إنما هو صوت أحد أبطال كتاب «*على هامش السيرة*»، هو صوت الرحالة القبطي باخوم. ولكنّ صوت طه حسين هو، على الأرجح، الصوت الذي يحضرني عند سماع هذه الجملة. هذا التذكّر قد يكون مفيدا، على كلّ حال، ونحن في بداية دراسة تريد أن تشارك بتقديم رؤيتها الخاصّة لحلّ مشكل خطير.

إنّ هنا قضيّة تتجاوز مجرّد علاقات طه حسين والإسلام. وهي قضيّة لا تنحصر في بحث معرفيّ يستعيد النظر في الماضي.

=في هذا الصدد للسيدة سوزان طه حسين : «أراد طه حسين أن يقرّب الشرق من الغرب. أمّا أنا فأريد أن أقرّب الغرب من الشرق» سوزان طه حسين : *معك*، ص 143 . وقد كان بيرك صاحب فكرة إصدار مختارات من أعمال طه حسين مترجمة إلى الفرنسيّة بقصد إطلاع القارئ الفرنسي والغربي عامّة على نماذج من أعمال العميد، وقد نشرها عام 1977 بعنوان : «*ما وراء النيل*» مع مقدّمة جوهريّة بقلمه، في حين تولّى هو وميشال حايك وأنور لوقا وأندره ميكال وآخرون ترجمة المختارات، راجع :

Taha Hussein : "*Au-delà du Nil*", textes choisis et présentés par Jacques Berques et traduits de l'arabe par Michel Hayek,Anouar Louca, André Miquel, Jacques Berque et alii, Paris : Gallimard /Unesco (Collection Unesco d'œuvres représentatives - Série arabe), 1977.

* طه حسين : *على هامش السيرة*، المجلد الثالث من المجموعة الكاملة، بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1985، ص 323 .

بالأمس، تصدّت لمراس هذه القضيّة أجيال كثيرة من أبناء الشرق، وهم ما يزالون يفعلون ذلك اليوم، وسيفعلون ذلك غدا.

أقول ذلك لأنّي حين أنطق بلفظ «الإسلام» فإنّي أفكّر، تماما كما هو الشأن بالنسبة إلى طه حسين، في الدين من حيث هو دين. ولكنّني أفكّر كذلك في التّاريخ الماضي والحاضر لأمّة من الأمم.

وفضلا عن هذا كلّه، لنا أن نتساءل : أليست علاقة الرجل الشرقي ـ وهو المعاصر لنا ـ بالإسلام عقيدة وبالإسلام ثقافة، وبالإسلام مجموعة بشريّة، هي الوجه المماثل للسؤال الآخر الذي يتطارحه علماء الاجتماع ـ سواء كانوا متخصّصين في شؤون التغيّر الاجتماعي أو غير متخصّصين ـ حول علاقة أبناء الشرق بالثورة التقنيّة والعلميّة؟ إنّه سؤال ذو حدّين ! وإنّ مفتاح كثير من التنبّؤات المتعلّقة بمستقبل هؤلاء الشرقيين قد يكون رهين الإجابة التي بمقدورنا أن نعرضها في الصدد :

أهو كتاب عقل ؟

إنّ الإجابة عن تلك القضيّة، كما يراها الأستاذ العلاّمة، تقتضي إعادة قراءة أعماله كلّها، واستحضار قصّة حياته كلّها، وإدراجها في مختلف سياقاتها. وليس هذا الأمر مطمحي هنا، وإنّما سأقتصر على النظر في كتاب ألّفه طه حسين بأخرة (1959) هو كتاب *«مرآة الاسلام»*. وهو ، كما يوحي به العنوان ، كتاب أريد له أن يكون جوهره تأمّلا أي تدبّرا للقرآن، وهذا أمر بالغ الدّلالة.

لمّا ترشّح طه حسين للدّرس في جامعة الأزهر، عند مطلع القرن العشرين، كان يشترط في المترشّحين يومئذ أن يكونوا قد حفظوا القرآن عن ظهر قلب. ولقد فرغ طه حسين من هذا الشأن منذ كان صبيّا.

ثمّ تمضي الأيّام فيخرج طه حسين إلى النّاس كتابه «*في الشعر الجاهلي*». وإذا هي الضجّة، وإذا بالمؤلّف يجد نفسه في موقف حرج كلّ الحرج في مواجهة المتشدّدين في تأويل القرآن. فلقد جرؤ طه حسين على القول بأنّ ورود اسميْ إبراهيم وإسماعيل في الكتب المقدّسة لا يكفي لإثبات وجودهما التّاريخي. وقد أثارت هذه الجملة يومئذ ثائرة المؤمنين المتحمّسين. واتّهم المؤلّف بالمروق عن الدّين.

من ذلك اليوم تعوّد النّاس أن يميّزوا في نصّ مقدّس بين ما له صلة بأساليب العصر عاداته وأساطيره من ناحية، وبين ما هو من قبيل الجوهر. ولا شكّ في أن مصطفى صادق الرافعي لم يكن يطمئنّ الى قول طه حسين إنّ القرآن هو النص العربيّ القديم الذي لا سبيل إلى الشكّ في صحّته فيما يتعلّق بالحياة الجاهليّة في القرن السادس، لأنّه أصدق مرآة لحياة ذلك العصر. ولكنّ هذا التأكيد لم يكن بوسعه أن يقنع الرافعي. أيكون القرآن «مرآة عاكسة» ؟ إنّ في هذا التصوّر مبالغة هي من أثر دروس دوركايم (E.Durkheim) وسينيوبوس (Ch. Seignobos). ولكنّه عزيز علينا، ونحن نتابع تحوّلات التفكير عند طه حسين، أن نجد مضاضة في مسايرته لمناهج

الوضعيّة التي كانت سائدة في الجامعة الفرنسيّة مسايرة تنقصها التجربة العميقة.

جلّت في الأثناء صروف كثيرة، وظهرت مبادرات كثيرة أيضا. وإذا بطه حسين يقدّم [إلى قرّائه] سنة 1950 تكملة لكتاب *«على هامش السيرة»*، ولكن، هذه المرّة، حسب نمط اشتراكي تقريبا.

هذه التكملة هي كتاب *«الوعد الحق»*. ويمثّل هذا الكتاب صورة أخرى من كتابه الذي عنوانه *«المعذبون في الأرض»* الذي وافق ظهوره سنة انتشار الكوليرا، ونزلت يومئذ على مصر ألوان من النكبات*. ولئن سقطت شؤون البلاد أخيرا بين أيدي نخبة بورجوازيّة فإنّ المثقفين راحوا يتساءلون عما سيفعله السادة الجدد بمسؤولياتهم.

إلاّ أنّ هذا الجزء الرابع من كتاب *«على هامش السيرة»*، خلافا للأجزاء الثلاثة السابقة، مليء بالشواهد القرآنيّة. كان طه حسين، يومئذ، في الستين من عمره، وهو يرتقي أخيرا المناصب الحكوميّة وإن لم يدم ذلك طويلا.

وتندلع الثورة المسلّحة سنة 1952. وعلى الرّغم من أنّها لم تكن متعاطفة جدّا مع المثقفين فإنّها خصّت طه حسين باحترام كبير وغمرته بالتشريفات على الأقلّ. فقد سمح له، حسب الذين كتبوا سيرته،

---

* حول كتاب: «المعذبون في الأرض» راجع رسالة لنيل شهادة الكفاءة في البحث أنجزتها علجية إرحيّم بإشراف البروفسور منجي الشملي بعنوان *«المعذبون في الأرض: دراسة تحليليّة نقديّة»*، منوبة ـ تونس: كليّة الآداب، قسم الرسائل، (بحث مرقون رقمه في المكتبة T3378).

«بمغادرة البلاد» كي يحضر مؤتمرات مختلفة، من ذلـك أنّه ترأس سنة 1955 في جلّة دورة من دورات المؤتمر الثقافي لجامعة الدّول العربيّة * ، وانتهز الفرصة (ولعـلّ كلمة «انتهز» تحتاج إلى تبريـر) ليؤدّي مناسك الحجّ. وإذا طه حسين، وقد عهدناه دوما يقدّم المقاصد على الأعراض، ينقاد إلى مناسك العقيدة الإسلاميّة.

لم تزل التشريفات تغمر طه حسين كما لم تزل عزلته تزداد اشتدادا في الوقت ذاته. ففي سـنـة 1958، وفي غمرة احتفالات رسمـيّـة، أقرّت الدّولة صفته عميدا للأدب العربي. وفي السنة المواليـة أي سنة 1959، في سياق الناصـريّة المظفّرة يوم بلغت العروبة أوجهـا بقيادة مصـريّة، ثم قبل أن يبدأ تـصـدّع الوحدة بين مصر وسوريـا وظهور القرارات الاشتراكـيّة في تقويض الإجماع الظاهري والنيـل منه، نشر طه حسين كتـابـه *«مرآة الإسلام»* الذي سأنظر فيه عـن كثب.

بين«الإسلام» و «الإيمـان»

إن فاجأنا أمر فلا يفاجئنا أمر إعجاب الكاتب بأعـظـم نـصّ من نصوص العربيّة «المصحف الإمام». وفي ذلك مراس لموضوع قديم هو الإعجاز القرآني «أي استحالة تقليده»، ولكنّه مراس يعتمد رهافة الذّوق الأدبي ذاتها والتحليل الداخلـي الـلّذين تعـوّدناهما عند طه حسين. لننظر مثلا تلك الصفحات التي استحضر فيها تأثير اللـغـة

* هي الدّورة التاسعة. راجع خطاب طه حسين في حفل افتتاح هـذه الـدّورة، في مجلّة *المنهل*، فبراير1955، س 15، ج6، ص 267 ـ 272 .

والأسلوب. ولنا أن نستعرض كلّ ما كتب في تلك الفترة عن القرآن، وخاصة كتاب الرافعي* فلن تجد في ذلك تحليلا «بلاغيّا» يضاهي في قوته وعمقه التحليل الذي خصّ به طه حسين القرآن هنا**. ولْنعرض عن التوجّه المنتظر الذي يدعو المؤرّخ إلى أن يضع في المقام الأوّل من شواغله قيم القرآن النصيّة.

ما يزال القرآن، حتّى اليوم، بالنسبة إلى الإسلام وعلى الخصوص بالنسبة إلى الإسلام في البلاد العربيّة، أنموذجه الدائم، وكأنّه جسده اللّفظي القائم، أقصد الجسد اللّفظي على كلّ حال.

إنّ حضور [القرآن] وهو يجمع معا في وجدان ملايين المسلمين التقليديين المرجع الأسمى والانفعال الجمالي والحادثة الطارئة في الحياة اليوميّة يغنيهم، إن جاز القول، عن سلطة نظاميّة كالتي تنهض بها الكنيسة في العالم المسيحي. وإذا فكّرنا في يسر المعتقد [في الإسلام] أدركنا أنّ الإيمان في غنى عن التعليم الديني، أو هو على الأقلّ ـ يمكن أن يؤخذ على أنّه المبدأ الأوحد والموحّد. هكذا

---

* يقصد الكاتب طبعا كتاب مصطفى صادق الرافعي *«تحت راية القرآن»*. وحول المعركة بين طه حسين ومصطفى صادق الرافعي راجع رسالة جيّدة أعدّها مصطفى الصيد لنيل شهادة التعمّق في البحث (= دكتورا حلقة ثالثة) بإشراف البروفسور منجي الشملي وعنوانها: *«مصطفى صادق الرافعي أديبا وناقدا»*، منوبة ـ تونس: كليّة الآداب، 1996، جزآن، قسم الرسائل (بحث مرقون رقمه في المكتبة T.1228)، انظر منها خاصة الجزء الثاني: «الرافعي ناقدا أديبا» المبحث الأوّل: «المعارك الأدبيّة» ص 379 ـ 474، وتحديدا «معارك الرافعي مع طه حسين»، ص 379 ـ 426.

** يقصد الكاتب طبعا كتاب طه حسين: *«مرآة الإسلام»*.

تتجلّى صورة الإيمان مثلا، من خلال نصّ معتمد، نعني به خطاب الإمام شلتوت.

ولئن بدا لنا أنّ الإسلام قادر على الاستغناء، على هذا النحو، عن علم لاهوتي وضعي، فإنّ وجود النصّ القرآني، وهو حدث اجتماعي قائم في كلّ مكان، يكفينا، على أغلب الظنّ، مؤونة ما فيه من اختصار في مبادئ الاعتقاد. ومن هنا ينشأ توازن بنيويّ آخر بين التزام فردي وجماعي عميق كلّ العمق وبين عقيدة مجرّدة ليس فحسب من كلّ مشاعر التجسيد، فهذا بديهي جدّا، بل وأيضا من كلّ نزعة إلى الكشف. وعلى خلاف المفكّرين الأخلاقيين الدنيويين ورجال القانون وأرباب النظر في الضمائر فإنّ المؤمن الذي يشغله هذا الموقف يعنى في المقام الأوّل بالمظاهر الداخليّة. وفي أقصى الحالات فإنّه يبيح لنفسه أن يميّز بين الإسلام والإيمان.

وهذا، على وجه التحديد، ما فعله طه حسين. وقد كان مجدّ، من قبل، في كتابه عن *«الفتنة الكبرى»* ذلك المفهوم الرائع، مفهوم «الضمير الديني».

إنّ هذا التفريق بين الإيمان والدين، وحتى بين الإيمان والمجتمع، كان طه حسين قد شرع فيه وعبّر عنه مرّات كثيرة. ولكنّه، في هذا الطور، يجعل التفريق أكثر حدّة وتصلّبا جاعلا منه نقيضة تذكرنا بما يوجد في هذا الدين أو ذاك من نقائض مشابهة صيغت بين الحرف الذي يميت والفكر الذي يحيي، بين العقيدة والطقوس، بين حميميّة السرّ الخفيّ والمؤسّسات المعبّرة عنه. ولكن هل بإمكان الإيمان إذا

حمّلناه تلك المسؤوليات، وإذا عزونا إليه وحده ربط الصلة بين الانسان والعالم الأسمى، هل بإمكانه أن يتحرّر ممّا له من صلات خاصّة بنفسيّة الإنسان ؟

لقد اتّخذ تفكير طه حسين في هذه المسألة وجهة كانت حَريّة أن تثير ضدّه خصمه القديم الرافعي لو لم يتوفّ هذا الرجل في الأثناء. ذلك أنّ الإيمان في نظر طه حسين «يزيد وينقص »*. قد لا تخلو هذه الحكمة من سداد. ولكنها كم هي مغرية لطه حسين بالإلحاح في مسألة لا تخلو من عنصر التفجّع، [تلك] مسألة يعانيها في صميم كيانه كلّ موسوس وكلّ قلق وكلّ من يخالطه الشكّ أحيانا. ألا يكون منهج طه حسين في تصوير الاسلام كأنّه منهج مورياك (Mauriac) في الحديث عن الدين** ؟ ولنا أن نسأل أبإمكانه أن يظفر بالتصديق ، في السُنَّة الأدبيّة، الكلاسيكيّة منها على الأقلّ ؟ فالحديثان اللّذان يستند إليهما المؤلّف في الصدد يبدوان كأنّهما غير مستجيبين للتطبيق الواسع. وليس من اليسير أن نتقبّل دون اعتراض جملة كهذه «الإسلام يزدهر ويعتصر» . فلنكبر، هنا، على كلّ حال، طليعة تاريخانيّة حيّة، وفي الوقت ذاته، طليعة دخيلة واقعيّة جديرة بما عوّدنا إيّاه كاتبنا في روائعه بما كان له مصدر قوّة وضجّة في الآداب العربيّة.

---

* طه حسين : *«مرآة الإسلام»*، المجلّد السابع من المجموعة الكاملة، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1982 ، ص 288 .

** وجدت آمال فريد وجوها أخرى من التشابه بين طه حسين وموريالك في بحث لها عقدت فيه مقارنة بين هذين الكاتبين، انظر :

ـ آمال فريد : «عندما تلتقي ثقافتان : طه حسين وموريالك»، *مجلة المعهد المصري للدّراسات الاسلاميّة* (مدريد)، مج 24، 1987 ـ 1990، ص 123 ـ 139 .

مفاجآت

لا بدّ من القول إنّ بقيّة هذا الكتاب * لا تقوم على موضوع الإيمان إنّما على موضوع الإسلام، وليس على الإسلام من حيث هو هيئة اجتماعيّة فحسب وإنّما أيضا من حيث هو هيئة تقليديّة دون أن يسعى نقد تاريخي حقّ إلى أن يضيف إليها أمرا جديدا. ولعلّه يحسن ألاّ نتّهم في الصدد سوى طبيعة كتاب ينزع إلى الاختصار والتبسيط . أمّا إذا كنّا نطمع في أن نجد فيه تأمّلات في جوهر الإسلام أو حول علاقة هذا الجوهر بالحيرة الغيبيّة لدى العرب، فنحن نرجع بالخيبة . إنّ القسم الأوّل كاملا من كتاب *«مرآة الإسلام»* يتضمّن تاريخا معلوما لم يمارس فيه طه حسين النقد ولا بحث فيه عن مصادر جديدة. ومنهجه في هذا الكتاب أقلّ دقّة ممّا عهدناه في بعض كتبه السابقة شأن *«الفتنة الكبرى»*، وهو يكتفي بإجمال أفكار جاهزة تتّصل بتاريخ الإسلام.

لنلاحظ أنّ طه حسين ظلّ وفيّا ـ فيما يتعلّق بهذا الكتاب ـ لسُنَّة ثقافيّة هي غير السُّنَّة العقلانيّة العربيّة، سُنَّة تولي الأهميّة القصوى للوقائع في العصور الأولى [من تاريخ الإسلام] حسب ما ترويه الأخبار، وكأنّها لا تنفصل عن الإيمان ذاته. أفلا نرى، هنا، تضاربا بين ما قيل منذ حين عن «الإيمان» وبين خطاب يكاد يكون في مجمله مخصّصا للإسلام من حيث هو أمّة ومؤسّسات ؟

* يقصد *«مرآة الإسلام»*.

ما من شكّ أنّ شواغل راهنة ربّما كانت سبب إبراز خصائص الإسلام في العالم، إبرازا لا يدعمه التّاريخ وإنّما تغذوه العاطفة، وهذا ما قد يفسّر الطابع القاتم للكتاب. لننظر إلى حديثه المسهب عن الانهيار الذي أصاب المسلمين منذ عهد الفتنة. وإذا ما صدقت هذه المقولة، لعلّها تؤدّي إلى أن نلغي تاريخ العرب الفعلي من التاريخ أو إلى أن نعتبر الاسلام بمثابة مشروع وهمي ربّما لم يتحقّق قطّ منذ الخليفتين الأوّل والثاني.

إنّ طه حسين يعزو هذا الانهيار المتّصل، إن جاز القول، إلى الخلاف الأصلي. ولكنّه يعزوه أيضا إلى أمرين آخرين أحدهما يملؤنا فجاءة ربّما فوق ما نتوقّع، والثاني يفجؤنا إلى حدّ.

أمّا العنصر الذي يفجؤنا فعلا فهو هذا الهجوم على العقل. إنّ المعتزلة يظلّون ألدّ الأعداء لطه حسين، وهو يعدّهم، حيفا منه، في المنزلة التي يضع فيها المتعصّبين والأنصار المتحمّسين من حيث هم ناس أساؤوا إلى الإسلام. وهذا ممّا يثير فينا بعض الدّهش، نحن الذين يطيب لنا أن نميل إلى اعتباره هو ذاته في سياق السنّة العقلانيّة الاسلاميّة، ولكنّ كأنّه لا يروم أن يحسب ضمنها.

أمّا العنصر الثاني الذي إليه يعزو طه حسين تدهور الاسلام حتّى صار المسلمون «أيقاظا كالنيام ونياما كالأيقاظ»*، بسبب تدخل العنصر الأجنبي فرأي نحن على تمام التأييد له، إذ كيف لنا ألاّ نتتبّع، طيلة أربعة عشر قرنا، السعي الدّؤوب الذي نهض به هؤلاء

* م. ن.، ص، 360.

الأجانب ؟ الشاميون والبيزنطيون كانوا، من قبل، قد أفسدوا معاوية، والفرس أفسدوا بني العبّاس، والترك جاؤوا للاستيلاء على الخلافة. وكذلك اتصل الأمر طبعا مع المماليك، فهم الذين استبدّوا بتاريخ مصر قرونا طويلة، هؤلاء الذي لم يكن طه حسين ، فيما يبدو، يظهر نحوهم من مشاعر الحنين ما كان يبديه حسين فوزي مؤلّف كتاب *«السندباد المصري»*. وفي نهاية المطاف، طبعا، جاءت الامبرياليّة من أنجليز وفرنسيين قصفوا مدينة القاهرة منذ وقت قريب جدّا، وهم في ظلالهم يعمهون. أمّا أصدقاء الثقافة الفرنسيّة، هذه الثقافة التي يرى فيها أغلب المصريين رائدتهم في الحداثة، فقد دفعوا بسبب ذلك إلى مراجعة تمزّقُ النّفسَ.

إحالة إنتقائيّة على نصّ القرآن

نحن، إلى حدّ هذا المستوى من دراستنا، لم نفعل شيئا سوى تصفّح كتاب *«مرآة الإسلام»*. فلننظر فيه، عن كثب، وبطريقة إحصائيّة، إن جاز القول.

إنّ الشّواهد القرآنيّة التي تضمّنها الكتاب، وعددها مائة وسبعون، إن نحن عرّفناها وأدركنا أسباب نزولها في المصدر القرآني تمثّل كلاّ له دلالة. فانتقاء هذه الشواهد لا يمكن أن يكون بريئا في نظرنا، وقد صدر عن رجل حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب منذ كان في التّاسعة من عمره، ولم ينقطع يوما عن تدبّره. وقد حدّثني بعض أهله عن المتعة الشديدة التي كان يجدها ، في أطوار كثيرة في

حياته، وعلى الخصوص أثناء رحلاته إلى أوروبا، في الاستشهاد بالآيات القرآنيّة يترجمها على الفور للحاضرين إلى لغة فرنسيّة راقية * .

نعلم أنّ القرآن الكريم يعدّ مائة وأربع عشرة سورة، إلاّ أنّ السور الإحدى عشر الأولى منه (أي إلى سورة هود ضمن الحساب) كانت مصدرا لأكثر من تسعين شاهدا. وعلى العكس من ذلك فإنّ السور السبع والخمسين التي يشتمل عليها النصف الثاني من القرآن الكريم لم تكن مصدرا إلاّ لستّة شواهد. لقائل أن يقول إنّه لمّا كانت سور القرآن تتسلسل تسلسلا كميّا تنازليا، أصبح من الطبيعي أن توفّر السور الأولى أكثر نصيبا من الشواهد ممّا توفّره سائر السور، وإذا نحن رجعنا الى طبعة القاهرة، وإلى عدد الصفحات التي تستغرقها السور الأولى وتلك التي تستغرقها السور الأخرى ثبت لدينا صحّة هذه النسبة الغريبة.

---

* يشير جاك بيرك هنا إلى مؤتمر السلام المسيحي الذي عقد في فلورنسه(Florence) بإيطاليا سنة 1952 وكان طه حسين من المدعوين إليه. فقد طلب إليه في المؤتمر إلقاء محاضرة ـ دون أن يكون قد أعلم بذلك مسبقا ـ واضطر إلى أن يحاضر بالفرنسيّة واختار موضوع «الاسلام والمسيحيّة ـ الصلاة والشعر» فتحدّث عن الصلة بين الإسلام والمسيحيّة وعن معنى الإسلام لغة واصطلاحا وعن الصلاة لغة واصطلاحا، وعن صلة الصلاة بالدّعاء، وعرض على السامعين نماذج من الدّعاء كما ورد في آيات القرآن ترجمها لهم إلى الفرنسيّة على الفور، ونماذج أخرى وردت في الحديث النبوي ترجمها لهم كذلك. انظر لمزيد التوسّع : سامي الكيالي: مع طه حسين (سلسلة اقرأ عدد 375) الجزآن الأوّل والثاني، القاهرة : دار المعارف، 1973 ، ص 112 ـ 115 .

ولكن لندع هذه الموازنة الكمّية ولننظر في المضمون. وفي البدء ملاحظة سلبيّة : إعراض يدعو إلى الحيرة عن بعض النصوص في رجوعه إلى القرآن. فالمؤلّف لا يستشهد أصلا بالسورةالتي تحمل اسمه، سورة «طه». وسورة «الشعراء» التي هي كفيلة بأن تثير اهتمامه لايستشهد بها إلاّ مرّة واحدة. ولا شاهد إطلاقا من سورة «ياسين» وهي السورة الشهيرة الأكثر تداولا في الدّعاء لدى المسلمين. ولا شاهد من سورة «النمل» حيث كان للمؤلّف أن يجد القصّة الرائعة عن النبيّ سليمان وملكة سبأ، ومع ذلك كان خليقا أن ينفعل بها. ألم يكن قد أنشأ في كتابه *«على هامش السيرة»* نسقا عجائبيّا إسلاميّا كان من الممكن أن ينهل من هذه القصّة مصدرا هو من أبرز مصادر الإلهام المشروعة لديه ؟ وسورة «الرحمن» وهي أجمل سور القرآن التي ذاع صيتها رقة موسيقى وأسلوب أدبيّا لم ينتخب منها إلاّ آية واحدة، فكيف يمكن ألاّ نعجب من إهمال الكاتب لمواضع بديعة من النصّ القرآني هي فضلا عن ذلك يفترض أنها تنسجم مع توجّهاتها المفضّلة ؟ لنحسم موقفنا من هذه المسألة. ولنحسم أيضا قرارنا في أمر إنسانوية القرآن ذاتها، هذه الانسانويّة التي تبرز في أجلى مظهر لها في السورة الرابعة عشرة بعد المائة، نقصد سورة «النّاس» التي هي بمثابة وجه آخر لسورة «الفاتحة» والتي لا ذكر لها أصلا في كتاب *«مرآة الإسلام»* .

أمّا سورة «البقرة» فكثيرا ما كان يستشهد بآيات منها، وهو أمر قد يبدو لنا طبيعيّا باعتبارها أطول سور القرآن. وكذلك شأن سورة «آل عمران» [في هذا الكتاب]. على أنّه ينبغي هنا أن نأخذ في الاعتبار

عنصرا آخر هو إيراد هذه الشواهد القـرآنـيّة مجتمعة أو متبـاعـدة، فورود عشرة منها متجمّعة في صفحات قليلة (كما هو الشأن بالنسبة إلى الشواهد المأخوذة من سورة «هود» أو سورة «يونس» مثلا) إنّما مرجعه أنّ الأمر متعلّق بتفسير أدبيّ.

ومهما يكن من أمـر فـإنّ ورود آيات سورة من سور القرآن فـي مواضع كثيرة متباعدة من الكتاب يكون أكثر دلالة ، إذ ورودها على ذلك النحو كأنّه يعنـي أنّها تلحّ على خاطر الكاتب بصفة مـتّصلة. وهذا هو شأن سور أقـلّ طولا من السور الأولى، ويكـون تـكـرار الاستشهاد بها لافتا لمزيد الانتباه.

كذا شأن سورة «الأحزاب» خاصّة. وهي سورة تؤسّس ، وإن في شيء من تباين ومن غياب تناسق لا يخفيان، ما يمكن أن نصطلـح عليه بـ «سوسيولوجيا القرآن». وقد يوجد هنا إشارة مفيدة نجد لها مصداقا في سورة «التوبة». فقد وفّرت هذه السورة الأخيرة للمؤلّف أكثر من عشرين شاهدا، بلغ أحدها صفحتين اثنتيـن، وقـد وردت هذه الشواهد في أحد عشر موضعا من كتاب «*مرآة الاسلام*». فهذه السورة إذن، اعتمادا على الإحصاء، هي التي بدت لطه حسين أشدّ ملاءمة لعرض صورة عن الاسلام.

لماذا السورة التاسعـة ؟

إنّ أوّل تأويل يعنى بعنوان السورة قد يقودنا إلى فرضيّة يسيرة كلّ اليسر، وهي أنّ طه حسين، ما إن بلغ عتبة الشيخوخة بـل ومـا إن

تجاوزها حتى رجع الى ربّه تعالى، وإذن هو يراجع ذاته : وهذا ما يفيده الفعل «تاب يتوب» *. فإن نحن فحصنا محتوى سورة التوبة تبيّن لنا أن الآيات المتعلّقة بإقرار المذنب بما اقترف، أو بصفح الخالق عن المذنب (لأنّ مفهوم التوبة مفهوم مزدوج **) لا تشغل في هذه السورة إلا جزءا قليلا. . الحقّ أنّ هذه السورة ذات طابع جدالي .

وفيما كانت السورة الثامنة، سورة «الأنفال» التي تسبق سورة «التوبة»، ذات طابع إخباري ـ إن جاز القول ـ تشير إلى غزوتي أحد وبدر وتعنى بالخصوص بالأعداء الخارجيين فإنّ السورة التاسعة، سورة «التوبة» تعنى بالخصومات الداخليّة. فلم يعد الأمر هنا متعلّقا بالعدوّ الخارجي وإنّما بالعدوّ الدّاخلي وما أكثرهم عددا : المشركون والنصارى والذين لم يحسن إيمانهم والفاسقون والمرتدّون وحتّى

---

* في لسان العرب : «تاب إلى الله يتوب توبا وتوبة ومتابا : أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة. . ، وتاب الله عليه : وفّقه لها. ورجل توّاب : تائب الى الله».

لسان العرب المحيط لابن منظور.
إعداد وتصنيف يوسف خيّاط ونديم مرعشلي
المجلّد الأوّل ـ باب التاء ـ ص 336 .

** يقصد الكاتب أنّ التوبة هي طلب فعل يتوجّه به المخلوق إلى الخالق كما يمكن أن تكون فعلا يقوم به الخالق لفائدة المخلوق، وهذا ما يبيّنه لسان العرب فقد جاء فيه: «قال أبو منصور : أصل تاب عاد إلى الله ورجع وأناب، وتاب الله عليه أي عاد عليه بالمغفرة».

لسان العرب المحيط لابن منظور، ص. ن.

الأعراب الذين لم يخلصوا الايمان ثمّ المنافقون أخيرا وعلى الخصوص .

فإذا نحن أحصينا في كتاب *«مرآة الاسلام»* كلّ الفقرات التي تخاصم المنافقين تصريحا أو تعريضا، استكشفنا، حسب رأينا، أحد محاور هذا الخطاب. وهو ، في الحقّ، محور يوافق ذاك المحور الآخر الذي كنّا قد أبرزناه من خلال قراءتنا للكتاب مستكملا، على شرط ألاّ يبالغ هذا الكتاب في العناية بـ «المظاهر الداخليّة في الاسلام» *، ولكن على أن يعنى بالإسلام كيانا تاريخيّا وأمّة ومؤسّسة.

المنافقون، هم أولئك الذين ، داخل المجتمع الاسلامي الذي كان بمثابة مركز العالم، يحاولون إثارة الفتنة، يثيرونها بالمكائد يكيدونها، ويثيرونها بالمقاومة المستخفية، ويثيرونها باختلاق الأكاذيب، طمعا في أن يشوّهوا دلالة الإسلام الروحيّة والدنيويّة. وكلّنا يعلم الأحداث التي كانت من أسباب نزول الآيات القرآنيّة المتعلّقة بهم.

كان المنافقون في مكّة يؤلّفون حزبا كان له من الخطر بقدر ما كان تحرّكه في شبه السرّيّة حينا وفي شبه العلن حينا آخر. فكان لهذا الحزب خاصيتان اثنتان : خاصيّة الكيد وخاصيّة التحدّي. وهذا ما جعل منه حزبا مقيتا بغيضا .

---

* يشير الكاتب هنا إلى عنوان كتاب جان محمّد عبد الجليل : *«المظاهر الداخليّة للإسلام»*.

J.- M. Abd-el-Jalil : *Aspects intérieurs de l'islam,* 2em éd. revue et corrigée, Paris: Eds du Seuil, 1949.

وفي سورة «التوبة» إذن ينال المنافقون جزاء ما يفعلون، وذلك في الآية الثالثة والثمانين التي استشهد بها طه حسين مرّتين :

«فقل لن تخرجوا معي أبدا، ولن تقاتلوا معي عدوّا، إنّكم رضيتم بالقعود أوّل مرّة فاقعدوا مع الخالفين».

إنّ لكلّ مؤمن أن يجد في آية من آيات القرآن الكريم أو في أخرى إشارة ضمنيّة فيها ما ينطبق على وضعه الخاص. ولـمّا كان لطه حسين ذاته نصيبه من الحقيقة فقد عانى من العداء ما كان سرّا أو علنا. أما وقد ساد، اليوم، الكثير من آرائه، أفليس من حقّه أن يرفض ولاء المؤيّدين له آخر لحظة ؟

لقد كان طه حسين رمز الطليعة أيّام صدور كتاب «*في الشعر الجاهلي*» حتّى عدّ وهو ما يزال بقيد الحياة «عميدا للأدب العربي»، ومن بعدها أصبح كاتبا أعلى. فبُعداً للّذين لم يكونوا من أنصاره أيّام الصدام.

والحقّ أنّ هذه السورة التي تعبّر عن نضال حاد تلين في آياتها الأخيرة معبّرة عن الأمل، ذلك أن توبة المخلوق يقابلها غفران الخالق. ولكن إن لم يكن باب الرحمة قد أغلق إغلاقا فكأنّه يوشك أن يغلق.

أن يكون طه حسين، وهو من لم تنضب روح الخصومة لديه، جعل قوام بحثه عن الاسلام ـ فيما يبدو ـ [فكرة] وجود أحزاب ماكرة رافضة داخل المدينة الاسلاميّة، التي هي كذلك مدينة الروح،

أمر لم يكن ـ على أغلب الظن ـ وقع صدفة. إنّ الإسلام الذي يصفه طه حسين هنا لا يتمثّل في مبايعة ظاهرية فحسب بل وفي النهوض بمسؤوليات نهوضا يدفع المؤمن إلى الجهاد ضدّ الذين يؤمنون بأفواههم ولم يؤمنوا بقلوبهم. قوم تقليديون بالأمس يسعون إلى توظيف الدين ضد حريّة الفكر، وقوم تقليديون اليوم يتحدّثون عن الثورة دون أن ينجزوها : لا ينبغي أن نقضي بأن الكاتب لم يكن يفكر أيضا في هذا النوع الثاني من المنافقين.

خاتمة الكتاب

والحاصل أن الجدل [المذكور في كتاب *«مرآة الاسلام»*] هو ذاته الجدل الذي شهدته مدينة يثرب، أي الجدل الذي شهده المجتمع المدني. سبق أن ذكرنا أنّ عدم الإسراف في الرجوع إلى القرآن الكريم يؤكّد فكرة الإلحاح في الالتزام الاجتماعي. وكان طه حسين قد عرّف الاسلام في كتابه *«الفتنة الكبرى»* على أنّه ليس مجرّد استعداد لحياة الآخرة ولكنّه استعداد لها وفي الآن ذاته دخول حياة جديدة تزيد كلّ يوم صفاء ووضوحا.

أجل إنّ هذا لا يعني أنّ معنى «الغيب» لا ذكر له، ولكنّ الواقع أنّه يمكن أن نعالج هذا المعنى بالتغاضي عنه. والدليل على ذلك أنّ هذا الكتاب الذي يطمح إلى أن يكون صورة للإسلام، لا ينتهي مطلقا بآمال أخرويّة. وإنّما ينتهي بنصيحة يقدّمها المؤلّف، في صيغة أمر حازم، لشعوب الاسلام، أقصد الشعوب العربيّة،

التي ينتمي إليها، لأنّ الأمر في هذا الكتاب متعلّق بهم (أي بالعرب) أكثر مما هو متعلّق بالاسلام عامّة . «إنّ سبيلهم إلى هذه اليقظة الخصبة واحدة لا ثانية لها» * . ما تكون هذه السبيل الوحيدة؟ هل هي العودة إلى العقيدة ؟ هل هي السموّ إلى ما سَيَسِمُه العقّاد فيما بعد بـ «الفلسفة القرآنيّة» ؟ كلاّ ! وإنّما هذه السبيل هي «أن يذكروا ما نسوا من تراثهم القديم» ** . ها نحن إزاء خاتمة ضاربة في أعماق التّاريخ، ولكن كأنّها جاءت مستوحاة من الخصومات ذاتها التي شهدتها مصر أيّام كان عبد النّاصر في أوج قوّته .

ولكنّ طه حسين، بعد أن ذكر أنّه لا توجد إلاّ سبيل واحدة، يستدرك في الفقرة الموالية، في ما يشبه السذاجة أو التناقض، قائلا : « هذه واحدة. والثانية أن يتساءلوا عن سرّ تفوّق الأوروبيين» *** تماما كما فعل فتحي زغلول في معرض حديثه عن

---

* طه حسين : *مرآة الاسلام*، ص 360 .

** م.ن.، ص.ن.

*** في النصّ العربي «هذه واحدة. والثانية أن يستدركوا ما فاتهم من العلم الحديث ويبتغوا إليه الوسائل التي تتيح لهم أن يتحقّقوه كما يتحقّقه أصحابه وأن يوطّنوه في بلادهم ويجعلوه ملكا لهم الخ. . .» طه حسين: *«مرآة الإسلام»*، ص 361 .

الأنجلوسكسونيين* . فإذا كان للبيداغوجيا الاجتماعيّة والأمل السياسي أن يطالبا بما لهما من حقوق ، فإنّنا، لا شك، أبعد ما نكون عن الغيبيات .

* * *

ليس من همّنا أن نضفي على كتاب *«مرآة الاسلام»* قيمة ليست له ضمن أعمال طه حسين. بيد أنّنا نسجّل، اعتمادا على التحليل الذي يستجيب له مضمون الكتاب، أنّ الإسلام الذي يصفه طه حسين في هذا الكتاب أقلّ أخرويّة ممّا هو روحاني، وهو أقلّ روحانيّة ممّا هو التزام أخلاقي بالمسؤولية الفرديّة والجماعيّة داخل المجتمع. فهل الإسلام في هذا الكتاب إنسانويّة دنيويّة ؟

لا نعجل، كما عجل آخرون، باستخلاص نتيجة عن غير رويّة، فخصائص الاسلام المختلفة كما تستقرأ بعد قراءة تأمّل لكتاب *«مرآة الاسلام»* ، لا ينبغي أن تكون محلّ تأويل إلاّ إذا أعدنا وضعها ثانية ضمن نسق عربيّ إسلاميّ للمشكل الديني. وهو نسق غير ما هو عليه في أنساق أخرى.

---

* يشير الكاتب هنا إلى فتحي زغلول (1863 ـ 1914) شقيق الزعيم الوطني سعد زغلول، وأحد مفكري مصر ورجال القانون فيها. وكان فتحي زغلول ترجم إلى العربيّة ـ ضمن ما ترجم من مؤلّفات التاريخ والحضارة ـ كتاب إدمون دي مولين (E. Demolins) *«سرّ تقدّم الأنجلوسكسونيين»* كما ترجم كتاب جوستاف لوبون(G. Le Bon) *«سرّ تطوّر الأمم»*. راجع حول فتحي زغلول :
ـ محمد كرد علي : «أحمد فتحي زغلول»، *مجلّة المجمع العلمي العربي*، ج4، مج 27 ، تشرين الأوّل 1952، ص 481 ـ 485 .

لا مراء في أنّ طه حسين أضاف طابعه الخاص إلى هذا النسق، طابعا رأى فيه مواطنوه ضربا من الإلحاد، ونرى فيه نحن مكرهين خروجا عن القواعد المعهودة.

إنّ انتقاء طه حسين لآيات قرآنيّة دون سواها، على الأقلّ، لأمر يلفتنا حتما إذ غيّر وجهة اهتمامنا من الآخرة إلى التّاريخ، ومن الغيب إلى الالتزام.

والحقّ أنّ المدينة العربيّة الاسلاميّة تعدّ بصفة رمزيّة مدينة عالميّة، وهي على هذا الأساس مدينة كونيّة. هذه حقيقة. وليس أقلّ صحّة من ذلك أنّ مفهوم الايمان ـ حين يظهر على جليّته ـ لا ينتهي إلى طرح مرجعيته العلويّة حتّى وإن أغفلت هذه المرجعيّة.

وأخطر من هذا كلّه أنّ عودة طه حسين بصفة دائمة إلى القرآن، تأمّلا فيه واستشهادا به، إنّما جاءت لتتمّ، وربّما لتعوّض، موقفا متحرّرا ـ فيما يبدو ـ من سلطة «الغيب».

ومن يدري لعلّ الحضور الثابت لنصّ القرآن، في ذاكرة المؤلّف وفي حياته، يجعل «ما عدا ذلك غثاء أحوى».

أمّا بعد، لعلّ طه حسين، في إدراكه لجوهر الإسلام، كان في المقام الأوّل، صاحب أسلوب قاهر.



القسم الخامس

طه حسين
رائد إنسانويّة عربيّة معاصرة



طـه حسين والعالم العربي *

بقلم محمد حسن الزيات **

ما فتىء طه حسين يذكر حتى وفاته في أكتوبر سنـة 1973 مقطعا من أغنية كان سمعها سنة 1901 ، وكان سماعها يجعله حالما. ففي محافظة المنيا من صعيد مصر الأوسط، حيث ولد طه حسين، يتعلّم الصبية إذا بلغوا سنّ الانتساب إلى المدرسة، ترديد هذه الأغنية كلّما توقف في البلدة القطار الخاص بخديوي مصر الأخير عباس الثاني.

---

* Mohamed - Hassen El-Zayyat : "Taha Hussein et le monde arabe",*Cultures* (Unesco),Volume II, n°2, 1975, pp.103-117

والملاحظ أنّ الزيات كتب هذا الفصل في الأصل بالأنكليزية، وترجمـتـه إلـى الفرنسيّة ليلى العلايلي،زوجة مؤنس طه حسين ونحن ننقله إلى اللغة العربيّة .

** محمد حسن الزيات دبلوماسي مصري معاصر، درس بجامعة القاهرة ومنها حصل على الباكالوريوس (الإجازة) سنـة 1939 والماجستير سنة 1942 . ثمّ درس بجامعة أكسفورد، ومنها حصل على الدكتورا سنة 1947 . وقد تخصّص في الدراسات الشرقيّة والفارسيّة بتوجيه من طه حسين. وفي سنة 1948 تزوّج الزيات كريمة طه حسين أمينة. وقد تقلّب الزيّات في خطط سياسيّة ودبلوماسيّة كثيرة : شغل منصب مدير الشؤون العربـيّة في وزارة الخارجيّة المصـريّة، وملحق ثقافي في السفـارات المصريّة في واشنطن وطهران وموغاديشو، ومندوب دائم لمصر في هيـئـة الأمـم المتّحدة، وسفير لمصر في واشنطن. وفي سنة 1972عيّن وزيرا للخارجيّة المصريّة. =

كانت هذه الأغنية باللغة التركية، لغة لم يكـن أيّ صبيّ قادرا على فهمها. وكانت تمجّد المساواة والعدل والحريّة، وهي كلمات ثلاث تكاد لا تتـوفّر على معنى في مصر الخاضعة للاحتلال العسـكـري البريطاني والتي كان يحكمها خديوي لا نفوذ له، مثير للقرف ولم يكن سوى حاكم صوري معيّن من قبل السلطان التركي المقيم بعيدا.

= وقد كتب الزيات مقالات وفصولا كثيرة عن طه حسين يحلل فيها فكره أو يردّ على خصومه. وفي سنـة 1986 أصدر كتابه «ما بعـد الأيّام» وفيه يعرض سيرة طـه حسين بداية من سنة 1922 وهو التّاريخ الذي وقف عنده طه حسين في آخر الجزء الثالث من «الأيّام» إلى وفاته عام 1973 أي مدّة نصف قرن تقريبا، محاولا بذلك استكمال كتاب «الأيّام»، انظر :

ـ محمد حسن الزيّات : *ما بعد الأيّام*، القاهرة : دار الهلال، د.ت. [1986 ؟] 222 ص. وراجع تحليل عُمَر مُقداد الجِمني لهذا الكتاب :

ـ عُمَر مُقداد الجِمني : «*ما بعد الأيّام*، أو الأيّام التي لم يكتبها طه حسين» *الحياة الثقافية* (تونس) عدد 52، 1989، ص 17ـ 38 .

وقد جاء محمد حسن الزيات إلى تونس بدعوة من الحكومة التونسـيّة ليحضر الندوة العلميّة التي عقدها المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة) بتونس ـ قرطاج يومي 27 و 28 جانفي1990 بمناسبة مرور مائة سنة على ميلاد طه حسين. وقد عبّر الزيّات بهذه المناسبة عن إعجابه بالعناية التي توليها جامعة تونس لطه حسين تدريسا وبحثا. وقد اطّلع على المسائل العلمية المقررة للطلاّب عن طه حسين في برامج التدريس الرسميّة بالجامعة. كما اطلع على قائمة الرسائل الجامعيّة التي أنجزت عن طه حسين لنيل درجات علمـيّة أو هي بصدد الإنجاز. ومن هـذه الرسائل ما هو منشور ومنها ما ينتظر، وقد أنجـز جـلّها باقتراح البروفسور منجـي الشملي وبإشرافه. ولمّا علم خاصة برسالة عُمَر مُقداد الجِمني «*طه حسين مؤرّخا*»، ورسالة رشيد القرڤوري «*طه حسين مفكرا سياسـيّا*» ورسالة أحمد السمـاوي « *فن السرد في الكتابة القصصيّة عند طه حسيـن* »، وغيرها قال «لقد استكشفت أنّ في تونس مدرسة نقديّة متميّزة عن طه حسين».

ولـمّا كنت بصدد التفكير في الموضوع الذي دعـتـنـي مـجـلـة «*ثقافات*» إلى معالجته، وبـالـتّالي في كلّ ما أنجزه طه حسين فـي العالـم العربي، خطر ببالي هذا المقطع الغنائيّ، لأنّ طه حسين كان وجّه جهوده وسـخّر طاقاته العقلـيّة الخصبة لأجل التـربـيّة ولأجل النهوض بالعربيّة بوصفها لغة حيّة، فناضل بدون هوادة، طيلة أكثر من نصف قرن، حتّى يظفر شعب بلاده بالحريّة والعدالة والمساواة.

التراث العربي

إنّ «العالـم العربي» في رأي طه حسين ـ كما الشأن عند البيروني قبل ألف عام خلت ـ لا يشكّل مجموعة عرقيّة ولا كيانا دينيّا. إنّما هو مجموع الشعوب التي تنطق بالعـربـيّة وتكتبها، وأثمرت ثقافـة مصنّفاتها عربيّة اللّسان، ومساهمتها في الفنّ والعلم مساهمة عربيّة اللّسان أيضا.

اللغة والأدب

ولكن العربية، وهي رمز الوحدة، كانت، في بداية القرن، مغمورة في مختلف ربوعها، من قبل لغات الذين لهم الغلبة السياسية. ولم تكن اللغة التّركية ولا اللغة الأنكليزيّة ولا اللغة الفرنسيّة هي اللّغات الرسميّة فحسب في العالم العربي يومئذ، بل كانت أيضا تستعملها النّخبة التي كانت تسارع دائما ـ كما لاحظ ابن خلدون من قبل ـ إلى تقليد طرق التعبير وأنماط السلوك التي جاء بها الغزاة. أمّا العامّة، سواء في القرية أو في الشارع، فكانت تستعمل لهجات متباينة غاية

التّباين حتّى استحالت اللغة العاميّة حاجزا لا جسرا بين المغربي والعراقي مثلا. وأمّا العربيّة الكلاسيكيّة، لغة القرآن، فكأنّها وجدت لها ملاذا في مراكز التعليم الدّيني مثل جامعة الأزهر العريقة بمصر. هنالك كانت الأجيال المتعاقبة تتلقّى علوم النحو والعروض والبلاغة على أنّها علوم وسائل ضروريّة لدرس القرآن والفقه الاسلامي.

ولمّا كانت هذه المؤسّسات تقتصر على الدّراسات التقليديّة الصرف فإنّها لم تكن تتجاوز أسلوب التعبير المتكلّف الذي كان سائدا قبيل الاحتلال العثماني، فالأوروبي. فغدا نثرها المزخرف المقلّد لنثر القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر غير مفهوم إلاّ في حلقات علم ضيّقة. وإذا اللّغة العربيّة الكلاسيكيّة، هذه التي لها ما يؤهلها لتكون أحد العوامل الأساسيّة لتماسك العالم العربي، قد حاق بها خطر حقيقي حتى كأنها تنتظر المآل الذي آلت إليه لغة اللاّتين من قبل.

إنّ طه حسين، بعد أن قضى ستّ سنوات في الأزهر للدّرس أصبح بفضلها صفويّا مستكملا، كان يقدّر أن اللّغات الأجنبيّة ينبغي أن تدرّس تدريسا لا يزيح العربيّة ولكنّه يغنيها. وكان يرى أن اللهجات الإقليمية لغات هجينة، عاجزة عن أن تكون وسيلة تعبير عن أدب أصيل، إذ كان يخشى أن يؤدّي إقرار هذه اللّهجات الاقليميّة إلى نسف الوحدة الثقافيّة، وهي الأساس الثابت لبقاء العالم العربي.

واللّغة العربيّة، إن تخلّصت من الأسلوب المتقعّر المزخرف الموروث من عصور الانحطاط، هي في رأي طه حسين، لغة لها

من الرونق والقوّة ما يجعلها مهيّأة لأن تصير محركا لنهضة العالم العربي. إنّها حفظت إرث قرون عدّة من الانتاج الأدبي والفلسفي والعلمي، وأظهرت في الزمن الماضي قدرة على التعبير عن مختلف الآراء وكلّ أشكال التفكير. إنّ نهوض اللغة العربيّة مهمّةنشط لها من قبل رادة آخرون. ثمّ جاء طه حسين، فانبرى لها هو أيضا، ممتلئا حماسة، جاعلا من العمل التطبيقي دعامة الدفاع المبدئي واستنهاض الهمم.

في سنة 1914، وقد بلغ من العمر خمسة وعشرين عاما، قدّم طه حسين إلى الجامعة المصريّة الجديدة، وقد أحدثت من وقت غير بعيد*، رسالته عن شاعر الشام الذي عاش في القرن العاشر للميلاد

---

* المقصود هنا بالجامعة الجديدة، الجامعة الأهلية، وهي جامعة خاصة أو حرّة (حسب اختلاف المصطلح هنا وهناك). وقد كان إنشاء جامعة مصرية، مطلع القرن، مطلبا شعبيّا ووطنيّا. وقد سميت «أهلية» لأنها أنشئت بمبادرة «الأهالي» وتبرعاتهم المالية في نطاق عملية اكتتاب واسعة فتحت خصيصا للغرض.
وكان وراءتأسيس هذه الجامعة من الزعماء: مصطفى كامل وسعد زغلول وقاسم أمين، وقد افتتحت رسميّا في 1908/12/21 . وبعد أن تعرضت الجامعة لأزمات ماليّة متكرّرة تولّت وزارة المعارف المصريّة الإشراف عليها وإدارتها وتمويلها بعقد مؤرّخ في 1923/12/12 ، وحين صدر قانون تأسيس الجامعة المصريّة (1925) اعتبرت الجامعة الأهليّة نواة كلية الآداب فيها. وفي سنة 1940 صارت تسمى جامعة فؤاد الأول، وبعد ثورة 1952 صارت تسمّى جامعة القاهرة. راجع لمزيد التفصيل حول الجامعة الأهلية:

سامية حسن ابراهيم: *الجامعة الأهليّة بين النشأة والتطوّر 1908-1925*، القاهرة: الهيئة المصريّة العامة للكتاب، 1985.

وحول تجربة طه حسين في الجامعة المصريّة الجديدة راجع تحليل أنور لوقا:
Anouar Louca : "La première université du Caire -Témoignage de l'étudiant Taha Husayn", *Annales islamologiques* (Le Caire), t. 25, 1990, pp. 403-414.

أبي العلاء المعرّي. إنّه عمل باحث مجدّد، دقيق الإعداد، لا يكبّله قيد من القيود. وهذه الرسالة التي نال بها أوّل شهادة دكتورا تمنحها الجامعة الجديدة تعدّ حتّى اليوم من أهـمّ الكتب في الأدب العربي المعاصر * ، إنّ نثر طه حسين الخالص من المحسّنات اللّفظيّة التقليديّة ينساب سلسا مشربا ضمنيّا بنضارة وتأنّق فيهما جـدّة.

تاق طه حسين إلى إحراز معارف أرحب أفقا فالتمس من الجامعة منحة لمواصلة الدّرس في فرنسا، فكان له مارغب فيه **. وعلى الرّغم من العقاب الكثيرة التي اعترضت سبيله ، ولم يكن أقلها شدّة اندلاع الحرب العالميّة الأولى، فقد واصل بنجاح دراسته المعمّقة المتنوّعة، تعينه في ذلك وترعاه فتاة فرنسيّة تدعى سوزان بريسو(Suzanne Bresseau) هي التي ستصبح له زوجا ورفيقة عمر. وإليها أهدى صفحات هي من أروع صفحات النثر العربي الحديث،

---

* نوقشت رسالة طه حسين عن أبي العلاء، وعنوانها الأصلي *«تاريخ أبي العلاء المعرّي»* يوم الثلاثاء 5 ماي سنة 1914. وظهرت في القاهرة عام 1915 بعنوان *«ذكرى أبي العلاء»*، وبداية من طبعة عام 1937 وهي الطبعة الثالثة يتغيّر العنوان قليلا ويصير كالتّالي : *«تجديد ذكرى أبي العلاء»*.

** كانت الجامعة الأهليّة قد دأبت منذ إنشائها على إرسال بعثات من الشباب المصريين إلى أوروبا بقصد التخصّص في عدد من المعارف .

نجدها خاصّة في الجزء الأول وفي الجزء الثاني من كتاب «الأيّام»[1]* .
وبعد أن أعدّ طه حسين رسالة أخرى للدكتورا، متعلّقة هذه المرّة بالمؤرّخ والفيلسوف العربي ابن خلدون** عاد إلى مصر حيث

1) ترجم جان لوسيرف (Jean Lecerf) إلى اللغة الفرنسيّة الجزء الأوّل من كتاب *«الأيّام»* وترجم قاستون فييت (Gaston Wiet) الجزء الثاني منه، أمّا الجزء الثالث فهو بصدد الترجمة إلى الفرنسية (انتهى).

* لعل الزيات يشير في الجملة الأخيرة إلى ترجمة فرنسيّة للجزء الثالث من إنجاز مستعرب فرنسي هو في روشبلاف (Guy Rocheblave)، وقد صدرت فعلا، انظر :

- Taha Hussein : *La Traversée intérieure,* trad. de l'arabe par Guy Rocheblave, Préface d'Etiemble (collection Unesco d'œuvres représentatives série arabe), Paris: Eds. Gallimard, 1992 (Préface : 9-14+211p).

غير أنّنا نعلم أنّه توجد ترجمة فرنسيّة أخرى أنجزت قبل ترجمة في روشبلاف هذه، أعدّها أنور لوقا (Anouar Louca) الأستاذ المتميّز بجامعة ليون الثانية باقتراح من السيد مؤنس طه حسين نجل العميد، وقد راجعها شارل فيال (Charles Vial) الأستاذ سابقا بجامعة آكس آن بروفانس. وكتبت ليلى لوقا (Leïla Louca) نص التصدير لهذه الترجمة وقد نشرته بمجلة *أرابيكا* الفرنسية *Arabica*، العدد 1 المجلد 39 نوفمبر 1992 . انظر :

- Leïla Louca "Le discours autobiographique de Taha Hussein selon la clôture du Livre des Jours", *Arabica, XXXIX, 1 Nov.1992, pp.346-357.*

** أعدّ طه حسين رسالته المشار إليها في جامعة السوربون بإشراف الأستاذين أميل دوركايم (Emile Durkheim) عالم الاجتماع وبول كازانوفا (Paul Casanova) المستشرق، ونال بها درجة دكتورا الجامعة بتاريخ 1918/01/12 ، وقد نشرت أوّلا بالفرنسيّة سنة 1917 بفرنسا بعنوان :

"*Etude analytique et critique de la philosophie sociale d'IBN KHALDOUN*",Thèse de Doctorat d'Université. Paris : A. Pédone Editeur, 1917 (préface : I-IV + 222 p.).

ثمّ نشرت في طبعة ثانية بالفرنسيّة في العام الموالي (1918) مع تغيير في العنوان :

"La Philosophie sociale d'IBN KHALDOUN" ,Etude analytique et critique. Paris : A. Pédone Editeur, 1918.

ثمّ عرّبها صديق طه حسين الأستاذ المؤرّخ محمد عبد الله عنان بإشراف طه حسين ذاته، ونشرها عام1925 بعنوان: *فلسفة ابن خلدون الاجتماعيّة*، القاهرة : مط. الاعتماد، 1925 .

سيدرّس التاريخ، ولكن الأدب كان ولعه الأكبر. وكان ، فضلا عن التزاماته الجامعيّة، يشرف على الركن الأدبي من جريدة «السياسة» اليوميّة، وعلى صفحات هذه الجريدة خاصة خاصم أحد أبرز زعماء المدرسة التقليديّة في الأدب العربي * قائلا :

« ما لنا لا نلائم بين اللّغة وبين الحياة. لسنا نعيش عيشة الجاهليين فمن الحمق أن نصطنع لغة الجاهليين، ولسنا نعيش عيشة الأمويين، ولا العبّاسيين ولا المماليك، بل لسنا نعيش عيشة المصريين في أوائل القرن الماضي فمن الإسراف أن نستعير لغات هذه الأجيال وأساليبها»[2].

وكان يقول إنّ هٰذه الاقتباسات، وهذا التكلّف من النقائص الأدبيّة، وهي مؤذية للنّفس لأنّها تعني غياب الصراحة. إنّ أسلوبا هذا شأنه من التصنع ليخلو من الصدق حتما، ويعاكس شخصيّة الكاتب، وسيظهر التناقض الشديد بين طريقة عيشه وتفكيره وطريقته في التعبير عن الكتابة.

هذا الهجوم الذي شنّه طه حسين على المدرسة التقليديّة ورؤوسها أفضى إلى معركة عنيفة شارك فيها أدباء من أقطار عربيّة أخرى انطلاقا من لبنان القريب ووصولا إلى العراق البعيد. لقد استطاع طه حسين أن يجعل الناس على وعي لهذا المشكل وأن

---

* يقصد مصطفى صادق الرافعي.

2) طه حسين : *حديث الأربعاء*، المجلد الثاني من المجموعة الكاملة، ط. 2 ، بيروت : دار الكتاب اللّبناني، 1980 ، ج 2 ص 590 .

يجعلهم يتصوّرون إمكان القيام بإصلاح مّا. فبدا له أنّه بذلك يحقّق نجاحا ليس باليسير.

كان طه حسين يرى أن ليس للأدب أن يرضى بالتعبير عن الحقيقة بل عليه أن يبلّغها إلى القراء جميعا، يقول طه حسين :

«أمّا نحن، فنريد أن يفهمنا النّاس كما نريد أن نفهم النّاس. ولهذا نتحدّث إلى النّاس بلغة النّاس، وإذا تحدّثنا إلى الأدباء تحدّثنا إليهم أيضا بلغة النّاس (. . .) إنّ الأدباء الذين «يقدّرون أنفسهم» لا يكتبون إلاّ وهم يفكّرون في أنّهم يظهرون الناس على شيء من أنفسهم وفي أنّ ما يكتبون له قيمته، فهو خاصّ اليوم، ولكنّه عام غدا»[3].

نعم! كان لطه حسين الأستاذ الجامعي والأديب أشياء كثيرة أراد أن يظهر الناس عليها، فجهر بها في قوة وجرأة. كان في الجامعة يخاطب زملاءه وطلابه. أما خارج أسوار الجامعة فقد كان يتّجه إلى عموم النّاس في ما كان يكتب من مقالات، وما كان يلقي من محاضرات، وفي ما كان يجرى معه من محاورات، وما كان يدار معه من أحاديث في الإذاعة. وسواء أكان ذلك داخل الجامعة أم خارجها كان جمهور السامعين يزداد يوما بعد آخر حتّى يبلغ سائر أرجاء العالم العربي .

---

3) طه حسين : *حديث الأربعاء*، ج 2 ص 596 ـ 597 .

الجامعة والثقافة

كان طه حسين يتوق إلى جامعة تستقبل كلّ الثقافات وكلّ اتجاهات التفكير. ولقد وفّق في سعيه لتركيز دراسة اللّغات والآداب اليونانيّة واللاتينيّة والذود عن هذا المشروع، وذلك على الرغم من المعارضة الشديدة التي لقيها من مواطنيه ومن قبل عدد من زملائه الأوروبيين أيضا.

ودعا إلى تدريس اللغات والآداب الشرقيّة: الفارسية والتركيّة والأرديّة، وإلى تدريس اللغات والآداب الساميّة العبرانيّة منها والآرامية. ونجد طه حسين يشدّد في النصّ الذي صدّر به الترجمة العربيّة لكتاب *«الشاهنامة»* على الأهميّة التي تتضمنها دراسة التراث الانساني في كل مصروعصر وإلى ضبط قيمته.

وكانت الكثرة الكثيرة من الطلاّب تقبل على تعلّم اللغة الفرنسيّة واللغة الانكليزيّة ولكن طه حسين ـ بصفته عميدا لكليّة الآداب ـ يدعوهم إلى تعلم اللغة الايطالية واللغة الألمانيّة. وبتشيجع منه، ترجم إلى اللغة العربيّة أحد طلاّبه * كتاب *«الكوميديا الالهيّة»* *(La Divini Commedia)*.

وقد ترجم طه حسين بنفسه كتاب *«نظام الأثينيين»* *(La Constitution d'Athènes)* لأرسطو (Aristote) ومسرحيّة *«أندروماك»* *(Andromaque)* لراسين (Racine) ومسرحيتي

---

* المترجم المقصود هو حسن عثمان. انظر:

ـ دانتي الليجيري: *الكوميديا الالهية*، ترجمة حسن عثمان ط.2، القاهرة، دار المعارف، 1955، 3 أجزاء (الجحيم، المطهر، الفردوس).

«أوديب» *(Œdipe)* و«ثيسيوس» *(Thésée)*لأندريه جيـد (André Gide). وترجم كذلك عددا من مسرحيات اسخيلوس (Eshylle) وسوفوكليس (Sophocle) مـــن الفرنـسيّة إلى العربيّة، وخصّهما بدراستيـن تحليليـتيـن *. وكان قادة الفكر اليـونـاني: أرسـطـو (Aristote) وأفلاطون (Platon)وسقراط (Socrate) موضوع كتاب نشره سابقا **. وقد عرض طه حسين في البحث الذي ألقاه في المؤتمر الـدولـي الثامن عشر للمستشرقين في ليدن إلى العلاقات التي كانت قائمة بين البلاغة اليونانيّة والبلاغة العربية ***.

---

* يقصد ـ أغلب الظن :

ـ *أسخيلوس وسوفوكليس* : *صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونـان* ـ القاهرة : المطبعة التجاريّة، 1920 وقد تضمن مقدمة طويلة.

ـ سوفوكليس : *من الأدب التمثيلي اليوناني*، القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1939 .

** يقصد كتاب طه حسين : *قادة الفكر*.

*** يقصد كاتب المقال البحث الذي ألقاه طه حسين بالفرنسية في المؤتمر الدّولي الثامن عشر للمستشرقين المنعقد بمدينـة لـيـدن مـن 7 إلى 12 سبتمبـر 1931 وعنوانه : "Le rapport entre la rhétorique arabe et la rhétorique grecque"

وقد ترجم عبد الحميد العبادي هذا البحث عن الأصل الفرنسي الذي وضعه طه حسين ووسمه بـ «البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر» مصدّرا به كتاب *«نقد النثر»* المنسوب إلى الكاتب البغدادي أبي الفرج قدامة بن جعفر والذي حققه ونشره بالاشتراك طه حسين وعبد الحميد العبادي بعنـــوان *«نـقد النثر أو كتاب البيان»*، والكتاب من مطبوعات كلية الآداب بجامعة القاهرة (المطبوع الخامس عـشـر). مط، دار الكتب المصـريّة، 1933 . وتشير بعض المراجع إلى أن البحث العلمـي أثبت خطأ نسبة هذا الكتاب إلى قدامة، وأن الكتاب هو في الحقيقة لأبي الحسين اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب. انظر : أحمد مطلوب وخديجة الحديثي : *البرهان في وجوه البيان* لاسحاق بن وهب، بغداد، 1967. =

دعا طه حسين طائفة من الأساتذة استقدموا من بريطانيا العظمى وفرنسا وبلجيكا وألمانيا وتشيكسلوفاكيا وإيطاليا وتركيا وإيران، ومن بلدان أخرى كذلك، للتدريس في الجامعة المصريّة. وكان يوفد إلى هذه البلدان طلاّبا مصريين، بأعداد متزايدة ليتابعوا فيهادراسات جامعيّة رفيعة المستوى. وكان الدكتور ولفنسون، وهو من العلماء الأجانب، أعدّ بإشراف طه حسين، وفي الجامعة المصريّة أطروحة عن الفيلسوف اليهودي ابن ميمون ** . وقد دعي بعد ذلك إلى الانضمام إلى هيئة التدريس بكليّة الآداب في الجامعة ذاتها.

كان طه حسين يودّ أن تفتح الجامعة بابها واسعا في وجه كل من يرغب في طلب العلم. ويمكن القول إنّه لو لم يوفّق طه حسين في إلحاق الفتيات المصريات إلى الجامعة عند مطلع الثلاثينات، لكان

= ومن طريف ما تذكره السيدة سوزان طه حسين بصدد هذا البحث، وقد تولّت هي قراءته في المؤتمر نيابة عن طه حسين، أن عنوانه الأصلي كان «ناهضا لحرب الشعوبية» ثمّ بحثا معًا عن عنوان أقلّ حدّة.

انظر :

سوزان طه حسين : *معك*، ترجمة بدر الدين عرودكي ومراجعة محمود أمين العالم، ط. 1 ، القاهرة : دار المعارف (سلسلة كتب أكتوبر)، 1979 ، ص 92.

** نعلم أن اسرائيل ولفنسون أعدّ بإشراف طه حسين رسالة لنيل درجة الدكتورا في موضوع آخر غير الذي ذكره كاتب المقال، موضوعها وعنوانها : «*تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام*»، وقد نشرتها مطبعة الاعتماد في القاهرة سنة 1927 بتصدير طه حسين ذاته. وكان اسرائيل ولفنسون المعروف بـ «أبو ذؤيب» قد أقبل إلى مصر في مطلع العشرينات، فانتسب إلى الجامعة المصريّة القديمة وأحرز منها الليسانس، ثمّ أعدّ أطروحته المذكورة، وباشر بعد ذلك تدريس اللغات السامية بكليّة دار العلوم بالقاهرة.

النضال من أجل التحاق الفتيات بأية جامعة في العالم العربي قد تأخّر في الزمن ، ولكان التحاق النساء بالجامعة، لا بصفتهنّ طالبات بل للتدريس فيها، قد تأخّر أيضا بصفة ملحوظة.

ولما حقق طه حسين فتح أبواب جامعة القاهرة علي هذا النحو، نادى بإنشاء مؤسسات أخرى للتعليم العالي. ففي سنة 1942 في الوقت الذي كانت فيه جيوش رومل (Rommel) تقف غربيّ الصحراء على مسافة بضع كيلومترات فقط من مدينة الاسكندريّة، هو ذا طه حسين يعمل ويكدّ من أجل أن ينشئ فيها، في الاسكندريّة، الجامعة المصريّة المدنيّة الثانية على الرغم من أن اسمه كان مدرجا في القائمة المتضمّنة أسماء أعداء النازية * وإذا هو يتحوّل بانتظام من القاهرة حيث كان يشغل خطة مستشار فنّي لدى وزارة المعارف إلى الاسكندريّة حيث يقضي أيّامه في مناقشة كلّ التفاصيل ويرصد الخطوات الأولى من عمل الجامعة الفتيّة[4].

---

* يذكر محمد حسن الزيات في كتاب : *ما بعد الأيام*، أن طه حسين وقف ضدّ النازيّة في غير مواربة بل كان من المحرضين على التصدّي لها، وأن راديو برلين أعلن، إثر اندلاع الحرب العالميّة الثانية، عن عزم ألمانيا تأديب المعادين للنازية في مصر وإعدامهم وحدّدت قائمة بأسماء هؤلاء منهم طه حسين وعباس محمود العقاد وآخرون. راجع :

- محمد حسن الزيات : *ما بعد الأيّام*، القاهرة : دار الهلال، د.ت.، ص 109، 121 .

- سوزان طه حسين : *معك*، ص 140 ـ 141 .

4 ـ كانت إحدى مطامح طه حسين أن يعيد الى جامعة الأزهر المستوى الفكري والأكاديمي الذي كانت عليه قبل أن تحدّ قرون ثلاثة من إشعاعه الديني وقبل أن يتحجّر تعليمه. واليوم فإنّ هذه القلعة العتيقة التي آوت المعرفة تضمّ كليات للطب والتقنية والفلاحة، تماما كما تضمّ كليات اللاهوت والفقه الاسلامي والدّراسات العربيّة.

الماضي العربي

كان طه حسين، منذ أن تولّى الاشراف على قسم الدراسات العربية والشرقية بعيد عام 1925 ، يروم أن ينقطع إلى درس طويل المدى للتراث العربي الأدبي المذهل الذي تراكم طيلة ثلاثة عشر قرنا منسحبا على منطقة تمتدّ من آسيا الوسطى إلى غرب افريقيا ذلك أنّه موقن بأنّ الأدب العربي لا يفوقه سوى الأدب اليوناني القديم. ولمّا رآه كذا علّه خليقا بأن يدرس لذاته، وكان يوقن كذلك أنّ معرفة التراث العربي والتعلّق به أمران ضروريان لضمان استمراريّة السنّة الأدبيّة العربيّة ولصيانة الشخصيّة العربيّة.

على أنّه كان يرى أن ليس من الإمكان أن نعرف الأدب العربي وأن نقدّره حقّ قدره إن لم تحرّر الذات من حكم مسبّق ولكنّ قرونا ثلاثة من الجمود الأدبيّ أدّت إلى كثير من الأحكام السبقيّة ضدّ النقد والتغيير إذ ربط المحافظون بين اللغة العربيّة والقرآن فأضفوا على هذه اللغة قداسة ليس لها أيّ دعامة علميّة أو دينيّة.

وقبل ذلك بعشر سنوات، كان المحافظون قد هاجموا طه حسين لأنّه حلل في أطروحته التي نال بها درجة الدكتورا الشكوك التي كانت تزعج أبا العلاء، هذا الرجل المسلم الذي لم ينل أحد من صدق عقيدته في الماضي. أمّا اليوم، فقد شرع طه حسين يخضع تراث العرب الثقافي لتحليله الديكارتي يروم من وراء ذلك التحقّق من صحّة هذه النّصوص قبل دراسة مؤلّفيها ضمن السياق التاريخي والاجتماعي والفكري. وبدأ يتفحّص نصوص الشعر الجاهلي فحصا

موضوعيّاً. وقد قادته دراسة هذا الشعر إلى وضع كتابه «في الشعر الجاهلي» حيث أظهر شكّه في صحّة كثير من هذه النّصوص، خاصة منها تلك التي تنسب إلى شعراء جنوب الجزيرة العربيّة. وما إن صدر الكتاب حتّى هبّ المحافظون هبّة لم يكن لها مثيل، مطالبين لا بمصادرة الكتاب وإتلافه وطرد مؤلّفه من الجامعة فحسب، بل وبمقاضاة طه حسين بتهمة الهرطقه.

واستمرّ طه حسين في دراسة أدب العصور الموالية، أي أدب الأمويين في دمشق والعباسيين في بغداد. وكان في الوقت ذاته يشرف على البحوث التي كان يعدّها طلاّب كثر جاؤوا من مختلف البلاد العربيّة تماما كما كان يفعل مع الطلاب المصريين.

وفضلا عن دراسته للأدب أخذ طه حسين نفسه بدراسة حياة الخلفاء الراشدين وعصورهم، فمهر العالم العربي بالدراسة الأكثر إشارة لتاريخه السياسي والإجتماعي والثقافي من القرون الأولى للإسلام.

مؤلّفات طه حسين :

الترجمة الذاتيّة ـ المحاولات ـ كتب الابداع الأدبي .

كان طه حسين، فضلا عن التدريس في الجامعة المصريّة، ينشر مقالات في الصحف مرتين في الأسبوع. كان يخصّص أيام الأربعاء لتحليل نصوص من الأدب العربي القديم ونقدها. وكان يخصّص يوم الأحد ليعرّف قراءه بالأدب الأوروبي المعاصر والفرنسي منه خاصة.

وفي سنة 1929 بينما كان طه حسين يقضي إجازته في أوروبا، ولمّا يكن الجدل الذي قام حول كتابه «*في الشعر الجاهلي*» قد توقّف، أملى الجزءالأوّل من ترجمته الذاتيّة «*الأيّام*» «كاشفا أستار قلبه ـ كما تقول السيدة سوزان ـ في ثمانية أيام»* .

لقد صدر من كتاب «*الأيّام*» أكثر من سبعين طبعة إلى حدّ اليوم. وكذلك ترجم هذا الكتاب إلى أبرز لغات أوروبا وآسيا وإفريقيا. لقد وصف البروفسور جيب [5] (H.A.R.Gibb) هذا الكتاب، حال صدوره، بأنّه يمكن اعتباره بحق أول رائعة فنيّة، ليس لها نظير في الأدب المصري المعاصر، واليوم يجوز حقّا القول بأن الكتاب معدود ضمن روائع الأدب العالمي المعاصر.

وهذا سيّد علي [6]، الكاتب الايراني، ولغته الأصليّة ليست العربيّة، يحفظ كتاب «*الأيّام*» عن ظهر قلب، من أوّل صفحة إلى آخر صفحة.

* الصواب هو سنة 1926 ، ذلك أنّ طه حسين ألّف كتابه «*في الشعر الجاهلي*» في الفترة ما بين جانفي ومارس من سنة 1926 ، ثمّ ترك مصر في شهر جوان سنة 1926 فور اندلاع أزمة «*في الشعر الجاهلي*»، وظلّ في إجازة في أوروبا إلى موفّى شهر ديسمبر من نفس السنة. وخلال هذه الفترة، وفي قرية صغيرة من منطقة سافوا العليا (Haute-Savoie)، وضع طه حسين في ثمانية أيام الجزء الأوّل من «*الأيّام*» ونشره أوّل مرّة في مجلة *الهلال* في تسع حلقات بداية من الجزء الثاني ديسمبر سنة 1926 إلى الجزء التّاسع جويلية سنة 1927 . انظر :

ـ سوزان طه حسين : *معك*، ص 78-79 .

وانظر أيضا في المعنى ذاته :

Etiemble et Jeannine Etiemble : *L'Art d'écrire,* Paris : Eds. Seghers, 1970, pp.619.

5) H.A.R. Gibb : "Studies in contemporary Arabic Literature", III, *School of Oriental Studies Bulletin*, vol. 3, p.458

6) ـ سيد علي : من مقال نشر في مجلة *الفكر الاسلامي*، طهران، نوفمبر 1973 .

وهذا بيركاكيا (Pierre Cachia) يكتب عن نثر طه حسين في *«الأيّام»* فيرى فيه :

«نمط الانفعال ذاته الذي نجده عند تنيسون (Tennyson) أو عند ألفرد دي موسيه (Alfred de Musset) ، هذا النمط الذي يتحدّى التحليل ويشذّ عن قبضة الوصف إلاّ أن يقال عنه إنّه رجع صدى نفس مرتجّة[7]»

وهذا يوسف السباعي، وزير الثقافة الحالي، وهو ذاته أديب لامع، يرفع صوته قائلا، وقد لفته الإيجاز اللغوي الذي قام عليه الجزء الثالث من هذه الترجمة الذاتيّة : «ترى كم من مصنّف يمكن أن نستخرجه من هذه الصفحات المرتجفة حسّا المقتضبة أيّ اقتضاب» * .

إنّ الإطار الذي تدور فيه أحداث الجزء الأوّل من كتاب *«الأيّام»* ، وكذلك أحداث روايتيه *«شجرة البؤس»* و *«دعاء الكروان»* هو الريف في الصعيد المصري في مطلع القرن. وصف طه حسين هذا العالم القاتم، وقد سمّمه الجهل والفقر والخرافة المقنّعة بالدين أحيانا، في عطف وإشفاق، وصفا يهب القارئ لذة فنيّة خالصة، وفي الآن ذاته، يدفعه إلى السخط. وهل للإنسان غير هذاالشعور عندما يقضي الجهل والفقر على الكاتب بفقدان البصر ؟ وكيف لا يسخط المرء حين يرى فتاة ظريفة يسلمها الإهمال إلى الموت دون أن يفزع أهلها

---

7) Pierre Cachia : *Taha Hussein* (Londres : Luzack et Co.1956)

* من تعريبنا نحن إذ لم نعثر على الأصل العربي.

الى الطبيب ؟ رجل يزعم أنّه من المتصوّفة، وشيخ أمّي يغمغم كلمات، وإذا الزيجة دبّرت، فتنشأ عنها *«شجرة البؤس»* لا تجني منها الأسرة كلها إلا ثمرا مرّاً، يدفع صبية، قصد التغلب على هذا الوجود البائس، إلى الكذب والخداع والفساد والانقياد إلى الفساد، يدفعهم إلى ذلك سادة جهلة، كما يدفع فتيات إلى الرذيلة، وقد كن اضطررن إلى الخدمة في البيوت، فإذا هنّ يلاقين الموت جزاء ذلك على أيدي ذويهنّ *.

لقد أهملت الدّولة إهمالا تامّاً - أويكاد - شؤون الشعب الاجتماعيّة والصحيّة والتربويّة، وهو دليل على اللاّمبالاة، يستوي فيها المحتل الأجنبي والطبقات الحاكمة في البلاد.

---

* حول الأعمال القصصية لطه حسين «دعاء الكروان»، و«شجرة البؤس»، و«القصر المسحور» وغيرها راجع :

- خالد الكركي : *طه حسين روائيّا*، ط. 1، بيروت : دار الجيل - عمّان : مكتبة الرائد العلميّة، 1992 .

- Raymond Françis : *Taha Hussein romancier,* Le Caire : Dar al-Maaref, 1945.

- Raymond Françis : *Aspects de la littérature arabe contemporaine,* Le Caire : Dar al-Maaref, 1963/ "Sept études sur Taha Hussein", pp.9-97.

وانظر حول كتاب *«القصر المسحور»* لطه حسين وتوفيق الحكيم :

- نائلة الراضوي السليني : *القصر المسحور لطه حسين وتوفيق الحكيم في علاقته بمسرحيّة الحكيم : شهرزاد - دراسة تحليليّة*، رسالة لنيل شهادة الكفاءة في البحث بإشراف البروفسور منجي الشملي، منّوبة - تونس : كلية الآداب، 1985، قسم الرسائل (بحث مرقون رقمه بالمكتبة T3266).

وانظر حول كتاب طه حسين *«على هاشم السّيرة»* :

- زهرة كحولي سعد اللاّوي : *علي هامش السيرة لطه حسين - دراسة تحليليّة نقديّة*، رسالة لنيل شهادة الكفاءة في البحث بإشراف البروفسور منجي الشملي، منّوبة - تونس: كليّة الآداب، 1985 ، قسم الرسائل(بحث مرقون رقمه بالمكتبة T3246)

مصر الجديـــدة

لقد شهدت العشريتان الأولى والثانية من هذا القرن انتهاء الحرب العالميّة الأولى ومطالبة مصر باستقلالها السياسي وبحريتها، فنالت استقلالا جزئيا سنة 1922 ، وأعلن إنشاء الدستور، وما أسرع ما غدا الدستور عقبة أمام الحكم المطلق الذي كان الملك يسعى إلى الاستئثار به في مجال السياسة الداخليّة للبلاد. في سنة 1930 عطل الدستور، وفرض دستور آخر عنوة، على الرّغم من احتجاج الشعب، وأبعد طه حسين من الجامعة. فإذا هو رئيس تحرير لجريدة «كوكب الشرق» ثم لمجلة «الوادي» وكلتاهما صحيفة يومـيّة تنتمي إلى المعارضة. فلما سقطت حكومة صدقي باشا بعد ذلك استعاد طه حسين مكانه في الجامعة.

في سنة 1936 وقّع الأنكليز مع مصر معـاهـدة * تقرّر بمقتضاهـا جلاء القوات البريطانيّة التي كانت تحتلّ مصر منذ سنة 1882 . وإذا بطه حسين ينشر في السنة الموالية، سـنـة 1937 ، كتابه *«مستقبـل الثقافة في مصر»* فيكتب :

«إنّ الواجب الوطنيّ الصّحيح بعد أن حقّقنا الاسـتـقـلال وأقررنا الديمقراطيّة في مصر، إنّما هو أن نبذل ما نملك وما لا نملك من القوّة والجهد ومن القوت والمال لنشعر المصريين أفرادا وجماعات أنّ الله قد خلقهم للعزّة لا للذّلة، وللقوّة لا للضّعف، وللسيادة لا للاستكانة ولـلـنّباهة لا للخمـول، وأن

* هي التي تعرف بمعاهدة مونترو (Montreux)

نمحو من قلوب المصريّين أفرادا وجماعات هذا الوهم الآثم الشّنيع الذي يصوّر لهم أنّهم خلقوا من طينة غير طينة الأوروبي، وفطروا على أمزجة غير الأمزجة الأوروبيّة، ومنحوا عقولا غير العقول الأوروبيّة.

فهذا كلّه باطل سخيف لا يثبت أمام أيسر التّفكير، ولا يستقيم لأهون نظرة في التّاريخ من جهة، وفي طبائع الأشياء من جهة أخرى...

إنّ أرسطاطاليس قد أخطأ خطأ شنيعا حين زعم أنّ من النّاس من يخلق ليأمر، وأنّ منهم من يخلق ليطيع (...) ولكنّ النّاس يطغى بعضهم على بعض، ويجب أن يهدم هذا الطغيان، وأن نكون نحن هادميه، ولكنّ النّاس يبغي بعضهم على بعض ويجب أن يزول هذا البغي، وأن نكون نحن من مزيليه»[8]

ولكن الحياة السياسيّة في مصر وفي غيرها من البلاد العربيّة لم تتغيّر بالسرعة التي كان يأملها طه حسين. هذه طائفة تحذّر من كلّ تدخّل في ما يزعمون أنّه تقسيم طبيعي للمجتمع. وهذه أخرى - أشدّ خطرا من الأولى - كانت تعزو هذا التقسيم الطبيعي إلى الارادة الإلهيّة .

8) طه حسين : *مستقبل الثقافة في مصر*، المجلّد التّاسع من المجموعة الكاملة، بيروت : دار الكتاب اللّبناني، 1982 ، ص 50-51 .

لقد بيّن طه حسين في كتابه *«الوعد الحقّ»* تبيينا مقنعا أنّ الإسلام دين العدل الاجتماعي .

وفي كتاب *«ألوان»* قارن طه حسين في فصل «ثورتان» بين ثورة سبارتاكوس (Spartacus) وثورة صاحب الـزّنج في العراق في القرن التاسع للميلاد[9].

وقد لاحظ أنّ ثورة الزّنج كانت من أكثر الحركات العربيّة أصالة في سبيل الاصلاح الاجتماعـي، وأنّ العرب المحدثين ليسـوا فـي حاجة - إذا هم راموا إرساء العدالة الاجتماعيّة إلى أن يولّوا وجوههم شطر الغرب ليستلهموه الفعل ويستوردوا الفكر، وكل هذا ماثل في ماضيهم الخاص. وإليك ما يقول في هذا الموضوع :

«وربّما كان من الطريف أن نلاحظ أنّ كثيرا منّا يفكّرون في العدل الاجتماعي ويحـسّون حاجة الجماعات إليه، ولكـنّهم ينظرون إلى ما وراء البحر الأبيض المتوسّط ليلتمسوا في أوروبا مصادر هذا الشعور بالحاجة أي العدل الاجتماعي ومـظـاهـر المطالبة به والسعي إليه، ينظرون إلى الديمقـراطـيّة المعتدلة

9) لاحظ طه حسين في مطلع الفصل قائلا : «من الجائز أن يكون الرقّ الفرديّ قد ذهب وانقضى عصره، وإن كنت لا أثق بذلك ولا أطمئن إليه. ولكنّ الرّقّ الاجتماعي لم يذهب بعد، ولم ينقض عصره، ولست أدري متى يذهب ومتى تنقضي أيّامـه. فهناك شعوب تسترق شعوبا، وهناك طبقات من النّاس تسترق طبقات من الـنّاس» انظر :

طه حسين : *ألوان* ، المجلّد السّادس من المجموعة الكاملة، بيروت، دارالكتاب اللّبناني، 1981، ص 546.

وينظرون إلى الاشتراكيّة الدّوليّة وإلى الاشتراكيّة الوطنيّة.
وقد ينظرون إلى الشّيوعيّة في كثير من التّردّد والاستحياء.
ولكنّهم لا ينظرون أو لا يكادون ينظرون إلى فكرة المطالبة
بالعدل الاجتماعي كما وجدها المسلمون قبل أن ينتصف القرن
الأوّل للهجرة. وقليل منهم بل أقلّ من القليل أولئك الذين
يحاولون أن يتابعوا نشأة هذه الفكرة وتطوّرها في البيئات
الإسلاميّة الثائرة، وما أنتجت من ألوان الأدب قبل أن تتأثّر
بالثقافات الأجنبيّة وبعد أن تأثرت بهذه الثقافات وما كان لها
من أثر في حياتنا العقليّة المعقّدة في الفلسفة والكلام وفي
الفقه والأصول.

(. . .) وقد كان للمطالبة بتحقيق العدل الاجتماعي أبطال
من حقّهم أن يدرسوا، ومن حقّهم أن يلهموا الكتّاب
والشعراء (. . .) فنحن إذن لسنا عيالا ولا يمكن أن نكون
عيالا على المطالبين بتحقيق العدل والثّائرين على الظلم
الاجتماعي من الأوروبيين. وإنّما نحن أبعد منهم عهدا وأشدّ
منهم ممارسة لهذا النّحو من محاولة الاصلاح. من قدمائنا
من طلب الاصلاح الاجتماعي في رفق ولين ومنهم من طلبه
في ثورة وعنف، ومنهم من أثاروها حربا شعواء على النظم
القائمة فعرضها للخطر وكاد يمحو سلطانها محوا»[10].

---

10) طه حسين : *ألوان*، ص 548 ـ 549 .

وفي كتاب آخر عنوانه *«المعذبون في الأرض»*، تدور حوادثه في مصر، يصوّر الكاتب حياة صيّاد السمك وحياة الفلاّح وحياة العامل اليومي، وحياة آخرين تصويرا فيه رهافة حسّ نابعا من الأعماق*. وفي فصول أخرى من الكتاب ذاته يظهر لنا طه حسين كم كان المسلمون الأوائل حريصين على التضامن الاجتماعي وعلى العدل. وكذا أصيبت الدّوائر الحاكمة في القاهرة بهلع شديد، فقد أدركت أنّ معارضة طه حسين للحكومة القائمة المدعومة من القصر ليست معارضة سياسيّة فحسب، وأنّه يطمح إلى تغيير اجتماعي لا حكومي. وإذا الكتاب قد حظر تداوله في مصر**.

لقد أظهر طه حسين العناية ذاتها بالمشاكل الاجتماعيّة ولكن في شكل إبيجرامات، وذلك في كتابيه *«جنّة الشّوك»* (1945) و *«جنّة الحيوان»* (1950). وعلى الرّغم من أنّ طه حسين يزعم أنّه اختار فنّ

---

* انظر حول كتاب طه حسين : *«المعذّبون في الأرض»* :
- علجيّة إرحيّم : *المعذّبون في الأرض لطه حسين - دراسة تحليليّة نقديّة*، رسالة لنيل شهادة الكفاءة في البحث بإشراف البروفسور منجي الشملي، منّوبة - تونس : كلية الآداب، 1985، قسم الرسائل (بحث مرقون رقمه بالمكتبة T3378).

** نشرت فصول هذا الكتاب أوّلا على صفحات مجلة *«الكاتب المصريّ»* خلال سنتيْ 1946 و 1947 . ثمّ جمع طه حسين هذه المقالات في كتاب لنشرها، فصادرت السلطة الملكيّة نسخ هذا الكتاب سنة 1949 . عندها أرسل طه حسين بالكتاب سرّا إلى بيروت، ونشره هناك. وبعد قيام ثورة يوليو1952 أعاد طه حسين نشر هذا الكتاب في مصر ضمن سلسلة إقرأ، عدد 118، نوفمبر 1952، وقد صدّر هذه الطبعة بمقدّمة بارك فيها ثورة يوليو آملا منها أن تكون هذه الثورة «عضدا للحقّ وسندا للعدل وأداة للإنصاف وسبيلا إلى المساواة».

«الابيجراما» رغبة منه في أن يكون النثر العربي المعاصر متنوّعا أقصى حدود التّنوّع وذلك بإدخال كلّ الأجناس الأدبيّة فيه، وعلى الرّغم من أنّه ليس من المستبعد أن يكون ذلك إحدى نواياه، فلنا أن نفترض أن استعماله فنّ الأبيجراما أتاح له التعبير عن طائفة من الأفكار التي لم يكن يسمح بالتعبير عنها بطريقة أخرى.

كان طه حسين نشر فيما بين صائفة سنة 1948 ومطلع سنة 1950 عددا من الفصول على صفحات جريدة «الأهرام» في مواضيع مختلفة مثل شواغل الشباب والتربية والظلم الاجتماعي، مشيرا، إلى انعدام المساواة في الحياة المصريّة مناديا بإيجاد الحلول العاجلة مثل إصلاح نظام الضرائب واتخاذ قوانين من هذا القبيل. وقد وسم إحدى هذه المقالات بعنوان بالغ الدّلالة : «من يوقظ النائم من نومه ؟»[11]

التعليم سبيل العدل والحريّة والمساواة.

مضى نصف قرن على طه حسين، وهو في السن الثالثة عشرة، يوم سمع أطفال المدارس يترنمون، في لغة تركيّة، بنشيد الحريّة والعدل والمساواة. أمّا اليوم، فلا أحد يستعمل اللّغة التركيّة، ولا أحد، اليوم، ذا منزلة عالية يصطنع في الكتابة الأسلوب المتكلف الذي كان متداولا في بداية القرن [العشرين].

كانت مصر، من الوجهة السياسيّة قد تحرّرت مبدئيّا من الاحتلال الانكليزي. وكان لها، مبدئيّا، نظام دستوري أعلن المساواة

11) طه حسين : «من يوقظ النائم من نومه؟ » *الأهرام*، 1948/09/10 ، لم نعثرعليه.

بين المواطنين جميعا. وكانت المعركة في سبيل اللغة العربيّة بلغت نهايتها أو كادت. فلا بـدّ من الانتصار في معركة الـحـريّة والعدل والمساواة. كان طه حسين موقنا بأنّه ليس من سلاح أشدّ لزوما ولا أغنى جدوى من التعليم لبلوغ هذه الغاية.

وقد قال طه حسين لأحد الصحفيين يوما :

« إنّ جميع مشكلات مصر يجب أن ننبري لمعالجتـــهـا دون تجزيئية ولكن أنجع سلاح لتذليل تلك المشكــلات هو نشر المعرفة»*[12] .

في سنة 1950 عيّن طه حسين وزيرا للمعارف، وقضى في هـذا المنصب نحو سنتين اثنتين. فإذا الرؤيويّ يدعى إلى تجسيد رؤياه. إنّها مهمّة عسيرة، لكنّ طه حسين أخذ نفسه بها مبتهجا محبورا.

لقد آمن طه حسين، في حماسة، بأنّ التربية مفتاح النهضة الوطنيّة، وأنّ نشر التعليم سيجلب المعرفة إلى النـــاس جميعا، وأنّ المعرفة تذهب الفكر الخرافي وتقهر الجهل والمرض والفقر وكلّ ما يصحب ذلك مـــن أشكال الاستبداد. والمعرفة، لديه، تنحت الـمـواطـن المدرك لواجباته الغيور على حقوقه، المواطن المستنير الذي، بدونه، تغدو الديمقراطية خدعة كما يغدو الاستقلال لفظا خواء. والمعرفة في نظره هي التي تنحت المواطن المتـحـرّر من كلّ العقد، القادر

12) *الأهرام*، 23 جانفي 1950.

* والصحفي المقصود هو كامل الشناوي، والحوار بعنوان «مع طه حسين». لـم نظفر به، والترجمة من عندنا.

على تجاوز أسطورة التفوّق العنصري التـــي قادت مـــن قبـل إلى الاستعمار، وأسطـورة الاستعلاء الطبقي التي كانت مصدر نشأة الاستبداد. ولأجل أن يكون المواطن على تمام الوعي لما تـقـدّم شرع طه حسين في تحقيق برنـامـج فـعّال هـــدفه «إخماد حـريـق الجهـل». ولأوّل مرّة في تاريخ العالم العربي المعاصـر يـوفّق طـه حسين في إرساء مجانية التعليم الابتدائي والثانوي.

وقد ردّ طه حسين على الذين يقولون بانه لا يوجد من المال مـا يكفي لتحقيق هذا الإصلاح مبيّنا أنّ من واجب الدّولة، ومن واجب الأثرياء أيضا، توفير ذلك المال . وإذا بميزانيّة وزارة المعارف الّتي كانت تعدّ سنة 1942-1943، 6.450.000 جنيها مصريّا حين كان يرأس طه حسين إدارة الثقافة بالوزارة، ترتفـــع إلـــى 46.200.000 جنيه سنة 1951-1952 حين أصبح وزيرا للمعارف. وإذا بعدد الـتـلامـيـذ يرتفع من 145.000 تلميذا سنة 1949 إلى 560.000 سنة 1950. وهكذا زالت الفكرة القائلة إنّ التربية حكر على فئة دون أخرى. فتلك فكرة لا تتساوق مع الاستقلال الذي حقّقته مصر ومع ديمقراطـيّة الحكم القائم [13] . في شهر جويلية من سنة 1974، كتب غالي شكري على صفحات المجلة الليبيّة: *«الثقافة العربية»* قائـــلا :

---

13) ليس في نيّتي طبعا أن أعرض هنا الى ضروب النشاط التي كانت لطه حسين، ولا أيضا إلى نشاطه حين كان وزيرا للمعارف. ولكن بودّي أن لا أترك انطباعا بأنّ طه حسين لم يعن إلاّ بالمدارس. وحسبي أن أذكر هنا أنّه أنشأ جامعة الاسكندريّة، وأنه وضع حجر الأساس لجامعة عين شمس بالقاهرة ولجامعات أخرى إقليمـيّة. وكذلك أعدّ طه حسين في نطاق التعاون الثقافي مشروعا لترجمة الرّوائع العالميّة. وأسّس معاهد للدّراسات العربيّة في مدريد وخطّط لإنشاء معاهد أخرى في طنجة=

«كان أهلنا يبعيون كلّ ما لديهم ويستدينون ولا يسدّدون، وأحيانا يموتون حتّى ندخل المدارس والجامعات فلا نعيد سيرتهم المقهورة ولا نكرّر فقرهم المروّع».

ولمّا كان طه حسين يدعو إلى أن يكون حقّ المواطن في التّعلم كحقّه في الماء والهواء، فإنّ اسمه ، يقول غالي شكري :

«كان يتسلّل إلى الأكواخ في القرى والبيوت الصغيرة في الأحياء الشعبيّة رمزا للحياة، لايعنيهم من أمره ما يقال عن «زندقته»(. . .) كان بالنّسبة لهم نورا ـ هو الأعمى ـ يضيء لأبنائهم مستقبلا لا يرونه هم المبصرون»[14].

=واستانبول. وفتح مكتبا ثقافيّا في لندن وآخر في واشنطن. وأنشأ كرسيّا للأدب العربي في أثينا وآخر في معهد الدّراسات المتوسّطيّة في نيس. وأتاح لتلاميذ المعاهد الثانويّة أن يتعلّموا لغتين أجنبيتين يختارونهما من بين خمس لغات : الألمانيّة والايطاليّة والروسيّة والأنكليزيّة والفرنسيّة. وحثّ أبناء وطنه على المشاركة الفعليّة في أعمال هيئة الأمم المتّحدة ومنظّمة اليونسكو والمؤتمرات والندوات الدّوليّة. وقد حاول في مصر ذاتها أن ينشئ أكاديميّة مصريّة للفنون والعلوم على نمط الأكاديميّة الفرنسيّة. وأعاد طه حسين تنظيم المصالح المصريّة للآثار الفرعونيّة والقبطيّة والاسلاميّة فراجعت إدارة أعمالها على أسس جديدة. وأدّى خدمات في سبيل المسرح الذي كان يحبّه وفي سبيل نهضة الإذاعة التي كان يقدّر قيمتها ويقدّر في الآن ذاته خطرها في مجال الثقافة.

14) *الثقافة العربية* (طرابلس) ، عدد 9، جويلية 1974 ، ص 42. والملاحظ أنّنا لم نعثر على هذا العدد، والفقرتان المشار إليهما وجدناهما في كتاب غالي شكري : *ماذا يبقى من طه حسين ؟* ط. 1، بيروت : دار المتوسّط للنشر، 1974 ، ص 32 .

الوحدة العربية : اللّغة والثقافة

شغل طه حسين، بعد قيام ثورة 1952 ، في مصر منصب رئيس اللّجنة الثقافيّة لجامعة الدّول العربيّة. وقد ظلّ موقنا بأنّ اللغة والثقافة كانتا العاملين الحقيقين للوحدة العربيّة وهذه مسألة تحتاج إلى التبسّط في القول خصوصا حين يتّصل الأمر بطه حسين والعالم العربي.

لقد دحض طه حسين في كتابه «*مستقبل الثقافة في مصر*» الفكرة السطحيّة الّتي كانت سائدة لدى فئة من المحافظين من الجيل السابق والّتي مفادها أنّ الشرق بما فيه مصر روحانيّ، وأنّ الغرب بما فيه أوروبا ماديّ، ولذلك تكون مصر مهيّأة إذن لتفقد روحانيتها إن هي قلّدت الثقافة الأوروبيّة (من الصعب على المرءاليوم أن يصدّق أنّ طه حسين سمع في شبابه أحد شيوخه في جامعة الأزهر يؤكّد أنّ «من ذهب إلى فرنسا فهو كافر أو على الأقل زنديق» *) .

لقد بيّن طه حسين، أثناء تحليله العميق للعلاقات التّاريخيّة بين شمال البحرالأبيض المتوسّط وجنوبه، أنّ مصر، لا شكّ هي إلى اليونان وفرنسا ـ وهما من الغرب ـ أقرب منها إلى الهند والصين واليابان ـ وكلّها من الشرق. من النقاد في العالم العربي من أساء فهم كتاب طه حسين هذا، وجعله، بغير حقّ، بمثابة دعوة إلى فصل مصر عن العالم العربي ووصلها بهويّة متوسّطيّة.

---

* انظر العبارة واردة في كتاب طه حسين : *أديب*، المجلد الثّاني عشر من المجموعة الكاملة، ط.2 ، بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1983، ص 578 .

وقد بيّن طه حسين سنة 1939 ، على صفحات إحدى المجلاّت العربيّة أنه يؤمن بالوحد الثقافيّة العربيّة إيمانا عميقا ولكنّه مرتاب فيما يتعلّق بالوحدة السيّاسيّة والدّستوريّة. ثمّ أفاض القول في هذا الموضوع على صفحات مجلّة *«الهلال»* القاهريّة خلال السنة ذاتها * . فبيّن أنّه لا يعترض على ضرورة قيام الوحدة العربيّة ولكن القضيّة تتمثل في الصيغة التي ينبغي أن تتّخذها هذه الوحدة.

إنّ المحاضرة التي ألقاها طه حسين في مؤتمر الأدباء العرب الذي انعقد في القاهرة في ديسمبر سنة 1957 خيّبت، مرّة أخرى، ظنّ الذين يصرّون على أنّ الوحدة العربيّة ينبغي أن تبرز فورا واقعا سياسيّا.

أثيرت هذه القضيّة من جديد في حوار صحفي ثقافي أجري معه قبل وفاته بنحو شهر، قال :

«لماذا يخيفكم البحر المتوسّط كأنه ليس بحرنا ؟ أم أنّكم صدقتم أنّه بحر الرّوم ؟ إنه بحرنا كماهو بحرهم. وهو ليس عازلا مائيّا بين الأمم بقدر ما هو وسيلة اتّصال. فرنسا وإيطاليا واليونان يخصّوننا كما نحن نخصّهم (. . .) فمن المستغرب أن يضمّنا معهم شاطئ واحد ولا نتأثّر بهم أو نؤثّر فيهم. والطبيعيّ أن نتبادل وإيّاهم التأثير والتأثّر» **.

* نكاد لا نشكّ في أنه الفصل الذي كتبه طه حسين بعنوان : «توحيد الثقافة بين الأقطار العربيّة هو أهمّ الوسائل لتقدّم نهضة الشرق العربي»، *الهلال*، جانفي 1939.
** غالي شكري : *ماذا يبقى من طه حسين ؟* ص 38 .
يقصد كاتب المقال محاورة غالي شكري لطه حسين المذكورة آنفا والمنشورة في كتاب : *ماذا يبقى من طه حسين ؟* ص 38 .

ولكن مخاطبه [غالي شكري] يلاحظ له قائلا :

«ولكنّ العرب لا يسكنون جميعا شواطئ البحر المتوسّط»*.

ثمّ يسأل :

« هل (. . .) نساوي بين الجيرة اللّغويّة والدّينيّة والجيرة الجغرافيّة، أي بين المصريين والعرب من ناحية وبين المصريّين والأوروبيّين من ناحية أخرى ؟» ** .

وما أسرع ما يجيب طه حسين، وقد عيل صبره :

«من قال ذلك ؟ أنا لم أقل مثل هذا الكلام أبدا (. . .) وأمّا العرب فإنّ وحدة اللغة والدّين تجعل ارتباطنا بهم أقوى، إنه ارتباط الثقافة والعقيدة ولكنّنا جميعا ـ مصريين وعربا ـ نحتاج إلى التفاعل الحضاري مع أوروبا احتياجنا الى الحياة نفسها، وما أقوله بوضوح هو أنّ شعوب البحر المتوسّط مؤهّلة أكثر من غيرها لهذا التّفاعل» *** .

ولمّا يظلّ محاوره يصرّ على أنّ الوحدة العربية هي وحدها الكفيلة بمواجهة كلّ أشكال العبوديّة، وأنّ الوحدة الاقتصاديّة لا مفرّ منها يردّ طه حسين في جفاء قائلا : «لا أحد ينكر ذلك. . . . لا أحد» **** .

---

* م. ن.، ص. ن.
** م. ن.، ص. 39
*** م. ن.، ص. 40
**** م. ن.، ص 41 .

والحقّ أنّ طه حسين، وقد كانت تغيظه الإقليمية الضيّقة، لم يكن يجد تناقضا بين أن يكون في ذات الحين مصريّا وعربيّا، ثم عربيّا ومتوسّطيّا*.

في كتابه *«مستقبل الثقافة في مصر»* دعا طه حسين أبناء وطنه إلى أن يستقبلوا في مدارسهم وجامعاتهم ما استطاعوا من الطّلاّب العرب، وناشد حكومة بلاده أن تنشئ بالتّعاون مع سائر البلاد العربيّة مدارس حيثما دعت الحاجة إلى ذلك، وأن تساهم في توفير الموظّفين لها. وأنذر فرنسا بإغلاق مدارسها في مصر إذا هي اعترضت على إنشاء مصر مدارس عربيّة في شمال إفريقيا. ودعا إلى دعم تبادل الصحف والمجلاّت والكتب. وعلى الرّغم ممّا كان فيه طه حسين، لمّاكان وزيرا للمعارف، من حاجة إلى كلّ أبناء مصر من المدرسين لتنميّة التعليم، فإنّه لم يتردّد في إيفاد حوالي ثلاثمائة أستاذ إلى البلاد العربيّة للتّنسيق بين البرامج الدّراسيّة.

كان طه حسين سعيدا بعضويته في المجمع العلمي بدمشق، وبتعاونه النّشيط مع علماء مشهورين من بلدان عربيّة مختلفة ضمن مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة وقد كان رئيسا له عند وفاته.

في الفترة التي كان فيها لبنان وسوريا في كفاح من أجل الحريّة، دعا طه حسين الجنرال دي غول (De Gaulle) بصفته رئيس فرنسا

---

* راجع حول مكانة المحيط المتوسّطي في تفكير طه حسين :

ـ محمود صبح : «الفكرة المتوسّطيّة عند طه حسين»، *مجلّة المعهد المصري للدّراسات الإسلاميّة* (مدريد)، مج 25 ، 1991 ـ 1992 ، ص 121 ـ 135 .

الحرّة إلى منحهما الاستقلال، وساهم في تحرير الوثيقة التي حرّرها في الصدد الجنرال كاتـرو (Catroux) إبّان الحرب العالمـيّة الثانيـة. وحين نالت تونس استقلالها كان طه حسين أوّل عربي غير تونسـي يدعى إلى المشاركة في لجنة الامتحانات الجامعيّة* .

* * *

لا مراء فـي أنّ طه حسين، وهو يعمل في سبيل نهـضـة مـصـر السّياسيّة والثقافيّة والاجتماعـيّة، قد ساهم في نهضة العالم العربيّ كلّه سياسيّاوثقافيّا واجتماعيّا. عاصر طه حسين، بداية من سنة 1902 تاريخ وصوله إلى القاهرة وإلى غاية سنة 1973 تاريخ وفاته، عاصر خلع الخديوي، وتعويضه بسلطان، ثم تغيير نظام السلطنة بـنـظـام ملكي، ثم انقلاب ثورة 1952 على الملكيّة وتأسيس الجمهوريّة.

وقد حدثت لغير مصر من البلاد الـعـربّة تحـوّلات جذريّة حين نالت استقلالها السياسي ودعمت هويّتها ووحدتها الثقافيّة العربيّة. وقد أحدثت الحربان الكونيّتان تغييرات تاريخيّة وسياسيّة واجتماعيّة وثقافيّة أيضا لم يكن العالم العربيّ في معزل عنها . ترى كيف يمكن لنا أن نضبط تأثير رجل عاش مـدّة عقود الحرب والسّلم، والتطّور والثورة، والتّقدّم والتقهقر ؟

لقد بكى مئات الآلاف من الـنّاس طه حسين، هذا الذي أنجبته مصر، لأنّه وهبهم الثّقة والأمل. وشهدت بلاد عربيّة أخرى حفلات

* كان ذلك سنة 1957 ، بدعوة من وزير التربية التونسي آنذاك، للإشراف على لجنة الامتحانات الجامعيّة في اللغة والآداب العربيّة.

تأبين كثيرة وظهور منشورات معترفة هذه وتلك بأنّه من كبار صانعي النهضة العربيّة.

أليس أمرا فائق الدّلالة أن يكون آخر نبإ يبلغ طه حسين يفيد بأنّ منظمة الأمم المتّحدة منحته ، وذلك قبل وفاته بيومين، جائزة حقوق الإنسان اعترافا بالكفاح الذي خاضه، للذّود عنها، هذا المواطن العالميّ الأصيل ؟

(نقلت هذا المقال من الانكليزية إلى الفرنسية)

ليلى العلايلي



الإنسانويّة العربيّة الحديثة
أو دفاع عن الثقافة العربيّة
في آثار طه حسين (1889 ـ 1973)*

بقلم رئيف جورج خوري **

أمر مهمّ أن نتحـدّث عن طه حسين وأن نعود إلى الحديث عنـه

* Raif Georges Khoury : "L'Humanisme arabe moderne ou la défense de la culture arabe dans l'oeuvre de Tâhâ Husayn (1889-1973)", *Kairoer Germanistische Studien*,, Band 10, Kairo,1997,pp.367-389.

هذا الفصل هو نصّ البحث الذي قدمه رئيف جورج خوري إلى مجلة *«دراسات ألمانيّة قاهريّة»* *(Kairoer Germanistische Studien)* ـ وهي حوليّة الدراسات الألمانية *(Jahrbuch für Germanistik)* في مجلدها العاشر الصـادر سـنـة 1997 ، والمهـداة أبحاثه إلى الأستاذ مصطفى ماهـر. وهذا البحث، في الأصل، هو محاضرة ألقاها المؤلف ضمن سلسلة من المحاضرات نهض بها في الكوليج دي فرانس(Collège de France) في شهري أفريل وماي من سنة 1989 . والمحاضرة ذاتها صيغة مدمجة وموسّعة جدّا لمداخلتين اثنتين : واحدة ألقاها جورج خوري في المؤتمر التّاسع عشرللمستشرقين الألمان المنعقد في مدينة فريبورغ الألمانيّة (Freiburg) بتاريخ 04. 10 . 1975 ونشرتها مجلة ZDMG في عددها سنة 1977 ص 487 ـ 495 . والأخرى ألقاها في ندوة انعقدت في مدينة بوردو الفرنسيّة (Bordeaux) في شهر ديسمبر سنة 1989 ونشرت في الكتاب الذي جمع أشغال الندوة وصدر سنة 1991، ص 29 ـ 64.

** رئيف جورج خوري (Raif Georges Khoury) محرز لدكتورا الدّولة في الآداب من جامعة السوربون. اضطلع بالتدريس في الجامعات الفـرنـسـيـة أوّلا ثمّ عيّن=

مرارا، خصوصا في فترة تنزع فيها بعض الأوساط إلى إغفاله. أمن الحقّ أن ننسى أنّه يرفع من شأن البلـــد الذي ينتمي إليه وثقافته. إنّه مثقّف مبرّز قاوم الجهل علـى اختلاف أشكاله، وظلّ مع ذلك وفيّا

=أستاذا للأدب العربي ومديرا لقسم الدّراسات العربيّة والاسلامية في جامعة هيدلبرغ (Heidelberg) بألمانيا، وهو أستاذ زائر في الجامعات الأوروبيّة والأمريكيّة والشرقية وعضو مراسل للمجامع العربيّة.

اهتمّ رئيف خوري بدراسة البرديات ـ والبرديات العربية خاصة ـ وتحقيقها ونشرها. وفي هذا الإطار أشرف على مشاريع نشر مجموعة وثائق البرديات العربية في هيدلبرغ (5 مجلدات إلى الآن) وفي النمسا (مجلدان إلى الآن).

ولخوري حوالي 18 كتابا وأكثر من 100 بحث في الدوريات المختصة وفي الموسوعات ودوائر المعارف في موضوع الثقافة العربيّة الاسلاميّة في العصور الأولى للإسلام (حول : حياة الرسول ـ مقتل الخليفة عثمان ـ الحياة الخاصة، والحياة الإداريّة، والحياة الاجتماعية في الاسلام ـ تطور الأدب العربي) وفي موضوع النهضة والعصر الحديث (حول قضايا التراث، والحداثة، والهويّة الثقافيّة، واللغة العربيّة، وتطوّر الأدب الحديث والمعاصر).

من مؤلّفات رئيف جورج خوري :

ـ سيرة الرسول بقلم وهب بن منبه (أقدم سيرة محمّدية)، بحث بالألمانية مع ترجمة إلى الألمانية لنص السيرة، ويسبادن، 1972 .

ـ الأساطير المتعلّقة بالسيرة المحمدية في الاسلام من القرن الأول إلى القرن الثالث حسب مخطوط لأبي رفاعة مع تحقيق وترجمة (بالألمانية)، ويسبادن، 1978 .

ـ عبد الله بن لحية، ويسبادن، 1986 .

ـ في الإسلام (الدين. الثقافة. التاريخ) (بالألمانية)، مانهايم ، 1993 .

ـ ماضي الثقافة العربية وحاضرها، (بالفرنسية)، هيدلبرغ، 1997 .

ـ مي زيادة : بين التراث والحداثة، هيدلبرغ، 2000 (يصدر قريبا).

كتب رئيف خوري عدّة أبحاث عن عميد الفكر العربي طه حسين في لغات مختلفة منها هذا البحث الذي نترجمه ومنها بحثه عن «طه حسين وفرنسا» في مجلة *«أرابيكا»*.

Raif Georges Khoury : "Tâhâ Husayn et la France", *Arabica,* 22, (1975), pp. 225-266.

لثقافته الأصليّة القديمة والمعاصرة ، هذه الثقافة التي سعى إلى أن ينهض بها وأن يضعها باعتزاز في مصاف ثقافات العالم دون تصدّع ولا تمزّق محافظا لها بذلك على هويتها مستكملة.

ومن حسن الحظ أنّ تلاميذ طه حسين في أرجاء العالم ما يزالون كثرا، وأنّ أهميّة الحركة الفكريّة التي نشأت على يديه في الأدب العربي الحديث، عبّر عنها أحسن تعبير شكري فيصل في المقدّمة التي وضعها لأعمال طه حسين الكاملة، والتي سأتخذها (أي هذه المقدّمة) أنا سبيلا إلى سوق الملاحظات القليلة التالية المتعلّقة بالمعلّم المصري الكبير، قال شكري فيصل :

«ظلّت كتب الدكتور طه حسين وآثاره ومؤلّفاته مثار الدراسات الأدبيّة المعاصرة ومصدرها. وكانت كثرة من هذه الدّراسات والرسائل والكتب في نطاق الجامعة أو قريبة منها متأثّرة به أو مستوحاة منه، مؤيّدة له أو معارضة لبعض اتجاهاته.

ولم يعرف تاريخ الأدب العربي هزّة تشبه الثورة وحركة أقرب إلى التجديد كهذه الهزّة التي فجّرتها مباحث الدكتور وآراؤه، على ما كان يخالطها من عنف حينا ومن جرأة حينا ومن تجاوز في بعض الأحايين.

وأغلب الظنّ أنّ دهورا طويلة ستمضي قبل أن يستنفد الباحثون العرب مناحي البحث التي فتح الدكتور طه أبوابها

أو مـدّ آفاقها أو دعا إليها »[1]*.

لقد أراد زميلنا الفقيد شكري فيصل أن يعـبّر بهذه الكلمات عن تقديره الفائق لأستاذه المصريّ في صيغة مقدّمة لأعمال طه حسين الكاملة** رغبة منه في وضع هذه الآثار بين أيدي الباحثين والطلاب في كليات الآداب العربيّة.

إنّ الموضوعات التي عالجها طه حسين كثيرة متنوّعة حتّى أنّه خليق فعلا، لأجل ذلك، بأن ينعت لا فحسب «عميد الأدب العربي» كما تعوّد الناس أن يلقّبوه، ولكن بأن يدعى «عميد الفكر العربـي» كما أحسن صنعا، عندما ذكر ذلك ،عمر مقداد الجمني بتوجيه من البروفسور منجي الشملي ، الذي أشرف على رسالته لنـيـل درجـة الدكتورا في كلية الآداب بمنوبة ـ تونس ، وعنوانـهـا «*طه حسيـن*

---

1) شكري فيصل : من *تاريخ الأدب العربي* (العصر الجاهلي والعصر الاسلامي) المجلد الأوّل، بيروت : دار العلم للملايين، ص 5 (انتهى).

* طه حسين : «*من تاريخ الأدب العربي*»، ط.1، بيروت : [ثلاثة أجزاء : ج1 : 1970، ج 2 : 1971 ،ج3 : 1974] ج1، المقدّمة ص 5 ـ 7 .

** ظهر الكتاب الذي يحمل هذا العنوان في ثلاث مجلدات هي على التوالي :

المجلد الأول (1970) العصر الجاهلي والاسلامي

المجلد الثاني (1970) العصر العباسي الأوّل

المجلد الثالث (1971) العصر العباسي الثاني

وفصول هذا الكتاب هي ذاتها فصول كتاب «*في الأدب الجاهلي*» وكتاب «*حديث الأربعاء*» بالإضافة إلى فـصـول أخرى لطه حسين لم تنشر من قبل ومـحـاضـرات ألقاها غير مجموعة. وقد نهض لجمع هذه الفصول والمحاضرات الأديب والباحث السوري شكري فيصل. وهو من تلاميذ طه حسين في الجامعة المصريّة.

مؤرّخا»[2]*. وكم هي عميقة المعنى كلمات زميل تونسيّ آخر جاءت في فصل له منشور في الكتاب المجموع الذي أصدره المجمع التونسي بيت الحكمة في ذكرى مائويّة ميلاد طه حسين الناقد الأدبيّ، والتي بها نبّه إلى ثراء أسلوب هذا الكاتب وإلى قيمته الخاصّة، ومعلوم أنّ هذا الأسلوب لم يحظ إلى الآن إلاّ بدراسات جزئيّة متفرّقة ومتفاوتة القيمة والذي ما يزال جديرا بدراسة عميقة دقيقة وبرؤية تأليفيّة شاملة [3].

يبدو لي اليوم من المهمّ، أكثر من ذي قبل، أن نتعمّق في الرؤية الثقافيّة لدى هذا الناقد الأدبيّ المصريّ القدير : وذلك لأنّه، فضلا

---

2) عُمَر مُقداد الجِمني : «*طه حسين مؤرّخا*» جزآن تونس قرطاج : منشورات المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون «بيت الحكمة»، 1993، 745 ص. وهو بحث منجز بوافر الإتقان، وهو أوّل بحث من نوعه يستوفي دراسة موضوع «*طه حسين مؤرّخا*» (انتهى).

* هذا البحث هو تحديدا رسالة جامعيّة لنيل درجة شهادة التعمّق في البحث (دكتورا حلقة ثالثة) أعدّها عُمَر مُقداد الجِمني في كليّة الآداب بمنوبة ـ تونس، وأشرف عليها البروفسور منجي الشملي، ونوقشت يوم 11 جويلية 1989 أمام لجنة علميّة متركّبة من الأساتذة : فرحات الدشراوي وجمعة شيخة ومنجي الشملي. وهذا البحث واحد من مجموعة رسائل جامعيّة حول طه حسين أنجزت لنيل درجات علميّة أو هي بصدد الإنجاز. ومن هذه الرّسائل ما هو منشور ومنها ما ينتظر، وقد أنجز جلّها باقتراح البروفسور منجي الشملي وإشرافه.

3) محمد الهادي الطرابلسي : «*جوامع الأسلوب في أدب طه حسين*»، ضمن كتاب : «*مائويّة طه حسين*»، وقائع ندوة بيت الحكمة بقرطاج 27 ـ 28 جانفي 1990، ط. 1 ، تونس ـ قرطاج : منشورات المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة، 1993، ص 135 ـ 169 .

عن كونه عنصرا من أبرز العناصر التي أسّست الثقافة العربيّة الحديثة، فإنّ موقفه انخرط في منهج التفكير القائم ضمن الحضارة الإسلاميّة الكلاسيكيّة، وقد يكون منبع إلهام للمثقفين الشبان العرب في الذود عن هويتهم الثقافيّة الأصليّة. ولكنّ طه حسين، ما أن اتّصل بالفكر الأوروبي وبمنهج التحليل الأدبي وبالآفاق التي بإمكان هذا المنهج أن يفتحها أمامه حتّى ألقى بنفسه في معركة حقيقيّة ذودا عن الثقافة [العربيّة]، فكانت ثمرتها الأولى كتابه «*في الأدب الجاهلي*» [4]، كتاب ثارت حوله ضجّة كبيرة نتيجة ما جاء فيه خاصّة حول صحّة الشعر الجاهلي، وهي قضيّة أصرف عنها النظر تماما في هذا البحث *.

---

[4] ـ *سأستعمل في هذا البحث الطبعة التاسعة من كتاب طه حسين : «في الأدب الجاهلي»*، الصادرة عن دار المعارف بالقاهرة سنة 1968 . أمّا الطبعة الأولى فكانت صدرت عام 1926 .

* للتّذكير صدر هذا الكتاب أوّل مرّة في القاهرة سنة 1926، وهو خلاصة دروسه التي ألقاها على طلاب السنتين الأولى والثانية في كلّية الآداب في موضوع الشعر الجاهلي خلال العام الدراسي 1925 ـ 1926 ، بالجامعة المصريّة . ثمّ جمع هذه الدّروس ونشرها في كتاب عام 1926 بعنوان «*في الشعر الجاهلي*» عن دار الكتب المصريّة، وقد أنكر المؤلّف في هذا الكتاب الكثرة المطلقة مما يسمّى شعرا جاهليا باعتباره شعرا منحولا، انتحله الرواة، فيما يرى، خلال القرن الثاني للهجرة بدوافع مختلفة. كما أنّه وضع بعض المعتقدات الدينيّة التي عرضت له أثناء البحث موضع الشك والنقاش فكانت الضجّة الكبرى وكان الاستنكار : احتج الأزهر، واحتجت الجامعة، وعمّ السخط، وسحب الكتاب، وانتهى الأمر بالقضيّة أمام مجلس النواب. فوقعت المطالبة بعزل المؤلّف عن وظيفته . ثمّ أحيلت القضيّة على النيابة العموميّة للتحقيق مع المؤلّف لكنّها انتهت بحفظ ملفّ القضيّة . وفي عام 1927 أعاد المؤلّف نشر الكتاب بعد أن حذف منه فصلا وأثبت مكانه فصلا آخر وأضاف إلى الكتاب=

وعلى الرّغم من ضعف عنصر البرهنة في موضوع هذا الشعر، هذا الضعف الذي عرضه ريجيس بلاشير (Blachère) عرضا جيّدا

=فصولا، وغيّر العنوان قليلا فصار *«في الأدب الجاهلي»*. انظر لمزيد التوسّع:
- خيري شلبي: *محاكمة طه حسين*، بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، 1972.
- نجاح عمر: *طه حسين أيام ومعارك*، بيروت - صيدا: منشورات المكتبة العصريّة، د.ت.
- *طه حسين: العقلانيّة، الديمقراطية، الحداثة*، قضايا وشهادات (كتاب غير دوري) عدد 1، قبرص: مؤسسة عيبال للدّراسات والنشر، د.ت.، القسم الثالث: طه حسين وأزمة *«في الشعر الجاهلي»* ص 295 - 494.
- خالد سليمان: «عودة إلى كتاب *«في الشعر الجاهلي»*»، مجلّة المعهد المصري للدّراسات الاسلاميّة (مدريد)، مج24، 1987 - 1990، ص 109 - 121.

ويرى البروفسور منجي الشملي أن كتاب *«الأيّام»* لطه حسين هو سليل كتاب *«في الشعر الجاهلي»* وسليل المعركة التي دارت حوله. قال:

«... كان صمته فكرا وأملى كتاب *«الأيّام»* ونشره فصولا في مجلة *«الهلال»* من ديسمبر 1926 حتى جويلية 1927، ثمّ جمعها سنة 1929. لا جدال في أنّ هذا الكتاب من روائع الأدب العالمي. ونحن على مثل اليقين بأنّه ما كان ليظهر لو لم تقم تلك الضجّة الكبرى سنة 1926. إنّ *«الأيّام»* من وحي قضية كتاب *«في الشعر الجاهلي»*. إنّ *«الأيّام»* معان كانت قائمة في صدر طه حسين، متخلجة في نفسه، كامنة في ضميره، فاض بها خاطره. إنّه نداء لاستصفاء الحساب في الحياة المصريّة بعاداتها الموروثة، وتقاليدها الهرمة، ومقدّساتها الموهومة. إنّ *«الأيّام»* قضيّة قانونيّة ردّا على من دبّروا قضية *«في الشعر الجاهلي»*...».

منجي الشملي

الفكر والأدب في ضوء التنظير والنقد، ط.1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985، ص 98.

في الجزء الأوّل من كتابه «*تاريخ الأدب العربي*»[5]، فإنّ الصفحات الأولى من كتاب «*في الأدب الجاهلي*» تتضمّن تأمّلات بارعة في الأدب والثقافة تجعل من طه حسين أحد ممثّلي الإنسانويّة العربيّة الحديثة البارزين.

لقد قالوا كثيرا عن هذا الكتاب وعن مضمونه ، ولكنّهم لم يقولوا ما يفي بالغرض عن أهميّة آراء طه حسين المتعلّقة بالثقافة وبالأدب عموما، هذه الأهميّة التي ترجعنا إلى الماضي الاسلامي كما ترجعنا على كلّ حال إلى النماذج الأوروبيّة التي استلهمها في نقده الأدبي. ولنا أن نلخّص هذه الآراء في عبارة «الإنسانويّة العربيّة»(Humanisme arabe) .

لقد ظهرت الأمارات الأولى لهذه الإنسانويّة في العصر الحديث قبل طه حسين كما سنعرض ذلك عرضا واضحا فيما بعد ، على أنّ ذلك لا ينال من أهميّة ما قدّمه في هذا المجال.

يشرع المؤلّف في بداية «الكتاب الأول» من هذا الأثر بوصف مجمل لدرس الأدب في مصر (وسنرى في موضع آخر من هذا البحث ماذا يعني المؤلّف بلفظ «*الأدب*»)[6]. لاحظ طه حسين أنّ درس الأدب كان على مذهبين : أحدهما مذهب القدماء، أي مذهب اللّغويين والنقاد في البصرة والكوفة وبغداد «مع ميل شديد إلى النقد والغريب، وانصراف شديد عن النحو وما ألف الأزهريون

---

5) Régis Blachère : *Histoire de la littérature arabe,* tome 1, Paris 1952

6) طه حسين : «*في الأدب الجاهلي*، ص 7 .

من علوم البلاغة»[7]. وأمّا المذهب الآخر فمذهب الأوروبيين الذي أدخلته الجامعة الأهليّة «بفضل الأستاذ نلينو(Nallino) ومن خلفه من المستشرقين والذي كان ينحو في درس الآداب العربيّة نحو النقّاد ومؤرّخي الآداب حين يعرضون لدرس الآداب الأوروبيّة الحيّة أو الآداب الأوروبيّة القديمة»[8]. وهذان المذهبان كلاهما ضروري «إذا أردنا أن نتقن الآداب العربيّة إتقانا صحيحا ونفقه تاريخها فقها مقاربا وننشئ في نفوس الطلاّب ملكة النقد والكتابة ونأخذهم بمناهج البحث المنتج»[9] .

ولكن طه حسين لاحظ وجود مذهب ثالث، قال عنه :

« [هو مذهب] مشوّه، ردئ كلّه، شرّ، والخير كلّ الخير في أن يصرف عنه الأساتذة والطلاب صرفا، وهو هذا المذهب الذي كان قائما في مدرسة القضاء ودار العلوم وفي المدارس الثانويّة المصريّة كلّها، والذي لا يأخذ بحظ من أسلوب القدماء في النقد ولا من أسلوب المحدثين في البحث، وإنّما يحاول أن يقلّد الأوروبيين فيما يسمّونه تاريخ الآداب، فيعمد إلي الكتاب والشعراء والخطباء والفلاسفة فيترجم لهم أو يختلس لهم ترجمة من كتب الطبقات على اختلافها، ثم يتبع كلّ ترجمة بشيء من شعر الشاعر أو نثر الكاتب أو بيان الخطيب، ثم يلمّ في كل عصر بطائفة من المعاني يلفّق بعضها

7) م،ن. ، ص .ن ، السطران 6 ـ 8 .

8) م.ن. ، ص. ن ، الأسطر 8 ـ 11 .

9) م،ن. ، ص.ن، الأسطر 11 ـ 14 .

إلى بعض في غير فقه ولا فهم ولا احتياط ولا دقّة ويسمّى هذا الخليط كلّه «أدب اللغة العربيّة» حينا و«تاريخ أدب اللغة العربيّة» حينا آخر»[10]

لا يخفى على القارئ أنّ طه حسين غير مطمئن لنظام التعليم في مصر، وأنّه كان حريصا ، منذ ذلك الطور من حياته، على إصلاحه إصلاحا شاملا. فاجتهد في إبراز نقائصه الوخيمة العواقب على حياة البلاد ومستقبلها. ولذا لم يكن يرى سبيلا للنجاة إلاّ القيام بإصلاح «محتوم لا مفرّ منه » [11].

وأنا لا أطيل الحديث في هذا الموضوع إلاّ لأعرض المناهج التي يقترحها طه حسين لمراس النصوص الأدبيّة مراسا مفيدا حتّى يتهيّأ التلاميذ والطلاب أحسن تهيئة لبناء مستقبل ثقافي أفضل لوطنهم. ولنا الآن أن نتابع تحليله الاستدلالي [يقول] :

« لهذا الإصلاح سبيلان : إحداهما تعلّة نلجأ إليها الآن مضطرين، لأننا لا نجد خيرا منها، فلا بدّ لنا من أن نتعلّل بها، حتّى نستطيع أن نصل إلى السبيل الثانيّة، وهي القويمة المتينة المنتجة.

فأمّا الأولى فهي أن نجتهد ما استطعنا في أن نحبّب إلى طلاّب المدارس العالية وتلاميذ المدارس الثانويّة والابتدائية قراءة النصوص العربيّة وتفهّمها، ونقرّب إليهم هذه

---

10) م.ن. ، ص.ن. من السطر 15 إلى ص 8 السطر 7 .

11) م.ن. ، ص 13 (انظر الفصل الثاني بعنوان «سبيل الإصلاح»)

النصوص، ونحسن لهم اختيارها، ونظهرهم علـى أنّ الأدب العربي ليس ـ كما يمثّله لهم معلّموه من الشيوخ ـ جافّا جدبا عسير الهضم، لا سبيل إلى إساغته ولا إلى تذوّقه، وإنّما هو على عكس هذا كـلّه ليّن هـيّن خصب لذيذ، فيه ما يرضـي حاجة الشعور، وفيه ما يقوّم عوج اللسان، وفيه ما يصلح من فساد الخلق، وفيه ما يرضي حاجة الإنسان في حياته الفرديّة والمنزلـيّة والوطنـيّة والإنسانـيّة أيضا. وإذا كان الشيوخ مـن المعلّمين قد عجزوا إلى الآن عن أن يظهروا تلاميذنا وطلاّبنا على هذه النواحي العذبة الخصبة من أدبنا العربي، فلا أقـلّ من أن تلجأ وزارة المعارف الى الذين يستطيعون أن يعرضـوا على شبابنا هذه الصورالجذابة الحلوة من هذا الأدب البائـس بأهله ومحتكريه. نعم! يجب أن تلجأ وزارة (المعارف) إلى طائفة من الفنيين الذين يدرسـون الأدب الـعـربـي فـي ذوق، ويقرؤون اللغة العربـيّة في فهم وفقْه، ويـتّخذون منهما ومن العناية بهما لذة ومتعة، لا وسيلة إلى العيش وقبض الـراتـب آخر الشهر»[12].

هو ذا ناقد أدبيّ منهمك في إعداد مناهج عمليّة للتعليم قمينة بإنقاذ الثقافة عامة. وهكذا يقودنا إلى مسألة العلاقات بين «الثقافـة ودرس الأدب» وهذه المسألة هي موضوع الفصل الثالث من الكتاب الأوّل[13]، وقد ألحّ فيها إلحاحا كبيرا للأسباب التالية: [قال]:

12) م.ن.، ص.ن. من السطر 16 إلـى ص 14 السطر9 (لا السطر 11 كما جـاء ذكره في النصّ الأصلي الفرنسي).

13) م.ن.، ص 18 (الفصل الثالث بعنوان: «الثقافة ودرس الأدب»)

«ولم أذكر شيئا آخر كان ينبغي أن يجيء قبل هذا كلّه، لأنّه أساسيّ لا لدراسة الأدب وحده، بل لكلّ دراسة علميّة قويّة منظّمة، وهو هذه الثقافة العامّة المتينة، التي لا يستطيع أن يستغني عنها طالب الأدب، كما لا يستطيع أن يستغني عنها كلّ إنسان يريد أن يعيش عيشة راقية في بيئة راقية. ولعلّ حاجة الأدب إلى هذه الثقافة أشدّ من حاجة الدراسات الأخرى على اختلافها، فالأدب متّصل بطبيعته اتصالا شديدا بأنحاء الحياة المختلفة سواء منها ما يمسّ العقل وما يمسّ الشعور وما يمسّ حاجاتنا الماديّة. والأدب بطبيعته شديد الحاجة إلى المقارنات والموازنات. وليس من سبيل إلى التعمّق في الأدب على هذا النحو إلاّ إذا كان الطالب قد تمكّن من هذه الثقافة المتينة الواسعة العميقة. وكيف السبيل إلى درس الأدب العربي إذا كان الطالب يجهل ـ كما يجهل طلابنا وشيوخنا ـ آيات الأدب الأجنبيّ قديمه وحديثه، هذه الآيات التي أثّرت في حياة الإنسانيّة كلّها، والتي تغلغل العلم بها في طبقات الشعوب الغربيّة كافة ؟! ولقد يكون من العسير أن تجد في مصر شيخا من شيوخ الأدب قد قرأ هوميروس (Homère) أو سوفوكل (Sophocle) أو أرسطوفان (Aristophane) فضلا عن شكسبير (Shakespeare) أو تلستويْ (Tolstoi)أو إبْسنْ(Ibsen) ، ذلك عسير إن لم يكن مستحيلا. وما رأيك في أنّك لا تكاد تجد في فرنسا أو ألمانيا أو إنجلترا شابّا من أوساط الناس لا يختصّ في

الأدب ولا يعنى بدراسته، دون أن يكون قد ألمّ من هذا كلّه
بحظ لا بأس به»[14]

وقد كان لهذه التأمّلات أن قادته إلى أن ينكر على شيوخ الأدب تقصيرهم حتّى «فيما كان القدماء أنفسهم يرونه أمرا لا منصرف عنه، فقد كان القدماء من أدباء العرب يرون ـ وشيوخ الأدب في مصر يعرفون ذلك ـ أن الأدب هو الأخذ من كلّ شيء بطرف. وليس لهذا معنى إلاّ أنّ القدماء كانوا يتّخذون الثقافة المتينة الواسعة أساسا لكلّ بحث أدبيّ منتج»[15].

إنّ الأمثلة التي استقاها من العصور الكلاسيكيّة متعدّدة، والغاية هي بيان أن الكتّاب المسلمين القدماء لهم صورة صادقة في هذا الوصف الذي عرضه : فالجاحظ وأمثاله من أدباء البصرة والكوفة وبغداد وغيرها من الأمصار يتقنون العلوم القديمة من لغة وأدب وفقه وحديث ورواية وهم، إلى ذلك كلّه، كانوا يتقنون كلّ جديد ويحسنون التصرّف في كثير من فنونه، [يقول] :

«كانوا يحسنون فلسفة اليونان وعلومهم، وسياسة الفرس، وحكمة الهند، وكانوا يحسنون التاريخ وتقويم البلدان. كانوا يأخذون من كلّ شيء بطرف. فكانوا أدباء وكانوا كتّابا. واستطاعوا أن يتركوا لنا هذا التراث الخالد. ولو عاش الجاحظ في هذا العصر لحاول إتقان الفلسفة الألمانيّة والفرنسيّة، كما حاول في عصره إتقان فلسفة اليونان» *.

14) م.ن.، ص.ن. من السطر 15 إلى ص 19 السطر 11 .
15) م.ن.، ص 19 من السطر 12 إلى السطر 17 .
* م.ن.، ص 19 من السطر 22 إلى ص 20 السطر الأوّل.

إنّها صورة نحن أبعد ما نكون منها اليوم لأن الشيوخ يجهلون الماضي الثقافي ذاته فمن الطّبيعيّ إذن أن يجهلوا الأشياء الحديثة.
ويواصل طه حسين قائلا :

«وإذا كانوا يجهلون القديم العربي، فكيف سبيلهم إلى الجديد الأوروبي، فضلا عن القديم اليوناني واللاّتيني والسامي» [16].

إنّ أوج تفكير طه حسين في هذه المسألة نلفيه في الصفحات البديعة الرائعة القائمة في الفصل الرابع بعنوان «الأدب» [17] *.

---

16) ـ م،ن. ، ص 20 السطران 6 ـ 7 .
17) ـ م،ن. ، ص 22 (الفصل الرابع «الأدب») (انتهى) .
* مسألة مهمّة هذه التي يثيرها كاتب المقال هنا. فالثقافة بهذا المعنى الذي أدركه طه حسين مفهوم من المفاهيم المركزيّة التي تأسّس عليها تفكيره. ولعلّ الخطاب الذي ألقاه طه حسين حين كان رئيس اللجنة الثقافيّة الدائمة التّابعة لمجلس الجامعة العربيّة، سنة 1955، في حفل افتتاح المؤتمر الثقافي التّاسع بجدّة يعبّر أحسن تعبير عن هذا المفهوم، قال :
«الثقافة عندي لا حدّ لها، وهي لا وطن لها أيضا، وهي لا تنتهي عند غاية من أيّ قطر من أقطارها، وهي منوّعة إلى أقصى ما يكون التنويع، ولا حرج عليّ ولا جناح في أن أتصوّر الثقافة العربيّة على هذا النحو، فقد علّمتنا الثقافة العربيّة هذا كلّه. وعن العرب أخذنا هذا كلّه، وقد أمرنا الإسلام بأن نتبصّر في كلّ شيء، وأن ننظر إلى كلّ شيء، نظر من يريد الفقه والعلم، وأن لا ندع شيئا نستطيع أن نعرفه إلاّ عرفناه. . .وألاّ ندع علما إلاّ أذعناه وأفدنا به غيرنا من النّاس.
على هذا النحو من الثقافة، على هذا النحو الذي رسمه الاسلام للمسلمين أتصوّر الثقافة.
«خطاب جامع للدكتور طه حسين»
رئيس اللجنة الثقافيّة ورئيس المؤتمر الثقافي في حفل افتتاح دورته التّاسعة بقصر الكندرة *المنهل* (جدّة)، ج6، فبراير1955، ص 268

في هذا الفصل يبدأ طه حسين بتعريف هذا اللفظ «أدب» دون أن يغفل الاستفادة في ذلك من المحاضرات التي كان سمعها في الجامعة الأهليّة وفي فرنسا. وبعد أن عرض تعريفات مختلفة يعود إلى المعاني التي أفاض القول فيها خلال الفصول السابقة. هنا يعبّر طه حسين عن فكره الإنسانويّ الحقّ، المشبّع بثقافات عدّة عربيّة وأوروبيّة، كما يرسم مسلكا قويما لكلّ الشباب الطامح إلى تحقيق تطوّر سليم. إنّ دروسه التي لم تنفكّ يومئذ ذائعة الصيت في مصر وخارجها، كانت النموذج الحيّ الذي يجمع على غرار الماضي العربي القديم بين المظهر النظري والمظهر التطبيقي التجريبي من أجل تحقيق فهم أيسر، وبلوغ أفضل جدوى ـ فلنقرأ ما كتب بالصدد:

«ولكن يجب أن تعود فتفكر فيما قدمت بين يديك في صدر هذا الكتاب من أنّ الأدب كغيره من العلوم لا يمكن أن يوجد ولا أن يثمر إلاّ إذا اعتمد على علوم تعينه من جهة، وعلى ثقافة عامة متينة عميقة من جهة أخرى. فقد ضربت لك الأمثال بعلوم طبيعيّة يتّصل بعضها ببعض ويحتاج بعضها إلى بعض، دون أن يكون بعضها من بعض. فالطبيعة محتاجة إلى الرياضة دون أن تكون الرياضة فصلا من فصول الطبيعة، أو الطبيعة فصلا من فصول الرياضة. وهنا يظهر الفرق بين الأدب وتاريخ الأدب. فالأدب مأثور الكلام كما قدّمنا، والأديب الذي يعني بالأدب من حيث هو أدب يستطيع ألاّ يتجاوز هذا الكلام الجيد نظما كان أو نثرا. ولكنّ مؤرّخ الأدب لا يستطيع أن يكتفي بمأثور الكلام، ولا بهذه العلوم

والفنون التي تتّصل بمأثور الكلام اتصالا شديدا لتمكّننا من فهمه وتذوّقه، وإنّما هو مضطر إلى أن يتجاوز هذا الإنسان من حيث هو حيوان ناطق يجب أن يعرب عمّا في نفسه بصورة كلاميّة فنيّة، فهو مضطرّ إلى أن يدرس تاريخ العقل الإنساني، وهو مضطرّ إلى أن يدرس تاريخ الشعور. ولنعد إلى التبسط فنقول إن مؤرّخ الآداب مضطرّ إلى أن يلمّ بتاريخ العلوم والفلسفة والفنون الجميلة، وتاريخ الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة أيضا، إلماما يختلف إيجازاوإطنابا ويتفاوت إجمالا وتفصيلا باختلاف ما لهذه الأشياء كلّها من تأثير في الشعر والنّثر أو تأثّر بهما. ومن هنا لا يكتفي مؤرّخ الآداب اليونانيّة بما قدّمنا، بل هو يدرس الفلسفة اليونانية، ويدرس تاريخ النظم السياسيّة اليونانية على اختلافها، ويدرس تاريخ الحياة الاقتصاديّة اليونانية. ولا تظنّ أنّا نسرف أو نغلو، ولكنك لن تفهم قصص أرسطوفان المضحكة، بل لن تفهم منها شيئا إلاّ إذا ألممت إلماما واضحا بكل هذه الأنحاء من الحياة الأتينية في القرن الخامس قبل المسيح.»[18]

يعمد طه حسين إلى هذا الإيضاح المفحم، الموجّه إلى عالم شرقي قديم في حين كان الغرب لا يزال يعيش بصفة كأنّها طبيعيّة على المبادئ التي يعلنها هنا. فيضرب لذلك مثلا ، هو اليوم قد أصبح كلاسيكيّا في تاريخ الأدب العربي المعاصر، ذودا عن الانفتاح

18) م.ن.، ص 29 من السطر 18 إلى ص 30 السطر 14 .

الثقافي وبالتّالي عن الإنسانويّة، وهذا المثل هو بيت من الشعر شهير لأبي نواس من قصيدته التي خاطب بها النّظام المعتزلي قائلا :

دع عنك لومي فإن اللّوم إغراء * وداوني بالتي كانت هي الدّاء**

ولكنّه لم يذكر من البيت سوى المصراع الأوّل :

دع عنك لومي فإنّ اللّوم إغراء

ثمّ يضيف قائلا :

«فهل تزعم أنّك تستطيع أن تفهم همزيّة أبي نواس «دع عنك لومي الخ . . . » دون أن تعرف النظام* خاصة، والمعتزلة عامّة، وما كان لهم من مذهب وقوّة أيّام أبي نواس ؟ وكيف تستطيع أن تفهم قوله :

فقل لمن يدّعي في العلم فلسفة

حفظت شيئا وغابت عنك أشياء

إذا لم تعرف أنّه يريد النظّام ؟ فإذا عرفت أنّه يريد النظّام فأنت في حاجة إلى أن تعرف من النظّام، ولم عرّض به أبو نواس. فسترى أن النظّام كان من المعتزلة الذين يقولون إن صاحب الكبيرة مخلّد في النّار، وإذا كان شرب الخمر كبيرة

---

* النّظام : هو إبراهيم بن سيّار (توفي سنة 231 هـ / 845 م) متكلّم من المعتزلة ومن تلاميذ أبي الهذيل العلاّف. نشأ النّظام في البصرة وفيها تلقى العلم أوّلا ثم انتقل إلى بغداد حيث أقام ومات. وإلى ابراهيم بن سيّار النظّام تنسب فرقة معتزليّة تدعى بـ «النظاميّة» ، وهو أستاذ الجاحظ .

فصاحبها مخلّد في النّار. وإذن فأنت في فلسفة النظّام، وأنت متعمّق في فلسفة المعتزلة، وأنت مضطرّ إلى ذلك اضطرارا، مضطرّ إلى أن تدرس التوحيد واختلاف أهل السنة والمعتزلة فيه، لتفهم خمريّة من خمريّات أبي نواس»[19].

وما إن يفرغ طه حسين من هذا المثل البليغ المفحم حتى يرجع إلى الضرورات التي لا غنى لتاريخ الأدب عنها، ومعلوم أنّ هذا الكاتب محيط بأدب كبار كتّاب العصور الكلاسيكيّة، من ذلك أن أبا نواس ماثل في كثير من كتب طه حسين، وماثل كذلك في الجزء الثالث من كتاب *«الأيّام»*، جزء الختام *. عن تلك الضرورات يقول :

«تاريخ الآداب إذن لا يكتفي بالآداب، وإنّما هو يورّخ معها كلّ شيء وأيّ غرابة في هذا ! فهل يكتفي تاريخ الحياة السياسيّة بالحياة السياسيّة ؟ أليس هو مضطرًا إلى أن يؤرّخ الأدب والعلم والفلسفة والاقتصاد والفنون ليعينك على أن تفهم هذه الحياة السياسيّة ؟ وهل يستطيع أن يفعل غير هذا ؟ ومتى كانت حياة الانسان مقسّمة إلى هذه الأقسام المنفصلة التي يستطيع بعضها أن يستغني عن بعض استغناء تامّا ؟

---

[19] م.ن.، ص 30 من السطر 14 إلى ص 31 السطر الثالث .

* يشير كاتب الفصل إلى استشهاد طه حسين بشعر لأبي نواس في الأسطر الأخيرة من الجزء الثالث من كتاب *«الأيّام»* حين كتب قائلا :

«وكان شعاره [يقصد الفتى] دائما، الشعار الذي كان ينادي به من يخاصمه كما كان ينادي به من يغريه، قول أبي نواس :

وما أنا بالمشغوف ضربة لازب ولا كلّ سلطان عليّ أميرا! ».

يدرس مؤرّخ الآداب تاريخ السياسة والاقتصاد، كما يدرس مؤرّخ الاقتصاد والسياسة تاريخ الآداب. وكلّ ما بينهما من الفرق هوأنّ مؤرّخ الحياة السياسيّة يدرس هذه الحياة لنفسها، ويدرس الأشياء الأخرى من حيث هي مكمّلة لبحثه. وكذلك مؤرّخ الآداب يدرس الحياة الأدبيّة لنفسها، ويلمّ بالحياة السياسيّة من حيث هي مكمّلة لدرس الحياة الأدبيّة» [20] .

ولكن على الرّغم من هذه الاختلافات التي يقيمها طه حسين، فإنّه يثبت الصلة القويّة بين الأدب وتاريخ الأدب، وهو ما يجعل تاريخ الأدب ليس له أن يقرّ استقلاله، ولا أن يكون «علما منفصلا قائما بنفسه»* إذ بين تاريخ الأدب وبين الحياة الأدبيّة من البعد مثل ما «بين التاريخ السياسي والحياة السياسيّة» ** .

إنّه بالإمكان أن يدرس تاريخ الثورة الفرنسيّة أو تاريخ البروتستانتينيّة من ليس له صلة بهذه الثورة أو بهذه الحركة الدينيّة، ولكن خلافا لذلك، لا إمكان لأن يؤرّخ الأدب غير الأديب، ومردّ ذلك حسب قوله :

«أنّ تاريخ الأدب لا يستطيع أن يعتمد على مناهج البحث العلمي الخالص وحدها، وإنمّا هو مضطرّ معها إلى الذوق، هو مضطرّ معها الى هذه الملكات الشخصيّة

---

[20] ـ م،ن. ، ص 31 من السطر 4 إلى السطر 14 .

* م.ن. ، ص 31 السطر 20 .

** م.ن. ، ص 32 السطران 21 ـ 22 .

الفرديّة التي يجتهد العالم في أن يتحلل منها. فتاريخ الأدب إذن أدب في نفسه من جهة لأنّه يتأثّر بما يتأثّر به مأثور الكلام من الذوق وهذه المؤثرات الفنية المختلفة. وتاريخ الأدب علم من جهة أخرى، ولكنه لا يستطيع أن يكون علما كالعلوم الطبيعيّة والرياضيّة لأنّه متأثّر بهذه الشخصيّة، ولأنّه لا يستطيع أن يكون بحثا «موضوعيّا» (Objectif) كما يقول أصحاب العلم، وإنما هو بحث «ذاتي» (Subjectif) من وجوه كثيرة. هو إذن شيء وسط بين العلم الخالص والأدب الخالص: فيه موضوعيّة العلم، وفيه ذاتية الأدب»[21] *.

لم تبق هذه التأمّلات الجيّدة التي صاغها الأستاذ الشاب قيد التنظير، لقد طبّقها في كتابه هذا متوخّيا في ذلك تدرّجا سنتابعه، شيئا فشيئا، لنبيّن كيف حصل الانتقال من عصر إلى آخر، بل من تأثير إلى آخر حسب مراحل التأثير التي شهدتها حياته العلميّة الخاصة.

---

(21) م. ن.، ص 32 (الفصل الخامس) وتحديدا ص 33 من السطر 6 إلى السطر 15. (انتهى)

* حلّل الأستاذ حسين الواد مفهوم طه حسين لتاريخ الأدب ومنهجه فيه في رسالته لنيل شهادة التعمّق في البحث (= دكتوراه حلقة ثالثة) التي أنجزها بإشراف الأستاذ توفيق بكار وعنوانها: «*في تاريخ الأدب ـ مفاهيم ومناهج*»، ضمن تحليله لمؤلّفات تاريخ الأدب في العصر الحديث («*تاريخ آداب اللغة العربيّة*» لجرجي زيدان، و«*تاريخ آداب العرب*» لمصطفى صادق الرافعي، و «*تاريخ الأدب العربي*» لأحمد حسن الزيّات، و «*في الأدب الجاهلي*» لطه حسين) راجع:

ـ حسين الواد: *في تاريخ الأدب ـ مفاهيم ومناهج*، ط. 1، تونس: دار المعرفة للنشر، 1980.

أيسوغ لي، وأنا أطلب هذا الغرض، أن أدمج في هذه الدراسة حاصل مقالات كثيرة كنت نشرتها منذ وفاة المؤلّف إلى يومنا هذا، بحسب ما يقتضيه المقام في هذا المقال ؟ بلى !

إنّ أوّل ما شغلني فعلا، من بين الأشياء التي شغلتني، وأنا أستعرض آثار هذا الناقد الأدبي المصريّ ما كان بلغه من النضج الفكريّ وهو ما يزال شابّا يوم نشر سنة 1926 الكتاب الذي يعنينا هنا وهو «*في الأدب الجاهلي*» * . إنّه كتاب يزوّد الباحث بعناصر ثمينة نفيسة وقويّة متينة، وذلك على رغم ما جاءت عليه المقولات المتعلّقة بالشعر الجاهلي من مبالغة ومن بعض الغلط، وهي مقولات أكره أن أرجع إليها كما سبق أن قلت ذلك .

إنّي لا أقضي المتعة من قراءة هذا الكتاب بدءا وعودا، ومن العناية به في برامج التعليم الجامعي. وإنّها لمتعة أكبر أن نتابع تطوّر تكوّنه العلمي، ومن خلاله، فهم المراحل التي قطعها الكاتب واستكناه معانيها وإدراك الأسباب الكامنة في اختلاف مظاهرها. على هذا النحو يمكن أن نعتمد مفهوم «علم» هذا اللفظ السحريّ في

---

* سنة 1926 صدر كتاب «*في الشعر الجاهلي*» ، عن دار الكتب بالقاهرة، أمّا كتاب «*في الأدب الجاهلي*» فظهر في السنة الموالية أي سنة 1927، معدّلا، بعد قيام الضجّة، وقد جاء في مقدّمته بقلم المؤلّف بتاريخ 17 مايو 1927 قوله :

«هذا كتاب السنة الماضية حذف منه فصل، وأثبت مكانه فصل، وأضيفت إليه فصول، وغيّر عنوانه بعض التغيير (. . .) وهو على كلّ حال خلاصة ما يلقى على طلاّب الجامعة في السنتين الأولى والثانية في كلّيّة الآداب» .

نفس طه حسين لنرى كيف يطبّقه على الدراسة الأدبيّة وكيف يتمثل في نهاية المطاف هذا المزاج الذي رأينا جانبيه كليهما.

وعلى هذا النحو جعلت منطلقي هذا المفهوم المذكور آنفا، والذي سأسعى إلى عرض دلالته في حياة الكاتب وآثاره حتى أواسط العقد الثالث من القرن العشرين أو نهايته، وهو تاريخ بالغ الأهميّة عند كاتبنا إذ فيه اكتمل تطوّر النقد الأدبي عنده.

ومع ذلك فليس من همّنا هنا أن نعرض وصفا لتاريخ العلوم عامّة في مؤلّفات طه حسين لأنّه قبل كلّ شيء مؤرّخ للأدب وناقد أدبي، إذا تحدّث عن العلوم فإنّما يفكّر في العلوم الأدبيّة، خصوصا أنّه فيما يتعلّق بالعلوم الوصفيّة الخالصة، كما يقول هو بنفسه، لا نجد إلاّ ملاحظات لا غناء فيها : هي نتاج تأمّلات مختصرة جدّا عبّر عنها طالب أزهري قديم مشبع خاصة بثقافة أدبيّة. وهذا ما يردّنا إلى آفاق نقد الأدب العربي لا إلى حقل العلم الفسيح كما وصفته دائرة المعارف الإسلاميّة [22]. وهذا ما دفعني إلى أن أحصر الموضوع في هذه الحدود، وأن أتتبّع تتبّعا دقيقا نصّ ترجمته الذاتيّة «*الأيام*». ومعلوم أن الجزء الثالث منها كان ظهر أوّل مرّة في صيغة كتاب بعنوان «*مذكّرات طه حسين*» عن دار الآداب ببيروت سنة 1967، وذلك قبل أن يوسم، سنة 1973 ، في نشرة دار المعارف بالقاهرة،

---

[22] دائرة المعارف الاسلاميّة. الطبعة الجديدة. الجزء الثالث. ص 1133 ـ 1152 .

بالعنوان القديم الذي وسم به المؤلّف الجزء الأوّل والجزء الثاني*.

إنّ نظرة فاحصة في حياة الأستاذ وآثاره تكشف عن خمس مراحل يمكن أن نجد فيها تطوّرا في استعمال لفظ «علم» لدى هذا الرجل الآخذ في النّضج أو الذي بلغ منه شأوا، هذا الرّجل الذي يتأمّل في مسيرته العلميّة.

المرحلة الأولى : قبل الانتساب إلى الأزهر.

تتعلّق هذه المرحلة، تحديدا، بفترة حياته بين أهلـه في عزبة الكيلو [23] قرب مغاغة أي في القرية . هي مرحلة تصوّر البيئة التي

* للتذكير نشر طه حسين الجزء الأوّل من كتاب *«الأيّام»* مسلسلا بمجلة *«الهلال»*، بعيد أزمة كتاب *«في الشعر الجاهلي»*، في تسع حلقات من ديسمبر 1926 إلى جويلية 1927، ثمّ جمع المؤلف الفصول المسلسلة ونشرها في كتاب بعنوان *«الأيّام»* بالقاهرة لدى مطبعة عبد الرحمان سنة 1929.

أمّا الجزء الثاني منه، فقد صدر في كتاب عن دار المعارف بالعنوان ذاته، سنة 1939.

أمّا الجزء الثالث منه فقد نشر هو أيضا مسلسلا على صفحات مجلة *«آخر ساعة»* المصريّة من العدد 1066 ـ 30 مارس 1955 إلى العدد 1089 ـ 29 جوان 1955. وفي عام 1967 جمع سهيل إدريس صاحب دار الآداب البيروتية هذه الفصول ونشرها بعنوان *«مذكرات طه حسين»*. وفي عام 1972 أعادت دار المعارف بالقاهرة نشر الكتاب ذاته بعنوان *«الأيام»* ـ الجزء الثالث . ولعلّ ذلك كان بطلب من طه حسين الذي كان يتمنّى أن يكتب جزءا ثالثا لكتاب *«الأيّام»* على شاكلة الجزأين الأوّل والثاني فلمّا قعدت به السنّ عن ذلك ضمّ «المذكّرات»، على صورتها تلك، إلى الجزأين المذكورين.

[23] حول عزبة الكيلو راجع كتاب أحمد علبي : *طه حسين رجل وفكر وعصر*، بيروت : دار الآداب، 1985، ص 25 وما بعدها.

نشأ فيها الصبيّ فتركت أثرا بالغا في نفسه. ولئن كان رجال العلم في القاهرة لا يؤبه لهم إلاّ قليلا وقد لا يحفل بهم أحد، فإنّ لرجال العلم في القرى والأرياف هيبة وجلالا، ولهم في نفوس الناس تأثير وسلطان. وقد كان طه حسين، شأنه شأن سكان القرى، يكنّ لهؤلاء العلماء إجلالا وتقديرا يقول :

«للعلم في القرى ومدن الأقاليم جلال ليس مثله في العاصمة ولا بيئاتها العلميّة المختلفة. وليس في هذا شيء من العجب والغرابة، وإنّما هو قانون العرض والطلب (. . .) وكان صاحبنا متأثّرا بنفسيّة الريف، يكبر العلماء كما يكبرهم الريفيون، ويكاد يؤمن بأنّهم فطروا من طينة نقيّة ممتازة غير الطينة التي فطر منها الناس جميعا» [24].

وللفقهاء الذين كانوا يقرؤون القرآن منزلة خاصّة يتّخذونها لأنفسهم بين هؤلاء العلماء، ويتسمّون بـ «حملة كتاب الله» ، يأخذون علمهم من القرآن الكريم يفهمونه كما يستطيعون هم «لا كما هو ولا كما ينبغي أن يفهم»، وكذلك كان علمهم مخالفا لما كان عليه «علم العلماء الذين يأخذون علمهم من الكتب»*.

---

[24] طه حسين : *«الأيام»* ، ج 1 ص 79 السطر الأوّل وما بعده./ واعتمدنا نحن : طه حسين : *«الأيام»*، المجلد الأوّل من المجموعة الكاملة، بيروت : دار الكتاب اللبناني ط . 2 ، 1974 ، ج1 ، ص 78-79 . (وسنشير إلى الطبعتين المعتمدتين : الطبعة التي اعتمدها المؤلّف احتراما لمصادر النص الفرنسي ، والطبعة التي اعتمدناها نحن في إثبات النص العربي للشواهد المترجمة وسنشير إليها بعبارة «طبعتنا»).

* م.ن.، ج1 ص 85 (طبعتنا).

هؤلاء العلماء، وقد وصف لنا نماذج منهم وفئات، في إعجاب لا يخفى فيه التهكّم، كان صاحبنا يسمع لهم فيأخذه كثير من الإعجاب والدّهش، في أوّل أمره معهم، ولكن ما لبثوا أن خيّبوا ظنّه لأنّه سرعان ما أدرك كم كان في علمهم من كذب وعبث وخداع. فالعلم والمعرفة يمكن أن يصدرا عن طبيعة مختلفة، وربما متناقضة الجوانب، خاصّة أنّه لاحظ ذلك في قرارة نفسه، لاحظ ذلك متأمّلا تلك السنيّ التي قضاها في القرية. ومن يومها جاء حديثه على نسق محاكمة لمفوم العلم ذاته كما كانوا يفهمونه وكما كانوا يطبّقونه في الأزهر، ذلك أنّ هذا الوضع الذي كان عليه جعل الريف في حالة يرثى لها دون أن نظفر بمبرّر لذلك دينيّا كان أو إيديولوجيّا. إنّ القطيعة النهائيّة بينه وبين رجال العلم هؤلاء جاءت نتيجة لأحداث مأساويّة جدّت في أسرته : قصّة موت أخته بسبب «فلسفة آثمة وعلم ليس أقلّ منها إثما» * ، ودون أن يعلم أحد «ماذا كانت علّتها ؟ وكيف ذهبت بحياتها هذه العلّة ؟» **. وقصّة موت أحد إخوته بوباء الكوليرا الذي فتك به فتكا ذريعا *** ولا ننس خاصّة قصة إصابته هو بالعمى **** .

---

* م. ن. ، ج1 ص 118 (طبعتنا).

** م. ن. ، ح 1 ص 121 (طبعتنا).

*** م. ن. ، ج1 ص 123 وما بعدها (طبعتنا).

**** م،ن. ، ج 1 ص 118 (طبعتنا)، فقد كتب : «ولنساء القرى ومدن الأقاليم فلسفة آثمة وعلم ليس أقلّ منها إثما. يشكو الطفل، وقلّما تعنى به أمّه. . . فإن عنيت به أمّه فهي تزدري الطبيب أو تجهله، وهي تعتمد على هذا العلم الآثم(. . .) وعلى هذا النحو فقد صبّينا عينيه، أصابه الرمد فأهمل أيّاما، ثم دعي الحلاّق فعالجه علاجا ذهب بعينيه. وعلى هذا النّحو فقدت هذه الطفلة الحياة الخ. . . ».

المرحلة الثانية في جامعة الأزهر

كان طه حسين قد أتمّ حفظ القرآن في القرية، ولـمّا يتمّ التّاسعة من عمره. ومن يومها أصبح الصبيّ يدعى شيخا. كان يتوق إلى أن يكون شيخا حقّا جديرا بالتسمية، وكان يسائل نفسه عن هذه المكانة الممتازة التي كان ظفر بها أخوه الطالب الأزهري لدى الجميع وما كان مصدرها. وما لبث أن أتاه الجواب سهلا ميسـورا : إنّ أخاه «أزهريّ قد قرأ العلم وحفظ الألفية والجوهرة والخريدة »[25]. ومعلوم أنّ افتتان الصبيّ بهذه المؤسّسة مصدره الـحُظـوة التي كان لها داخل العالم الاسلامي. أمّا الدافع الحقيقي لهذا الإعجاب الذي لا حدّ له فيكمن في أعماق ذاته، في هذا العطش الشديد إلى العلـم، الـذي كان يتوهم أنّه سيطفئه هناك.

إنّ الصّفحات الأولى من الجزء الثاني من كـتـاب *«الأيّام»* التي تصف لنا انتظار الصبي الساعةالتي يتاح له فيها أن يغـرق فـي هـذا البحر من العلم الذي لا ساحل له* كما تصف الإجلال الذي كـان للعلم في نفسه، والانطباع الذي رسخ في نفسه عن الأزهر معـبـدا مقدّسا، لهـي مـن أروع الصفحات فـي هذه الترجمة الذاتيّة. إنّنا، ونحن نقــرأ هذه الصفحات ، ليخيّل إلينا أننا أمام معبد شـيّد من جمال وهيكـل يملؤه الخشوع :

---

[25] م.ن.، ج1 ص 71 ، السطر الرابع وما بعده / م.ن.، ج1 ص 71 (طبعتنا).

* م.ن.، ج2 ، ص 173 (طبعتنا) . كتب طه حسين يقول : «حقّا إن العلم بحر لا ساحل له، والخير كل الخير للرجل الذكيّ أن يغرق فيه الخ...» .

«كان يشعر شعورا غامضا ولكنّه قويّ بأنّ هذا العلم لا حدّ له، وبأنّ الناس قد ينفقون حياتهم كلّها ولا يبلغون منه إلاّ أيسره. وكان يريد أن ينفق حياته كلّها وأن يبلغ من هذا العلم أكثر ما يستطيع أن يبلغ مهما يكن في نفسه يسيرا. وكان قد سمع من أبيه الشيخ ومن أصحابه الذين كانوا يجالسونه من أهل العلم أن العلم بحر لا ساحل له، فلم يأخذ هذا الكلام على أنّه تشبيه أو تجوّز، وإنّما أخذه على أنّه الحقّ كل الحق.

وأقبل إلى القاهرة وإلى الأزهر يريد أن يلقي نفسه في هذا البحر فيشرب منه ما شاء اللّه له أن يشرب ثم يموت فيه غرقا. وأيّ موت أحبّ إلى الرجل النبيل من هذا الموت الذي يأتيه من العلم ويأتيه وهو غرق في العلم» [26].

ما أروع هذه الكلمات، ما أبدع هذه التعابير! إنّه يريد من ذلك أن يعبّر بكل وضوح عمّا تتوق إليه نفسه، وعن القداسة التي يكنّها للعلم، وعن الرغبة الجامحة في تعظيمه، لأنّه كان يودّ أن يلقي بنفسه فيه، وأن يبتلع كلّ شيء إن أمكن، وأن يجد فيه تحقيق كلّ رغائبه. كلّ هذه الصور، مهما بدت لنا ساذجة، أراد بها طه حسين إبراز ما كان يحتدم في نفسه من حماسة وشوق، ليس فقط في صدر هذا القروي ذاته، بل كذلك في صدور كثير من القرويين أترابه كانوا يعانون خيبة بالغة حدتها، ثقيلة نتائجها بقدر ما كان ذلك الشوق عظيما مقدّسا.

---

(26) م. ن.، ج2، ص 16-17 / م. ن.، ج2 ص 169 ـ 170 (طبعتنا).

لقد أدرك، من قبل، وهو يفكّر في البيئة التي نشأ فيها، كيف كان رجال العلم يستغلّون الناس من حولهم وكيف أنّهم كانوا، من خلال طرقهم الآثمة، سببا في نشأة «عقليّة خاصة، فيها سذاجة وتصوّف وغفلة »[27] .

إنّ الجزءالأوّل من كتاب *«الأيّام»* شكوى متّصلة، وقضيّة واحدة ضد هذا العلم الذي كان بخسا وخطيرا في آن، وكان يتذرّع بالدين، ويغالط أهل الريف، ويبارك الفكر المتحـجّر : فكر شيوخ الطـرق الذين كانوا يتلون القرآن ولكن لا أحد يفكّر في دعوة طبيب (إشارة إلى ما حصل مثلا لأخته) [28].

وصف طه حسين في الجـزءالأوّل من كتاب *«الأيّام»* العلم بأنّه *«آثم»* . أمّا في الجزء الثاني فقد أقبل عليه متأمّلا إيّاه ناظرا فيه. في الجزءالأوّل نماذج من رجال العلم وصفهم لنا الكاتب وصفا سطحيّا في علاقاتهم بعـامّة النّاس مزدريا بهم مـتّخذا إيّاهم هـزءا. أمّا في الجزء الثاني فيتحـدّث عن العلوم بمختلف فروعها ناظرا فيها عـن كتب ذاكرا ممثّليها. إلاّ أنّه غير مجد أن نطلب في كتـاب *«الأيّام»* تحليلا منتظما لجميع العلوم التي كانت تـدرّس في الأزهر. إنّ ما نقرأه في الجزء الثاني أقرب ما يكون إلى مجموعة ملاحظات عـن شيوخ الأزهر ومناهجهم في التعليم وعن الكتب التي يرجعون إليها في مهمّتهم . كلّ هؤلاء الشيوخ المدرّسون لا يبرحون العلوم الدينيّة

---

[27] م.ن.، ج1 ، ص 96 / م.ن.، ج1 ، ص 94 ـ 95 (طبعتنا).

[28] م.ن.، ج1 ص 123 / م.ن.، ج1 ص 120 ـ 121 (طبعتنا).

واللغويّة . أمّا الأدب، من حيث هو فـنّ مستقلّ، فليس له مكانـة لديهم. وقد قدم طه حسين القاهرة والأزهر وفي نفسه شوق إلى أن يظفر بعلم لم يجده، وأن ينهل العلم من «هذا البحر الذي لا ساحل له . . . يريد أن يلقى نفسه فيه فيشرب منه ما شاء الله أن يشرب» *.

ولذا كان يضجر من هذه «العنعنة المملّة» ** التي كانت تذكّره بما كان يسمع في الرّيف [29] . وكان يسمع أحيانا الطلاب [في ربع الأزهر] يتندّرون ببعض الشيوخ، يسخرون من هذا مرّة، ويعيدون اعتراض أحدهم أو اعتراض غيرهم على هذا الشـيـخ أو ذاك مـرّة أخرى ، ويبرزون ألوان النقائص مما يتّصل بالسيرة أوالعلم عند هذا الشيخ أوغيره من الشيوخ مرة ثالثة . وكذلك كان يـسـمـع هـؤلاء الطلاّب يتحدّثون عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، فتأخذهم الحماسة له والغيرة عليه لا يقضون منه العجب ولا يـكـفـون عـن

* طه حسين : «الأيّام» ، ج 2 ، ص 171 (طبعتنا)

** «العنعنة » يقصد بها طه حسين تتالي أسماء المحدثين في سلسلة السند، على لسان أستاذ الحديث النبوي، يسبقها لفظ «حدثنا» وتفصل بينها كلمة «عن» . كتب طه حسين قائلا :

«وكان الصبيّ يجلس إلى ذلك العمود، يعبث بتلك السلسلة، ويسـمـع للشيخ وهو يلقي دروسه في الحديث، فيفهم عنه في وضوح وجـلاء، ولا ينكر منه إلاّ تلك الأسماء التي كان تـسّاقط على الطلبة يتبع بعضها بعضـا، تسبقها كلمة «حدّثنا» وتفصل بينها كلمة «عن».

وكان الصّبيّ لا يفهم معنى لهذه الأسماء ولا لتتابعها ولا لهذه العنعنة المملّة وكان يتمنّى أن تنقطع هذه العنعنة وأن يصل الشيخ الى الحديث».

طه حسين : «الأيام» ، ج2، ص 175 .

[29] طه حسين : «الأيّام» ، ج 2 ، ص 21 .

الفخر بالتلمذة له. وليس من شك في أنّ الفتى شاركهم، بدوره، في هذا الحب الصادق وهذا الإعجاب بالأستاذ الإمام في وقت كان فيه أصغر سنّا من أن يسمح له بحضور دروسه *.

لقد كان من فضل بيير كاكيا (Pierre Cachia) أنّه لفت الانتباه إلى هذا الموضوع [30] مخالفا بذلك شارل آدمس (Ch. Adams) في موقفه[31] **. لقد كان أثر الشيخ محمد عبده قويّا حاسما على هؤلاء

---

* كان طه حسين يسمع في «الربع» عن الشيخ محمد عبده ولا يلقاه لأنّ الشيخ عبده كان يدرس للمتقدّمين من طلاّب الأزهر، ولم يكن طه حسين قد انتسب إلى صنف المتقدمين إلاّ سنة 1905 وهو العام الذي توفي فيه الأستاذ الإمام. ولكن طه حسين كان يسمع عنه حديث أخيه وصحبه الذين كانوا يحضرون دروس الإمام مساء، ،وهو حديث التنويه والاعجاب والذود عنه، «وقرأ له كثيرا من آثاره».

وسرعان ما صار الفتى معجبا بالشيخ «فقد بلغت تعاليم الأستاذ قلبه فأثّرت فيه» حتّى عدّ نفسه واحدا من المتأثّرين به، وحتّى أنّ الشوق إلى سماعه دفعه مرّة إلى التسلل إلى الرواق العباسي فسمع منه درسين اثنين في التفسير كانا آخر ما ألقاه من دروس قبل وفاته. وقد تأثّر طه حسين لموت الشيخ عبده كما تألّم من قبل لطرده من الأزهر، وعدّه من رجالات مصر وأحد ثلاثة لا ينبغي أن تنساهم : مصطفى كامل وقاسم أمين ومحمد عبده «الذي أحيا الحريّة العقليّة» . راجع حول محمد عبده : طه حسين : *«الأيّام»*، ج2، ص 190 ، 275 ، 333 ، 335 ، 369 ، ج3 ، ص 649 (طبعتنا) .

30) Pierre Cachia : *Tâhâ Husayn, His place in the Egyptian Literary Renaissance.* Londres, 1956 p.50

31) Ch.Adams : *Islam and modernism in Egypt.*. Londres, 1933, p.258-259

** ترجم عباس محمود العقّاد هذا ا لكتاب إلى العربيّة بعنوان : *الاسلام والتجدّد*، القاهرة : 1931، (انظر الفصول 2 ـ 7 منه).

الشباب من طلاّب الأزهر خصوصا من كان منهم على درجة عالية من الذكاء ومن التحرّق شوقا للمعرفة. إنّهم سرعان ما أدركوا الخلل الفادح في نظام جامعة الأزهر، خصوصا أنهم أقبلوا من قراهم ليلقوا أنفسهم في بحر العلم إلقاءهم أنفسهم على مائدة الطعام [32]. فإذا المناهج، وإذا الكتب المقررة للدّرس، لا تستطيع، في هذه المؤسّسة الشهيرة، أن ترضي حاجتهم إلى المعرفة. وكان الشيخ عبده يرشد تلاميذه في درس النحو أو في درس البلاغة أو في التوحيد أو في درس الأدب إلى كتب كانت إلى عقول شيوخ الأزهر كريهة بغيضة لأنّهم لم يألفوها[33]*. إنّ الخيبة في هذا

---

[32] طه حسين : «الأيام» ، ج 2 ، ص 25 / م.ن.، ص.ن. (طبعتنا)

[33] طه حسين : «الأيام» ، ج 2، ص 64 (انتهى).

* ذكر طه حسين أن الشيخ محمد عبده أعرض عن اعتماد الكتب المقررة يومئذ مثل كتاب *«مراقي الفلاّح على نور الايضاح»* في الفقه، كما أعرض عن كتاب *«شرح الكفراوي»* في النحو الخ.... واستبدلها إمّا بكتب أخرى غير معهودة في الأزهر، وإمّا بمذكّرات يعدّها هو اعتمادا على كتب غير التي يعرفها سائر الشيوخ. انظر : *«الأيام»*، ج 2 ص 275 ـ 276 (طبعتنا).

ومعلوم أنّه لما نشأت حركة الإصلاح في الأزهر أواخر القرن التاسع عشر، أخذ عبده ينشر بعض مبادئه الإصلاحيّة خصوصا بعد أن عين عضوا في مجلس إدارة الأزهر، إلى جانب التدريس فيه. والحقّ أنّ تجديد الشيخ محمد عبده في الأزهر كان أكبر من هذا الذي ذكر. ففضلا عمّا كان يعرف يومئذ بـ«علوم المقاصد» و«علوم الوسائل» كانت هناك طائفة أخرى تسمّى بـ«العلوم التكميليّة» منها : صناعة الإنشاء، ومتن اللغة، وآداب اللغة العربيّة، ومبادئ الفلسفة، وتاريخ الإسلام، وتقويم البلدان، وإلى الشيخ محمد عبده يعود الفضل في إدخال هذه العلوم ضمن برامج التدريس في الأزهر ضمن خطته الاصلاحيّة. وقد سمّى طه حسين هذه الدّروس في كتاب *«الأيّام»* «دروسا إضافية» وسمى أستاذه الأزهري في مادة=

الجزء الثاني لتتعاظم وتتفاقم حتّى أنّه ليمكن أن نطلق عليه ولو بصورة إجماليّة بأنّه وصف خائب بل خادع في الدين والعلم.

في هذا الجزء [الثاني] نجد الكاتب يصف أحوال هذه الطائفة من أبناء القرى الذين قدموا القاهرة لطلب العلم والدين فأخذوا من العلم والدين ما استطاعوا ونالهم مع هذا كلّه ما نالهم من ضروب الأذى في أجسادهم وأخلاقهم وعقولهم [34].

=البلاغة بعض هذه الدّروس «قشورا» تهكّما إذ لم يكن المترشح لدرجات الأزهر المختلفة يمتحن في هذه المواد. راجع لمزيد التوسّع في برنامج الشيخ عبده وحركته الاصلاحيّة داخل الأزهر :

ـ محمد رشيد رضا : *تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده* ، ط. 1 القاهرة، مط. المنار 1931 ، ج1 ص 440 .

ـ عبد المتعال الصعيدي : *تاريخ الإصلاح في الأزهر* ، ط.1، القاهرة : مط. الاعتماد، د.ت. [المقدمة بتاريخ 1943]

- Ibrahim Salama : *L'enseignement islamique en Egypte.* Le Caire : Imp. Nationale Boulaq, 1938, pp.208-275.

- Emmanuel Brunet : "Rapport sur l'organisation de l'Université musulmane al Azhar" extrait de *N.A.M.S.T.*, tom XVIII, Paris : MDCCCC IX, pp.22-23.

وراجع حول تجربة طه حسين في الأزهر سلسلة المقالات التحليليّة النفيسة التي نشرها محمد طه الحاجري عن هذه التجربة في مجلة «*الثقافة*» المصريّة :

محمد طه الحاجري : «المرحلة الأزهريّة في حياة طه حسين »، *الثقافة* (القاهرة)،

الجزء الأوّل : س 2، ع 22، يوليه 1975، ص 19 ـ 24 .

الجزء الثاني : س 2، ع 23 ، أغسطس 1975، ص 12 ـ 16 .

الجزء الثالث : س 2 ، ع 24، سبتمبر 1975 ، ص 12 ـ 17 .

الجزء الرابع : س 3 ، ع 25 ، أكتوبر 1975 ، ص 25 ـ 29 ، 66 .

[34] طه حسين : *الأيام*، ج 2 ص 73 .

في هذه البيئة لم يكن لصاحبنا من ضالة ينشدهـا إلاّ القليل، فأطلق لسانه حتّى كانت القطيعة بينه وبين رجال العلم. وكان إنشاء الجامعة الأهليّة سببا في القطيعة النهائيّة بينه وبين الأزهر[35]*.

المرحلة الثالثة :

بدايات التجديد في مفهوم «العلم»

ـ الطابع العلمي للنقد الأدبي.

ما إن فتحت الجامعة الأهليّة أبوابها عام 1908 حتّى بدأت تتفتّح لطه حسين أبواب عالم جديد. ولعلّ الباحثين لم يعنوا عناية كافيـة بأهميّة هذه المرحلة ودورها في تكوّن طه حسين الفكري.

---

[35] حول هذه الجامعة الأهليّة التي صارت تسمّى اليوم جامعة القاهرة بعد أن كانت تسمّى بالجامعة المصريّة انظر كتابا ظهر حديثا :

Donald Malcolm Reid : *Cairo University and the making of Egypt* , Cambridge (Univ. Press), 1990.

وهو كتاب يرسم تاريخ هذه المؤسسة من يوم نشأتها إلى غاية الآن (انتهى).

* لمزيد التوسع حول تاريخ هذه الجامعة في بداياتها انظر :

ـ سامية حسن إبراهيـم : *الجامعة الأهـليّة بين النشأة والتـطـوّر* 1908 ـ 1925 ، القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1985 .

ـ توفيق حبيب : « الجامعة المصريّة في عشرين سنة» *الهلال* ، ج5، س 36 ، أوّل مارس 1928، ص 567 ـ 574 .

وانظر بالفرنسيّة :

Germain Martin : "L'Université égyptienne", *Revue du Monde Musulman*, tome 13, n°1, Janvier 1911, pp.1-29.

ينبغـــي أن نرجع قليلا إلى ما قبيل هـذه المرحلة لنرصد بدايات التكوين. ويحسن الوقوف عند أستاذ كان له تأثير في طه حسين غير مباشر هــو الشيخ محمد عبده الذي أدخل «العلوم الحـديـثـة فـي التعليـم [الأزهري] منها الجغـرافية والـحـسـاب والأدب»[36]*، كما يحســـن الوقوف عند شيخ آخر من شيوخه في الأزهر، سيد المرصفي وكـان يـعـدّ ضـمن المجددين مخـالفا لشيـوخ الأزهـر في فهـــم الأدب **.

---

[36] طه حسيـن : «الأيام» ، ج2، ص 160 ، السطـران 3 ـ 4 / الأيام ، ج 2 ص 351. (طبعتنا) (انتهى).

* ـ راجع التعليق المصاحب للإحالة رقم (33).

** سيد بن علي المرصفي من شيوخ الأزهر أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كان من أحب شيوخ الأزهر إلى طه حسين ومن آثرهم عنده ومن أبعدهم أثرا فيه. ذكره طه حسين ذكرا حسنا جليلا في أكثر من موضع. كان سيد المرصفي من شيوخ النحو في الأزهر ومن الأساتذة المغمورين فـيـه. ولـكـنّ الشيخ الإمام الأستاذ محمد عبده تفطّن إليه وإلى خصاله فأوكل إليه تدريس مادة «الأدب»، التي هي من هذه المـوادّ التي أدرجها عبده في الأزهر ضمن مواد «العلوم الحديـثـة»، والتي وصفها أحد شيوخ الأزهر، حسب كتاب *«الأيّام»* ، بـ «الدروس القشور» . وكان مفهوم الأدب في الأزهر مفهوما هامشيّا، إن هو إلا مستطرف للتفكّه والتندّر. وكان من عناية الشيخ عبده بدرس الأدب أن فسح الرواق الذي كان يشـغـلـه هـو لتدريـــس التفسير والبـــلاغة فـي المساء للشيخ المرصفـي لـيـدرّس فيه ساعة الضحّى، درس الأدب. وقد باشر الشيخ المرصفي، فـي مـادة الأدب، تـدريـس كتاب *«الكامل»* *للمبرّد* (ومنه سيكون كتابـه *«رغبة الآمل في كتاب «الكامـل»»*) ، فضلا عن تدريس النحو اعتمادا على كتاب «المفصّل» للزمخشري.

بدأت علاقة طه حسين بالشيخ المرصفي وهو طالب في الأزهر، واستمرت حتّى بعد أن انقطع عن الأزهر وانصرف الى الجامعة الأهليّة، وظلّ يذكره منوّها به معظّما، وقد صار أستاذا جامعيا وكاتبا مبرّزا. ومرجع ذلك أنّ طه حسين وجد في=

كانـت هـــذه البدايات ضئيلة ثم نما شأوها في الجامعة الأهلـيّة حتى قادت طـه حسين إلــــى نشأة أدب خـــلاق حـقّــا أي إلـــــى

=الشيخ المرصفي ما لم يجده في سائر شيوخ الأزهر: اتساع أفـق وغـزارة عـلـم ورحابة صدر واستقلال فكر، وحريّة تعبير، وصدق رأي وخاصة قدرة على التذوّق السليم للأدب. ذكر طه حسين «الأستاذ العظيم» شيخه سيد المرصفي في أكثر من موضع، ذكره في كتاب *«الأيام»* مرارا وخاصة في الفصل التّاسع عشر من جزئه الثاني، وذكره في مقدّمة *«ذكرى أبي العلاء»*، وذكره في كتاب *«في الشعر الجاهلي»* وذكره في مقدّمة كتاب *«تاريخ الآداب العربيّة من الجاهليّة حتى عصر بني أميّة»*، *لكارلونالينو*، *ومما قاله في كتـاب* «الأيّام» بصدد حديثه عن منهج سيد بن علـي المرصفي في درس الأدب :

نقد حرّ للشاعر أوّلا، وللراوي ثانيا، وللشرح بعد ذلك، وللغويين على اختلافهم بعد أولئك وهؤلاء. ثمّ امتحان للذوق ورياضة له عـــلـــــى تعرّف باطن الجمال في الشعر أو النثر، فــي المعنى جملـــــــة وتفصيلا، وفي الوزن والقافية وفي مكان الكلمة بين أخواتها، ثم اختبار للذوق الحديث في هذه البيئة التي كان يلقي فيها الدّرس، وموازنة بين غلظة الذوق الأزهريّ ورقّة الذوق القديم، وبين كلال العقل الأزهري ونفاذ العقل القديم، وانتهاء من هـذا كلّه إلى تحطيم القيود الأزهريّة جملة، وإلـى الثورة على الشيوخ فــي علمهم وذوقهم وفي سيرتهم وأحاديثهم».

طه حسين: *الأيام*، ج2، ص 354 .

كان طه حسين لا يكاد يذكر واحدا من أساتذته الذين يفخر بهم والذين يفخـر بالتتلمذ عليهم إلا قرنه بالمرصفي، فهو لا يذكر نالينو إلا قرنه بالمرصـفـي، ولا يذكر لطفي السيد إلا قرنه بالمرصفي، ولعـلّ أن تكون هذه الصلة بين طه حسيـن وسيد المرصفي صفحة تحتاج إلى إضاءة. راجع الفصل النفيس الـذي خـصّصه محمّد طه الحاجري للحديث عن المرصفي : محمد طه الحاجري : «المرحـلـة الأزهريّة في حياة طه حسين» الجزء الرابع، *الثقافة* (القاهرة)، س 3، ع 25، أكتوبر 1975 ، ص 25 ـ 29 ، 66 .

تأليف رسالته للدّكتورا عن أبي العلاء المعرّي[37]* .

إنّ موضوع هذه الرسالة يدلّ على مقاطعة طه حسين لشيوخ الأزهر، وأكثر من ذلك، مقاطعة العلوم التي كان يعنى بها حتى ذلك الوقت. لقد أخذ يتذوّق الأدب، وقد أخذ يدرّس، في الجامعة الأهليّة، على أنّه علم مستقلّ بذاته، إلى جانب طائفة من المواد الأخرى التي لم يكن له بها عهد من قبل، وإذا أبواب عالم جديد تنفتّح في وجهه، ملكت عليه عقله وقلبه جميعا.

والموكولون بهذا النهج الجديد كانوا من المستشرقين الذين كانوا يدرّسون بهذه الجامعة بصفتهم أساتذة زائرين. وكذلك كانوا سببا في هذا المنعرج الجديد الحاصل في حياة طه حسين أوّل مرّة**، إلاّ أنّ استعداده [للتجديد] كان عاملا متخلّجا في صدره.

---

37) طه حسين : ذكرى *أبي العلاء*، القاهرة : 1915 ، الطبعة الخامسة : 1958 الخ . . . (انتهى).

* العنوان الأصلي لهذه الرسالة كماهو مثبت في ملفّات الجامعة الأهليّة هو «تاريخ أبي العلاء المعري» ظهرت الرسالة منشورة في طبعة أولى آخر سنة 1915 عن مطبعة الواعظ بعنوان «*ذكرى أبي العلاء*»، وظهرت الطبعة الثانية سنة 1922 عن مطبعة المعاهد بالعنوان ذاته، وبداية من الطبعة الثالثة التي ظهرت سنة 1937 صار عنوان الكتاب «*تجديد ذكرى أبي العلاء المعري*».

** حول هؤلاء المستشرقين ودورهم في الجامعة المصريّة، راجع الفصل النقدي الذي نشره دونالد مالكولم رايد (Donald Malcolm Reid) بعنوان «جامعة القاهرة والمستشرقون» في كتاب ألّفه مجموعة من الباحثين ضمن مشورات مركز التوثيق والدّراسات القانونيّة والاقتصاديّة بالقاهرة :

Donald Malcolm Reid : "L'Université du Caire et les Orientalistes", in *D'un Orient l'autre,* volume II : Identifications, collectif,[publications du C.E.D.E.J. - Le Caire], Paris : Eds du C.N.R.S., 1991, pp.25-47.

كانت هذه البيئة الجديدة تتيح لصاحبنا علما يخلق نفسه خلقا جديدا يذهب به مذاهب شتّى في الأدب والتّاريخ لم يكن بوسعه أن يقدّر أنه سيتاح له معرفتها يوما مّا[38] . في هذه البيئة عرف ألوانا من «العلم الحرّ» الذي لا يتقيّد بشيوخ الأزهر ولا بمناهجهم العقيمة.

بسبب من هذا كلّه فإنّ رسالته للدكتورا عن أبي العلاء كانت تحمل بعد أثر أوّل اتّصال بأوروبا، وتمثّل، على حدّ قوله، أوّل كتاب، في الأدب العربي كلّه، وضعه صاحبه على أساس المبادئ العلميّة التي يتّخذها علماء أوروبا أساسا لما يكتبون في تاريخ الأدب. حقّا إنّه منهج جديد اكتمل بتأثير «الزمان والمكان والحال السياسيّة والاجتماعيّة والحال الاقتصاديّة»[39] .

لقد كانت هذه الآراء، في حقيقة الأمر، صدى للفلسفة الوضعيّة التي كسبت ، بسبب من انتشار التصنيع، كثيرا من الأنصار في أوروبا، والتي كانت ممثّلة، في مجال النقد الأدبي، بـ [الناقد] هيبوليت تان (Hyppolyte Taine). إنّ هذا الناقد يرجع، كما هو معلوم، أصل نشأة الأثر الأدبي الى التأثير المباشر لعوامل ثلاثة : «العرق، البيئة، والمرحلة التاريخيّة» كما يرجع عبقرية الكاتب إلى توفّر خصلة أساسيّة فيه هي «الملكة الأساسيّة»[40] (Faculté maîtresse) .

[38] طه حسين : *الأيام* ، ج3 ، ص 38 .

[39] طه حسين : من *تاريخ الأدب العربي*، ج3، ص 376 .

[40] فيما يتعلّق بهذا الناقد الفرنسي راجع على سبيل المثال كتاب لاغارد وميشارد : *القرن التاسع عشر، كبار الكتاب الفرنسيين في البرنامج*، باريس 1964 ص 399 وما بعدها .
A. Lagarde et L. Michard : *XIX siècle. Les grands auteurs français du programme*. Paris : 1964, pp.399 sqq.

المرحلة الرابعة : الحاصل .

لا شكّ في أنّ طه حسين قد سقط في مغبّة المبالغة عندما أعجب بالآراء الجديدة التي تلقّاها حتّى كأنّ إقامته في فرنسا، وفي باريس تحديدا، تشبه انكفاء مدبّرا حصل قليلا قليلا.

لهذا السبب، فإنّ آراء طه حسين، عندما كان القرن العشرون في العقد الثلاثين، وهي الآراء التي نجدها في كتابه «مع المتنبّي»، لا يمكن أن تفهم فهما صحيحا إلاّ في ضوء ما كتب في الفترة الواقعة بين رسالة الدكتورا التي أعدّها في القاهرة والتّاريخ المشار إليه (1935)، نقصد كتابيه : « في الشعر الجاهلي » وسليله «في الأدب الجاهلي».

نجد في كتاب طه حسين «في الأدب الجاهلي» الذي كنا ذكرناه إعادة وإثباتا للأفكار المتعلّقة بعدم صحّة الشعر الجاهلي، ونجد خاصّة طرحا لمبادئه العامّة المتّصلة بالنقد الأدبي.

لا شكّ في أنّ كتاب «ذكرى أبي العلاء» (رسالة طه حسين للدكتورا في القاهرة) كان أوّل كتاب ألّف حسب مبادئ العلم الحديث في أوروبا. أمّا أبحاث طه حسين عن الأدب الجاهلي فتتضمّن أوّل وصف منظّم لمنهج في النقد الأدبي مؤسّس على قواعد علميّة. ذلك أنّه حلل، لأوّل مرّة، كل أصناف المقاييس التي هي على

أساس الدّرس العلمي للنّصوص وقارن بعضها ببعض [41].

يشرع طه حسين بعرض فكرة عامّة عن «الأدب وتاريخه» منبّها خاصّة إلى أنّ مختلف العلوم التي تدرّس في مصر على اختلافها، كلّها «قد ارتقى وتقدّم تقدّما يختلف قوّة وضعفا. . . إلاّ أنّ واحدا من ألوان العلم لم يتقدّم إصبعا واحدا، بل لست أشكّ في أنّه تأخّر تأخّرا منكرا، وهو الأدب العربي»[42].

---

[41] فيما يتعلّق بالنقد الأدبي عند طه حسين وفي ما كتب عنه في اللغات الأوروبيّة إلى نهاية العقد السابع من هذا القرن انظر :

- R.G. Khoury : "Tâhâ Husayn et la France" Notes bibliographiques commentées,*Arabica,* 22(1975) pp.225-266.

- Meftah Tahar : *Tâhâ Husayn, sa critique littéraire et ses sources françaises,* Tunis, 1976.

أمّا باللغة العربيّة فنذكر من بين الأعمال الكثيرة في الغرض :

ـ حمدي السكوت ومارسدن جونز : *أعلام الأدب المعاصر في مصر ج1 : طه حسين،* القاهرة : 1975.

ـ أحمد علبي : *طه حسين رجل وفكر وعصر،* بيروت ، 1985 .

يضمّ هذان المرجعان قائمة ببليوغرافية غزيرة. ونضيف :

ـ *طه حسين : العقلانيّة، الديمقراطيّة، الحداثة* ضمن الكتاب الدوري : قضايا وشهادات، العدد1 ـ القاهرة، د.ت.

ـ *الحداثة. النهضة. التحديث. القديم والجديد* ضمن الكتاب الدّوري : قضايا وشهادات، العدد2. القاهرة، د.ت.

أمّا بالنسبة إلى الجانب التاريخي في تفكير طه حسين فانظر كتاب عمر مقداد الجمني (الإحالة رقم 2أعلاه) الذي يعالج في الجزأين المكوّنين للكتاب (745 ص) كلّ المسائل المتعلّقة بهذا الموضوع معالجة شافية مقنعة.

[42] طه حسين : *في الأدب الجاهلي،* ط.9 ، القاهرة: 1946 ، ص 11 .

ولذا يـؤكّد طه حسين ضرورة الاصلاح الذي مـن شـأنـه أن يحبّب الأدب إلى طلاّب المدارس العالية وتلاميذ المدارس الإبتدائيّة ويدفعهم إلى «قراءة الـنّصوص العربيّة وتفهّمها»[43] من جهة، ومـن جهةأخرى تكوين المدرّسين القادرين على أن يحبّبوا هذه النّصوص إليهم، على نحو ذكـيّ ومقارنيّ، لأنّ الأدب العربي «لم ينشأ فـي برج من العاج وإنّما تأثّر بالآداب المختلفة وأثّر فيها» [44]. هذا موضوع أثير لدى طه حسين إذ يتيح له الفرصة لـيـؤكّد قيمة «الثقافة العامـة المتينة التي لا يستطيع أن يستغني عنها طالب الأدب، كما لا يستطيع أن يستغني عنها طالب الكيمياء، بل كما لا يستطيع أن يستغني عنها كلّ إنسان يريد أن يعيش عيشة راقية في بيئة راقية»[45].

أما من الضروري أن نطيل النظر في مثل هذه الآراء والحـال أنّ المرحلة الكلاسيكيّة للثقافة العربـيّة والاسلاميّة توفّر لنا أمثلة كثيرة مفيدة في الصدد، أمثلة صارت، فيما بعد، نماذج للفكر الانساني وللفكر العربي والتطوّر العلمي في العالم. ألا ينبغي للبلاد العربيّة والاسلاميّة أن تتقبّل بالجدّ الكامل دعوةالمعلّم المصري إلى الانفتاح الثقافي لتأسيس مستقبل ثقافي سليم متين، وبناء «حياة راقية في بيئة راقية». أيكون هذا الأمر مستحيلا ؟

وبعد أن يفرغ طه حسين من هذه الملاحظات الدقيقة، يقبل على درس مفهوم الأدب مستعرضا تعريفاته حسب جملة الـمـعـطـيـات

[43] طه حسين : *في الأدب الجاهلي*، ص *13* .

[44] م. ن. ، ص 17 ـ 18 .

[45] م. ن. ، ص 18 .

المتداولة بالصدد [46]، فيصوغها في إطار علمي ذكرنا خصائصه آنفا [47]. إنّ كلمات طه حسين تبرز في وضوح كم كانت بحوثه في موضوع الأدب الجاهلي مهمّة ومتضمّنة أوّل وصف منظّم لمنهج في النقد الأدبي مؤسّس على قواعد علميّة. ذلك أنّه حلّل، أوّل مرّة، كلّ أصناف المقاييس التي هي أساس الدرس العلمي للنّصوص، وقارن بعضها ببعض[48].

1 ـ المقياس السياسي

الأمر هنا متعلّق بالمنهج المتّبع في مصر في المدارس العالية والمدارس الثانويّة. وهوأمر ليس بالهيّن، فقد جرت العادة بتقسيم الأدب إلى الحقب السياسيّة، وعلى الرغم من أنّ هذا المنهج يجعل درس الأدب ميسورا لدى الباحث فإنّ طه حسين يعترض عليه ويسعى إلى محو آثاره وذلك راجع إلى سببين اثنين :

أوّلهما أنّه لا يمكن أن نعتبر الحياة السياسيّة نقطة انطلاق لدرس الحياة الأدبيّة لأنّ الحياة السياسيّة «ليست قوّة وضعفا» يمكن أن تقودنا ، طبقا لمعطيات مصطنعة سلفا، إلى اليمين حينا، وإلى الشمال حينا آخر : فليس من المحقق أنّ رقيّ الأدب وانحطاطه قد تبع رقيّ السياسة وانحطاطها على عهد الأمويين أو تبع انقسام الخلافة

---

[46] ـ م. ن. ، ص 22 وما بعدها.

[47] ـ م. ن. ، ص 29 ـ 30 ، وانظر أعلاه الهامش 17 .

[48] ـ م. ن. ، ص 37 ـ 52 .

العبّاسيّة وتدهورها في القرن الرابع للهجرة مثلا، (وابن خلدون يعطينا مثلا على الحالة المعاكسة التي يحدّثنا عنها طه حسين).

وأمّا ثاني السببين، فيصفه بأنّه «شرّ من هذا الأمر وأقبح منه أثرا» لأنّ هذا المنهج سطحي ثم هو قائم «على الكذب والتضليل من ناحية، وعلى الغفلة والانخداع من جهة أخر»[49].

2 ـ المقياس العلمي

إنّ مناهج النقّاد الفرنسيين، على ما بينها من اختلاف تتّفق في أمر مشترك : اعتبار الأدب بمثابة العلم الطبيعي. وهنا يذكر طه حسين سانت بيف (Sainte Beuve) وهيبوليت تان (Hippolyte Taine) وفردينان برونتيير (Ferdinand Brunetière) هؤلاء الذين كان لهم دور حاسم في هذا المجال. ولكنّ طه حسين يبرأ من هذا المنهج العلمي الخالص الذي طبّق على الآداب، وما كاد، منذ سانت بيف، ينتشر في حقل النقد الأدبيّ إلاّ قليلا. يبرأ منه لأنّ تاريخ الأدب لا يستطيع بوجه من الوجوه أن يكون ـ في رأيه ـ «موضوعيا» صرفا، وإنّما هو متأثّر أشدّ التأثّر وأقواه بالذوق، وبالذوق الشخصي قبل الذوق العام. ثمّ هولا يعالج «كما يعالج صاحب الكيمياء عناصره في معمله»، وإلاّ صار «جافّا بغيضا» غير محبّب إلى قلوب القرّاء ورغباتهم [50].

---

[49] ـ م. ن.، ص 40.

[50] ـ م. ن.، ص 50.

3 ـ المقيـاس الأدبي

لقد انتهى طه حسين، بعد الفراغ من المقياس العلمي، إلى اتخاذ «سبيل وسط» مؤلّف من هذين القسمين المتكاملين : العلمي من ناحية والفنّي من ناحية أخرى، واللّذين يأخذ مؤرّخ الأدب من كلّ منهما بمقدار مناسب. وذاك هو «السبيل الوسط» الذي ذكرنا منذ حين.

من هذه الجهود كلّها، ينبغي أن يأتلف مزاج معتدل هو «الذي نسمّيه تاريخ الآداب، والذي نجد فيه حين نقرؤه لـذّة العقل ولذّة الشعور والذوق جميعا»[51].

إلاّ أنّ شرطا لا بـدّ منه لدرس كلّ المعارف العلـميّة، ألا وهو حريّةالتعبير. والأدب في حاجة إلى هذه الحـريّة لأنّه لا ينبغي «أن يعتبر علما دينيّا ولا وسيلة دينيّة. وهو في حاجة إلى أن يتحرّر من هذا التقديس. . . واللغة العربيّة في حاجة إلى أن تتحلّل من التقديس» حتى يتسنّى لكليهما أن يخضعا، كغيرهما من العلوم، للبحث والنقد والتحليل والشك والرفض والانكار[52]. إلاّ أنّنا نعلم أن طه حسين لم يلتزم دوما بهذه المقاييس المذكورة هنا، على نفس القدر. فنحـن نراه ، بعيد سنة 1920، وتحديدا في الفترة ما بين سنـة 1922 وسنة 1924، حين بدأ ينشر ، شيئا فشيئا، كتابه *«حديث الأربعاء»*، نراه يتحدّث عن جول لومتر (Jules Le maître) من حيث هو يمثل السبيل

---

[51] ـ م. ن.، ص 52 (آخر فقرة).

[52] ـ م. ن.، ص 58 .

الثالثة التي تعطي أهميّة للجوانب الفنيّة للشعر ولتأثيره في القارئ. على حين أنّه كان، في تلك الحقبة، يهدف إلى إيجاد مزاج من مناهج النقاد الثلاثة : سانت بيف وهيبوليت تان وجول لومتر.

المرحلة الخامسة : الدور الأساسي للذوق

إنّ النزعة المذكورة آنفا، لم تبق طويلا مركزا لاهتمامات طه حسين، ذلك أنّ كتابه الذي يحمل عنوان «*مع المتنبّي*. .» وقد ظهر سنة 1935*، وكتابه «*مع أبي العلاء في سجنه*» الذي ظهر من بعده بسنوات قليلة، سنة 1938 ـ 1939، يثبتان سيادة الذوق في الدراسة الأدبيّة.

عفا التأليف المنظّم انطلاقا من مقاييس مختلفة ذكرناها آنفا. إنّ الذوق الفرديّ هو المقياس الوحيد الذي به يرجّح الناقد الكفّة في عمله النقدي. ولذا نرى طه حسين، حين ألّف كتابه عن المتنبّي، لم يعتمد في ذلك إلاّ ديوان هذا الشاعر مصطحبا إيّاه رفيق سفر

* لا تخلو القوائم البيليوغرافية عن أعمال طه حسين من تضارب وغموض فيما يتعلّق بتاريخ النشر الأوّل لأعماله، أو لبعضها على الأقل. وبالنسبة إلى هذين الكتابين، يستنتج من مقارعة القوائم بعضها ببعض، أنّ كتاب «*مع أبي العلاء في سجنه*» ظهر سنة 1935 عن دار المعارف بالقاهرة في 245 صفحة. وبعده بسنتين تقريبا ظهر كتاب «*مع المتنبّي*» عن لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة في فبراير (فيفري) 1937 في مجلدين في 766 صفحة، وعلى كلّ حال فإنّ خاتمة هذا الكتاب تحمل تاريخ 17 أغسطس (أوت) سنة 1936 مع ملحق، أضيف بعد الفراغ من تأليف الكتاب وإتمام الطبع، يحمل تاريخ 6 يناير (جانفي) 1937 .

وأداة تسلية في أيّام الراحة بجبال الألب (Alpes) في فرنسا[53]*.

لا شكّ في ما نذهب إليه خاصّة إن نحن صدقنا ما قاله طه حسين عن تأليف هذا الكتاب : إنّه لا يعتبره دراسة كما لا يعتبره تحليلا أدبيّا. لقد كان طه حسين يومئذ متأثّرا تأثّرا عميقا بجوستاف لانسون (Gustave Lanson) الأستاذ سابقا بجامعة السوربون، وهو الذي تبنّى نظريّة جول لومتر وطوّرها[54]*.

في كتاب طه حسين عن المتنبّي يبلغ مفهوم العلم مرحلته النهائيّة. أمّا الكتب التي جاءت بعده، وهي متعلّقة بالأدب في العصر الحديث

[53] طه حسين : من تاريخ الأدب العربي، (مذكور في الهامش رقم 1 من هذا البحث)، ج3، ص 15. (انتهى)/ .

* ويقصد صاحب البحث قول طه حسين في المقدّمة التي عنوانها «قبل البدء» :

«. . . وإنّما طلبت [الى صاحبي] ديوان المتنبّي وحده. وأراد صاحبي أن يحمل ما في مكتبي من الشروح التي كتبها القدماء والمحدثون يفسّرون بها هذا الديوان، وأراد أن يحمل ما في مكتبي من البحوث التي تناول بها القدماء والمحدّثون حياة أبي الطيب وشعره، فأبيت عليه هذا كلّه، وتقدّمت إليه في أن يكتفي بأيسر طبعة من طبعات المتنبّي لأنّي لا أريد درسا ولا بحثا، وإنّما أريد صحبة ومرافقة لا غير».

طه حسين : مع المتنبي، المجلد السادس من المجموعة الكاملة بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1981، ص 10 .

[54] هذا المنهج الفني في النقد الأدبي تبنّاه عدد من تلامذة طه حسين بتأثير منه. وإلى محمد مندور يعود الفضل في الدّعوة إلى هذا المنهج في البلاد العربيّة، وبالتّالي في مصر أيضا، فقد ترجم إلى اللغة العربيّة كتابا مهمّا من كتب لانسون هو كتاب «*المنهج في التّاريخ الأدبي*»*(La méthode de l'histoire littéraire)* وقد وسمه مندور بـ «*منهج البحث في الأدب واللغة*» بيروت : 1946 (انتهى).

* انظر حول جوستاف لانسون ودوره في النقد العربي الحديث، خصوصا عند طه حسين ومحمد مندور، الكتابين الآتيين : =

(مسرحيات، قصص قصيرة الخ. . .) فالأمر لا يعدو أن يكون مجرّد تلاخيص وكتابات ليس لها مستوى الدّراسات التي وصفها عن العصور الجاهليّة أو العربيّة الاسلاميّة. لا نعني بكلامنا هذا أنّه لم ينشر بعد ذلك كتابا ذا قيمة، بدءا من ذلك التّاريخ، في مجال النقد الأدبيّ، كلاّ! ثمّ هو قد اشتغل، من حين إلى آخر، وفي الجامعة أيضا، بذلك الأدب القديم، بيد أنّنا لا نظفر بتطوّر مطّرد.

والرأي عندي أنّ الحكم على طه حسين ناقدا ينبغي أن يكون على أساس ما سبق هذا التّاريخ: هنالك تكمن عبقريّته. لقد كان طه حسين رجل الطليعة في النقد الأدبي وقد وطّنه علما في الأدب العربي، بكلّ ما يعنيه لفظ «علم» من دلالات كانت له في أوروبا.

كان لطه حسين من الشجاعة ومن الإيمان بالحقيقة ما جعله جسورا في مهاجمة الآراء المحظورة، ليزعزعها ولينزع عنها القداسة، وليفسّرها في سياق تطوّر تاريخي واجتماعي، حتّى أنّه أصبح من المستحيل على النقد الأدبيّ الحديث في الثقافة العربيّة من أن يستغني عن الرجوع إليه. إنّ الفقرة المنقولة عن شكري فيصل، في مستهلّ هذا البحث، تجد هنا، تحديدا، دلالتها الكاملة.

=ـ فاروق العمراني: *تطوّر النظريّة النقديّة عند محمّد مندور* (رسالة جامعيّة بإشراف الأستاذ توفيق بكار)، تونس: الدّار العربيّة للكتاب، 1988.

ـ عبد المجيد حنّون: *اللاّنسونيّة وأثرها في رواد النقد العربي الحديث*، القاهرة: الهيئة المصريّة العامة للكتاب (سلسلة دراسات أدبيّة)، 1996.

وانظر بحث حسين الواد:

Houcine El Oued : «Taha Hussein lecteur d'al-Mutanabbi» in : *Taha Hussein*/Actes du colloque organisé les 16, 17 décembre 1989, Bordeaux : Presses universitaires de Bordeaux III, 1991, pp. 149-162.

إنّ الاعجاب الفائق الذي به يستهلّ طه حسين ترجمته الذاتيّة «*الأيّام*» ينتهي، في آخر الكتاب إلى خيبة شاملة : ألا نجده مؤمنا بأنّ «العلماء والمثقفين هم القادرون على أن يقودوا الشعب الى الخير ويسلكوا به قصد السبيل ويعصموه من التورط»[55]، وهو في ذلك متأثّر بأفكار سان سيمون : 1760ـ1825 (Saint-Simon) التي عرفها طه حسين بفضل العلاّمة دوركايم : 1858-1917 (Emile Durkheim) أستاذ علم الاجتماع سابقا بالسوربون. يا لخيبة أمله ! لقد أدرك أنّ العلماء ناس من الناس : يخطئون ويصيبون مثل رجال السياسة[56] .

ولكنّ طه حسين لم يفقد الثقة بنفسه أبدا. إنّه ظلّ، حتّى النهاية، وفيّا لمبادئه الثابتة، حريصا على الذود عنها، ولو قدّر له أن يستأنف الأمر من حيث ابتدأ «لاستأنف سيرته التي سارها لم يغيّر منها شيئا ولم ينكر منها قليلا أو كثيرا» *. لنصغ إليه، وهو يعلّق على كلّ هذا، بأسلوبه الرائع الذي عهدناه في كتاب «الأيّام»، يقول :

«كان يعرف نفسه حين يشقى في سبيل ما يرى أنّه الحقّ، وينكرها أشدّ الإنكار بل يبغضها أشدّ البغض إذا نعم بالخفض واللّين لأنّه صانع أو داجى أو جهر بغير ما يسرّ أو آثر رضى السلطان على رضى الضمير. وكان شعاره دائما الشعار الذي

---

[55] طه حسين : *الأيام*، ج 3 ص *158* ، السطر الرابع وما بعده./ م. ن. ،ج3 ص 679 (طبعتنا)

[56] م. ن. ، ص. ن.

* م. ن. ، ج3 ص 688 (طبعتنا)

كان يبادي به من يخاصمه كما كان يبادي به مـــن يغريه قول أبي نواس :

«وما أنا بالمشغوف ضربة لازب

ولا كـلّ سلطـان عليّ أمـيـر»[57]

هكـذا تتجلّى صورة طه حسين من خلال آثاره وحياته : صـورة رجل يؤمـن بالمبـادئ والعلم، رجـل مشبع بالـثـقـافـة الـعـربـيّة والإسلاميّة، وبالثقافة الأوروبـيّة القديمة والحديثة. فهو لا يقـدّس التقليد والقيود المكبّلة، ولكنّه يقدّس الفكـر المفتوح للقيم الإنسانيّة والآفاق البعيدة الفسيحة المضيئة التي استكشفها أوّل ما استكشفها في ماضي الثقافة الاسلاميّة العريق، هذا الماضي الذي كان به شغوفا وكان يطيب له أن يذكر منه الأعلام الذين يراهم نماذج حيّة للثقافة الانسانيّة الواسعة. وهو لا ينسى في ذلك رؤوس الكتّاب الفرنسيين، وقد استكشف لديهم، واحدا واحدا أو عندهم جميعا، ما هو كفيل بتنمية فكره أو مطامحه العقليّة على اختلافها. وهنا كلام نقوله ولا ننفكّ نعيـده : إنّ طه حسين لم يتنـكّر أبدا لأصوله. فقد أدرك أنّ صلة حميمة تربط بين الماضـي والحاضر، وتربط بـين الشرق العربي والمؤثّرات الأجنبيّة الآتية من أوروبا : جـزآن متكاملان لا يتنافران، ذلك أنّ الثقافة، ليست معركة هدم، إنّما هي «تجديد وإصلاح لما ترك القدماء لا أكثر ولا أقل»[58].

---

[57] م. ن. ، ج3، ص 173 / م. ن. ، ج3 ص 689 ـ 690 (طبعتنا).

[58] طه حسين : من تاريخ الأدب العربي، ج1، ص 37 السطر السادس.

والتجديد ضرورة لا محيد عنها. ولذلك فقد التزم سبيل التقدّم حازما وفق النماذج الأوروبـيّة : فدعا الناس إلى أن يسيروا سيرتـه بأن يكتسبوا أساسا ثقافـيّا متينا فسيحا يقوم، في الآن ذاته، عـلـى اللغات الكلاسيكيّة، الأوربيّة منها والشرقيّة الساميّة [59].

ما من شك فـي أنّنا نقـف في نقـد طه حسين الأدبـي على هنات وتناقضات، خصوصا عنـد مراسه للأدب العربي الحديث[60]. ولكـنّه يظـلّ، مع ذلك ، داعية «السبيل الوسـط» ورجـل الاعتدال الحكيم، فاجتهـد، دون ثـورة أو هـدم، [لتحقيـق] التوفيق والتكامـل، واعتبر النـاس مزاجا مؤلّفا مـن عناصر مختلفة.

لقد ذكـر طه حسين، فـي حوار تلفـزي أجري معه قبيل موته بأسابيع قليلة، أنّ شعبا يجهل ماضيه وتراثه هو شعب لا حـول لـه ولا سند، لأنّ في أعماق كلّ إنسان شيئا صلبا «منذ الدهـور قـبل الدّهور» ، ولأنّ في أعماقه شيئا آخر مـن شأنـه أن ينمـو ويتطـوّر :

---

[59] لقد تبنّى طه حسين هذه الفكرة الأساسيّة لفهم النصوص عامة، لا فحسب في كتاب «*مستقبل الثقافة في مصر*» (القاهرة ـ 1938)، ولكن أيضا في مؤلّفاته الصادرة بعد ذلك، والتي نجده يعبّر عنها في كتاب : *من تاريخ الأدب العربي* : ج1، ص 20 ، السطر الثالث وما بعده. (أنظر أيضـا *في الأدب الجاهلي*، القاهرة، 1968، ص 17) الخ. .

[60] تظهر هذه الهنات والتناقضات، بصفة خـاصّة، فيما يتعـلّق باللغة الكلاسيكـيّة واللّهجات الفصيحة الحديثة : انظر ، على سبيل المثال، كتابه «*مستقبل الثقافة في مصر*» . وهذا ما كان نـبّه إليه، عن حـقّ، مثلا الباحث دافيد سماح في كتابـه : «*أربعة نقاد مصريون*» :

David Semah : *Four Egyptian Literary Critics*. Leiden, 1974, 118 sqq.

إنّهما النصفان اللّذان يكوّنان الإنسان، فمن يرضى أن يكون نصف إنسان ؟[61]*

---

[61] انظر حوارا مع طه حسين في *مجلة الكويت*، أكتوبر 1974، ص 4 ـ 5 . بعنوان «اللغة والأدب للسيد الدكتور طه حسين »

ينبغي لنا، ونحن في ختام هذه الدراسة التي لا يمكن لها أن تزعم لنفسها أنّها تستوفي الموضوع حقّه كاملا أو أنّها تستدعي كلّ ما كتب عن طه حسين في السنوات الأخيرة، ينبغي أن نذكر كتبا أساسيّة تحتاج إلى دراسة جادّة، لأنّها تتابع تطوّر حياة هذا الكاتب على نحو مستكمل، منها *«مذكّرات السيدة سوزان طه حسين»* وقد وضعتها أوّلا بالفرنسيّة، ومنها كتاب وضعه صهر طه حسين، محمد حسن الزيات وعنوانه : *«ما بعد الأيّام»*، القاهرة : دار الهلال، (1987 ؟) وقد اعتنى فيه المؤلّف بالناحيّة التوثيقيّة في ما يتعلّق بالسنوات الأخيرة من حياة طه حسين (انتهى).

* حول هذين الكتابين المهمّين، يمكن للقارئ، مراجعة ما يلي :

بالنسبة إلى الكتاب الأوّل، انظر :

Jean Philippe Lachèse : "Les souvenirs de Madame Tâhâ Hussein", *M.I.D.E.O*, - n°15, 1982, p.9-30.

ـ عبد الرزاق الحمامي : «سيرة جديدة لطه حسين»، *الحياة الثقافيّة* (تونس)، س7، ع 22 ـ 23 ، جويلية ـ سبتمبر ـ أكتوبر، 1982 ، ص 16 ـ 33 .

ـ فاطمة جعيدان : *صورة طه حسين في كتاب «معك» للسيدة سوزان طه حسين* (رسالة لنيل شهادة الكفاءة في البحث = ماجستير، بإشراف البروفوسور منجي الشملي)، منوبة ـ تونس : مكتبة كليّة الآداب، 1986 ، قسم الرسائل (بحث مرقون، رقمه 3603).

علما أن هذه المذكّرات التي يشير إليها كاتب البحث كتبتها السيدة سوزان طه حسين باللغة الفرنسيّة *(Mémoires de Madame Suzanne Taha - Hussein)* . وقد حرصت السيدة سوزان على أن تنشر هذه المذكّرات باللغة العربيّة أوّلا . وقد قام بدر الدين عرودكي بنقلها إلى العربيّة، وراجع الترجمة محمود أمين العالم، وصدرت بعنوان *«معك»*، عن دار المعارف بالقاهرة (سلسلة كتب أكتوبر) سنة 1979 (النص الفرنسي لم ينشر إلى اليوم). =

= أمّا بالنسبة إلى الكتاب الثاني، فانظر :
ـ عُمَر مُقداد الجِمـنِي : «ما بعد الأيّام أو الأيّام التي لم يكتبها طه حسيـن» *الحياة الثقافيّة* (تونس)، ع52، 1989 ، ص 17 ـ 38 .

ومحمد حسن الزيات هو أحد تلاميذ طه حسين في الجامعة الـمـصـريّة، وقـد عرف طه حسين عـن قرب صيف سنة 1934 حين كان طالبا وكان طه حسين مديرا لجريدة *«الوادي»*، ثم صار صهرا له حين تزوّج أمينة كريمة طه حسين سنة 1948، وظلّ متّصلا به إلى أن توفي العميد، راجع ترجمته في هذا الكتاب (فصـل : طـه حسين والعالم العربي).



القسم السادس

طه حسين :
فلسفة سيرة ومسالك مسار



طـه حسيــن
أو فخر الثقافـة المصريّة الحديثة*

بقلم كريستيان لاموريت **

14 نوفمبر 1889 ـ 28 أكتوبر 1973 : مدّة تناهز أربعة وثمانين عاما انقضت، هي حياة حافلة بالحوادث وألوان النشاط، وبالآمال والخيبات. هذه الحياة هي، في آن ، حيـاة رجـل يـعـدّ من أبرز

---

* Christiane Lamourette : "Taha Hussein ou le prestige d'une culture égyptienne moderne", in *Les Africains,* tome IX, Paris : Eds. Jeune Afrique, 1978, pp.113-139.

هذا فصل كتبته كريستيان لاموريت بالفـرنـسـيّة ونشرته في المجلد الـتّاسع مـن موسوعة «الأفارقة» (Les Africains) الصادرة عن منشورات جون أفريك في باريس، سنة 1978، ص 113 ـ 139 .

** ولدت كريستيان لاموريت (Christiane Lamourette) عام 1943 في فرنسا . تلقت تعلّمها الثانوي في فرنسا ثـمّ درست العربـيّة في معهد اللغات الشرقـيّة الحيّة، ثمّ انتقلت إلى تونس والتحقت بقسم اللغة والآداب العربيّة بكليّة الآداب بجامعة تونس، ومنها أحرزت شهادة الأستاذيّة سنة 1968 ، كما أحرزت شهادة التبريز (Agrégation) من كلية الآداب بجامعة باريس سنة 1970 . وباشرت تدريس اللغة العربيّة بمعهد كارنو الشهير بتونس من سنة 1968 إلى سنة 1973 . وقد اشتغلت لاموريت بصفتها عضوا علميّا في المعهد الفرنسي لـلـدّراسات العربـيّة بدمشـق (.I.F.E.A.D) من 1973 إلى 1975 ، وفي المعهد الفرنسي للآثار الشرقيّة بالقاهرة (.I.F.A.O) بداية من 1977 . =

الأعلام الممثّلين لمختلف التيارات الفكـريّة التي شاعت في العالم العربي في عصر النهضة، وهي حياة بلد، هو مـصر، هذا الـبـلـد الذي مـا أن اتّصل فجأة اتصالا مباشـــرا بـأوروبـا مـنـــذ حـمـلـة بونابرت (Napoléon Bonaparte) حتّى أخذ يسعى إلى استعادة سيادته الوطنيّة في مواجهة أنقلترا والذي انتهى به الأمر، بعد سلسلـة مـن الأزمات السياسيّة، إلى تأسيس نظام جمهـوري ذى اتّجاه اشتراكيّ. «هذه الثورة نحن مدينون بها لهذا الرجل» : هكذا تحدّث عن طه حسين جمال عبد الناصر قائد الانقلاب الذي أطاح بالنظام الملكي سنة 1952 [1]. إنها كلـمات عـرفان لهذا الذي لم ينفك يدافع عن

= اعتنت كريستيان لاموريت بدراسة الأدب العـــربي الحديث. وقـد سـجّلت موضوعا لنيل دكتورا الدّولة بإشراف البروفسـور شارل بلاّ (Charles Pellat) بعنـوان «طه حسـين : حياتـه وآثاره » (La Vie et l'œuvre de Taha Hussein). وقد نشرت عددا من أبحاثها في المجلات العلميّة المختصّة، منها البحث الذي نترجمه هنـا، وبحث آخر بعنوان : «مظاهر من الحياة الأدبيّة في القاهرة في فترة ما بين الحربين العالميتين» *الحوليات الإسلاميّة*، (مجلة المعهد الفرنسي للآثار الشرقيّة ـ القاهرة)، المجلد الرابع عشر، سنة 1978، ص 217 ـ 270 .

Christiane Lamourette : "Aspects de la vie littéraire au Caire entre les deux guerres mondiales", *Annales islamologiques* (I.F.A.O. Le Caire), tome XIV, année 1978, pp.217-270.

وبحث آخر عن «الجدل حول مسألة الأحوال الشخصيّة للمرأة المسلمة في تونس عام 1930»، صدر في *نشرة الدّراسات الشرقيّة*، مج 30 ، سنة 1978، ص 11 ـ 31.

Christiane Lamourette : " Polémique autour du statut de la femme musulmane en Tunisie en 1930", *Bulletin des Etudes Orientales* (I.F.E.A.D.) vol.30, année 1978, pp.11-31.

[1] ـ نقلا عن السيدة سوزان طه حسين .

الديمقراطيّة وحريّة التعبير في كلّ مجال، لا يخشى في ذلك عقاب معاقب.

كان طه حسين أستاذا جامعيّا وكاتبا وصحافيّا ورجل سياسة سعى دوما إلى أن يعبّر عن آرائه في صراحة، ولو أغضب طائفة من الناس. وهو يؤكّد هذا المعنى، في كتابه «*مستقبل الثقافة في مصر*» الصادر سنة 1938، قائلا :

«والحمد لله على أنّ السياسة وظروفها لا تخيفني ولا ترهبني، وعلى أنّها لم تستطع قطّ أن تمنعني من قول الحقّ حين يجب أن يقال. وفي ذلك الخير دائما، وقد يكون فيه الشرّ أحيانا.. إنّ هناك طائفة من الحقائق يجب أن تقال في هذا البلد وألاّ يحجم المؤمنون بها عن الذود عن إعلانها والذود عنها والدّعوة إليها مهما يكلّفهم ذلك من الجهد ومهما يحملهم ذلك من المكروه»[2] .

لا ريب في أنّ الموضوعات التي ينبغي فيها إعمال الفكر كانت كثيرة لمن أحسّ في نفسه استعدادا للتأمّل، مهما يكن العصر. وكانت مصر، في القرن العشرين، وما تزال مسرحا لحوادث لا يمكن أن يظلّ وطنيّ مقتنع شأن طه حسين غافلا لاهيا عنها. لا شيء ممّا كان يحدث حوله قمين بأن يدعه غير عابئ. لقد كان شديد الضيق بكلّ ما من شأنه أن يستذلّ وطنه ويجعله موضوعا للطمع أو يتّخذه هزؤا من قبل الأمم الأجنبيّة المتقدّمة.

[2] طه حسين : *مستقبل الثقافة في مصر*، ط. دار الكتاب اللّبناني، بيروت : 1973، ص 372 .

كان طه حسين يندّد بنقائص المجتمع الذي يعيش فيه طمعا في أن ينبّهه من سباته . كان متشدّدا مع نفسه وكذا كان متشدّدا مع النّاس، يقول : «وما أدري ما هذا الجنيّ الذي يلحّ عليّ ويريدني على ألاّ أنام ولا أنيم»[3].

ما هو مصدر هذا الفكر اليقظ دوما ؟ وهذا العطش إلى المعرفة ؟ وهذه الإرادة في اتباع أعسر المسالك لتحقيق ما كان يراه ملائما لمصلحة بلده ؟

ينبغي أوّلا ، ونحن نجتهد في الإجابة عن هذا السؤال، أن نصف الأطوار الكبرى في حياة طه حسين مبرزين خاصة المؤثّرات التي كان لها دور في تكوين شخصيّته، والعوامل الأساسيّة في ثقافته.

ذاكرة صبي كفيف

ولد طه حسين في عزبة الكيلو قرب قرية مغاغة في الصعيد المصري الأوسط من محافظة المنيا. كان من عائلة كثيرة العدد، إلى الفقر أقرب منها إلى الغنى. كانْ أبوه موظّفا صغيرا في معمل السكر، فلم تكن العائلة في سعة من العيش، ولكنها ، على كل حال، كانت لا تعدم حاجتها الأساسيّة.

وهو حين يستحضر ذكريات الطفولة في القرية لا نراه يشتكي

---

[3] ـ طه حسين : *فصول في الأدب والنقد*، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، 1969، ص 12 .

من الحرمان في قوته. وقد أصيب بالرمد، هذا الوباء المنتشر في مصر، وهو طفل فأهمل أيّاما إلاّ ذلك السائل الذي كانت أمّه تقطره في عينيه. وكان هذا السائل يؤذيه كثيرا ولا يجدي عليه خيرا. على هذا النحو فقد الصبيّ عينيه، وأصبح منعزلا في عالمه الخاص، عالم طفل كفيف لا يقدر على أن يشارك إخوته وأخواته ألوان اللّعب إلاّ بعقله لا بيده. كان لا يستكشف ما حوله إلاّ بالسمع، مستعيضا قدر الطاقة عن عاهته بالاستماع إلى الأصوات من حوله. وكان من أوّل أمره طلعة فكان يسمع أحاديث أبيه إلى الرجال، وأحاديث العلماء من أهل القرية، وإنشاد الشاعر. كانت ذاكرته قد وجدت في ما حوله مقاما فيه تتمرّس فتختزن الأخبار والسير والأشعار والتراتيل التي كانت تبلغ سمعه. وعرف الصبيّ في الكتّاب أوّل مرّة مناهج التعليم العتيقة وحاول، بكلّ حيلة لدى الأطفال، أن يفلت من عناء حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب.

وفي نهاية الأمر لم يجد بدّا من أن يتمّ حفظ القرآن، ثمّ أتقن فنّ التجويد. ولم يكن بدّ بعد ذلك من أن يستكمل ما تعلّم بحفظ ألفية ابن مالك، وهو كتاب في النحو في صيغة شعر تعليمي. هو ذا الآن يستعدّ لمتابعة دروس الأزهر [في القاهرة]، هذا الأزهر الذي كان صيته ذائعا يومئذ، [وها هو أبوه يخاطبه قائلا].

«أمّا في هذه المرّة فستذهب إلى القاهرة مع أخيك، وستصبح مجاورا، وستجتهد في طلب العلم. وأنا أرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضيا، وأراك من علماء الأزهر، قد

جلست إلى أحد أعمدته ومن حولك حلقة واسعة بعيدة المدى»[4] .

هكذا اجتمعت رغبة الأب في أن يصبح ابنه شيخا وتوقُ الابن إلى طلب العلم حتى يصبح له منزلة بين العلماء، على أن يكون هذا السفر إلى القاهرة عيدا ومجمع آمال هي على قدر الغاية المطلوبة.

ولكن ما كاد الصبيّ يتصل، أوّل مرّة، ببيئة الأزهر سنة 1902 حتى كانت الخيبة، خيبة كانت مريرة على قدر ما كان الأزهر يتراءى له من بعيد موضع إعجاب تكلّله هالة من الفخار.

ويستدرك طه حسين هذا الطور من حياته فيستعيد الخواطر التي كانت تثور في نفسه الناشئة منذ وصوله الى الأزهر حين أخذ يتهيّأ للاستماع إلى الأعاجيب، فإذا به يردّ الى الواقع المتّصل بالدّرس :

«فقد غمزه أخوه بيده قائلا في صوت خافت : لقد أقبل الشيخ. اجتمعت شخصية الصبي كلّها حينئذ في أذنيه وأنصت: ماذا يسمع ؟ يسمع صوتا خافتا هادئا رزينا ملؤه شيء قل إنّه الكبر، أو قل إنّه الجلال، أو قل إنّه ما شئت، ولكنّه شيء غريب لم يحبّه الصبيّ» [5] .

إنّها الخيبة. إنّها منطلق معركة طويلة الأمد، سيلتقي فيها تياران فكريان: أحدهما محافظ يمثّله الأزهر، والآخر إصلاحي يمثّله طه

---

[4] طه حسين : *الأيام* ، ج1 ، القاهرة، 1956، ص 138 .

[5] م.ن.، ص 144 .

حسين وآخرون. وسرعان ما احتقر درس الفقـه، وكـذلـك درس النحو اللّذين حضرهما، وأخذ الصبـيّ يسائل نفسه أكان مــــن المجدي حقّا أن يواصل السير في هــذه السبيل إذ بدأ يعنى بدرس الأدب العـــربي القديم يلقيـــه الشيخ سيـد المرصفي.

كان هـذا الشيخ الذي يحميه الأستاذ الإمـام محمد عبده صاحب الآراء الاصلاحيّة التـي كانت تستهوي طه حسين يتندّر بشيوخ الأزهر ويشنّع بمناهج تدريسهم فيه. تعلّق طه حسين بالمرصفي وتأثّـر بما كان يراه من حياته «البائسة الحرّة الممتازة» يرضى فيها بالقليل وبمـا كان يراه فيه من قدرة على استكشاف كنوز الأدب القـديم يظهـرها لتلاميذه.

ليس من شـكّ في أنّ السيد المرصفي هو صاحب الفضل الأكبر على طه حسين في ما أحرزه مـن علم واسـع بالتراث الأدبـي وكذلك في ما حصله من تذوّق سليم لهذه المؤلّفات التي غالبا ما كانت تصدّ معاصيره لعسر مراسها * .

---

* سيد علي المرصفي، أستاذ الأدب في الأزهر الشريف وأثره في طه حسين الناقد الأدبي صفحة، في نظرنا، غير مجلوّة على الوجه الأكمل، ذكره طه حسين في أكثر من موضع من مؤلّفاته منوّها بشخصه مشيدا بفضله عليه وتأثيره فيه. ذكـره أوّل ما ذكره في مقدّمة رسالته عن أبي العلاء المعري فقدّمه أحسن تقديم وأبان صلته به بيانا يغنينا عن القول، فكتب :

«أستاذنا الجليل سيد بن علي المرصفي أصـحّ من عرفت بمصر فقها فـي اللغة وأسلمهم ذوقا في النقد، وأصدقهم رأيا في الأدب، وأكثرهم روايـة للشعر ولا سيّما شعر الجاهليّة وصدر الاسلام. كان يدرّس الأدب في الأزهر=

من الأزهر إلى الجامعة الأهليّة

قضى طه حسين ستّ سنوات يختلف، في غير انتظام، إلى الأزهر وإلى المساجد المجاورة له في القاهرة يطلب العلم، لم يكن خلالها «يضيق بالفقر ولا بقصر يده عمّا كان يريد، فقد كان ذلك شيئا

الشريف، وبدأت أختلف إليه ولمّا أعد السادسة عشرة. فلزمته أربع سنين ما أذكر أنّي انقطعت عن درسه، أو تخلّفت عن مجلسه. ولم يقف الأمر بيني وبينه على ما يكون بين الأستاذ والتلميذ من الصلة، بل نشأ بيننا نوع من المحبّة يشوبها في نفسي الإجلال والإكبار، وفي نفسه العطف والحنان، وتبعث كلينا على أن يتعصّب لصاحبه، ويناضل عنه، على نحو ما يكون بين الأبناء البررة والآباء المشفقين.

سعدت بهذا الحبّ قديما، وسأظلّ سعيدا به طول الدّهر، لأنّه صادف قلبي في غضارة الطفولة، ونضارة الصبا، ولأنّه حب مصدره العلم لم تفسد عنصره المادة، ولم تكدّر جوهره مآثم هذه الحياة. حبّ الأستاذ ودرسه قد أثرا في نفسي تأثيرا شديدا، فصاغاها على مثاله، وكوّنا لها في الأدب والنقد ذوقا على مثال ذوقه.

إيثار للبدويّ الجزل على الحضريّ السهل، وكلف بمناحي الإعراب في فنون القول، ونبوّ عن تكلّف المولّدين لأنواع البديع...، وبغض شديد لحكم الضرورة في الشعر، وللفظ السهل المهلهل...»

طه حسين: *تجديد ذكرى أبي العلاء*، المجلد العاشر من المجموعة الكاملة، ط.2، بيروت: «دار الكتاب اللبناني، 1983، ص 9 ـ 10.

ثمّ ذكر طه حسين أستاذه المرصفي في مقدّمة كتاب *«في الشعر الجاهلي»* حين عرض لمناهج تدريس الأدب في مصر، وكان أحدها منهج السيّد المرصفي حين كان يفسّر لتلاميذه في الأزهر *«ديوان الحماسة»* لأبي تمام أو كتاب *«الكامل»* للمبرّد أو كتاب *«الأمالي»* لأبي علي القالي. وقد تحدّث في هذه المقدّمة عن قيمة منهج المرصفي. انظر: طه حسين: *في الأدب الجاهلي*، المجلد الخامس من المجموعة الكاملة، بيروت: دار اللبناني، 1982، ص 9 وما بعدها. =

مألوفا بالقياس إلى طلاّب العلم في الأزهر الشريف (. . .) وإنّما

=وذكر طه حسين أستاذه المرصفي ثالثة في المقدّمة التي وضعها لكتاب كارلو نالينو (Carlo Nallino): *تاريخ الآداب العربيّة من الجاهليّة حتّى عصر بني أمية*، فجمع في حديثه بين أستاذيه «الأستاذ العظيم سيّد علي المرصفي»، و«الأستاذ العظيم كارلونالينو»، كان يستمع في الصباح إلى دروس الأدب في الأزهر من أستاذه المصري، ويسمع في المساء دروس الأدب في الجامعة الأهليّة من أستاذه الإيطالي، وهو بعد تحليل لمذهبي الرجلين يسجّل دينه لهما قائلا :

«أما أنا فقد سجّلت غير مرّة وأسجّل الآن أنّي مدين بحياتي العقليّة كلّها لهذين الأستاذين العظيمين : سيّد علي المرصفي الذي كنت أسمع دروسه وجه النهار وكارلو نالينو الذي كنت أسمع دروسه آخر النهار. أحدهما علّمني كيف أقرأ النص العربي القديم وكيف أفهمه وكيف أتمثّله في نفسي وكيف أحاول محاكاته، وعلّمني الآخر كيف أستنبط الحقائق من ذلك النص. . .

فلا غرابة إذا في أن تكون حياتي كلّها برّا بهذين الأستاذين وإكبارا لهما واعترافا بفضلهما وشكرا لما أهديا إليّ من معروف وما أسديا إليّ من جميل»

كارلو نالينو

تاريخ الآداب العربيّة من الجاهليّة حتّى عصر بني أمّية ط.2 ، القاهرة: دار المعارف بمصر، 1970 تقديم طه حسين، ص 6 وما بعدها.

وذكر طه حسين أستاذه المرصفي في كتاب *«الأيام»* فأبان عن وجوه كثيرة من هذه العلاقة التي ربطته بأستاذه، في صفحات طوال ومواضع كثيرة، وممّا قاله عن منهج المرصفي في النقد الأدبي :

«نقد حرّ للشاعر أوّلا، وللرّاوي ثانيا، وللشرح بعد ذلك، وللغويين على اختلافهم بعد أولئك وهؤلاء. ثمّ امتحان للذوق ورياضة له على تعرّف باطن الجمال في الشعر أو النثر، في المعنى جملة وتفصيلا، وفي الوزن والقافية وفي مكان الكلمة بين أخواتها، ثمّ اختبار للذوق الحديث في هذه البيئة التي كان يلقي فيها الدرس، وموازنة بين غلظة الذّوق الأزهري ورقّة الذوق القديم، وبين كلال العقل=

كان يضيق أشدّ الضيق بهذا السأم الذي ملأ عليه حياته كلّها (. . .) حياة مطّردة متشابهة لا يجدّ فيها جديد * .

في سنة 1908 بلغ به السأم من الأزهر أقصاه، فانقطع عنه أو كاد، لا يحضر إلاّ درسين اثنين : درس الفقه للشيخ بخيت صباحا ودرس الأدب للشيخ المرصفي مساء.

وكان الفتى منذ قدومه القاهرة كثيرا ما عارض شيوخ الأزهر وإدارته حتى طرد من هذا المعهد إلى حين رفقة صديقيه أحمد حسن الزيات ومحمود حسن الزناتي. ولئن كان الفتى لا يلمّ بكلّ دروس الأزهر فإنّه لم يكن يركن إلى الفراغ. إنّما كان يواضب على الاختلاف إلى دار الكتب يروي فيها غلّته من الثقافة .

وفي نهاية هذه المرحلة بدأ الفتى يعنى باللغة الفرنسيّة، حضر في الجامعة الأهليّة، وقد أنشئت في ديسمبر 1908، درسا من دروس اللغة الفرنسيّة حول الشاعر لافونتين(La Fontaine) ولكنّه لم يفهم منه حرفا لأنّه كان يجهل اللغة الفرنسيّة. وكان ردّ فعل الفتى ناشئا عن

الأزهري ونفاذ العقل القديم، وانتهاء من هذا كلّه إلى تحطيم القيود الأزهريّة جملة، وإلى الثورة على الشيوخ في علمهم وذوقهم وفي سيرتهم وأحاديثهم».

طه حسين : *الأيّام*، ج2، ص 354 .

وانظر حول الشيخ المرصفي وتأثيره في طه حسين تعليقنا في الهامش المتصل به في بحث رئيف خوري «الانسانويّة العربيّة المعاصرة أو دفاع عن الثقافة العربيّة في آثار طه حسين».

* طه حسين : *الأيام*، ج3، ص 385 . (طبعتنا).

طبعه، فبدل أن يعدل عن الدّرس ويعرض عنه أزمع أن يتعلّم الفرنسيّة محتملا في ذلك كلّ خطب .

وقد أنشئت الجامعة الأهلـيّة حديثا وسرعان ما انتسب إليها طـه حسين. فإذا به يجد للحياة طعما جديدا. كان الدّرس الأوّل الذي حضره من دروس الأزهر مخـيّبا لآماله على غير انتـظـار. أمّا هذه المرّة فكانت دروس الجامعة الأهليّة «عيدا متّصلا» : يشرع الأستاذ محيّيا طلابه بقوله «أيّها السادة أحيّيكم بتحيّة الإسلام فأقول السلام عليكم ورحمة الله». . وهو بعد ذلك، لا يستهلّ درسه بالعبارة التي يبدأ بها شيوخ الأزهر [دروسهم] «قال المؤلّف رحمه الله» ، ثمّ هو لا يقرأ في كتاب، «ولكن يتكلّم من عند نفسه، وكان كلامه واضحا لا يحتاج إلى تفسير»[6] *.

وانتبه الطالب إلى المناهج الجديدة، وهي تختلف عمّا عرف من قبل في التعليم التقليدي بالأزهر، «ولم ينفق الفتى ثلاثة أيام مـنـذ افتتاح الجامعة حتى تغيّرت حياته تغيّرا فجائيّا كاملا»[7]. هناك، في الجامعة الأهليّة، كان الأساتذة المصريون والأساتذة الأجانب يباشرون التدريس جنبا إلى جنب. فإذا آفاق أرحب تمتدّ أمام الفتى ، كانت، إلى عهد قريب، لا تعدو نظام التفكير التقليدي في الأزهر. أمّا هنا، [في الجامعة] فكلّ شيء كان يبدو جديدا كلّ الجدّة. مناهج البحث وموادّ الدراسة.

---

[6] طه حسين : *مذكرات* ، بيروت، 1967، ص 10 ـ 11 (انتهى).

* الحديث هنا عن العلاّمة أحمد زكي باشا أستاذ الحضارة الاسلاميّة.

[7] م. ن. ، ص 13.

كان هناك درس التّاريخ القديم، ودرس فقه اللغة، والفلسفة الاسلاميّة، والأدب العربي، وتاريخ الأدب، وكان الأساتذة يجعلون من هذه المواد موضوعا للتّفكير لا مادّة للتّلقين وسوء الفهم.

وماهي إلاّ أن رثّت علاقة طه حسين بالأزهر، هذا الأزهر الذي لم يعد، في ذهن الفتى، يحتمل مقارنة بالجامعة الأهليّة التي غدت أكثر تعبيرا عن آماله.

كان طه حسين يتابع دروسا مسائيّة في اللغة الفرنسيّة لإجادتها *. وفي الآن ذاته، كان يعدّ رسالته لنيل الدكتورا التي يعتزم أن يتقدّم بها أمام الجامعة. وفي الوقت ذاته أصبح الفتى مقرّبا إلى لطفي السيّد مدير «*الجريدة*» رجل الفكر والتقدّم الذي ساعده على اقتحام البيئة الصحافيّة.

وفي سنة 1912 وبعد 10 سنوات من الانتساب إلى الأزهر، وعلى الرغم من الخيبات التي مني بها في الأزهر، تقدّم طه حسين إلى امتحان العالميّة، ولكنّه أسقط، أسقطه الممتحنون الذين تلقّوا من الشيخ الأكبر أمرا بإسقاط الفتى مهما تكن الظروف[8].

وكان أحمد لطفي السيد يميل إلى الاعتدال في الرأي، فكان يسعى، حين يسرف طه حسين في طول اللسان والإمعان في الشتم،

---

* راجع الفصلين السادس والسابع من الجزء الثالث من كتاب «*الأيّام*».

[8] ـ حول هذه الحادثة انظر: *مذكّرات طه حسين*، من ص 22 إلى ص 25.

إلى أن يعلّمه القصد في اللفظ والأناة في التفكير. وعلى خلاف ذلك كانت هناك شخصيّة سياسيّة أخرى تحبّب للطالب الفتى العنف بالأزهر وترغّبه فيه وتزيّنه له، هو الشيخ عبد العزيز جاويش الذي أثّر عنفه في هذا الكاتب الناشئ الذي أخذ يجرّب قلمه في النقد الأدبي بمقالات تتعلّق بأسلوب الكاتب المصري المعاصر لطفي المنفلوطي.

إنّ طه حسين يؤكّد أنّ الشيخ عبد العزيز جاويش «هو الذي ألقي في روعه فكرة السفر الى أوروبا»، لكنّ تأثير جاويش في الفتى سرعان ما تلاشى إثر أحداث سياسيّة جدّت اضطرت جاويش إلى الهجرة من مصر. ولكنّ طه حسين يعترف بالدور الذي نهض به هذا الرجل في حياته، قال:

«وهو، على كلّ حال، قد أعان الفتى على الخروج من بيئته تلك المغلقة إلى الحياة العامة، وعلى أن يكون له اسم معروف»[9] *.

في الخامس عشر ** من شهر ماي سنة 1914، ناقش طه حسين رسالته للدّكتورا بالجامعة الأهليّة وكان قد اختار أن يدرس الشاعر

---

[9] *مذكرات طه حسين*، ص 44 (انتهى).

* وراجع حول تأثير الشيخ عبد العزيز جاويش:

فتحي رضوان: «أثر الشيخ عبد العزيز جاويش في حياة طه حسين»، *الهلال*، س 91، أوّل نوفمبر 1983، ص 66 ـ 73.

** الصواب هو الخامس من ماي.

الكاتب أبا العلاء المعري، أصيل الشام وابن القرنين الرابع والخامس للهجرة (الموافقين للعاشر والحادي عشر للميلاد) *.

يذكر طه حسين أنّ من بين الأسباب التي دفعته الى هذا الاختيار ما كان من تشابه، ولو إلى حدّ، بين حياتي الرجلين ، فقال : «ورأيت بيني وبين الرجل تشابها في هذه الآفة المحتومة. لحقت كلينا في أوّل صباه، فأثّرت في حياته أثرا غير قليل»[10].

إنّ تشابه الرجلين في المصير يقرّب ما بينهما على اختلاف العصور: إنّ فلسفة الشاعر أبي العلاء التشاؤميّة كانت تجد لها صدى إيجابيّا في نفس الطالب الفتى، من ذلك أنّه كان في صباه يحسّ أنّ بينه وبين أبي العلاء شبها «وكم كان يتمنّى طفلا لو استطاع أن يخلو إلى طعامه.. لأنّه كان يخشى أن يوصف بالشره أو أن يتغامز عليه إخوته»[11]، على غرار ما كان يفعل أبو العلاء.

كانت رسالة طه حسين أوّل أطروحة للدكتورا نوقشت في الجامعة الأهليّة، وقد اعتمد فيها المناهج التي استكشفها لدى أساتذته المستشرقين خاصة منهم نالينو (Carlo Nallino). وقد كان لطه حسين

---

* العنوان الأصلي للرسالة كما هو مثبت في سجلات إدارة الجامعة المصريّة هو «*تاريخ أبي العلاء*». ونشرت الرسالة بعنوان «*ذكرى أبي العلاء*» في طبعتها الأولى آخر سنة 1915 عن مطبعة الواعظ بالقاهرة. وظهرت الطبعة الثانية سنة 1922 عن مطبعة المعاهد بالقاهرة بالعنوان ذاته. وبداية من الطبعة الثالثة التي ظهرت سنة 1937 صار العنوان «*تجديد ذكرى أبي العلاء*».

[10] طه حسين : *تجديد ذكرى أبي العلاء* ، ط.7، القاهرة، 1968 .

[11] طه حسين : *الأيّام*، ج1، ص 20 ـ 22 .

أن تابع دروس نالينو في تاريخ الأدب العربي. يقول في تفسير هذا المسلك :

«جعلت درس أبي العلاء درسا لعصره، واستنبطت حياته ممّا أحاط به من المؤثّرات. ولم أعتمد على هذه المؤثّرات الأجنبيّة وحدها. بل اتخذت شخصيّة أبي العلاء مصدرا من مصادر البحث، بعد أن وصلت إلى تعيينها وتحقيقها. وعلى ذلك فلست في هذا الكتاب طبعيّا فحسب، بل أنا طبعيّ نفسيّ أعتمد فيه ما تنتج المباحث الطبيعيّة ومباحث علم النفس معا»[12].

هذا الكتاب، في نظر مؤلّفه، لم يسبق إلى تأليف مثله أحد. وهو حدث في التّاريخ الأدبي المصري. وقد نشر سنة 1915 أي سنة واحدة بعد مناقشة الرسالة، وأثار ضجة لدى المحافظين* كانت تمهيدا لضجة ثانية ستنشأ حول طه حسين يوم ينشر سنة 1926 كتابه *«في الشعر الجاهلي»*.

وكان مجلس الجامعة قد وعد الفتى المترشّح بإيفاده إلى أوروبا إذا ظفر بشهادة «العالميّة». لذلك ما إن فرغ الطالب من المناقشة

---

[12] طه حسين : *تجديد ذكرى أبي العلاء*، ص 12 .

* راجع في هذا مقدّمتي طه حسين لكتابه : *تجديد ذكرى أبي العلاء*، مقدّمة الطبعة الأولى وهي مؤرّخة في ديسمبر 1915، (الفقرة : 7) ومقدّمة الطبعة الثانية وهي مؤرّخة في فبراير 1922 . ومن الكتب التي وضعت للرد على طه حسين في هذا الباب :

ـ حسن حسين : *الولاء في نقد «ذكرى أبي العلاء»*، القاهرة : 1917 .

حتى طفق يذكّر الجامعة بالوعد الذي قطعته على نفسها. وقـرّرت الجامعة إيفاده إلى باريس ليدرس التّاريخ. كان على أهبة السفـر يوم الثامن من أغسطس (أوت) سنـة 1914 . ولكنّ إعلان الحـرب العالميّة الأولى أفسد عليه الأمر. واضطرت الجامعة فـي غـمـرة الحرب، إلى أن تستـردّ طلاّبها من أوروبا وإلى أن توقـف إرسـال البعثة الجديدة «فانقلب فرحه حزنا وسروره ألما ولوعة... واضطرّ الفتى إلى أن ينتظر .. مـاذا ينتظر وإلى متى يكون هـذا الانتظار : أيقصر أم يطول ؟» * .

وانتهى الأمر بالفتى إلى أن أبحر من الاسكـنـدريّة في الرابـع عشر من شهر نوفمبر سنة 1914 إلى مرسيليا. «ولم يكد يبلغ غرفته (...) حتّى خرج من جبّته وقفطانه، وتخـفّف من عمامته ودخل في ذلك الزي الأوروبـي» ** . كلّ ذلك رمز لحياة جديـدة. بـلـغ مدينة مرسيليا. وما هي إلاّ أن غادرها إلى مدينة مونبلييه(Montpellier) لأنّ باريس كانت على مقربة من المعارك المحتدمة، وهي لا تضمن الأمن الضروري للدّراسة. وكذا استطاعت الجامعة أن تهتدي إلـى حلّ لهذا المشكل القائم في انتظار ظروف حسنة مواتية .

كان هدف طه حسين الأوّل في مونبلييه تعـلّم اللغة الفرنسـيّة التي لم يكن يومئذ يعرفها إلا قليلا. وكذلك تابع في جامعة مونبلييه دروسا في الأدب وعلم النفس، وظلّ مقيما فيها حتى شهر سبتمبر سنة 1915 .

* طه حسين : *الأيّام*، ج3 ص 512 (طبعتنا)

** م.ن.ص 523 (طبعتنا)

في تلك الفترة لقي طه حسين أوّل مرّة سوزان المرأةالتي ستكون له زوجا وستضفي على حياته طابعا جديدا تماما. ذكر هذا الطور السعيد من حياته، قال :

«وإذا الحياة تبتسم له فجأة في يوم من أيّام الربيع ابتسامة تغيّر حياته كلّها تغييرا.

وإذا هو لا يعرف الوحدة ولا يجد الوحشة حين يخلو إلى نفسه إذا أظلم الليل، وكيف تجد الوحدة أو الوحشة إلى نفسه سبيلا، وكيف تبلغه تلك الخواطر التي كانت تؤذيه وتضنيه وتؤرّق ليله وفي نفسه صوت عذب رفيق يشيع فيه البرّ والحنان ويقرأ عليه هذا الأثر أو ذاك من روائع الأدب الفرنسي» [13].

كانت الفتاة تقرأ له، وسبب ذلك أنّه جرب طريقة «الكتابة البارزة» (Braille) ولكنّه سرعان ماعدل عنها واضطرّ إلى أن يتّخذ من يقرأ له، كما كان يفعل في الماضي.

كانت الجامعة الأهليّة في ضائقة ماليّة شديدة سنة 1915 ، وهي لا تزال يومئذ معهدا أهليّا (أي خاصّا). واضطرت إلى أن تدعو طلاّبها الموفدين في البعثة خارج مصر الى العودة. واضطرّ طه حسين إلى أن يرجع إلى مصر على كره منه، فأقام فيها ثلاثة أشهر حضر خلالها درسا في الجامعة، ونشر مقالات في جريدة *«السفور»*.

---

[13] طه حسين : مذكّرات، ص 136 .

وفي شهر ديسمبر من العام ذاته (1915) عاد طه حسين إلى فرنسا، قاصدا باريس هذه المرّة، وسينتسب فيها إلى جامعة السوربون.

قضى سنته الأولى في الاستعداد لبلوغ المستوى المطلوب لمتابعة الدّروس في الجامعة فاضطرّ إلى أن ينظر في برنامج المدارس الثانويّة الفرنسيّة وإلى أن يتعلّم اللغة اللاتينيّة واليونانيّة أيضا.

ثمّ أخذ يتابع في جامعة السوربون دروس اللغة والآداب الفرنسيّة، ودروس التاريخ، ودروس علم الاجتماع، ولا بدّ هنا من أن نذكر الأستاذ دوركايم (Emile Durkheim) لأنّه كان من بين الأساتذة الأقوى تأثيرا في طه حسين يومئذ. فهو الذي كان دفعه إلى العناية بعلم الاجتماع. وهو الذي أشرف على رسالته للدّكتورا حول فلسفة ابن خلدون الاجتماعيّة * .

أحرز طه حسين سنة 1917 الإجازة في الآداب من جامعة السوربون. ثم أحرز في العام الموالي، أي سنة 1918، دكتورا الجامعة برسالة موضوعها«دراسة تحليليّة نقديّة لفلسفة ابن خلدون الاجتماعيّة» (Etude analytique et critique de la philosophie sociale d'Ibn Khaldoun). [14]

---

* في الحقيقة، كان هناك مشرفان اثنان على هذه الأطروحة : عالم الاجتماع إميل دوركايم والمستشرق بول كازانوفا (Paul Casanova).

[14] نقلها إلى العربيّة ونشرها محمد عبد الله عنان سنة 1925 تحت عنوان «فلسفة ابن خلدون الإجتماعيّة»

وكان زواجه في الفترة التي تقع بين هذين التاريخيـن* . ثم رأى أن يعدّ بإشراف الأستاذ جوستاف بلوك (Gustave Bloch) دبلوم الدّراسات العليا (D.E.S) [في التاريخ] برسالة موضوعها : «القضايا التي أقيمت في روما على حكّام الأقاليم الذين أهانوا جــلال الشعب الروماني وغضّوا مــن شرفه كما صوّرها المؤرّخ العظيم تاسيت»» (La Loi de Lèse majesté sous Tibère d'après Tacite) .

وما إن ناقش هذا البحث وأتمّ المهـمّة التي جاء من أجلها حتى قفل راجعا إلى مصر في شهر أكتوبر سنة 1919 .

فمن اليسير أن نرى كيف أنّ طه حسين، انطلاقا من البيئة الريفيّة حيث قضى طفولته ووصولا إلى جامعة السوربون حيث تـوجت مجهوداته في طلب العلم، مرورا قبيل ذلك بالأزهـر والـجـامـعـة

---

* لقي طه حسين سوزان بريسو (Suzanne Bresseau) في مونبلييه فـي 1915/05/12 (وفي بعض الـمـراجـع 05/18) وهي فتاة فـرنـسـيّة كاتولـيـكـيّة أصيلة مـقـاطـعـة بورغون (Bourgogne)، كانت تدرّس بمدرسة المعلّمات. وقد انتدبها طه حسين في البداية لتقرأ له وتعينه. وكانت متذوّقة للأدب موفورة النشاط. ثمّ تعلّق بها، واختار المقام في أسرتها صحبـة أمّها وأختها وبعد أشهر قليلة، تـمّت الخطوبة. وفي 19 أغسطس (أوت) 1917 أتمّ اقترانه بها.

انظر لمزيد التوسّع :

- طه حسين : «زوجتى»، *الهلال*، ج1، 1 نوفمبر 1934، ص 12 ـ 16 .
- طه حسين : *«الأيّام»*، ج 3 الفصول : 11 ، 12 ، 14، 15 .
- أحمد الصاوي محمد : «الدكتور طه حسين في بـاريـس»، *الهلال*، 1 أغسطس 1928، ص 1181 ـ 1183 .
- سوزان طه حسين : *معـك* ، ترجمة بدر الدين عرودكي ومراجعة محمود أميـن العالم، ط.1 ، القاهرة: دار المعارف (سلسلة كتب أكتوبر)، 1979 ، مواضع عدّة.

المصريّة، قد ظفر لنفسه بثقافة واسعة تتكامل فيها العناصر التقليديّة والحديثة تكاملا منسجما لا تعارض فيه. وهكذا تمازجت لديه معرفة جيّدة بالأدب العربي القديم وحذق للمناهج الأوروبيّة في التفكير والنقد. فكان له بذلك زاد من المعرفة اللغويّة التاريخيّة المتينة فتح في وجه الكاتب آفاقا رحبة لدراسة الحضارات القديمة خاصة منها تلك التي ازدهرت في روما وأثينا.

عاد إلى وطنه وقد انتبه إلى قضايا كثيرة أخذ يطيل التأمّل فيها، وكان يعتقد أنّه قادر على استخلاص عبر شتّى من التاريخ وأن يطبّق على مصر الحلول التي استنبطها من تجاربه.

مسؤولية المثقّف

«كان دوركايم قد أنفق عاما كاملا يدرّس فيه لتلاميذه مذهب الفيلسوف سان سيمون»*. وقد احتفظ طه حسين بآراء سان سيمون (Saint - Simon) حول الدّور الذي ينبغي أن ينهض به العلماء في كلّ أمّة.

وقد قدم مصر، بعد نشوب أزمة هزّت البلاد هي ثورة سنة1919 نتيجة للحركة السياسيّة التي قام بها سعد زغلول زعيم حزب الوفد مطالبا بالاستقلال. [هنا] يقول طه حسين :

«فليس غريبا أن يعود صاحبنا إلى وطنه مؤمنا بالثورة التي شبّت فيه، ومؤمنا في الوقت نفسه بأنّ عبئا خطيرا من أعباء

* طه حسين : *الأيّام*، ج3، ص 678 .

هذه الثورة سيقع على العلماء والمثقفين من أبناء هذا الوطن. فهم قد عرفوا تجارب الأمم وعرفوا حقائق العلم واستطاعوا أن يميّزوا بين ما يمكن من الأمر وما لا يمكن، وهم القادرون على أن يقودوا الشعب إلى الخير، ويسلكوا به قصد السبيل، ويعصموه من التورّط فيما تورّطت فيه شعوب كثيرة فلم تجن منه إلاّ شرّا»[15].

هذا الإيمان لدى طه حسين برسالة المثقف الذي هو ضمير الشعوب والحكومات، ما لبث أن اهتزّت أركانه أمام الواقع المصري فقد كتب قائلا :

«على أنّه لم ينفق في مصر شهورا حتّى تبيّن أنّه كان واهما في كلّ ما قدّر وأنّ العلماء والمفكّرين ناس من الناس يتأثّرون بالجماعات التي يعيشون فيها فيخطئون مثلها ويصيبون»[16].

نجد طه حسين أوّل الأمر أستاذا يدرّس التاريخ القديم، الروماني واليوناني، في الجامعة المصريّة * . وقد شغل هذا المنصب حتّى سنة 1925 . وأبرز في دروسه الدّور الذي قامت به الحضارة اليونانيّة في مصر، فأثار ذلك نقد الذي ينكرون هذا التأثير في مصر، وقد نشر طه حسين بعض دروسه في « *صحيفة الجامعة المصريّة* » بين سنة 1919 وسنة 1924 .

[15] طه حسين : *مذكّرات*، ص 252 ـ 253 .

[16] طه حسين : *مذكّرات* ، ص 253 .

* المقصود هو الجامعة الأهليّة وقد صار يطلق عليها في أواسط العقد الثالث اسم الجامعة المصريّة.

وكان في الوقت ذاته ينشر عدّة كتب ترجمها، إذ رأى أنّه من الضروري أن يعرّف بها الجمهور المصري، منها : «*صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان*»*، وكتاب «*الواجب*» *(Le Devoir)* لجول سيمون (Jules Simon) ** ، وكتاب «*روح التربية*» *(Psycologie de l'Education)* لجوستاف لوبون(Gustave Le Bon)*** و «*قصص تمثيلية لجماعة من أشهر الكتاب الفرنسيين*» **** .

إنّ هذه العناية التي خصّ بها الحضارة اليونانيّة وقضايا التربية ستتجسّد، فيما بعد، بنشر كتابه «*مستقبل الثقافة في مصر*» ***** .

التعليم للشعب

لم يبعد النشاط المهني أو الأدبي طه حسين من الحياة العامة بالمعنى الواسع، ومن الحياة السياسيّة بالخصوص. فقد تأسّس سنة 1922 حزب الأحرار الدستوريين، وهو حزب ذو نزعة معتدلة، وكان طه حسين من مؤيّديه، وأخذ يكتب في جريدة «*السياسة*»، لسان الحزب، وقد أسّسها محمد حسين هيكل.

---

* صدر في القاهرة عام 1920

** صدر في القاهرة عام 1914 في جزأين بالاشتراك مع محمود رمضان.

*** صدر في القاهرة عام 1921 عن دار الهلال.

**** العنوان الكامل «*فرانسوا دي كوريل وآخرون : قصص تمثيليّة لجماعة من أشهر الكتّاب الفرنسيّين*» ، صدر في القاهرة عام 1924 .

***** صدر في القاهرة عام 1938 .

لقد دلّ موقفه عامة على أنّه ما زال في حقيقة الأمر على إيمانه بأن أمور الحكم الصالح المنتج «يجب أن تصير إلى العلماء». نهض طه حسين مجتهدا في تثقيف الشعب المصري فعرّفه بنماذج تكون له أسوة في التفكير تضمّنها كتاب *«قادة الفكر»*، وهم فلاسفة يونانيون. وشغل نفسه بتثقيف الشعب على نحو يجعله قادرا على النهوض بحقوقه وواجباته النّابعة من الاستقلال الذي يطالب به، وقد ناله، آخر الأمر، في 15 مارس سنة 1922 .

وقد أصبحت الجامعة المصريّة حكوميّة سنة 1925 ، وعيّن فيها طه حسين أستاذا للأدب العربي*. كان موضوع دروسه الشعر الجاهلي فأغضب المحافظين غضبا شديدا. غير أنّها أحاطته بمجد محقّق لدى الطلاّب الذين كانوا ينزعون إلى قبول كلّ جرأة في التفكير وكلّ رؤية جديدة لتاريخ الأدب العربي.

---

* في 11 مارس 1925 صدر مرسوم ملكيّ بقانون إنشاء جامعة في مدينة القاهرة تسمّى «الجامعة المصريّة» وتتكوّن من كليّة الآداب وكليّة العلوم وكليّة الصيدلة الخ... ويقضي القانون بأن تدمج في هذه الجامعة المدارس العاليّة الموجودة آنذاك : مدرسة الطب وتعتبر كليّة الطبّ، ومدرسة الحقوق وتعتبر كليّة الحقوق، والجامعة الأهليّة وتعتبر كليّة الآداب.

الجامعة الأهليّة التي تأسّست سنة 1907 اتخذت لها مقرّا في سراي جناكليس حيث الآن الجامعة الأمريكيّة بالقاهرة. أمّا الجامعة المصريّة التي تأسّست بمقتضى مرسوم سنة 1925 فمقرّها الجيزة (منفيس القديمة المشهورة في سالف الأزمنة بمعاهد العلم والدين والفن).

وبداية من سنة 1939 يطلق عليها اسم جامعة فؤاد بعد وفاته تقديرا لمجهوداته.

ولمّا أقدم طه حسين سنة 1926 على نشر دروسه في كتيّب أصدرته مطبعة دار الكتب* ، علت الأصوات بالاستنكار. كانت تبعات هذه القضيّة دينيّة بقدر ما كانت سياسيّة. وثار الأزهر ضدّ [هذا] الملحد الذي وضع موضع الشكّ تاريخ إبراهيم وإسماعيل، والذي استعمل في براهينه القرآن دون مراعاة حرمة الكتاب الكريم، والذي شكّ، في آخر الأمر، في صحّة الشعر الجاهلي الذي هو قوام لغة العرب وآدابهم. وعرضت القضيّة على البرلمان، وكانت أغلبيته من الوفديين. وارتفعت الأصوات مطالبة بتسليط عقوبات ضدّ طه حسين.

كانت السنة السابقة، سنة 1925، شهدت ضجة أخرى كان سببها ظهور كتاب للشيخ علي عبد الرازق عنوانه : «الإسلام وأصول الحكم» وفيه يدرس مؤسسة الخلافة. لقد بلغ السيل الزبى! واستنكر المحافظون صنيع أعداء الإسلام هؤلاء المرتدّين. فأمّا العقوبات التي سلّطت على طه حسين فإنها لم تدفع به الى السجن، وأمّا كتابه عن الشعر الجاهلي فقد صودر. وأمّا المؤلّف فقد أبعد من الجامعة... ثم ظهر الكتاب في العام الموالي، سنة 1927، ثانية، بعد أن حذف منه فصل وأضيفت إليه فصول أخرى وجعل عنوانه «في الأدب الجاهلي»**

---

* يقصد طبعا كتاب *«في الشعر الجاهلي»*.

** جاء في مقدّمة كتاب *«في الأدب الجاهلي»* قول المؤلف :

«هذا كتاب السنة الماضية، حذف منه فصل وأثبت مكانه فصل، وأضيفت إليه فصول ، وغيّر عنوانه بعض التغيير... وهو على كلّ حال خلاصة ما يلقى على طلاب الجامعة في السنتين الأولى والثانية في كلية الآداب».

11 مايو سنة 1927 . =

وعلى الرّغم من هذه الاضطرابات نجد طه حسين يعيّن سنة 1928 عميدا لكليّة الآداب، فتنشأ بتعيينه أزمة سياسية. وإذا وزارة المعارف تطالبه بالاستقالة، وتعيّن مكانه أجنبيّا سينهض بالعمادة إلى عام 1930، وهي السنة التي يستعيد فيها منصب العمادة على عهد وزارة صدقي. وماهي إلاّ أن طلب منه صدقي تقديم استقالته ليتولّى رئاسة تحرير جريدة *«الشعب»* لسان حال الحزب الذي أسّسه صدقي، فأبى.

رغبت حكومة صدقي في سنة 1932 إلى طه حسين أن يوافق على أن تمنح كليّة الآداب شهادة الدكتورا الفخريّة لأحد رجال السياسة، فاعترض اعتراضا باتّا. وعندها أقيل من منصب العمادة ونقل إلى خطّة مبهمة المشمولات في وزارة المعارف. ولكنّه رفض هذه الخطّة رفضا كما رفض التعاون مع حكومة صدقي، فأقيل من مسؤولياته في 29 مارس 1932 .

=وراجع عن هاتين القضيّتين، قضيّة علي عبد الرازق وقضيّة طه حسين، فصلا مهمّا لطه حسين كتبه بالفرنسيّة عن «الاتجاهات الدينيّة في الأدب المصريّ المعاصر» سنة 1946 ونشره سنة 1947 على صفحات مجلة *«كراسات الجنوب»* التي كانت تصدر في مرسيليا، في عدد خاص عن «الإسلام والغرب»، وقد عرّب هذا الفصل منجي الشملي وعُمَر مقداد الجِمني بالاشتراك ونشراه على صفحات مجلة *«الحياة الثقافية»* (تونس)، انظر :

Taha Hussein : "Tendances religieuses de la littérature égyptienne d'aujourd'hui", *Cahiers du Sud* (n° spécial : L'Islam et l'Occident), 1947, pp.235-241.

وراجع الفصل مترجما إلى العربيّة :

طه حسين : «الاتجاهات الدينيّة في الأدب المصري المعاصر»، ترجمة من الفرنسيّة بقلم منجي الشملي وعُمَر مقداد الجِمني ، *الحياة الثقافية* (تونس)، ع 55 ، 1990، ص 4 ـ 10 .

منذ ذلك التاريخ سينقطع طه حسين إلى نشاطه صحافيّا وكاتبا ومحرّرا في جرائد عدّة : «*السياسة*» و«*كوكب الشرق*» و«*الوادي*». إنّها فترة حالكة في حياته. عليه أن يكسب قوت عياله، وعليه أن يحتمل اضطهاد القصر ورجال البلاط.

في شهر ديسمبر من سنة 1934 اضطرّ صدقي إلى الاستقالة خلال إحدى الأزمات الوزاريّة الكثيرة التي أشاعت الفوضى وعدم الاستقرار في مصر بسبب الفضائح الماليّة المتتابعة. وعندها استعاد طه حسين كرسيّ الأستاذيّة في كليّة الآداب، ثمّ عيّن من جديد، عميدا في شهر ماي 1936 . فلمّا كانت سنة 1939 أعيد انتخابه عميدا في هذا المنصب ذاته، لكن الحكومة القائمة آنذاك، حكومة محمد محمود، اعترضت ، فاضطرّ إلى الاستقالة منه، مع الاحتفاظ بخطّة الأستاذيّة. وفي العام ذاته، قلّده الأمير فؤاد وسام النيل، ومنحه لقب البكويّة.

واصل طه حسين الاضطلاع بالتّدريس، وعيّن بالإضافة إلى ذلك مستشارا للثقافة في وزارة المعارف. وقد نهض بهاتين الوظيفتين حتى شهر فيفري من سنة 1942 . وهما وظيفتان على علاقة بالكتاب الذي كان نشره سنة 1938 بعنوان «مستقبل الثقافة في مصر» ، وفيه يعرض آراءه عن الثقافة المصريّة بالأمس والغد.

ثمّ نجده مستشارا فنيا في وزارة المعارف، على عهد الحكومة الوفدية، حتى شهر أكتوبر من سنة 1944 ، وهو تاريخ إقالته مرة أخرى من مهامّه.

ثمّ نجده، أثناء الحرب العالميّة الثانية يؤسّس جامعة الاسكندريّة ويضطلع بخطّة مدير لها *.

وقد تولّى تسيير دار الكاتب المصري من سنة 1945 إلى سنة 1948، ولكن الحكومة اضطرّته إلى إغلاقها **. وقد تولّى وزارة المعارف في جانفي سنة 1950 إلى بداية سنة 1952 على عهد وزارة وفديّة. وقد أتيحت له الفرصة المناسبة يومئذ كي يجتهد في تطبيق آرائه التي ما انفكّ يعبّر عنها بدءا وعودا، حول ضرورة إصلاح التعليم وضبط طرقه***، وهي آراء سنرجع إليها لأنها تمثّل وجها جوهريّا من دعوته. ولعلّه الوجه الأكثر تأثيرا في تاريخ بلده.

لقد انقطع طـــه حسين، بداية من عام 1952 إلى الانتاج الأدبي وإلى ألوان من النشاط العلمي في مختلف المجامع العربيّة فنشر

---

* عن طه حسين الجامعي أستاذا وعميدا، راجع لمزيد التفصيل :

ـ عبد المنعم الدسوقي الجميعي : *طه حسين والجامعة المصريّة*، ط.1، القاهرة دار الكتاب الجامعي، 1981 .

ـ لويس عوض : *الحريّة ونقد الحريّة*، القاهرة : الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1989 ، فصل «طه حسين العميد»، ص 5 ـ 22 .

ـ محمد حسن الزيات : *ما بعد الأيّام*، ط.1، القاهرة : دار الهلال، د.ت.، الفصول : 3 ـ 4 ـ 6 ـ 7 ـ 8 ـ 9 .

** حول مجلّة *«الكاتب المصري»* والدّور الذي نهضت به والمصير الذي آلت إليه راجع :

ـ محمد حسن الزيات : *ما بعد الأيّام*، فصل «الكاتب المصري»، ص 135 ـ 143 .

*** حول طه حسين الوزير، انظر :

ـ لويس عوض : *الحريّة ونقد الحريّة*، فصل : «طه حسين الوزير»، ص 23 ـ 44.

كتبا عن الاسلام : «*الفتنة الكـــبرى*» (1952 ـ 1953) * . و«*مرآة الإسلام*» (1959) ، و«*الشيخـان*» (1960) . إضافة إلى سلسلـة مـن كتب النقد الأدبي ، أغلبها يتضمّن فصولا كانت نشرت في مختلف الجرائد والمجلاّت ** .

واعتزل السياسة إلاّ أنّه لم يتردّد في التعبير عن رأيه كلّما دفعه إلى ذلك حدث من الحوادث : كذا فيما يتـعـلّق بالثورة المصريّة سنـة 1952، وكذا فيما يتعـلّق بالغارة بالقنابل على قرية سيدي يـوسـف بتونس [سنة 1958] خلال حرب الجزائر.

ولكن صحّته كانت، من قبل ذلك، على غير اعتدال. وقد كانت السنوات العشر الأخيرة في حياته فترة آلام جسـديّة كم عمل علـى إخفائها عن أهله.

الإشعاع الدّولي

كثيرا ما كان طه حسين عرضة للاحتجاج ولقسوة المعاملة في بلده. بيد أنّه كان موضع احتفاء لدى أمم أجنبيّة كثيرة منحته ألقابـا تشريفيّة اعترافا له بمجهوداته وقيمة آثاره. [دعي] طه حسين لإلقاء دروس في علّة جامعات بإسبانيا وفرنسا وأنجلترا. ونال منها درجة الدّكتورا الفخريّة. وشارك في ملتقيات علميّة وخـاصّة في كثير من

* تقصد كاتبة البحث هنا الجزء الثاني من كتاب «*الفتنة الكبرى*» ، وهو جزء «*علي وبنوه*»، أمّا الجزء الأوّل «*عثمان*» فكان صدر عام 1947 .

** تقصد كاتبة البحث مؤلّفات «خصام ونقـد» (1955)، «نقد وإصلاح» (1956)، «أحاديث» (1957)، «من أدبنا المعاصر» (1958)، «كلمات» (1967) الخ . . .

المؤتمرات التي نظمها المستشرقون. ومعلوم أنّ الحكومةالمصريّة لم تدرجه سنة 1947 ، ضمن وفدها الى مؤتمر اليونسكو المنعقد في بيروت. فبادر لبنان بدعوته اعترافا بقيمته الشخـصـيّة *. وكم مرّة اقترح اسمه لنيل جائزة نوبل للآداب**.

ولكنّ قائمة الألقاب والأوسمة التشريفـيّة طويلة مديدة حتّى لا إمكان هنا لذكرها كلّها. وقد يكون إحصاؤها أمرا مضجرا، خاصّة أنّها لا تضيف شيئا يذكر إلى قيمة الرجل. إنّما أهمّ من ذلك وأكثر جدوى أن نفحص عمل رجل يمثل القرن العشرين في مصر أحسن تمثيل، هذا القرن الذي تطرح فيه مسألة مستقبل البلاد طرحا حادّا، في مواجهة أوروبا القوية المتطوّرة والمستعمرة.

في المقام الأوّل حرّية التعبير

قد لا يكون من الصواب أن نعنى بـ «التفكير السياسي» عند طه حسين*** . إنّ أبرز وجه عنده الأستاذ والأديب.

---

* طه حسين : بين بين ، المجلد الرابع عشـر من المجموعة الكاملـة، ط.2، بيروت : دار الكتاب اللّبناني، 1983، فصل : «دين» ص 491 ـ 495 .

** أصدر مجلس الجـامعة العربيّة باقتراح من اللجنة الثقـافـيّة الدّائمة قراريـن : الأوّل عام 1967، والثاني عام 1968 ، بترشيح طه حسين لجائزة نوبل تثمينا لعطائه الخصب في مختلف مجالات المعرفـة. وقـد زكّت كلّ الدّول العربـيّة آنذاك هذا الترشّح.

*** لعلّ الصّواب عكس هذا الرأي تماما. ذلك أنّ فكر طه حسين ملؤة النظرات السياسية ، وحياته ترشح عملا سياسيا، ومؤلّفاته تقطر سياسة. وفي هذا المعنى=

ولئن هو شغل نفسه بالأحداث التي شهدتها مصر خاصّة في الفترة ما بين الحربين يوم كانت تطرح على التوالي القضايا المتعلّقة باستقلال البلاد وإجلاء القوات البريطانية، فذلك لأنّه كان دائم

=أنشأ رشيد القرفوري من جامعة تونس رسالة لنيل شهادة التعمّق في البحث (= دكتورا حلقة ثالثة) أشرف عليها البروفسور منجي الشملي عرض فيها بالتحليل الدقيق للفكرالسياسي عند طه حسين وعنوانها «*التفكير السياسي عند طه حسين*» ، (نوقشت هذه الرسالة يوم 2 مارس1991 ـ بكليّة الآداب منوبة ـ تونس). وقد صدرت أخيرا بعنوان : طه حسين مفكّرا سياسيّا، تقديم منجي الشملي، تونس ـ سوسة : دار المعارف للنشر، 2001.

وكذلك أنشأ مصطفى عبد الغني في مصر رسالة جامعية نشرت أخيرا بالقاهرة تعنى بالجانب السياسي من تفكير طه حسين، وعنوانها «*المفكّر والأمير : طه حسين والسلطة في مصر : 1913 ـ 1973* »، القاهرة : الهيئة المصريّة العامة للكتاب، 1997 .

ولعلّه يجدر بالصدد أن نذكّر بما جاء في الجزء الثالث من «*الأيام*» من حديث طه حسين عن تجربته السياسيّة، وقد كتب كما هو معلوم سنة 1955 ، أي حين كان طه حسين جاوز سنّ الخامسة والستين، قال :

«والمهمّ أنّه غرق في السياسة أو احترق بنارها، ولم يكن له بد من أن يحتمل تبعات هذا الغرق أو هذا الحريق. وهل كانت حياته كلّها، منذ تلك الأيّام، إلاّ نتيجة طبيعيّة لإقدامه على السياسة وغرقه فيها واصطلائه نارها. كلّ ما لقيه بعد ذلك في حياته من خير أو شرّ، ومن عرف أو نكر، ومن رضا أو سخط لم يكن إلاّ أثرا من آثار تلك السياسة التي أقدم عليها غير حاسب لأعقابها ونتائجها حسابا. وعلى كثرة ما لقي من أهوال السياسة وما احتمل من أثقالها وما تعرّض لسخط المتطرّفين حينا والمعتدلين حينا آخر، لم ينكر من سيرته شيئا ولم يندم على فعل فعله أو قول قاله».

طه حسين

الأيّام ، المجلد الأوّل من المجموعة الكاملة، بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1974، ج 3 ، ص 688 .

الحرص على التعبير عن رأيه، وعلى النفاذ إلى المشكلات تطلب لحلولها الموافقة.

إنّ طه حسين رجل مصريّ الولادة، مصريّ الوجدان، ينقد معاصريه لا رغبة منه في الهدم، إنّما رغبة منه في أن يعي الشعب القضايا، وخاصّة الطبقة المتعلّمة منه، وأن يسعوا جميعا إلي حلّها بأسلم الطرق وأنجعها. لقد آخذوه بأنّه سريع التحوّل من حزب إلى آخر، إذ بعد أن أيّد حزب الأحرار الدستوريين غادره إلى حزب الوفد، ومعنى ذلك أنّه «يقلب ظهر المجنّ» في غير استحياء. أليس الأجدر بنا أن نجتهد في فهم حقيقة موقفه بدل أن نسارع إلى الحكم على «تحوّلاته السياسيّة» ؟

الحقّ، فيما يبدو، أنّ الأمر الذي كان يعنيه هو بصفة عامة مصلحة الوطن. كان طه حسين في أوّل أمره أميل إلى حزب الأحرار الدستوريين : إنّ تفضيله العمل مع محمّد حسين هيكل على العمل مع سعد زغلول قد يكون هو الدافع الأساسي لهذا الاختيار. إلاّ أنّه ما إن رأى الفرصة متاحة لتطبيق الآراء الإصلاحيّة التي كان يدعو إليها منذ زمن بعيد فيما يتعلّق بالتعليم حتّى قبل مسؤولية الوزارة في حكومة وفديّة. فما كان الموقف انتهازيا بقدر ما كان لا مبالاة بالجزئيّات. وإذن ألم يناضل الأحرار الدستوريون والوفديون، في حقيقة الأمر، من أجل هدف مشترك أسمى : استقلال البلاد ؟ وبعد، أليست وسيلة العمل الناجح تتمثّل في الانضمام إلى الأغلبيّة

الحاكمة، وهو ما لا يمنع، على كلّ حال، من نقدها إذا اقتضى الأمر ذلك ؟ * .

ما كان طه حسين رجل سياسة، إنّما كان صاحب آراء، لا ريب. وبالتّالي كان يضع حريّة التعبير في المقام الأوّل، فليس من اليسير عليه إذن أن يرتبط نهائيا بهذا الحزب أو ذاك. إنّ الارتباط، على هذا النحو، يعني عنده نهاية هذه الحريّة التي كانت أمرا ضروريّا.

ترى هل كان من الصدفة، وهو يخاطب مراسلا صحافيّا، أن يوجّه إليه هذه النصيحة التي من شأنها أن تكون نصيحة ثمينة على غاية الأهميّة :

«أفهم أن تتطوّر فتستحيل، وأن تستبدل رأيا برأي وأسلوبا في الفنّ بأسلوب، ولكنّي أحبّ لك أن تشعر بهذا التطوّر وتقدّر هذه الاستحالات، وتحسب لهما حسابهما حين تكتب أو تتحدّث، فذلك خليق أن يدفع عنك ما قد تتّهم به من التناقض والاضطراب» [17] * .

---

* للتوسّع في مسألة هذه التحوّلات السياسيّة عند طه حسين، انظر :

- مصطفى عبد الغني : *تحوّلات طه حسين*، القاهرة : الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1990 .

- رجاء النقاش : «طه حسين والأحزاب السياسيّة» ، ضمن كتاب : *طه حسين كما يعرّفه كتّاب عصره*، بأقلام مجموعة من المؤلّفين، القاهرة : دار الهلال، د.ت، ص 190 ـ 214 .

[17] طه حسين : *حافظ وشوقي*، القاهرة، 1932 ، ص 634 (انتهى).

*هذه الفقرة مقتطفة من الفصل الرابع وعنوانه «في الذوق الأدبي ـ ردّ أيضا»

إنّ وجهات نظر طه حسين مستمدّة ممّا كان يراه مصلحة الوطن. لقد بدأ يعنى بالسياسة، عن كثب، خاصّة بعد عودته من فرنسا حيث كانت الدراسة والبيئة لا تنفكّان تدفعانه إلى التّفكير وإلى إقامة مقارنة بين فرنسا ومصر.

إنّ صلاته بسعد زغلول، وقد أتيح له أن يلقاه مرّتين في باريس، لم تتجاوز المجاملة الفاترة. ذلك أن عظماء مصر بالنسبة إلى طه حسين لا يعدّ سعد من بينهم : «أوّلهم الأستاذ الامام محمد عبده «الذي أحيا الحريّة العقليّة»، والثاني مصطفى كامل مؤسّس الحزب الوطني «الذي أذكى جذوة الحريّة السياسيّة» والثالث قاسم أمين محرّر المرأة «الذي أحيا الحرية الاجتماعيّة»[18]*.

---

[18] طه حسين : *مذكّرات*، ص 226 (انتهى).

* لا بدّ من أن نشير إلى أنّ طه حسين كتب عام 1940 مقالا طويلا بعنوان «روح الشعب» تحدّث فيه عن علاقته بسعد زغلول من أوّل يوم عرفه فيه إلى أن توفّي. وفي هذا المقال أكبر طه حسين سعدا وأجلّه، وممّا جاء فيه قوله :

«ولكنّ إعجابي بسعد على هذا كلّه، وإكباري لسعد على هذا كلّه، بل حبّي لسعد على هذا كلّه، لم يمسسه نقص في يوم من الأيّام (. . .) فقد كان سعد في أعماق نفسي كما كان دائما في ضمير خصومه جميعا، صورة صادقة دقيقة لروح الشعب المصري الحديث. وكنّا نميل إلى هذا الروح أو نتجافى عنه، وكنّا نكلف بهذا الرّوح أو نضيق به، ولكنّا كنّا نرى سعدا ممثّلا لهذا الرّوح دائما، ممثّلا له في حياته منذ نشأ فتى شعبيّا طامحا فمكافحا إلى أن قضى زعيما شعبيّا عظيما».

طه حسين : «روح شعب»، *الثقافة* (القاهرة)، ع 87. س2، 27 أغسطس 1940، ص 26 ـ 30 .

وراجع عن العلاقة بين طه حسين وسعد زغلول :

ـ رشيد القرفوري : «بين طه حسين وسعد زغلول»، *الحياة الثقافيّة* (تونس)، ع 55، 1990، ص 16 ـ 24 .

الحريّة في كلّ مجال : ذلك هو الجوهري لدى طه حسين. وما برز هؤلاء العظماء واستحقّوا عرفان مواطنيهم إلاّ لسعيهم في سبيل تلك الحريّة.

ظروف الاستقلال

نالت مصر استقلالها السياسي. وجلت القوّات البريطانيّة عن أرضها إلا منطقة القناة، وذلك بعد توقيع المعاهدة الأنجليزيّة المصريّة في لندن، وبعد أن أفضت معاهدة مونترو (Montreux) سنة 1937 إلى إلغاء الامتيازات. ولكنّ هذا الاستقلال النظري يحتاج، في نظر طه حسين، إلى أن يغدو واقعا فعليّا، لا أن يبقى مجرّد كلمات موقّعة، قال :

«فإذا كنّا نريد هذا الاستقلال العقلي والنفسي الذي لا يكون إلاّ بالاستقلال العلميّ والأدبيّ والفنيّ فنحن نريد وسائله بالطبع. ووسائله أن نتعلّم كما يتعلّم الأوروبيّ، لنشعر كما يشعر الأوروبيّ، ولنحكم كما يحكم الأوروبيّ، ثمّ لنعمل كما يعمل الأوروبيّ، ونصرّف الحياة كما يصرّفها.

ونحن نريد آخر الأمر أن نكون أحرارا في بلادنا، أحرارا بالقياس إلى الأجنبيّ بحيث لا يستطيع أن يظلمنا أو يبغي علينا، وأحرارا بالقياس إلى أنفسنا بحيث لا يستطيع بعضنا أن يظلم بعضا أو يبغي على بعض.

نريد الحريّة الداخليّة وقوامها النظام الديمقراطيّ. ونريد الحريّة الخارجيّة وقوامها الاستقلال الصحيح والقوّة التي تحُوطُ هذا الاستقلال»[19].

ولقد كتب في موضع آخر :

«واستقلال الأفراد كاستقلال الجماعات، لا يهبط لهم من السماء ولا ينجم لهم من الأرض، وإنّما يكتسب اكتسابا» [20].

ما هي إذن السبيل الكفيلة بكسب الاستقلال ؟ هل بالانقطاع عن العالم ؟ كلاّ ! بل، على العكس من ذلك، يكون كسب الاستقلال بالتبادل السياسي والاقتصادي والثقافي مع الدّول الأخرى.

ما هو الموقف الذي ينبغي أن نتّخذه تجاه أوروبا ؟ لندع طه حسين يحدّثنا مرة أخرى :

«ثمّ نحن نطلب الاستقلال، نزعم أن ليس بيننا وبين أهل أوروبا فرق وأنّ من حقّنا أن نستمتع بنظام الحياة الذي يستمتعون به. وقد يكون هذا حقّا. ولكن يجب أن نعترف بأنّ أهل أوروبا وأمريكا لم يصلوا إلى حياتهم الراقية الحرّة بالتهالك على السيارات والحليّ وملابس الحرير وما يشبهها، وإنّما وصلوا إليها بالتهالك على العلم والرغبة فيه» [21]

---

[19] طه حسين : *مستقبل الثقافة في مصر* ، ص 58 .

[20] طه حسين : *مذكرات* ، ص 235 .

[21] طه حسين : من بعيد، ط. 4 ، بيروت، 1967 ، ص 59 .

ولذا لا ينبغي أن نرى في الحضارة الأوروبيّة إلاّ الجانب المادي الذي هو نتيجة جهود علميّة تحقّقت على مدى قرون من التقدّم. إنّ ما ينبغي أن يحتذيه [المصريّون] من أوروبا هو طلب المعرفة التي أوصلت أوروبا إلى هذا التطوّر الذي تحسدها عليه الشعوب الضعيفة. ينبغي أن يأخذ المصريون من أوروبا أحسن ما عندها لا أن يسعوا إلى أن يكونوا «صورة مطابقة للأصل» من الأوروبيين .

ولا خشية من أن تفسد العلاقات الوثيقة بأوروبا أمر الدين. ليست الحياة الغربيّة شرّا كلّها، وإلاّ ما كان الأوروبيون يستطيعون التقدّم ولا السيطرة على الأمم الأخرى. أليس في الحضارة الاسلاميّة آثار من حضارات أخرى ؟ إنّه بإمكان المصريين أن يستلهموا نظام الحكم السياسي عند الأنقليز هؤلاء الذين عرفوا منذ زمن طويل كيف يصلون بين الفرديّة والروح القومي، فهم اليوم مثال الديمقراطية.

ومع ذلك نرى أن الشعب البريطاني، هذا الذي يتمتّع بحريّة أكبر في بلاده، هو في نظر طه حسين، أقدر الشعوب على استذلال البلاد الضعيفة. ومصر في ذلك مثل يذكر، ذلك أنّ الاستعمار، في نظر المؤلّف، آفة تتعارض تماما وفكرة الحضارة. يقول طه حسين ما معناه «أنّ الاستعمار يورث الإذلال والاستعباد على حين أنّ الحضارة تشيع الحريّة والاستقلال. ومهما بلغت الأمم القويّة من القدرة، فإنّها مضطرّة حتما، اليوم أو غدا، إلى الإقرار بخيبة الاستعمار»[22].

[22] جوستاف لوبون : روح التربية، تعريب طه حسين، القاهرة، 1925 (مضموم إلى كتاب حديث الأربعاء)، ص 132 ـ 133 ، هامش في أسفل الصفحة.

وكما اشتكى طه حسين من الإمبرياليّة الأنقليزيّة ومن سياسة فرنسا في الجزائر، كذلك أدان التمييزالعنصري في جنوب إفريقيا، وأدانه لدى البيض الأمريكيين وذكّر بأصولهم قائلا :

«والأمريكيون البيض من أهل الولايات المتّحدة قد هاجر آباؤهم من أوربا فرارا بحريّتهم من العسف والخسف والهوان. فالاضطهاد في الدين والرأي هو الذي دفع كثيرا من الأوروبيين إلى أن يهجروا وطنهم القديم إلى العالم الجديد ليعيشوا فيه عيشة قوامها العزة والحريّةوالاحتفاظ بكرامة الانسان. فانظر إليهم كيف يحرزون هذه الخصال لأنفسهم ثم يضنون بها على غيرهم من النّاس»[23].

يرى طه حسين أنّ كلّ أشكال القمع والجور مقيتة بغيضة بيد أنّه ما رآه منها خارج مصر لا يخفي عليه ما كان قريبا منه.

وقد أحسّ ما كان عليه شعب مصر من بؤس مادي وروحي فكتب روايات يصف فيها هذا البؤس : *«دعاء الكروان»*، *«المعذبون في الأرض»* و*«شجرة البؤس»*.

لقد خبر طه حسين من قبل البؤس في البيئة الريفـيّة، حيث قضى طفولته، لذا نجده وهو يرسم لوحة مصر الريفيّة يفزع، دون شك، إلى ذكرياته.

كتب سنة 1944، مشيرا إلى انعدام المساواة الذي لم يقض عليه نيل مصر سيادتها الوطنيّة، فقال :

[23] طه حسين : *ألوان*، ط.4، القاهرة، 1970، ص 309.

«لقد وفى النيل للمصريين بالريّ والثراء ولكن ما حظّ المصريين من هذا الريّ وما نصيب المصريين من هذا الثراء؟ إنّهم يبلغون ما يقرب من عشرين مليونا من الناس قد وفى لهم النيل جميعا بالريّ والثراء فكم منهم سيتمتّع بهذا الريّ ؟ وكم منهم ينعم بهذا الثراء ؟ أحاد الألوف أو عشرات الألوف أو مئات الألوف إن شئت، ولكن هناك ملايين وملايين من المصريين لا ينعمون بهذا الريّ، وإنّما يشربون ماء يحمل إليهم المرض والأذى والعناء، ولا يستمتعون بالثراء وإنّما يصارعون البؤس والحرمان، فيصرعهم البؤس (. . .).

ولكن وفاء النيل بالقياس إليهم معناه الكدّ الذي لا يعصم صاحبه من الجوع، والعناء الذي لا يحمي صاحبه من الحرمان. معناه العمل لتمتلئ بعض الأيدي، وتظل يد العامل خالية لا تمسك شيئا» .[24]

إنّ مغالبة هذا البؤس تحتاج إلى مزيد من التضامن الاجتماعي ولكنّ الأغنياء أثرون، لا تشغلهم إلاّ رفاهيتهم، ولا يزعجهم مشهد البؤس من حولهم ولو قليلا. فكان طه حسين يناشدهم باسم الدين، مذكّرا إيّاهم بوعيد يوم الحساب حين يذوقون ألوانا من العذاب على قدر ما اكتنزوا من المال.

ولكن لنحذر المبالغة التي قد تجعل منه ماركسيا. إنّه لا يدعو إلى نظريّة ولكنّه يعبّر عن مشاعر نلفيها عند كل إنسان مرهف

[24] طه حسين : *ألوان* ، ط.4 ، القاهرة، 1970 ، ص 309 .

الإحساس، صادق الوطنيّة عندما يرى البؤس منتشرا في وطنه. لا ولم يكن ثوريّا، هو الذي أحبّ، في كلّ شيء الموقف الوسط، وآثر الاستقرار على تغيّر الأنظمة. فمن يكون هذا الرجل يا ترى ؟ هو مصريّ مسلم.

الماضي الضائع

إنّ مشاكل مصر ينبغي أن نطلب حلولها في مصر ذاتها. ألم تنهض مصر، منذ القديم، بدور متميّز في الثقافة العالميّة ؟ ثمّ أليست العصور الحديثة استمرار للعهود السالفة ؟

نعلم أنّ الهيمنة التركيّة كان لها أثر مشؤوم لأنّها قطعت حبل الصّلة بين المصريين والنهضة الأوروبيّة وعاقتهم عن الاستفادة منها.

لا بدّ من ردّ الفعل والتسليم بدءا بأنّ هذا البلد كان دوما جزءا من هذه الحضارة التي ازدهرت حول البحر المتوسط أيّام عظمة اليونان والرومان، وبأنّ صلات فكريّةوفنيّة كانت تربط مصر، لا بالشرق الأقصى كما يعتقد بعضهم عن خطأ، بل بالغرب. وقد أبان الكاتب عن ثلاثة عناصر أولى مكوّنة للثقافة المصرية :

«هي التراث المصري الفنّي القديم وهي التراث العربي الإسلامي، وهي ما كسبته مصر وتكسبه كل يوم من خير ما أثمرت الحياة الأوروبيّة الحديثة» [25]

---

[25] طه حسين : *مستقبل الثقافة في مصر* ، ص 491 .

أليس من المؤلم أن تصبح مصر، بعد أن أظلّت أكثر الحضارات عراقة في تاريخ الإنسانيّة، معقل الجهل، يقول طه حسين :

« ما أشدّ حاجتنا إلى أن نفهم حياتنا التي نحياها حقّ فهمها ونعلم أننا أشبه شيء بالغريق الذي يقاوم النهر لأنّه إنّ استسلم له أدركه الموت، ونحن نسبح في بحر لا في نهر من الجهل والغفلة ومن الابتذال والإسفاف، فمن الحقّ علينا لأنفسنا ولوطننا ولأجيالنا المقبلة من أبنائنا وأحفادنا أن نقاوم هذه الأمواج الجاهلة التي توشك أن تطغى علينا وتضطر نفوسنا إلى الموت» [26].

وزارة الحاجة إلى التعليم

لـمّا كان الوضع متدهورا ، وجب الحزم بالشروع في إصلاح التعليم. معلوم أنّ طه حسين خصّص لمختلف وجوه هذا الإصلاح كتابه الذي عنوانه «*مستقبل الثقافة في مصر*». وفيه نظر في مختلف أصناف التعليم في مصر، وتتبع تاريخها. أزعجه اضطراب سياسة وزارة التعليم فدعا أوّل الأمر إلى إصلاح هذه السياسة ليجعلها قادرة على الاضطلاع بواجباتها. وقد بقيت كلماته في الصدد مأثورة : الانسان في حاجة إلى التعلّم حاجته إلى الطعام والماء والهواء. تلك هي حاجة الإنسان وحاجة الوطن أيضا. قال:

---

[26] طه حسين : *خصام ونقد*، ط.5، بيروت، 1969، ص 205 .

«وليست حاجة الشعب الى التعليم الصالح بأقلّ ما حاجته إلى الدّفاع الوطني المتين (. . .) وليس يغني عن مصـر ولا يكفل لها استقلالها الصحيح أن يكون لها جيش قـويّ عزيز يحمي حوزتها ويذود عن حدودها إذا كان وراء هذا الجيش ومن دون هذه الحدود شعب جاهل غافل لا يـسـتـطـيـع أن يستغلّ أرضه، ولا أن يستثمر مصادر ثروته»[27].

فالتعليم بجميع أصنافه ليس ترفا ولكـنّه ضرورة. بيد أنّ هذا لا يعني أنّه ينبغي أن يكون متاحا لأفراد الشعب جميعـا دون عـمـيـق تفكير. إنّه بإمكان المدارس الابتدائيّة أن تستقبل عامّة الشعب. أمّا المعاهد العليا، فهي، على خلافها، لطائفة من الطلاب القـادريـن على متابعة دراسات أكثر تخصّصا. فلا بدّ من الانتقاء، والسبيل إلى ذلك هي الامتحانات والمناظرات لمختلف مراحل التعليم حتّى لا يتاح ذلك إلاّ للمترشحين الموهوبين. ذلك أنّ البلاد غير قادرة على احتمال العبء الناتج عن تلقين التلاميذ معـارف لا تـجـدي أحـدا نفعا.

إنّ طه حسين يدفع عن نفسه تهمة إقامة نظام الطبقات مبيّنا أنّ هذا الموقف أملاه أن الناس «يتفاوتون بكفاياتهم وحظوظهم من الثقافة والعلم والقدرة على الخدمة العامة» [28] .

ونجد مؤلف هذا الكتاب يلخص نظريته قائلا :

---

[27] طه حسين : *«مستقبل الثقافة في مصر»*، ص 163 .

[28] م. ن. ، ص 130 ـ 131 .

«إنّ التعليم العام يجب أن يكون مباحا للنّاس جميعا إذا استطاعوا أن يؤدّوا أجره، فإن عجزوا عن ذلك مكّنوا من تعليم أبنائهم بشرط أن يكونوا أهلا للانتفاع به» [29].

ولا بدّ لهذا التعليم من أحسن الظروف، وأوّلها تكوين المعلمين تكوينا مناسبا حتّى ينهضوا في حماسة بمهمتهم التربويّة والتوجيهيّة ولا بدّ أوّلا من أن يحسّن وضعهم المادي والمعنوي، ومن حثّهم بعد ذلك على مزيد الثقافة. فهم قدوة لتلاميذهم، وهم بقدر ما يظهرون من تفان في مهمّتهم يبثّون في نفوس السامعين الرغبة ذاتها في التعليم. ولكنّ ترغيب النّاس في المطالعة يقتضي بأن لا تكون القراءة تمرينا مزعجا، وإذن فلا بدّ من تبسيط النحو وإيجاد حلول لمشكلات الكتابة.

فلمّا آلت وزارة المعارف إلى طه حسين ، لمدة دامت سنتين اثنتين، اجتهد صاحبنا في تطبيق هذه النظريات. وبذلك يرجع إليه الفضل في انتشار التعليم مع كل ما يفرضه ذلك من تبعات إيجابيّة كانت أو سلبيّة .

لا ريب في أنّ طه حسين لم يستطع تحقيق كلّ آماله في هذا المجال. ذلك أنّ جمهور الأطفال الذين بلغوا سنّ الدراسة في مصر كان هائلا، فكان المشكل معقّدا أشدّ تعقيد، خصوصا أنّ البيئة الاجتماعيّة الثقافيّة كان من شأنها أن تعرقل محو الأميّة. فقد كانت الأسر الريفيّة في حاجة الى أطفالها حتّى يعينوها في الأعمال المنزليّةأو

---

[29] م.ن. ، ص 141 .

الأشغال الفلاحيّة. ولمّا كان أولياء الأطفال هم أنفسهم أمّيين فلا إمكان لهؤلاء التلاميذ أن يجدوا لديهم الحافز الضروري على التعلّم.

يضاف إلى هذا كلّه مشكلات التشغيل : فليس يكفي أن تسند الشهادات للمتعلّمين، إنّما ينبغي أن توفّر لهم مواطن الشغل التي تتيح لهم استعمالها. إنّ المشكل ليس هيّنا. وليس مخصوصا بمصر. وهو ما ينفكّ قائما في بلدان كثيرة.

أمّا السياسة فلا مجال لها في الجامعة حسب طه حسين ، يقول :

«ما ينبغي للجامعيين ولا للجامعة أن يكون بينهم وبين السياسة سبب من قريب أو بعيد. . . وأظنني أصف رأي الجامعيين أصدق الوصف إن قلت إنّهم يكرهون السياسة أشدّ الكره، ويكرهون أن يدفعوا إليها ويتمنون دائما لو استقامت الأمور ومضت على وجهها ففرغوا لدرسهم وبحثهم (. . .)، ولكنّ الجامعيين كغيرهم من المصريين مكلّفون الذود عن وطنهم حين يتعرّض للخطر والدّفاع عن كرامة وطنهم حين تهان (. . .) وإنّما يلام الجامعيون إن دخلوا في السياسة الحزبية أو أعانوا فريقا من المصريين على فريق»[30] *.

---

[30] طه حسين : *من لغو الصيف إلى جدّ الشتاء*، ط.2 ، بيروت، 1967 ، ص 54-55 .(انتهى)

* حول فكر طه حسين التربوي والاجتماعي، راجع :

- كمال حامد مغيث : طه حسين، ط.1، القاهرة : مركز الدّراسات والمعلومات القانونيّة لحقوق الإنسان، 1997.

- مصطفى رجب : فكر طه حسين التربوي، ط.1، القاهرة : الهيئة المصريّة للكتاب، 1994 . =

طه حسين جامعيّ أوّلا وبالذّات، فهو أستاذ وعميد لكليّة الآداب. ما كان ، حسب عبارته، صاحب مال ولارجل سياسة، ولكنّه كان أديبا.

كان يخاطب شباب مصر، في دروسه وفي كتبه ومقالاته الصحفيّة، حاثّا إيّاه على العمل. إنّ جلّ آثاره تتعلّق بالنقد الأدبي *. فماذا كانت نظرياته في هذا المجال ؟

إنّ النّقد الأدبيّ، في نظره، لا يستقيم إلاّ إذا توفّرت فيه ثلاثة شروط : الحريّة والأخلاق والنفع. فمهمّة النقد التعريف بالأديب لدى القرّاء. والناقد حسب قوله :

- محمد صالح المراكشي : «المسألة التربويّة والثقافيّة من خلال كتاب «مستقبل الثقافة في مصر»»، ضمن كتاب جماعي : *«التفكير الاصلاحي العربي - خصائصه وحدوده*، تونس : منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، 1991، ص 133 - 154.
- « من مواقف عميد الفكر العربي»، محادثة عن طه حسين بين محمد حسن الزيات ومنجي الشملي، *الحياة الثقافية* (تونس)، ع 57، 1990، ص 49 - 55 .
- محمود الربيعي : «طه حسين ومستقبل الثقافة في مصر» *مجلة المعهد المصري للدّراسات الاسلاميّة* (مدريد)، مج 25 ، 1991 - 1992 ، ص 9 - 26 .
- قاسم المومني : «هاجس الثقافة العربيّة في *«مستقبل الثقافة»* خاصة، م.س.، ص 85 - 105.
- سمير قطامي : «هاجس الثقافة وعلاقته بالثقافة المنفتحة في فكر طه حسين»، م.س.، ص 73 - 83 .

* يبدو لنا هذا الرّأي مبالغا فيه. وحسب القارئ أن يستحضر قائمة مؤلّفات طه حسين ليرى أنّ المسألة أوسع ممّا ذكرت كاتبة البحث : فهو ناقد أدبيّ فعلا، ولكنّه أيضا مؤرّخ، ومؤرّخ أدبي، ومفكّر سياسيّ، وروائيّ، وكاتب ترجمة ذاتية، وصاحب كتب في الخواطر، وصاحب نظريات في التربية، وفي تاريخ الفلسفة وما إلى ذلك.

«حكيم بالقياس إلى الجمهور، لأنّه يدلّ الناس على ما يحسن أن يقرأوا ، وعلى ما يحسن أن يفهموا ممّا يقرأون، وهو رسول بالقياس إلى الأديب، لأنّه يبيّن للأديب مواقع فنّه من الناس، وقد يدلّه على الخطإ إن وقع فيه ليتجنّبه» [31] .

لا بدّ لهذا الفنّ من أن يكون نزيها متجرّدا. ولا بدّ لمن يمارسه من أن يتجرّد من آرائه السياسيّة، ومن العلاقات التي تربطه بالكاتب الذي يدرس، طيّبة كانت أو سيّئة. فلا يكون النقد موضوعيّا إلا إذا توفّر فيه هذا الشرط، لأنّ لا مجال للانتماء السياسي في مجال العلم والأدب .

يعرض طه حسين نظريته على أنّها خلاصة جامعة لنظريات سانت بيف (Sainte Bauve) وتان (Hippolyte Taine) وجول لومتر (Jules Lemaître) [32] ويختصرها في الكلمات الآتية :

«ومن الحقّ ألاّ يكون سبيلنا في هذا البحث جودة اللفظ والمعنى وحدهما، إنّما سبيلنا فيه اللفظ والمعنى، وما بين اللفظ والمعنى ونفس الشاعر من صلة، وما بين نفس الشاعر وعصره من صلة أيضا»[33]

فلنقد الشعر إذن ثلاث غايات [يروم تحقيقها] : فهم شخصيّة الشاعر، واتّخاذ هذه الشخصيّة وسيلة لفهم العصر الذي عاش فيه

---

[31] طه حسين : *فصول في الأدب والنقد*، ص 9 .

[32] طه حسين : *حديث الأربعاء* ، ج 2 ، القاهرة، 1937 ، ص 65 ـ 66 .

[33] م.ن. ، ص 71 .

الشاعر، وأخيرا تذوّق متعة النـص فنيا. إنّ الشاعر يصوّر عصره، كما أنّ الأثر يكشف عن شخصيتـه. أمّا الناقد فدوره هنا تسليط الضوء على هذه العناصر المختلفة، فهو في الآن ذاته مؤرّخ وعالم اجتماع وعالم نفس وكاتب أيضا.

ينبغي للدّراسة الأدبيّة أن تعتمد على مناهج «البحث العلمي الصحيح» دون غيرها. ولا خوف من استعمال الشك خاصة لأنّه لا ضرر منه فهو مصدر اليقين، ثمّ إنّه حان الوقت للأدب العربي كي يقوم على أساس متين.

ويسبق طه حسين بالردّ على اعتراض يمكن أن يعبّر عنه أصحاب العقول القلقة فيضيف فورا إلى ما تقدّم أنّه لا خشية على القرآن من الشكّ. إلاّ أنّ هذا الحذر لم يمنع أعداءه، أثناء قضيّة كتاب «*في الشعر الجاهلي*» من وصمه بالإلحاد والكفر.

لقد بدا له أنّ المنهج الديكارتي، وقد تعلّمه في فرنسا بجامعة السوربون، مُجدٍ لدراسة تاريخ الأدب العربي، وقد وصف هذا المنهج لطلابه وقرّائه قائلا :

«إنّ القاعدة الأساسيّة لهذا المنهج هي أن يتجرّد الباحث من كلّ شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن ممّا قيل فيه خلوّا تامّا» [34].

هذه الفكرة وحدها كان من شأنها أن تغضب القائمين على أدب قوامه التقليد والجمع واللّمّ. وكانت، إلى ذلك، مظهرا من

---

[34] طه حسين : *في الأدب الجاهلي*، ط.2، القاهرة، 1927، ص 68 .

مظاهر المعركة بين القدماء والمحدثين، التي التقى فيها، في السنوات العشرين من هذا القرن، أنصار المحافظة الأدبيّة ومنهم صادق الرافعي، وأنصار تجديد فرضته ظروف الحياة الجديدة. ولقد شارك طه حسين ذاته مشاركة واسعة في هذه المعركة، وكانت له فيها خصومة عنيفة مع الرافعي سنة 1923 .

يكشف هذا المنهج الذي اعتمده الكاتب همومه التعليميّة التي دفعته إلى أن يعرض على جمهور القرّاء عرضا سهلا ميسورا الأدب العربي القديم والآثار الأجنبيّة، وهو لا يرى بأسا بأن يترجم الشعر القديم إلى لغة عربيّة معاصرة إذا كان ذلك سبيلا إلى تيسير فهمه وتقدير قيمته. وبقدر ما كان طه حسين مولعا بهذا الشعر كان يغيضه أن يرى الناس يعرضون عنه، نفورا من عسر ألفاظه ومن تراكيبه العتيقة الكثيرة. كلّ هذا دفعه إلى أن يصوغه صياغة عصريّة حتى يجعله في متناول القارئ المتوسط. وكان هذا الهمّ ذاته هو الذي يدفعه إلى تلخيص كتب أجنبيّة.

ولنا أن نقول إنّ طه حسين كان لا يني يحرص على أن ينهض بدوره مربّيا، وكان يرى أنّ هذا الدّور ملازم للحريّة في الأدب، تماما كماهو الشأن في المجالات الأخرى.

إنّ طه حسين لا ينكر ميله إلى الأدب القديم. ولكنه يقف هنا أيضا موقفا وسطا بين القديم والحديث. ولم يمنعه هذا الموقف الوسط أن يبدي حكما قاسيا على الأدب المعاصر الذي يراه مغاليا في المهادنة، لأنّ منشئيه صاروا عبيدا للجمهور. إنّه ليس صارما

في معارضة الشعراء إذا هم حاولوا تجديد الفنّ الشعري، بيد أنّه يضبط حدودا للتجديد وفي ذلك يقول :

«ليس على شبابنا من الشعراء بأس، فيما أرى ، من أن يتحرّروا من قيود الوزن والقافية إذا نافرت أمزجتهم وطبائعهم، لا يطلب إليهم في هذه الحريّة إلاّ أن يكونوا صادقين غير متكلّفين، وصادرين عن أنفسهم غير مقلّدين لهذا الشعر الأجنبيّ أو ذاك، ومبدعين فيما ينشئون غير مسفّين إلى سخف القول وما لا غناء فيه » [35]*

---

[35] طه حسين : من *أدبنا المعاصر*، القاهرة، 1958، ص 35 ـ 36 (انتهى).

* حول هذا الجهد النقدي في آثار طه حسين يجدر الرّجوع إلى عدد من المراجع الأساسيّة يستكمل بها ما ذكرته كاتبة البحث :

ـ جابر عصفور : *المرايا المتجاورة* ـ دراسة في نقد طه حسين ـ ط.1 ، القاهرة. الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1983 .

(وهو بحث رفيع المستوى، مستكمل الأدوات، عميق التحليل ، يكاد يكون جامعا لنظريّة طه حسين في النقد الأدبي) .

ـ *طه حسين : مائة عام من النهوض العربي* ، مجلة فكر (عدد خاص عن طه حسين) 1990 . انظر خاصة : القسم الثالث : فكره الأدبي ومنهاجه النّقدي، ص 161 ـ 221 .

ـ *طه حسين : العقلانيّة ـ الديمقراطية ـ الحداثة* ، ضمن قضايا وشهادات (كتاب دوري) 1 ، قبرص : مؤسّسة عيبال للدّراسات والنشر، 1991، (فصول مختلفة).

ـ عبده بدوي ومحمد عبد الغني حسن ومحمد خفاجي وآخرون ، *طه حسين وقضيّة الشعر*، القاهرة : الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1975 .

ـ أحمد بوحسن : *الخطاب النقدي عند طه حسين*، ط.1، بيروت : دار التنوير للطباعة والنشر، 1985 . =

ثمّ إنّ طه حسين يـرى أنّه لا بدّ من وضع حدود لمحـاولات التحرّر الشعري هذه، أحدها يتمـثّل في الذوق الشعري الخـاص. وهذا الموقف يعني اعتماد المقاييس الذّاتيّة التي لا تختلف جوهريّا عن المقاييس التي طبقها نقاد القرون الماضية. ألا يعترف هو ذاتـه بأنّه عسير عليه تحليل مشاعره الشخصيّة في هذا المجال ؟

وأمر آخر يراه أساسيّا في الأدب، نعني مسألة اللغة المستعملة. فلا بـدّ من أن تكون سليمـة كـلّ السلامـة : أليس الواجـب الأوّل للكاتب المصري أن يتقن العربيّة إتقانا ؟ فلا إمكان أن تكون الكتابة نثرا مسجوعا لأن عهدهـا قـد ولّى ، ولا إمكان كذلك لاستعمـال ألفاظ عاميّة في أثر أدبيّ إلاّ إذا كان ذلك على سبيل الدّعابة.

=ـ حمّادي صمّود : «الأدب وقضاياه في مؤلّف طه حسين : *«خصام ونقد»*» ضمن كتاب : *مائويّة طه حسين*، وقائع ندوة بيت الحكمة يومي 27 و 28 جانفي 1990، تونس ـ قرطاج : المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنـون، 1993، ص 115 ـ 133.

ـ رجاء عيد : «أصول التفكير النقدي عند طه حسيـن»، *مجلة المعهد المصـري للدّراسات الإسلاميّة* (مدريد)، مج 24. 1987 ـ 1990، ص 47 ـ 67 .

ـ سانغ غويون : *طه حسين ناقدا أدبيّا في «حديث الأربعاء»*، رسالة شهادة التعمّق في البحث (= دكتورا حلقة ثالثة) أعدّها بإشراف البروفسور منجي الشملي بجامعة تونس الأولى، كلـيّة الآداب منوبة ـ تونس : 1995 ، (بحث مرقون بمكتبة قسـم الرسائل).

وانظر بالفرنسيّة :

- Miftah Tahar : *Tâhâ Husayn, sa critique littéraire et ses sources françaises,* Tunis : Maison arabe du Livre,1976.

إنّ اللّغة العربيّة كفيلة وحدها أن تبقى على مـرّ الأجيال وعبر مختلف اللهجات، وهي وحدها اللّغة التي تصلح للأدب. إنّ اللغة العربيّة هي العامل الأكبر في وحدة البلاد العربيّة، بعيدا من الاختلافات السياسيّة.

إنّ اللغات تتطوّر، وليست العربيّة بدعا من ذلك، وينبغي لها أن تظلّ محافظة على سلامتها النحويّة تماما. وقد تتغيّر الجملة تغيّرا ظاهرا، وهي تتغيّر من تلقاء ذاتها شئنا أم أبينا. ومثال ذلك الأسلوب الذي نجده في كتب طه حسين، فقد طوّعه ليستجيب للمقتضيات الحديثة. ولكنّه يظلّ مع ذلك أسلوبا ذا طابع كلاسيكي.

لا جدال في أنّ طه حسين أحد الكتّاب الذين أثّروا في النثر المعاصر دون أن يدفعوا به إلى التدهور كما فعل طائفة من الصحافيين المسارعين إلى إعلام عاجل أو غير المكترثين بصفاء اللّغة. هو ذا يصف طريقته فيقول :

«وبين غلوّ المحافظين وغلوّ المجدّدين طريق وسطى تحفظ على اللغة العربيّة حياتها أوّلا، وصفاءها ونقاءها ثانيا، وتهيّء للأمّة العربيّة وحدتها المرجوة. وهذه الطريق الوسطى هي طريق التيسير»[36]

كذا هو طه حسين : إيثار للاعتدال وللتطوّر الهادئ. هو ذا يصف نفسه قائلا :

---

[36] م. ن.، ص 78 .

«إنّما أنا رجل متواضع معتدل المذهب والرأي والغاية»[37].

وكثيرا ما لاحظنا طابع الاعتدال في مواقفه صحافيا وكاتبا ومربّيا. رجل قليلا ما نراه داعيا إلى الثورة. ولكنّه يروم أن يرى الأشياء تتغيّر دون عنف. أمّا الحلول التي يعرضها فلا تعدو الآراء الإصلاحيّة التي أشاعها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده (نكتفي بذكر هاتين الشخصيتين البارزتين في هذه الحركة) وهي الآراء التي تحثّ على العودة إلى مصادر الإسلام، وإلى التراث الذي أهمله العرب.

إنّ الإسلام، دين المساواة والحريّة والعلم، لا يخالف، في نظر الاصلاحيين، التطور الحديث. ولا يعارض ملاءمة الحياة الراهنة، إنّه ليس عنصر جمود، كما توهم به الأخطاء الناتجة عن تأويل النصوص، وإنّما هو عنصر تقدّم. وهم يدعون الناس إلى أن يستلهموا في سلوكهم حياة الخلفاء الراشدين حتّى تكون سيرتهم مثالا يحتذونه. [وهنا] يقترح طه حسين على الشباب أن يتّخذوا من عمر بن الخطّاب الخليفة الثاني في الإسلام أسوة لهم حسنة.

وسواء اعتقد طه حسين في أن «لا حياة لمصر إلاّ إذا عنيت بتاريخها القديم وبتاريخها الاسلامي، وبالأدب العربي قديمه وحديثه، عنايتها بما يمسّ حياتها اليوميّة من ألوان الحضارة الحديثة» [38] وأعلن ذلك، أو أكّد أنّ التجديد «ليس في إماتة القديم، وإنّما التجديد في إحياء القديم» * ، فإنّ صوته يلتقي بأصوات السلفيين الذين سبقوه

[37] طه حسين : *ألوان* ، 359 (فصل حول رسائل سيسرون).

[38] طه حسين : *«حديث الأربعاء»* ج1 ، ص 9 .

* م،ن. ، ص.ن.

أو عَاصَرُوه، وكانوا يـوجّهون حركة الإصلاح نحـو الرجوع إلـى الإسلام الأصلي خالصا من كـــلّ التأويلات الخاطئة التي وقـــع فيها العلماء عندما نظروا في القرآن وفي سنّة النبي [39]

لا ينبغي [هنا] أن ننسى أن محمد عبده هو أحد ثلاثة عظماء في مصر الحديثة * . وحين كان طه حسين يختلف إلى الجامع الأزهر اختلط بحلقة الطلاب الذين كانوا يحضرون دروس الشيخ محـمـد عبده، وكانت آراء الأستاذ الإمام تبلغ سمعه فتجد في نفسه صدى طيّبا. وقد حضر الدرسين الأخيرين اللّذين ألقاهما الشيخ قبل وفاته سنة 1905 . إنّها ذكرى لا تبلى عن الرجل الذي أنكر الغـلـوّ الذي وقع فيه المتصوّفة، واجتهد في تحديث الجامع الأزهر بإدخال مواد

---

[39] ـ انظر عن هذا الموضوع بحث هنري لاوست بالفرنسيّة حول «الإصلاح السلفي واتجاهاته العامة» في *مجلة الدراسات الاسلاميّة* سنة 1932 ، الكراس الثاني، ص 175 ـ 224 .

Henri Laoust : "Le réformisme orthodoxe des "Salafiya" et les caractères généraux de son orientation actuelle", *Revue des Etudes islamiques,* 1932, cahier II, pp.175-224.

* تشير كاتبة البحث إلى ما ورد في الجزء الثالث من كتاب *«الأيّام»* حين ذكر طـه حسين أنّه ساهم مع جماعة من تلاميذ الأستاذ الإمام محمد عبده في إحياء ذكرى وفاته فخطب في الحفل قائلا :

> «إنّ مصر مدينة بما أتيح لها من اليقظة لثلاثة رجال لا ينبغي أن تنساهـم، أوّلهم الأستاذ الإمام الذي أحيا الحريّة العقليّة، والثاني مصطفى كامل الذي أذكى جذوة الحريّة السيـاسـيّة ، والثالث قاسم أمين الذي أحـيـا الـحـريّة الاجتماعيّة».

طه حسين

الأيّام ، المجلد الأوّل من المجموعة الكاملة، بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1974 ، ج 3 ، ص 649 .

دراسيّة جديدة منها الأدب والجغرافيا والحساب وما إلى ذلك . . . * .

طه حسين على درب «الاستشراق ؟

كثير من آراء طه حسين توافق المثل الأعلى للإصلاح السلفيّ، ومع ذلك هاجمه السلفيون بحدّة : والحقّ ، ألم يشكّ في سُنّة من السنن الأدبيّة العربيّة الثابتة، نقصد صحّة الشعر الجاهلي، هذا الشعر الذي هو فعلا جزء من هذا التراث الذي يودّون انبعاثه من جديد ؟

ثمّ إنّهم لم يغفروا له كذلك تبنّيه المناهج الأوروبيّة في البحث واصطناعها لنقد تاريخ الأدب العربي. لقد اعتقدوا، من خلال ما قاله، أنّهم يستعيدون ما كانوا استهجنوه من مقولات المستشرقين، إذ منهم من كان متّهما بترويج أفكار خاطئة عن الإسلام.

لقد خاصم هؤلاء السلفيون طه حسين في حياته ، وسيخاصمونه بعد موته. ولكن أليس ذلك دليلا على أنّ آراءه ما تركت مواطنيه في غير مبالاة ؟ ثمّ أليس ذلك دليلا أيضا على أنّ أفكاره قد أفادت مصر، لأنها دفعت المصريين إلى النظر في المشكلات التي تثيرها هذه الأفكار، وإلى مساءلة أنفسهم في شأنها.

إنّ طلاّب الجامعة هم رجال المستقبل : هذا أمر يعلمه طه حسين علم اليقين. وإليهم، قبل غيرهم، كان طه حسين الأستاذ

* راجع تعليق المعرّبين على حركة محمد عبده التجديديّة الوارد في بحث رئيف جورج خوري : «الانسانوية العربية. . .» .

والكاتب والصحافي يتّجه بخطابه. لقد كان يطمح إلى إنشاء مصر الغد.

هل نجح في ذلك؟ هل خاب في ذلك؟ لعلّه، ليس لنا، الآن، أن نبلغ في ذلك فصل الخطاب؟

طــه حسيــن في مســاره الفكــري *

بقلم ريمون فرنسيس **

إنّ طه حسين بأفكاره وآثاره لقريب منّا قربا يعسر معه على من يروم درسه درسا موضوعـيّا معرفيّا أن يتناوله حسب القوانين التـي

* Raymond Françis : "Itinéraire de Taha Hussein", *Nouvelle Revue du Caire*, volume I, 1975, pp.31-47.

وهذا الفصل محاضرة ألقاها ريمون فرنسيس في مركـز دار السّلام (Centre Dar Essalam) بالقاهرة يوم 2 أفريل 1974 وذلك في الذكرى الأولى لوفاة طه حسين.

** ولد ريمون فرنسيس (Raymond Francis) في 23 سبتمبـر 1916 بالقاهرة. وبها درس، وأحرز اللّيسانس في اللغة والآداب الفرنسيّة. ثمّ تحوّل إلى باريـــس حيث أعـــدّ أطروحة عـــن أفكار باسكـال *(Les Pensées de Pascal en France* de 1842 à 1942) بإشراف الأستاذين بنتار (R.Pintard) وجازينسكي (R.Jasinski) وناقشها سنة 1953، ولكنّ ريمون فرنسيس، فضلا عن ثقافته الـفـرنـسـيّة، عني أيضا بـالأدب العربي بحثا وترجمة. وقد ساعدته هذه الثقافة المزدوجة على أداء دور الـوسـيـط الثقافي، فعني بدرس العلاقات الثقافيّة بين الشرق والغرب والتقريب بينهما. سعى في أبحاثه وترجماته ومحاضراته إلى تعريف المصريين بالفكر الغربي والفكر الفرنسي بصفة خاصّة من ناحية، وسعى إلى تعريف الغربيين بالفكر العربي والمصري على وجه الخصوص من ناحية ثـانـيـة، فـعـرّف إلى المصريين سـوفـوكـل (Sophocle) وأرسطو (Aristote) وجيرودو (J. Giraudoux) ومونترلان (Montherlant) وكامو (Camus) وفلوبير (Flaubert) وجول رومان (J.Romain) وسانت اكسبري (A.de Saint-Exupéry) وجيد (A.Gide) وغيرهم في ما كتب من فصول. وكذلك عرّف ريمون فرنسيس=

يقتضيها علم الأدب الحديث. فمنذ نحو خمس عشرة سنة وجّهت مكتسباتُ الألسنيّة والبنيويّة والنقد النفسي، وأكتفي بذكر هذه الفروع الثلاثة لا أعدوها، مراسَنا المنهجي للنصوص، بنسب متفاوتة الأهميّة. ومن المؤسف أنّ هذا المراس في الدّرس كان ينتهي أحيانا إلى ضروب مختلفة من الإحصاء العددي والتحليل المعجمي والبلاغي والغرضي، وإلى عزل النصوص المكتوبة عن مصادرها الحيّة التي نبعت منها، وإلى عزلها عن أصولها التي تنتسب إليها وفصلها عن الظروف التي أحاطت بنشأتها، وباختصار إلى تجريدها من طابعها الانساني.

=إلى القراء الغربيين والفرنسيين بعض الأعلام والآثار من الأدب العربي. ولمّا كان من المعجبين بطه حسين وأعماله فإنّه نقل إلى اللّغة الفرنسيّة رواية طه حسين «*دعاء الكروان*» ونشرها مترجمة في باريس أوّلا ثم في القاهرة. انظر:

- Taha Hussein : *L'appel du Karauan,* trad. de Raymond Francis, 1er ed., Paris : Denoël, 1946,

- Taha Hussein : *L'appel du Karauan,* trad. de Raymond Francis, 2e ed., Le Caire : Dar Al-Maaraf, 1963.

كما نشر دراسة بالفرنسيّة بعنوان «*طه حسين روائيّا*» تناول فيها بالبحث أعمال طه حسين القصصيّة والروائيّة.

Raymond Françis : *Taha Hussein romancier*, Le Caire : Dar Al-Maaref, 1945

ولريمون فرنسيس كتاب بالفرنسيّة درس فيه «*مظاهر من الأدب العربي المعاصر*» من خلال أكثر من خمسة وثلاثين أثرا عربيّا، وخصّ فيه طه حسين بستّة فصول:
Raymond Françis : *Aspects de la littérature arabe contemporaine*, Le Caire : Dar Al-Maaref, 1963, "Sept études sur Taha Hussein", pp. 9-97.

أمّا باللغة العربيّة فله عن طه حسين مقال حلّل فيه مذكّراته:

ريمون فرنسيس: «طه حسين نضال مع الأيّام» *الفكر المعاصر* (القاهرة)، ع 38، أبريل 1968، ص 48 ـ 52.

وليس في نيّتي في هذه المقدّمة الموجزة، أن أستصفي الحساب مع المناهج التي يتداولهـا الناس اليوم، لا، ولا في نيّتي أن أنتقص من مساهمتها أو أجحد أهميّتها. إنّما أروم، في قضيّة الحال، أن أظهر ما لي، بعد طول رويّة، من احترازات إزاء هذه المناهج.

لذا اخترت عن قصد، لفظ «مسار» (Itinéraire) الذي يفيد ـ فيما يفيد من معان ـ حسب معجم ليتري (Littré)، «وصف الطريق من موضع إلى آخر» ويفيد على سبيل التوسّع «ذكر جميع المواضع التي يمرّ بها المسافر في طريقه من بلد إلى آخر». ولما كان المسار المقصود هنا مسارا فكريّا، وعلى وجه الخصوص مسارا أدبيّا، فإنّ مواضع الانطلاق ومواضع العبور ومواضع الوصول ليست سوى آثار مكتوبة، أي مواقف وصوى، إذا تأمّلها الفكر واستوعبها وأنشأها وضع بذلك معالم رحلة فكريّة لكاتب هو، هنا، طه حسين. إنّه مسار كاتب لم يكفّ قط عن أن يكون إنسانا كاملا، ولم يكن له من همّ سوى الانسان، هذا الانسان الذي كان في تفكيره، قطب الجاذبيّة ومدارها، والنجمة التي بها يهتدي في رحلته الطويلة ونهاية المطاف.

أدرك طه حسين منذ البدء، أن الانسان كائن جَمْعٌ، وأنّه متعدّد، مركّب ومعقّد، ذو حدود وفلتات، ذو بلادة ولطافة، ذو كثافة وشفافية، ضمآن إلى الحقائق، نزوع الى الحلم والتخيّل، ولوع بالتّاريخ والحكايات، مفتون بطائفة من المعارف، موكول بالكسل، متعلّق بتقاليد جنسه وبيئته وعقيدته الدينيّة، ولكنّه في الآن نفسه

معنـيّ بالتحوّل والاغتراب وبـ «الجديد»، هذا الجديد الـذي كـان الشاعر بودلير (Baudelaire) يأمل أن يلقاه في «عمق المجهول».

هذا التنوّع الذي تميّزت به الذات الانسانيّة، والذي علينا احترامه اللهّم إلاّ إذا كنّا من الجبابرة العتاة، انتشله طه حسين من الفوضـى التي ما فتئت تهدّده، وذلك بتحويله إلى وحدة من شأنها أن ترفـع الفرد منزلة وتسمو به وتحوّله إلى شخص إنسان.

إنّ الطّرافة الجوهريّة التي تميّز بها طه حسين على صعيد الفكر، وهو الجانب الذي يعنينا، والتي كاد يتفرّد بها دون غيره في عالمنا الشرقي، فجعلت منه إنسانا متمـيّزا ليس له نظير، إنّما كانت على وجه الدّقة أمرين اثنين : أولّهما تنويع مسارات اكتشافاته إلى أقصى حدّ حتّى يجد فيها كـلّ واحد الغذاء الذي يلائم تطلّعه وطموحاتـه الظرفيّة، وثانيهما : ضمان قاسم مشترك للعناصر المختلفة، مهما تنافرت، من شأنه أن يؤسّس لها التوافق والتناغم والجدوى.

لنقـــل إنّ المسارات الفكريّة التي استعارها طه حسين أو رسمها هي، بالقياس إلى هذا الكلّ المتناسق الذي كـوّنته، مـن التناغم ما تمثلــه الملامح بالقياس إلـــى الوجـه .

كان طه حسين ناقدا أدبيّا ومؤرّخا وباحثا اجتماعيّا ومؤلّف سير، وعالما في الإسلاميات، وأستاذا جامعيّا، ومفكّرا سياسيّا، ولغويّا، ومترجما، وروائيّا، ولا أستوفي الإحصاء، أجـل ! كان طه حسين كلّ هذا. وإنّه لمن السخف أن ألهث في أثره فيعسر اللحاق به في جميع هذه المسالك .

الوقت قصير، والإتقان عسير عسير، ولا مناص من الانتقاء، ومن الوقوف، خلال هذه الرحلة، في مدن قليلة مختارة، مرجئا إلى الآتي وإلى غيري من الناس فرصة استكشاف المواقع التي لم تستوقفنا.

صنت نفسي عن الرغبة في الإحاطة بكلّ شيء، في حين أنّ غاية مطمعي، مهما بدا الأمر غريبا لديكم، أن أترككم على ضمأ.

* * *

ما هي الطريق الأولى التي أخذها طه حسين أوّل مرّة في قريته عزبة الكيلو قريبا من مغاغة ؟ إنّها طريق الكتّاب التي سيعيد طه حسين، بعد ثلاثين عاما، تصويرها في الجزء الأول من كتاب «الأيّام». اقرؤوا منه بعض فصوله قراءة متمليّة، وليكن ذلك لمجرّد المتعة، اقرؤوه في النص الأصليّ، أو في الترجمة الفرنسيّة التي وضعها جان لوسيرف (Jean Lecerf). إنّكم واجدون فيه استحضارا لصورة القرية الريفيّة وللبيئة العائليّة التي يبرز فيها أب وقور، أنوف، تقيّ ورع، وأم عطوف حانية على ولدها الذي من بين أبنائها الكثر أصابته أشدّ محنة. وأنتم واجدون فيه، فضلا عن هذا كلّه، صفحات لا تمحوها الذاكرة عن «سيّدنا» تصفه في زيّه الغريب المضحك وتصفه في عاداته المستهجنة، وتصفه في ما يأتي من الحركة والقول وفي طريقة الدرس، وهو يصفع هذا الصبيّ ويكيل الشتم لآخر حتّى ينتهي صبيته، على تفاوت عنادهم، إلى حفظ القرآن عن ظهر قلب.

وإذا نحن صدّقنا شارل بيقي (Charles Péguy) عندما يرى أن كلّ شيء يتشكّل فينا قبل أن نبلغ من العمر سنّ الثانية عشرة، حُقَّ لنا، ونحن مأخوذون بروعة حكاية تعلّم طه حسين الأولى، أن نهتدي في ضوء اتصاله بالفكر الإسلامي إلى خطواته الأولى التي خطاها على هذا الدّرب العسير الشاق الطويل الذي قاده من الكتّاب إلى الأزهر، ومن الأزهر إلى إنجاز مجموعة من الأعمال هي من ثمار التفكير والاجتهاد والبحث الشخصي.

لقد استوقف هذا المسار الاسلامي لطه حسين الباحثين الذي أرّخوا لسيرته وكذلك النقاد، فأفاضوا القول في ذلك ولا يزالون. ذلك أنّه لا بدّ من الاعتراف بأنّ هذا المسار يشمل أكثر من مجال شخصي وموضوعي في آن، وأنه أغنى المكتبة العربيّة بتصانيف تعدّ حجة لدى العارفين.

إنّ في هذه التصانيف إشارة ملموسة كان حريّا بالمفسّرين أن يقنعوا بها بدل أن يدفعهم الفضول إلى الزعم بأنهم قادرون على القول في الشعور الديني للرجل. والحقّ أنّه ليس من شأن كائن من كان في هذه الحياة الدنيا أن يسبر صدور الناس وقلوبهم، فإنّ صلتنا بالخالق، مهما كانت الأسماء التي ندعوه بها، وخفقات الإيمان في صدورنا [مسائل] ملك لنا دون سوانا. وما أكثر ما يقع الإنسان في الضلال عندما يكون حريصا على التكهن بهذه الخفقات. إنّ هذه الخفقات الإيمانيّة هي الأرض الموعودة تظفر فيها أسئلتنا الملحّة بالجواب الساطع الذي به يقطع الشكَّ اليقينُ. إنّها سرّنا المكنون ،

وطابع شرفنا. إنّها يقيننـا، إنّها حيرتنا. وغاية القـول إنّ القرآن، وسيرة النبيّ الذي كلّف بتبليغه الى النّاس، وكتب التفاسير، وكتب الشروح وكتب التأويل، والجدل، والردود، والمذاهب التـي كـان الإسلام مصدر نشأتهـا، والـتّاريخ المضطرب في عـهـود الاسـلام الأولى، كلّها عناصر غـذّت حسّ طه حسين وفكره خلال سنـوات الكتّاب وسنوات الأزهر وكان لها تأثير في جزء غير قليل من نتاجه الأدبي.

إنّكم تعرفون عناوين تلك الكتب التي تكوّن وحدها، ودون كبير عناء، المدوّنة الأساسيّة لمن يودّ أن ينهض بدرس متعـمّق تتمازج فيه الاختصاصات ويستعان فيه بعلم التوحيد والعقائد والفقه والنحو والتّاريخ والفلسفة في سبيل منهج يطمح إلى أن يـكـون شـامـلا. لنترك جانبا الفصول والمحاضرات والمداخلات العلميّة والمشاركات في المؤتمرات وتحقيقات الكتب، وحسبنا أن نذكر كتبه: «*على هامش السيرة*»، بأجزائه الثلاثة و«*مرآة الإسلام*» و«*الوعد الحـقّ*» و«*الشيخان*» وهي بمثابة أسماء العواصم ومدن الأقاليم التي يـربـط بعضها بعضا هذا المسـار الأوّل. وأنا أكره أن يكون شأننا في هذه الرحلة شأن سيّاح عجلين يستغنون بالصور الفوتوغرافية وبطاقـات البريد وبعض الإشارات يلقيها الدليل السيّاحي عن تأمّل معلم تاريخي وتفحّص طوبوغرافية طريق من الطرقات. لنقف قليلا، في تصويرنا لهذه الـرّحلة، عند سنـة 1959، عند هذا الطور الذي أنشأ فيه طـه حسين كتابه عن أبي بكر وعمر بن الخطاب في حوالي ثـلاثـمـائـة

صفحة *. وأنا لا أصف لكم هذا الكتاب ولا ألخّصه أيضا. ولكنّي سأجتهد في إبراز الفكر الذي أظلّ طه حسين حين كان يقطع هذه الطرقات على درب الذين سبقوه.

ولئن لم يكن منهجه الديكارتي قد قاده إلى أن يضرب صفحا - على حدّ العبارة الشهيرة - عن كلّ المسلّمات المتّصلة بهذا الموضوع، فإنّ إيمانه بمذهب ديكارت دعاه إلى أن يظلّ وفيّا لمنهج طالما أرضى حسّه الموضوعيّ ونفاذ بصيرته، وإن أساء معاصروه غالبا فهم صرامة هذا المنهج وإذا هو يعرض لمختلف جوانب المسألة مولّيا وجهه شطر السابقين، يبين عن رأيه في عزم وتصميم بعيدا من الجدل العقيم كائنا ما كان، وإذا هو يلقي ظلالا من الشك، ويكشف عن أخطاء وقعوا فيها، ويقوّم ما في بعض أحكامهم من تسرّع أو سطحيّة، ثمّ يتّخذ لنفسه في رويّة وحذر موقفا خاصّا به في هذا الحقل الذي تتداخل فيه الأسطورة والتاريخ. وخاصية أخرى امتاز بها طه حسين وهي الحرص على ألاّ يحتفظ من تاريخ الحوادث إلاّ بالحدّ اليسير الذي ليس منه بدّ إذ ليست الغاية عنده أن يبهر القارئ بوفرة التفاصيل ولا أن يتسلّط عليه بخطورة الأحداث. وكذا كان أبطال التّاريخ في اعتباره، ناسا من الناس قبل أن يكونوا شخصيّات ممتازة، وبهذه الصفة بالذّات عاشر طه حسين شخصيات التاريخ وساءلها وصحبها في الدّروب التي سارت عليها وهو يضمر في نفسه أملا في أن يكشف عن الدّوافع التي تحرّكهم وفي أن يبين عمّا يختلج في نفوسهم، وفي أن يبصر بأبصارهم ويدرك معنى فعلهم.

---

* يقصد الباحث هنا كتاب طه حسين : *الشيخان*

وسواء أعني طه حسين بحياة الرسول أم بحياة الإسلام عامّة، أم بالشيخين أبي بكر وعمر بصفة خاصّة، فإن عنايته لتبين عن منهج إنساني، وأكاد أقول عن منهج شاعري.

وفيما يتعلّق بالشيخين، فإنّ ما كان يؤثّر في طه حسين ليس الحداثة التاريخيّة بل أمر آخر أشدّ عمقا وأبعد، نعني مزاج هذين الشيخين والتصوّر الذي استبان لهما عن المهمّة الثقيلة التي عهد بها إليهما ومشاعر الوحدة التي كانت تغمرهما باعتبارهما مسؤولين عن أمّة ناشئة.

نظر طه حسين إلى أبي بكر فألفى فيه جملة خصال استعرضها ودلّل عليها. رأى طه حسين أبا بكر رجلا قد أحبّ الرسول محبّة خالصة ، فلمّا مات الرّسول حزن أبو بكر لموته حزنا أيّ حزن، وحرص على إنفاذ وصاياه الأخيرة سواء فيما يتعلّق بمواصلة الفتح وإظهار دين الإسلام على الدين كلّه أو فيما يتعلّق بالحزم الصارم إزاء الذين كانوا قد اعتنقوا دين الإسلام.

كذلك رأى طه حسين في أبي بكر كرما وجودا، وسماحة نفس، وسموّا، وصبرا على المكروه، وأريحيّة وشهامة .

رسم لنا طه حسين صورة عن أوّل الخلفاء فأظهره فيها رجلا مرهف الحسّ، قويّ الحدس صادق المحبّة لغيره، وأظهره فيها حاكما مطمئنا إلى ربّه، عادلا في [اجتهاده]، مصغيا الى نصائح من حوله متصرّفا باعتدال وحكمة. وأظهره لنا صاحب لين وشدّة [معا]، متواضعا وصارما، حازما وشهما، عاملا في سبيل الله ومدركا لما

في الحكم الدنيوي من طبيعة فانية.

في جانب آخر من اللّوحة، كما أتيح لي من قبل فرصة الحديث في بحث سابق، ترتسم الخطوط المميّزة لصورة عمر خليفة في أوّل أمره، فأميرا للمؤمنين.

لقد سخّر طه حسين براعته الأسلوبيّة الخارقة التي تعرفون في التعبير عن أفكاره لـمّا كان بصدد الحديث عن شخص عمر، أكثر ممّا وظّفها في حديثه عن شخص أبي بكر، وليس من العسير هنا أن ندرك إلى أيّ الرجلين كان أميل.

وأيّ لغة أخرى غير لغة طه حسين تقدر أن تصوّر هذا العنف الذي ورثه عمر عن أهله؟ وأنّ تصوّر اعتناقه للإسلام وما أحاط بهذا الاعتناق من ظروف؟ وأن تصوّر حبّه للجهاد وما جلبه إليه هذا الحبّ من نقد لاذع؟

وأيّ لغة أخرى غير لغة طه حسين تقدر أن ترسم كيف استحال قلب عمر باعتناقه الاسلام من طور إلى طور فإذا هو قد غدا فجأة قلبا رقيقا رفيقا رحيما؟ وأن تصوّر أخيرا هذا الرجل الذي ظلّ مصدر هيبة ورهبة وفي الآن نفسه موضع اهتمام الجميع عظيمهم وصغيرهم؟ كان عمر شديدا على نفسه كل الشدّة، جريئا في صراحته، صارما لا يعرف التّساهل في ما قد يمسّ صفاء العقيدة من قريب أو من بعيد، مراجعا النبيّ في هذه المبادرة أو تلك ممّا لا يرى هو فيها نفعا، مخاصما أبا بكر مرة ومرّة فيما يرى من رأي ولكن يدع له القول الفصل.

وكذلك صوّره لنا أبيًا ينوء بحمل أنفته، قائما اللّيل من جرّائها، مدركا شأن الفقير والمسكين، طاعما كالمحتاج، وإن جار خاصة على صحّته، زاهدا أشدّ زهد ، مقاسما ضحايا الجدب في جوعهم وفي عطشهم، هذا الجدب الذي اجتاح على عهده جزيرة العرب طيلة الأشهر التسعة من عام الرمادة، محرّما على نفسه لين العيش ، كارها أيّ ترويح عنها. تلك هي خصال عمر بن الخطاب التي دفعته إلى عزل «سيف الإسلام» خالد بن الوليد مخالفا بذلك سياسة سلفه أبي بكر فيما يتعلّق بغزو الشام* . إنّ عمر ذاته وقع بسبب من الغزوات التي قادها في حرج كبير، وكان في اضطراب متّصل لا يكفّ عن مساءلة نفسه ليطمئنّ قلبه إلى أنّه لم يتنكّب سبيل الحق، وإلى أنّ ما أتاه من فعل أو ما ينتوي فعله هو حقّا من جوهر الإسلام ومن شأنه صيانة وحدته.

كلّ هذا جعل عمر يبلغ غاية الصرامة في المحافظة على المساواة مرجعا إلى العدل سالف قيمته وإن تعارض ذلك أحيانا مع مفهوم البرّ وعاطفة الأبوّة، معزّزا بذلك حقّ كلّ فرد الحقّ الكامل في حياة كريمة هنيئة. ولئن كان عمر حريصا على أن تنفذ أوامره إنفاذا تامّا فإنّ ذلك لم يكن يمنعه أبدا من العناية بالشكوى ترفع إليه، مهما قلّ شأنها، ومن تلبيتها قدر الطاقة.

---

* كان عمر بن الخطاب راجع أبا بكر في أمر خالد بن الوليد وأشار عليه بعزله حين قتل خلال حروب الردّة مالك بن نويرة وتزوّج امرأته أمّ تميم . فلم يفعل أبو بكر. فلمّا استُخلِف عمر بادر فعزل خالدا عن إمارة الجيش بالشام وجعل هذه الإمارة لأبي عبيدة.

وكما كان عمر قائدا سياسيّا نسيج وحده كذلك كان عمر زعيما روحيّا أتاح للمؤمنين فرصة إعلاء دينهم وممارسة شعائرهم علنا، وعلمّهم كيف يلائمون بين أوامر الشريعة ومقتضيات الحياة اليوميّة، ولقّنهم بأسوة حسنة منه الامتثال لتعاليم القرآن امتثالا، في الآن ذاته، مطلقا راشدا.

لقد أقام عمر الحدّ على كلّ شارب خمر بجلده ثمانين ولم يتوان في إقامته على ابنه * حتّى هلك. وما من شيء ـ مهما كان ـ بقادر على أن يثنيه عن المشروع الذي نهض له لا يرقبه فيه إلاّ الحيّ القيوم.

عاش عمر ومات لا يخشى غير الله، في سرّه وعلنه، وكذلك فيما بين نفسه وبين الناس. ما أروعها صورة، صورة أمير المؤمنين الذي قبل اللقب واضطلع بالمسؤوليّة.

إنّ كتاب «الشيخان» في مسار طه حسين الفكري ـ وكم أودّ أن أقول المسار الروحي والأخلاقيّ أيضا ـ أنبه مضمونا من أن يعدّ مجرّد مرحلة. إنّه شهادة على إعجاب طه حسين العميق بهذين الرائدين، أي هذين الركنين من أركان الاسلام، ذلك أن طه حسين، في هذا الكتاب، لم يكن مؤرّخا فحسب، ولكنّه كان فيلسوفا للتّاريخ وعالما نفسانيّا يسبر أغواره. وشأن طه حسين هنا هو شأن باسكال (Pascal) الذي يرى: «إنّ الأحداث بمثابة المعَلّمين يهبنا الله إيّاهم من عنده»، إنّ هؤلاء المعلّمين، الذين لا نتوقّع

* يقصد الكاتبُ ابنَ عمر الأوسط عبد الرحمن.

لقاءهم إلاّ لماما، يصادفهم طه حسين في الطريق، فيحتفي بهم في هذا الكتاب، سعيدا، ويسائلهم في إكبار، ويأتمننا في حماسة على تعاليمهم*.

* * *

علينا أن نرقي مدارج الزمن صعدا لنلقى طه حسين وهو في ما بين العشرين والخامسة والعشرين من عمره، يوم سلك سبيلا أخرى في طلب المعرفة، قادته من الجامعة الأهليّة (الجامعة المصريّة القديمة) إلى جامعة مونبلييه (Montpellier) ثمّ جامعة السوربون، وفي نهاية المطاف إلى جامعة القاهرة.

كان هذا المسلك المعرفيّ الجديد أطول. وكان أكثر نفعا وأشدّ خصبا من سابقه، وإن لم يخل من منعرجات لم تكن في الحسبان، وإن فيه من المواضع ما في خارطة بلد مّا، وإن تشعّبت مفترقاته تشعّبا فجائيا. هنالك، حيث لا يأمن المرء الضياع فيه إن هو ـ شأني أنا ـ ليس له من حسن التوجّه إلاّ القليل. هو سبيل، لحسن الحظ، لا يلبث سالكها أن يتعرّف طريقه إذا ما هو وضع ثقته في من يقوده، وإذا هو أدرك تمام الإدراك الموعد الذي تقوده إليه

---

* للتوسع في مسألة الكتابة التاريخية عند طه حسين راجع :

ـ عُمَر مُقداد الجمني : *طه حسين مؤرّخا*، جزآن، تونس ـ قرطاج : منشورات المجمع التونسي للعلوم والآدب والفنون «بيت الحكمة» 1993، 745 ص.

ـ الحبيب الجنحاني : من *قضايا الفكر*، تونس : الشركة التونسية للتوزيع، 1975/ فصل : «طه حسين المؤرّخ»، ص 151 ـ 187.

ـ محمود إسماعيل : *قضايا في التاريخ الإسلامي*، ط. 2، الدار البيضاء : دار الثقافة، 1981/ فصل : «طه حسين مؤرّخ ضد الإسلام»، ص 169 ـ 188.

ـ عز الدين إسماعيل: «فكرة التاريخ عند طه حسين»، *الهلال* (القاهرة)، جانفي 1973.

قدماه. فحـــين افتتحت الجامعة الأهـلـيّة في الأشهر الأخيرة مـن سنة 1908 وراحت تقـدّم تعليما لـم يكن لمصر به عهد من قبل لـم ينقطع طه حسين عن متابعة الدروس التقـلـيـديّة التي كان يتلـقّاهـا بالأزهر، بل ظلّ يحضرها في الصباح، ويحضر في المساء دروس الأدب والتاريخ والجغرافية وفقه اللغة والفلسفة وسائر الـمـعـارف التي كان يحاضر فيها أساتذة مصريون وآخرون أجانب أمام طلابهم.

أمّا القطيعة، إذا لم يكن في اللفظ سرف أو سوء استعمال، فلقد جاءت من شيوخه في الأزهـر الذين أسقطوه في امتحان العالـمـيّة بسبب فكره الذي تحرّر فأسرف في التحرّر، ومارس النقد فأسرف في مراسه.

ولكنّ هذه القطيعة لم تصبح أمرا مقضيا إلاّ في شهر ماي من سنة 1914 ، حين تقـدّم طه حسين إلى الجامعة الأهـلـيّة برسالته لنيـل درجة الدكتورا في الأدب بعد أن قضى خمس سنوات يحصّل العلم في ربوعها. وبذلك كان طه حسين أوّل مترشّح يظفر بهذه الدّرجة، وكان موضوع الرسالة أبا العلاء المعرّي. وكذا فتح طه حسـين السبيل لمن جاء بعـده من الجامعيين. وما هـي إلاّ سنوات حتى تولّى طه حسين التدريس ، فكـان لهؤلاء مرشدا ينصحهم ويغمرهـم بـكـلّ ألوان التشجيع ويتولّى الإشراف على أبحاث جماعة غير قليلة منهم توجيها ومناقشة وتكريما.

أمّا الكتب التي وسمت هذا المسار والتي يمكن أن نجمعها تحت عبارة موافقة هي النقد الأدبي فـإنّها دون شكّ تمـثّل أهمّ إنتاج طه حسين .

فلقد ظفر المعرّي من عنايته بكتابين اثنين هما *«صوت أبي العلاء»* و*«مع أبي العلاء في سجنه»* عدا الرسالة التي ناقشها عنه سنة 1914 وعدا الشواهد الوافرةالتي استمدّها طه حسين من آثار أبي العلاء المختلفة ليدعم بها أكثر من بحث له. لقد أنجز أكثر كتبه صفاء في مستهلّ حياته العلميّة الطويلة على درب البحث، من وحي أبي العلاء. لم هذا الخيار ؟ وما سرّ هذا الايثار الدّائم ؟

لا ريب في أنّ مبعث ذلك هو ما في شعر هذا الشاعر الضرير وما في نثره من قيمة، ولكنّه يرجع أيضا إلى عامل آخر أكثر عمقا هو ما اتّصف به هذا الرجل من جليل الخصال صار بها قدوة ومثالا : التقشّف والشهامة و [ضبط النفس] ومجاهدة الأهواء والكرم والتعفف، وفضلا عن ذلك كلّه رأفة بالفقراء والمستضعفين والمعوزين إزاء ثنائيّة المأساة : مأساة الوجود ومأساة حياتهم.

وعلّة أخرى، فكريّة صرف، تنسج بين الكاتب المدروس والكاتب الذي ينهض بدراسته خيوط صلة خفيّة، تكاد تأتي على كلّ تحليل، هي تلك التي ألمع إليها طه حسين في الصفحة الرابعة والعشرين بعد المائة من رسالته عن أبي العلاء حين قال :

« ولقد قدّمنا أنّ أبا العلاء قد كان شديد الذّكاء، دقيق الملاحظة فما كان يسمع كلمة أو يحسّ حركة أو يعرف حدوث حادثة ونزول نازلة إلاّ بحث عن سرّها واستقصى مصدرها وغايتها» * .

---

* طه حسين : تجديد ذكرى أبي *العلاء المعرّي*، المجلّد العاشر من المجموعة الكاملة، ط. 2 ، بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1983 ، ص 167 .

لنواصل الآن هذا الاستقصاء السريع، ولنسجّل دون إطالة [العناوين الآتية] : «*في الأدب الجاهلي*» وهو كتاب كان سببا في ألف مشكلة ومشكلة، و «*مع المتنبّي*» وقد ظهر في سفرين اثنين كبيرين، و«*حافظ وشوقي*» وهو دراسة نقديّة عن الرجلين، وكتب أخرى غير هذه : «*لحظات*» و«*ألوان*» و «*فصول في الأدب والنقد*» و«*حديث الأربعاء*» وهو في ثلاثة أجزاء و «*من حديث الشعر والنثر*» و«*خصام ونقد*» إلى غير ذلك من الكتب الجامعة لمئات من نصوص المحاضرات والدّروس ومن الفصول التي كتبها للصحف والمجلات المتخصّصة.

ولا أظنّ أنّه من الغلوّ في شيء إذا نحن قلنا إنّه ما من نظريّة أو حركة أو مدرسة أدبيّة، وأنّه ما من كاتب من القدماء أو من المحدثين، وأنّه ما من أثر من الآثار الجليلة الذكر إلاّ كان موضع عناية طه حسين، وإلاّ نزّله صاحبه منزلته التي هو بها خليق في واحد من تلك الكتب التي قدّمنا الحديث عنها.

علم وثقافة، توثيق وتدقيق انطلاقا من أمّهات المصادر، قدرة فائقة على العرض والاحاطة مع عناية بالإبلاغ، وفهم سريع للنصوص، وحيدة إزاء مضمونها، تلك هي المظاهر المشتركة لجميع دراساته التي لا ينقطع عن مراجعة مناهجها. ولقد كتب في *خصام ونقد*» قائلا :

« وأرجو (. . .) أن نردّ إلى الأدب شبابه القارح فإنّ الأدب الذي يفقد شبابه لا خير فيه * .

* طه حسين : *خصام ونقد* ، المجلّد الحادي عشر من المجموعة الكاملة، ط.2 ، بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1983، ص 534 .

ولنواصل السعي، ولنتذكّر إحدى خصاله الثمينة بذلك نعني عداءه المتّصل القاسي للسهولة والملق. فقد كان لهما خصما لدودا وكان عليهما حربا متّصلة. ولقد كتب في مؤلفه المذكور آنفا يقول:

«وكان توخّي إرضاء الملوك في العصور القديمة مفسدا للأدب وإرضاء الجماهير في العصور الحديثة أشدّ له إفسادا» *.

فإذا لقي كاتبا من الكتّاب أو عالج أثرا من الآثار أو اتجه بحديثه إلى قارئ من قرّائه كان كلّ ذلك عنده في ظلّ احترام قوامه حريّة مطلقة. وفي ضوء هذا السلوك كانت سيرة طه حسين مؤرّخا للأدب وناقدا.

* * *

إنّ المسار الثالث، وهو الأخير من المسارات الفكريّةالتي رأيت أن أقف عليها هذا الحديث يمكن أن نصدّره بعنوان الرواية التي ألّفها طه حسين وترجمها إلى الفرنسيّة ابناه أمينة ومؤنس: *«أديب أو المغامرة الغربية» (Adib ou l'Aventure occidentale)*. إنّ الأمر متعلّق فعلا بمغامرة ثرة النتائج إنسانيّا وثقافيّا في آن.

إنّ الحوار (إن جاز لي أن أستعمل لفظا استعاد شيئا من عنفوانه) بين الغرب (وفرنسا على الخصوص) والعالم العربي موغل في القدم. ولكنّ هذا الحوار، وهو حقيقة واقعة لا ريب فيها على صعيد

* م. ن.، ص 543.

المؤسّسات والعلاقات الدّولـيّة، يظلّ على صعيد الفكر والوجدان ينتظر ظهور مثقف أصيل يـقـدّر أبعاد هذا الحوار وينقطع له حـتّى يصون كيانه ويوثّق عراه. إنّ الصدفة قد تحسن الصنع أحيانا. فقد شاءت أن يكون الرجل الذي تخـيّرته العناية الإلـهـيّة لينهض بهـذه الرسالة هو طه حسين، نـعـم، إنّها الصدفة لا غير. فالحـقّ أنّ لا انتماءه الاجتماعي، ولا بيئته العائلـيّة التي أظلته قبل زواجـه، ولا تعلّمه الأوّل في الكـتّاب، ولا سنوات التعلّم في الأزهر، لا شيء من هذا كلّه كان ينبئ بأنّ طه حسين، بدءا من اليوم الرابع عشر من شهر نوفبمر 1914 ، وهو تاريخ سفره أوّل مرّة، سينهض بدور رجل الاتصال بين فرنسا وبلدنا. ولكن علـيـنـا ألاّ نبالغ في تقدير فعـل الصدفة التي دفعته إلى هذا الـتـوجّه الجديد. ولنرجع ، فـي هـذا العرض، إلى الوثيقة الترجذاتيّة التي لا غنى عنها، وبها نعني الجزء الثالث من كتاب *«الأيّـام»*.

نشأ في دخيلة طه حسين خلال الفترة الممتدة بين الإخفاق المدبّر ضدّه في امتحان العالمـيّة وإحرازه درجة الدكتورا سنـة 1914 نضج غامض المعالم. هنالك، في أعمق أعماق سريرته، تحقق المسـار من الظلمة الى النور، ومن المعارف المكبّلة إلى المعرفة المحرّرة، ومن قيود الحرف إلى فسحة الفكر.

أحرز طه حسين هذا الانتصار بفضل مثابرته وصبره. ولكنّه كان يحسّ أن هذا الانتصار ليس سوى بداية، وأنه لن يبلغ النهاية إلاّ إذا واصل الفتى دراسته في فرنسـا. ذلـك أنّ رجلا مثل طه حسيـن لا

يرضى الوقوف في منتصف الطريق، كما لا يرضى أن تصدّه عن السير الصعاب. وإذ هو يغالبها فيغلبها بإصرار فوق طاقة الانسان وإذا هو يرحل الى البلاد التي سيحقق فيها حلمه.

إني لا أفصل الكلام هنا للحديث عن هذا الطور الذي عاشه طه حسين طالبا في مونبلييه ولا في باريس. وحسبي أن أذكّر بالدرجات العلميّة التي أحرزها هناك: ليسانس في الآداب على الرّغم من تضمّنها امتحانا في مادّة اللاتينيّة، ودبلوم الدراسات العليا في التّاريخ، ودكتورا في موضوع *«فلسفة ابن خلدون الاجتماعيّة»*.

ولكنّ الدرجات العلميّة لا قيمة لها تحسب إذا هي لم تكن تتويجا لمنهج فكري يؤمن أنّ المعرفة بحر لا ساحل له، وأنّ العلم، كالانسانيّة، في تجدّد متّصل، وأنّ مدرسة الحياة أشدّ صرامة من المعاهد العليا، فهي لا تمنح شهادة على الرغم من كونها تصيب الانسان بمحن شتّى، وأنّ لا راحة في الأرض لمن يعذّبه التوق إلى الكمال.

إنّ ما سأقوله هنا عن هذا المسار ليس سوى محاولة تقريبيّة. فعلينا إن رمنا الإتقان أن نستكشف أسرار آثاره الكثيرة المتنوّعة، وأن نلتقط فيها التفاصيل والإشارات، وأن ننظر فيها من وجهات متنوّعة فنثير بذلك ألف مشكل ومشكل.

لذلك سأغفل الحديث عن حضور فرنسا في روايات طه حسين شأن *«أديب»* و*«الحب الضائع»* وفي مؤلّفات أخرى مثل *«في الصيف»*

و *«من بعيد»*. ومع ذلك فالرأي عندي أنّ حضور فرنسا لا ينحصر في الأجزاء الثلاثة من كتاب *«صوت باريس»* حيث جمع المؤلّف الفصول التي تناول فيها بالتلخيص والتعريف والمناقشة عددا من القصص التمثيلة الفرنسيّة، أو المترجمة الى الفرنسيّة وقد أتيح له أن يشهد عروضها أو يقرأ نصوصها في الكتب أو في هذا العدد أو ذاك من مجلّة *« الإلّستراسيون» (Illustration)*، وكذلك فإنّه من الضروري، في هذا المجال أن نعمد إلى نصّ الجزأين المكوّنين لكتاب آخر لا يوحي عنوانه بما يوحي به عنوان كتاب *«صوت باريس»*، أقصد كتاب *«لحظات»**. وينبغي أخيرا أن ننظر في كتابه *«فصول في الأدب والنقد»* إن نحن أردنا أن نعرف رأي طه حسين في قصّة موليير (Molière) التمثيليّة *«ارتجال فرساي» (L'Impromtu de Versailles)* وقصّة جيرودو (J.Giraudoux) التمثيلية

* أصدر طه حسين كتاب *«لحظات»* في جزأين عن دار المعارف بمصر سنة 1942. ويضمّ الجزء الأوّل فصولا كتبها من جانفي 1923 إلى فيفري 1924، ويضمّ الجزء الثاني فصولا مكتوبة من فيفري 1924 إلى ماي 1924. ثم أصدر كتاب *«صوت باريس»* في جزأين عن دار المعارف بمصر سنة 1943. ويضمّ الجزء الأوّل فصولا كتبت في الفترة ما بين ماي 1924 إلى ديسمبر 1924 ، ويضمّ الجزء الثاني فصولا كتبت بين جانفي 1925 وجويلية 1927 . واضح أنّ كتاب *«صوت باريس »* يكمّل كتاب *«لحظات»* مع الملاحظة أنّ فصول الكتابين نشرت قبل جمعها في مجلات *«السياسة»* و *«الحديث»* و*«الهلال»*.

وكان طه حسين نشر في السياق ذاته كتابا آخر سنة 1924 بعنوان : *«فرانسوا دي كوريل وآخرون : قصص تمثيليّة لجماعة من أشهر الكتّاب الفرنسيين»*.

«ارتجال باريس» *(L'Impromptu de Paris)* * . وقصّة جيرودو التمثيليّة الأخرى «بين بين» *(Intermezzo)* ** .

ولكن عناية طه حسين لم تكن مقصورة على المسرح الفرنسي، دون سواه . فلقد أتيح لقرّاء مجلتي «*الثقافة*» و «*الكاتب المصري*» أن يطالعوا أيّام صدورهما الفصول الثريّة التي دبّجها طه حسين في ألوان مختلفة من الموضوعات تكشف عن سعة اطّلاعه. فقد تحدّث عن كتاب «*السلطان الكامل*» *(Pleins pouvoirs)* لجان جيرودو. *** «*خيانة المثقفين*» *(La Trahison des clercs)* لجوليان بندا *(Julien Benda)* ****. و«*الدفاع عن الأدب*» *(Défense de la littérature)* لجورج دي هامل (Georges Duhamel) . و«*نحن الفرنسيون*» *(Nous autres Français)* لجورج برنانوس (Georges Bernanos) *****. وكان طه حسين بصدد استعراض تاريخ المجمع اللغوي الفرنسي ****** إذ هو ينتقل دون تمهيد، وقد انتهز فرصة سانحة، إلى الحديث عن الأسبوع الذي قضاه جول رومان (Jules Romain)

---

* راجع : *فصول في الأدب والنقد*، المجلد الخامس في المجموعة الكاملة، بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1982 ، فصل «*قصّتان !...*» ص 466 ـ 473 .

** راجع : *فصول في الأدب والنقد*، فصل بعنوان «*بين بين*»، ص 492 ـ 503.

*** راجع م.ن.، فصل بعنوان «السلطان الكامل»، ص 485 ـ 491 .

**** طه حسين : م.ن.، فصل «*ساعة*» ، ص 504 ـ 512 .

***** م.ن.، ص.ن.

****** م.ن.، فصل «*قصّة المجمع اللّغوي*» ، ص 513 ـ 520 .

في القاهرة حيث ألقى هذا الكاتب محاضرتين اثنتين واتصل بالمثقفين المصريين * .

واستلهم طه حسين من قصص فولتير(Voltaire) دراسته عن «صور من المرأة في قصص فولتير ** . إلاّ أن مؤلّف *كانديد (Candide)* لم يشغله عن الآنسة دي ليسبيناس (Mademoiselle De Lespinasse) ***، فخصّها بدراسة في فصل *«الساحرة المسحورة»* ولا عن مدام دي ديفان (Madame Du Deffand) في فصل بعنوان *«الأمل اليائس»* ****، لا ولا عن عشق أوغست كومت (Auguste Comte) المأساوي لكلوتيلد دي ڤو (Clotilde De Vaux) وما لقيه من خيبة ومرارة في سبيلها وذلك في فصل بعنوان *«قصّة فيلسوف عاشق»* ***** .

وكان كاتبنا حريصا على أن يقيم موازنة بين كاتبين اثنين ، أحدهما من القدماء مسلم العقيدة هو ابن حزم الأندلسي، والآخر من المحدثين نصراني الديانة هو ستندال (Stendhal)، تناولا موضوعا واحدا رغم تباعد العصرين اللّذين عاشا فيهما ورغم اختلاف السنّة

---

* م . ن . ، فصل *«أسبوع جول رومان»*، ص 521 ـ 527 .

** طه حسين : *«ألوان»*، المجلد السادس من المجموعة الكاملة، بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1981، فصل *«صور من المرأة في قصص فولتير»*، والقصص التي كانت محور الدّرس هي : *«أميرة بابل»* *(La Princesse de Babel)* *كانديد (Candide)*، *زاديج (Zadig)*، *البريء (L'Ingénu)*. *الدنيا على علاّتها(Le Monde comme il va)* .

*** م.ن. ، فصل *«الساحرة المسحورة»*، ص 501 ـ 519 .

**** م . ن . ، فصل *«الأمل اليائس»* ، ص 520 ـ 529 .

***** م.ن. ، فصل *«قصّة فيلسوف عاشق»*، ص 530 ـ 545 .

الثقافيّة التي طبعت عصر كلّ منهما، وهذا الموضوع هو الحبّ، وقد عالجه ابن حزم في كتاب *«طوق الحمامة»* على حين عالجه ستندال في كتابه *«في الحب»* (*De l'Amour*) *.

وقد يحدث أن يتخطّى طه حسين حدود المأساة الفرديّة في حياة كاتب من الكتّاب، أو في أثر من الآثار كما هو الشأن في الأمثلة التي وقفنا عندها دون غيرها على سبيل التّذكير . ومن هذا القبيل ما نجده في رسالة ردّ بها على الآنسة ميّ، وفيها انتصب للغرب ضدّ ما كان يتّهم به من ماديّة وتكالب على المنافع المالية ومبديا اختلافه مع من يرى هذا الرّأي** .

ويحدث أحيانا أخرى أن ترتفع لهجة النقاش في مواضع أخرى. أثار جان بول سارتر(J.-P.Sartre) مسألة الالتزام في الأدب، فإذا بطه حسين يهبّ لمعالجة هذه المسألة في فصل بعنوان *«الأدب بين الاتّصال والانفصال»*. وهو لا يكتفي بمعالجة هذه المسألة في ضوء الظروف الرّاهنة بل يتتبّعها أيضا عبر تاريخ الآداب العالميّة *** .

وكأنّ طه حسين خشي ألاّ يكون مسّ جوهر المسألة، فإذا به قد عاد إلى الموضوع ثانية، لتجلية موقفه. وإذا به يعرض في فصلين

---

* م،ن. ، فصل *«في الحبّ»*، ص 482 ـ 500 .

** طه حسين : *أحاديث* ، المجلّد الثاني عشر من المجموعة الكاملة، ط. ثانية، بيروت : دار الكتاب اللّبناني، 1983 ، فصل *«كتاب إلى الآنسة ميّ»* ص 730 ـ 737 .

*** طه حسين : *ألوان* ، فصل *«الأدب بين الاتّصال والانفصال»*، ص 570 ـ 587 .

ضمّنهما كتاب *«ألوان»* ملاحظاته حول دراسة جان بول سارتر *«ما الأدب ؟»* *(Qu'est ce que la Littérature ?)* . فيبيّن إلى أيّ مدى كانت مؤلّفات سارتر الرّوائيّة والمسرحيّة تستجيب لوجهات نظره فيلسوفا ومنظّرا للوجوديّة * . وقد لاحظ طه حسين أن ليس يفصل بين هذه الاعتبارات وبين مفهوم العبث سوى خطوة. ومن هنا نشأ الفصل الثاني الذي خصّصه طه حسين لدراسة كتاب «الوباء» (La Peste) الذي ألّفه ألبير كامو(A.Camus) **، فنلفي طه حسين يفضل على هذا الكتاب مسرحيّة «سوء تفاهم» (Malentendu) ومسرحيّة «كاليقولا» (Caligula) .

ولا يذهبنّ بنا الظنّ إلى أنّ الشعر الفرنسي في أعمال طه حسين النقديّة غائب، ويكفي للتأكّد من ذلك أن نقرأ في كتاب *«ألوان»*، التحاليل الرائعة التي خصّ بها شخص بول ڤاليري (Paul Valéry) وأدبه *** . وكان طه قد أعجب بفاليري أشدّ الاعجاب قبل أن يعرفه معرفة شخصيّة. كما يمكن الرجوع إلى درس طه حسين قصيدة فاليري *«المقبرة البحريّة» (Cimetière marin)* **** في كتابه *«فصول في الأدب والنقد»*.

ولنذكر مجالا آخر مختلفا تماما عن الذي ذكّرنا. لقد كان طه حسين شديد الحرص على أن تكون اللّغات الأجنبيّة ممثّلة أحسن

* م.ن. ، فصل *«ملاحظات»*، ص 653 ـ 667 .

** م.ن. ، فصل *«في الأدب الفرنسي : الوباء»* ، ص 733 ـ 747 .

*** م.ن. ، فصل *«بول فاليري»* ، ص 433 ـ 436 .

**** طه حسين: *فصول في الأدب والنقد*، فصل «حول قصيدة» ص 528 ـ 533.

تمثيل في مدارس التعليم الثانوي. ولم يتوان، لمّا كان عميدا لكليّة الآداب بالقاهرة، عن أن ينشئ سنة 1936 شعبة خاصّة تكفل للطلاّب المصريين التعليم ذاته الذي كانت تكفله الكليّات الفرنسيّة لطلاّبها، ولم يتوان كذلك عن مضاعفة عدد البعثات الدّراسيّة وعن التمديد في ملّة التحصيل، وعن تشجيع الطلبة الممنوحين حتّى يقبلوا على موضوعات جيّدة لنيل الدكتورا. فعل ذلك، على ألاّ يستأثر المستفيدون من هذه العناية بعلمهم دون سواهم، بل على أن يقاسموا، بغير حساب أولئك الذي لم يسعفهم الحظ بالعناية، الثروة الفكريّة التي أحرزوها، وذلك بأن ينشطوا للتعليم والتأليف والترجمة. لقد رام طه حسين أن يكون أسوة في ذلك وأن يستنهض أولى العزائم فترجم نصوصا إلى العربيّة منها مسرحيّة *«أندروماك»(Andromaque)* من تأليف راسين (Racine)* . وقصّة *«زاديج» (Zadig)* من تأليف فولتير (Voltaire)** ومسرحيتا *«أوديبوس» (Oedipe)* و *«سيثيوس» (Thésée)* من تأليف أندريه جيد (Gide) *** . وقد نشر كلّ منهما في كتاب، كما ترجم لجيد مسرحية *«بروميثيوس ذو الغلّ المهمل» (Promethée mal enchaîné)* نشرها في عدد من أعداد مجلة *الكاتب المصري*****.

* ظهرت مسرحيّة *«أندروماك»* في القاهرة سنة 1935 .

** ظهرت قصّة *«زاديج أو القدر»* في القاهرة عن دار الكاتب المصري سنة 1947.

*** ظهرت مسرحيّة *«أوديبوس»* و *«ثيسيوس»* تحت عنوان موحّد *«من أبطال الأساطير اليونانيّة»* في القاهرة سنة 1946 عن دار الكاتب المصري.

**** ظهرت مسرحيّة *«بروميثوس ذو الغلّ المهمل»* في القاهرة على صفحات مجلة *الكاتب المصري*، العدد 1 ، سنة 1948 .

ولمّا ذكرنا جيد (A.Gide) فلا بأس بأن نتأمّل المكانة التي خصّه بها طه حسين في مؤلّفاته النقديّة وفي ترجماته وكذلك في أحناء فكره وأعماق قلبه.

فقد ذكر طه حسين أندريه جيد مؤلّف *«الباب الضيّق»* *(La Porte étroite)* في فصل له عن فاليري (Valéry) في كتاب *«ألوان»** . وذكره ثانية في فصل آخر له ضمن الكتاب عينه بعنوان *«جان بول سارتر والسينما»* وذلك في معرض حديثه عن دور جيد في تجديد موضوعي «أوديب (Oedipe) و«فيلو كتيت» (Philoctète) ** . على أنّ ذكر طه حسين لجيد في هذه المواضع لم يكن إلاّ على سبيل الإشارة، ذلك أنّ حسين خصّ جيد باثنتي عشرة صفحة كاملة في كتابه *«فصول في الأدب والنقد»* عبّر فيها عن إعجابه بيوميات جيد *(Journal d'A.Gide)*، وكان ذلك بمناسبة صدورها عن دار النشر ڤاليمار (Gallimard) *** . ونقل طه حسين فضلا عن هذا كلّه إلى العربيّة ترجمة أندريه جيد الفرنسيّة لمسرحيتي أوديبوس(Oedipe) وثيسيوس(Thésée) وقد صدّر هذين النصّين المنشورين في كتاب واحد بنص مطوّل مفيد يقع في ستّ وخمسين صفحة.

ولنضف إلى ما ذكرنا ـ حتّى نستوفي الموضوع حقّه ـ ردّ طه حسين على الرّسالة التي بعث بها أندريه جيد الى نزيه الحكيم مترجم «الباب الضيق» (La Porte étroite) لتكون مقدمة للترجمة العربيّة.

---

* طه حسين : *ألوان*، فصل «بول فاليري»، ص 433 - 447 .

** م. ن. ، فصل «في الأدب الفرنسي : جان بول سارتر والسينما»، ص 715 .

*** طه حسين : *فصول في الأدب والنقد*، فصل : «يوميات أندريه جيد»، (ص 474 ـ 484) .

ولنذكر كذلك المقال الذي نشره جيد في الثاني عشر من أفريل سنة 1947 في ملحق جريدة الفيغارو «الأدبيّ» *(Le Littéraire)* والذي سيسمّى فيما بعد بـ «لوفيغارو الأدبيّ» *(Le Figaro Littéraire)*، وقد جعل له جيد عنوان «لقائي للكاتب العربي طه حسين» *(Ma rencontre avec l'écrivain Taha Hussein)*، وهو الفصل ذاته الذي صدرت به دار ڤاليمار الترجمة الفرنسيّة من كتاب *«الأيّام»* بعد حذف جملة أو جملتين اثنتين منه * .

إنّ المسار الفكري لطه حسين لم يكن حسب اتجاه واحد. وقد أعجب كتاب فرنسيون بطه حسين وبالمؤلّفات التي أتيح لهم أن يطّلعوا عليها، فهبّوا إلى لقائه في المسالك التي ابتدعها. نذكر من هؤلاء هنري مامبري (Henri Mambré) في *«أسبوع في العالم»* *(Une Semaine dans le monde)*، وموريس درويون(Maurice Druon) في *(Paris Presse l'Intransigeant)*، وروبير لاندري(Robert Landry) في *«هذا الصّباح»* *(Ce Matin)*، ورينيه إيتيامبل (René Etiemble) في *«العصور الحديثة»* *(Les Temps Modernes)*، وأندريه روسو (André Rousseau) في «لوفيغارو الأدبي» *(Le Figaro Littéraire)*، وتوماس بودوان(Thomas Baudouin)، وإديث توماس (Edith Thomas)، الخ. . .، وروجيه أرنالدز (Roger Arnaldez) في جريدة *«العالم»* *(Le Monde)* وغيرهم كثير.

* راجع ترجمتنا لهذا الفصل ضمن فصول هذا الكتاب. وحول حضور الثقافة الفرنسية في أدب طه حسين راجع لمزيد التوسّع :

- كمال قلته : *طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية في أدبه*، القاهرة : دار المعارف بمصر، 1973.
- فوزية الصفار : «صورة الفكر الفرنسي في كتاب ألوان لطه حسين». *الحياة الثقافية*، عدد55 س 1990، ص 33 ـ 44.

* * *

إني أربأ بنفسي عن الاستئثار بعنايتكم الودّية وعن الوقوع في كثير من التكرار. لذلك فأنا لا أحدّثكم عن طه حسين الروائي صاحب *«دعاء الكروان»* و*«أديب»* و*«الحبّ الضائع»* و *«شجرة البؤس»* و*«أحلام شهرزاد»* و*«المعذّبون في الأرض»* .

كذلك لا أحدّثكم عن طه حسين المؤرّخ مؤلّف كتاب *«عثمان»* وكتاب *«علي وبنوه»*، ولا أنا بمحدّثكم أيضا عن طه حسين المعجب بالفكر الاغريقي واللاتيني، ومترجم سوفوكليس (Sophocle)، ومؤلّف *«نظام الأثينيين»* *، وصاحب الفصول الرائعة البارعة عن هوميروس (Homère) وسقراط (Socrate) وأفلاطون (Platon) وأرسطو (Aristote) والاسكندر الأكبر (Alexandre Le Grand) ويوليوس قيصر (Jules César)، وهي الفصول التي ضمّها كتابه *«قادة الفكر»* الذي أدرج في سلسلة كتب المطالعة المقرّرة لطلاّب الصفّ الرابع من التعليم الثانوي.

ولست أيضا محدّثكم عن طه حسين المصلح المجدّد للتّعليم وصاحب النظريات التربويّة المعروضة في كتابه *«مستقبل الثقافة في مصر»* بجزأيه.

كلّ هذه الجوانب [من مسيرة طه حسين الفكريّة] إضافة إلى جوانب أخرى تصوّرها كتب له مثل *«من بعيد»* و *«في الصّيف»* و*«رحلة الرّبيع»* و *«مرآة الضّمير الحديث»* وغيرها. . . ستكون ـ لا

* الواقع أنّ *«نظام الأثينيين»* من تأليف أرسطو وطه حسين ترجمه من الفرنسيّة إلى العربية. ولا شكّ أنّها زلّة قلم من مؤلّف الفصل

ريب ـ عندنا وفي غير هذا المقام موضوع تحاليل علميّة ستساهم في فهم فكر طه حسين وفنّه، وكذلك في إدراك حركة شاملة هي حركة النّهضة التي كان طه حسين من أكثرهم جهدا في سبيلـهـا، ومـن أخلصهم وفاء لمبادئها ومن أشدّهم إقناعا بفلسفتها.

تحدّث شارل بـلاّ (Charles Pellat) عن السنـيّ الأولى من القـرن العشرين في الصفحة السّادسة والثمـانين بعـد المائة من دراسته عـن «اللغة والآداب العربيّة»(Langue et littérature arabes) التي نشرتها دار أرمان كولان (Armand Colin) سنة 1952 قال *.

«لقد ظهـر اتّجاهان اثنان مختلفـان كـلّ الاختـلاف: أحدهما محافظ متشبّث بالماضي مخاصم للمحدثين، وآخـر تقدّمي متّجه الى المستقبـل. وإنّ مستقبل الفكـر و«الأدب العربيين لهو رهين التوازن بين الماضي والحاضر» **.

فمن ذا الذي أدرك هذه الحقيقة أفضل ممّا أدركها طـه حسين طوال مسيرته الفكريّة ؟

إنّ طه حسين لم ينكر يوما قيمـة الاتّجاه المحافظ الذي استشعر بواكيره مذ كان في الكـتّاب ثم أظـلّه خلال السنوات الطوال الـتـي قضاها في الأزهر، ولا هو أنكر أصالة هذا الاتّجاه. ولكنّه حين أدار وجهه شطر المستقبل طفق يعيد قراءة الماضي ومعطياته الخـصـبـة قراءة عصريّة باعتبار أنّ تاريخ الماضي، كلّ تاريخ، نزّاع إلى الرّسوخ

* Charles Pellat : *Langue et littérature*, Paris : Librairie Armand Colin, 1952

** الترجمة من عندنا .

والثّبات، وقد سدّ الآفاق أمام ناظري المرء إن هو تشبّث به، بما يصير به عقبة أمام الانتماء لقيم العصر الحاضر. وهو إذ يعيد قراءة الماضي يسعى إلى هذه المصالحة الدقيقة بين معطيات غالبا ما تكون متنافرة، يسعى إليها دون أن يحفل بالعقاب ولا بالمكائد ولا بالمصاعب على اختلاف ألوانها. وكذا لا يحفل بما قد يعترضه ولا بما قد يحصل من سوء فهم ولا بما يلقى من المعارضة.

أليس في هذه المصالحة شرط التواصل بين الناس وقاعدته الأولى؟

كان طه حسين رجلا عميق الوعي، واضح الرؤية، ثاقب النظر، كأنما هو نبيّ، له إيمان تتصدّع له الجبال، وفي قلبه أمل لا يدركه اليأس أبدا.

بهذا كلّه كان طه حسين ذلك المعارض النموذجي الذي يدرك كيف يكون «القبول» أشدّ تفجّرا من «الرفض». لقد قال طه حسين «نعم» لكلّ الأفكار الخلاّقة التي استقاها من مصادر مختلفة، سواء تلقّاها أيّام التحصيل في الجامعة أو اكتسبها من مطالعاته الكثيرة أو استفادها من صلاته بأعلام الفكر في عصره.

هذه الأفكار المخصبة أتاحت له أن يجدّد آراء قديمة لم ينبذها يوما.

حقّا! لقد كان طه حسين صانع نهضة، ولكن من حيث كان مدركا تمام الإدراك أنّ الولادة البيولوجيّة للإنسان لا تعني سوى الفرد وأنّ الذين يستحقّون أن نتّخذهم قدوة لنا وأن نصغي لهم كبشر

هم أولئك الذي آثروا أن يولدوا مـرّة ثانية في ظلّ حياةالفكر. هنـا تكمن المعضلـة، وإنّها لمعضلة يسيرة إلـى حـدّ الفاجعة : فنحـن نخدع أنفسنا ونخدع غيرنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلا من أجـل أن نحيا كيفمـا اتّفق حياة لم نخترها، أو من أجل أن ننحت بـصـادق العزم وخالص الجرأة الحياة التي اخترناها بأنفسنا. ونحن جميـعـا ندرك جليّة اختيار طه حسين، وذلك حين جعل من الحواجز مقافـز، ومن الظلال بيئة موافقة للتأمّل، ومن غياب البصر فصاحة القول .

لقد قلت في مستـهـلّ هذا الحديث أن المسارات الفكـريّة التـي اتخذها طه حسين تستمدّ وحدتها العميقة من شخصيته، هذه الشخصيّة التي هي منطلق السبل التي تحمل الفكر والتعبير إلـى الـلاّمنتهـى، وملتقاها.

وإذا كان قرّاء مؤلّفات طه حسين التي أشرنا إليها آنفا ـ وأظنّ أني أتحدّث هنا عن تجربة خضناها جميعا وإن بدرجات مختلفـة ـ إذا كان هؤلاء القراء ينطلقون محبورين في مسالك طـه حـسـيـن ثـم يعدلون عنها، فـلأنّهم يشعـرون أنّهم وقعوا، منذ الوهلة الأولـى، تحت سلطان صوته الفاتن الساحر بالمعنى الدقيق لهذين اللفظين .

ولا ريب أنّه بمقدورنا أن نستقصي سرّ هذا السحر الذي لا يقهر، وسنكتشفه في صفاء العبـارة ودقّتها، وفي موسيقى الجملة، وفـي مرونة التركيب وفي تهذيب الصور، حتى التكرار في جمله بمثابـة استنفار للعقل والشعور بغية التأمّل. ولا يكون ذلك إلاّ إذا تذكّرنا ـ وبذلك نحسن الاهتداء إلى صميم المشكل ـ أن الأسلوب عند طه

حسين، تماما كما هو الشأن بالنسبة إلى فلوبير (Flaubert) الذي كان طه به معجبا حفيّا هو نمط حياة وتفكير. ولا أتردّد في أن أقول إنّه طريقة في الكينونة.

إنّ هذه المسارات كلّها وهذه المناهج كلّها، قيمتها في ما قدّم طه حسين من عمل، وفي الشخصيّة التي نحتها لنفسه. وهو سيبقى، على مرّ الأيّام، وفيّا لما حقّق من تحوّلات، مصونا على الدّوام من كلّ أذى، وقد بلغ تلك النقطة التي تحدّث عنها كافكا(F.Kafka) في *يومياته*، النقطة التي لا إمكان عندها من الرجوع القهقرى .

كم أودّ في الختام أن تنسيكم كلمات طه حسين الدافئة حديثي المتعثّر، وأن يكون ما قاله طه حسين في الكتاب الذي أصدره مركز دار السلام بعنوان *«ذكرى لويس ماسينيون»(Mémorial)* تخليدا لذكرى هذا المفكّر (Louis Massignon) ما ينطبق عليه. قال طه حسين :

« وأشهد أنّ وفاة ماسينيون لم تزد صورته في نفسي إلاّ وضوحاوجلاء وإشراقا. ولم تزد حبّه في قلبي إلاّ قوّة وعمقا.
وقد كنت ألقى شخص ماسينيون بين حين وحين. فأمّا بعد وفاته فأنا أعيش معه، ألقاه في الليل وألقاه في النهار، وألقاه كلّما فكّرت في أستاذ عظيم وأخ كريم وصديق حميم» * .

---

* *ذكرى لويس ماسينيون* . . . كتاب تذكاري بأقلام مجموعة من المؤلفين، (مشروع مركز دار السلام)، القاهرة : منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقيّة، 1963 ، ص 30 .

ويحمل مقال طه حسين في هذا الكتاب التذكاري عنوان : *«أستاذي وصديقي لويس ماسينيون»*، ص 27-30 .

فهرس أسماء الأعلام

تنـــبـــيه

هذا الفهرس مُرتّب على حروف المعجم العربي، وقد أثبتنا فيه ما ورد من أسماء الأعلام داخل المتن وفي الهامش أيضا.

وتيسييرا على القـارىء رتّبنا أسماء الأعلام العرب القدماء وفقـا لما عُرفوا به، لذا فهي تطلب في الإسم أو الـكُنْية أو الشهرة (مـن لقب أو نَسب أو غيرهما)، فـ :

عمر بن الخطاب يُطلب في : عمر

أمّا بالنسبة إلى المحدثين والمعاصرين من الأعلام العرب فـقـد اعتمدنا اللقب متبـوعًا بفاصلة يليها الإسم الشخصـيّ وفق الطريقة الحديثة، فـ :

علي عبد الرَازِق يُطلب في : عبد الرَازِق، علي

واكتفينا بالنسبة إلى أسماء الأعلام الأجانب القدماء بذكر الإسم الشهير بالحرف العربي متبوعًا بمقابله اللاتيني :

أرسـطـو (Aristote)

وأمّا بالنسبة إلى المحدثين والمعاصرين منهم فـقـد ذكـرنـا أوّلا اللقب متبوعا بفاصلة يليها الإسم الشخصي بالحرف العربي ووضعنا قبالتهما اللقب متبوعا بالإسم أو بمختصره بالحرف اللاتيني :

بلوك، غوستاف (Block, Gustave)

وقد أسقطنا في كل ما تقدم الألقاب العلمية والدينية والعسكرية والتشريفيّة إلا ما كان منها ضروريا للتمييز. ولم نأخذ في اعتبارنا عند الترتيب (أل) التعريف و(أبو) و(ابن) و(بنت) و(أمّ) و(ذو) و(بنو) و(آل) العربية، لا وَ لا (دو) و(دي) و(دلاّ) الأجنبية، وإن ذكرت.

هذا وقد اعتبرنا الحرف المشدّد حرفا واحدا وذلك بالنسبة إلى كل حروف المعجم.

أ

ب

ت

ث

ج

ح

د

ذ

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ڤ

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

فهرس المحتويات

الصفحة